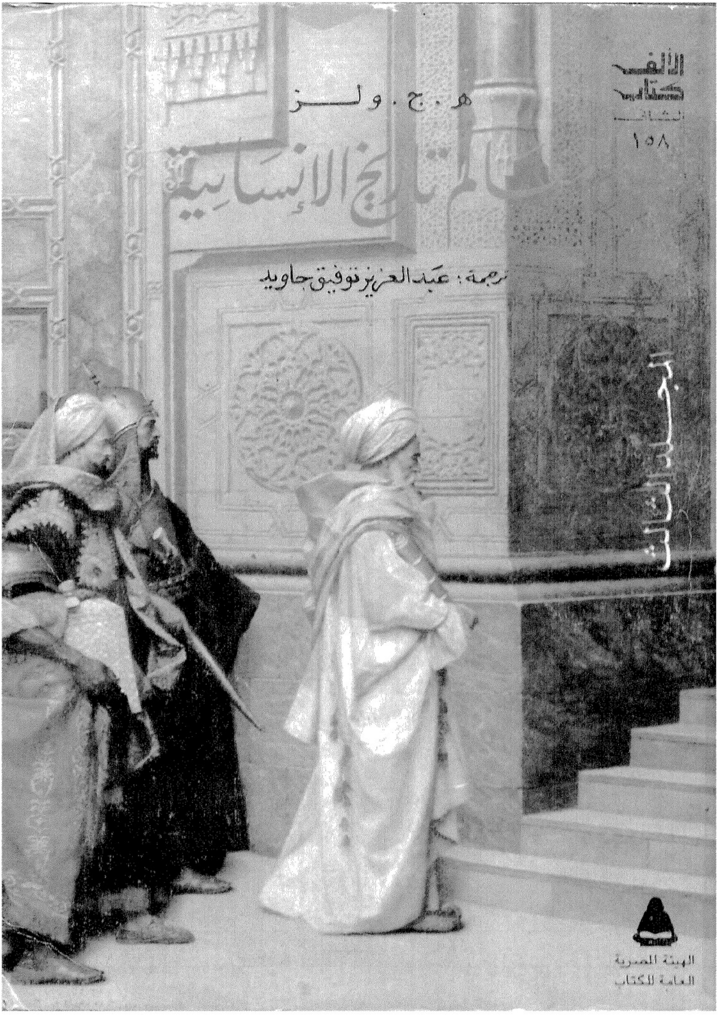
الألف كتاب
الثاني
١٥٨

هـ . ج . ولـــز

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الثالث



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
لمعى المطيعى

مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفنى
محمد قطب

الإخراج الفنى
محسنة عطية

مَعالِمُ تاريخِ الإِنسانيّة

هـ . ج . ولز

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الثالث

في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى

وعصر النهضة

الطبعة الرابعة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being a Plain History of Life and Mankind

By

H. G. WELLS.

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

١ — راجع الطبعة الأولى المرحوم الأستاذ محمد مأمون نجا والأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس ، وراجع المترجم الطبعة الثانية .

٢ — وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة ونقحها على أحدث الطبعات الانجليزية للكتاب ١٩٦٣ التى أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفى الانجليزى المعروف .

محتويات الكتاب

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

صفحة

الفصل الثلاثون : محمد ﷺ والإسلام ... ...

الفصل الحادي والثلاثون : عالم المسيحية والحروب الصليبية ... ...

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية
والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

صفحة

الفصل الثانى والثلاثون: جنكيزخان وخلفاؤه وإمبراطوريتهم العظيمة (عصر الطرق البرية)

الفصل الثالث والثلاثون: نهضة المدنية الغربية؛ الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

فهرس الصور والخرائط

كلمة المترجم

نال الزمان بعد الأغريق من صولة الرومان ، ومالت شمس قيصر ، وولت الأيام العظيمة والأيام دُوَل . . . .

وانقضت خمس عشرة مئة من السنين . . . تلقت فيها البشرية من الدروس ما تلقت ، وقاست من العذاب والآلام ألواناً .

خمس عشرة مئة سنة أو تزيد . . مرت هزالا عجافاً حتى لإخال التاريخ شديد الرغبة فى تخليص ذاكرته من شوائبها ؛ لما حطمت من نظم ، وشتتت من جموع ، ولما قوضت من خُلق ولما اجترحته فى الوحدة العالمية العامة التى كانت الشىء الوحيد الذى أفادته الدنيا من الرومان والتى لا تبرح هدفنا الأعلى الذى نسعد بدلوفنا إليه .

خمس عشرة مئة من السنين . . توقف فيها موكب الحضارة ، وأخذ الناس يتلمسون طريقهم فلا يجدونه ؛ وكأنى بهم يطلبون القديم فلا يستطيعون إليه وصولا ، ويجنحون إلى إصلاح الحاضر والحاضر خرائب وأنقاض ، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه بارقة تحيي نفوسهم . وكان الناس فى قديم العصور فى همجية فآلت بهم الحال إلى نظام ، وها هم أولاء فى حال لا هى بالهمجية ولا هى بالمدنية ، حال من الانتكاس المؤئس الموحش .

خمس عشرة مئة من السنين أو تزيد . . أطبقت فيها عن العالم المعروف سدفة حلولكة ، فقد فيها الإنسان كل أمل فى هذا الوجود ؛ وارتد إلى الكون قانون الغاب الذى قوامه الظفر والناب ، والذى يغتال فيه القوى الضعيف ، وترجح فيه القوة كل حق .

ظلام حالك وفوضى شاملة ، وتفتت لكل شىء إلى جزيئاته بل ذراته الأولى . وذوو الضمائر يسائلون أنفسهم أهكذا نهاية البشرية ؟ أهكذا تتحطم كل الآمال التى عقدها الناس على مستقبل مشرق سعيد ؟

ليل عبوس عصيب رهق حتى تقطعت نياط الآمال وطال ما جثم حتى بلغت النفوس الحناجر ، فما يستطيع أحد أن يفيق مما غشيه من هم وحَزَن .

ولولا أن يد القدر امتدت إلى تلك الحقبة الطويلة المديدة من الليل الأكدر ، فأومضت فيها ثلاث ومضات خطفت الأبصار بادئ الرأى ، ثم استردت الأمور بعض وعيها ، وأخذت تتلمس بعدهن طريقها نحو نور ابتدأ شعاعاً فى دقة الخيط : وما زال يقوى وينبسط حتى أصبح فى القرن العشرين فيضاً منهمراً من باهر الضياء وساطع الإشراق ، — لولا هذا لقضى على المدنية فى غابرها وحاضرها ، ولأديل من الإنسانية إلى أبد الآبدين .

فأما الومضة الأولى التى شق نورها غياهب تلك الظلمة الفاحمة ، فذلك الوليد الذى انتبذت به أمه مكاناً قصياً ، والذى كان كلمة من الله شاءت بها إرادته القدسية ، أن تعيد إلى النفوس شيئاً من الأمل ، وأن تلقى فى روع الإنسانية ألا تقنط من رحمة الله . وإذا هو يُعلِّم القوىّ الرحمة بالضعيف ويدعو إلى التفانى فى خدمة الغير تفانياً يُدْخل الإنسان فى ملكوت السماوات وهو ، بعدُ فى هذه الأرض ، ويجرده من عرض الدنيا ويتوج مفرقه بحب من يحيطون به إذ يمنحهم كل ما تملكه يداه من مال وقوة ونشب .

وكانت الومضة التى أوراها ذلك النبى الرحيم خاطفة وضاءة أطاشت صواب الإنسانية فمدت يديها توارى العينين قبل أن يخطف البرق ضياءهما . وما هى إلا هنيهة حتى كان ستار الظلام قد أسدل من جديد كثيفاً فاحماً مدلهما

وهوت البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد . . . .

ثم دار الزمان دورته ، وآن للعناية أن تلحظ الدنيا برحمة من لدنها ، تعيد إليها شيئاً من الثقة والطمأنينة . وجاءت النفحات القدسية فى البوادى العربية على يد ذلك اليتيم العائل ، الذى آواه ربه وأغنى . إذ يقول له الملَك : « اقرأ » وما هو بقارىء ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتاباً مطهراً ، يدعوهم فيه إلى عبادة الأحد الصمد ، وإلى إخاء شامل ومساواة بين القرشى والحبشى . ويأمرهم بالتسامح والعدل والإحسان ويحضهم على العمل الشريف فى هذه الدنيا والتزود للآخرة بالصلاح

والتقوى . لقد أشرق ضياء الطاهر الصادق ، وهبت لنصرته البوادى وأقبـــل عليــه الناس رجالا وعلى كل ضامر ، وسعدت البشرية هنيهة بالإيمان والمساواة والتضحية فى سبيل الحق والخير .

ثم غلبت على الإنسانية شقوتها ، ففقدت إيمانها بالحق ، وحرمت التعلق بالمُثُل وتجانفت عن كل تضحية .

وانطبق الستار كرة أخرى مرخياً دياجيره ، وران على الناس سبات عميق طال فى الشرق حتى لتحسبه نعاس الأبد .

ثم خفق سراج القدر فى القرون الوسطى بالومضة الثالثة التى ، أرسلت شرارة بارقة اتصلت بهشيم الحيوات الأولى ، ووجدت من المسيحية والإسلام ذخراً لا ينضب له معين ، فأوقدت ناراً بدأت بإحياء العلوم خافتة تسرى ولا ترى ، وانتهت بنهضـــة القرون الوسطى مشبوبة حارة ، حتى ترامت إلى ما ترى حولك من مشاعل وهاجة ونيران فيّاضة الضياء مشرقة السطوع . . . .

تلك هى الومضات الثلاث التى يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية وبشيرها الناصرى الكريم ؛ وإلى الإسلام ورسوله المصطفى الهادى الأمين ، وإلى ذلك النهوض الذى دفع بدولاب المعرفة والحياة فى القرون الوسطى دفعة توثب أدارته إلى ما يحيط بك من حال الشئون فى القرن العشرين .

ولن أزيد القارئ بياناً بالجذل الطروب الذى يستعرض به المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفهن صوى عظمى فى تاريخ الإنسانية وركائز ترتكز عليها فى دلوفها نحو الأمام ولا بالتعقيبات الفلســفية العميقة التى يعقب بها عليها ولا بالنظرات الناقدة الدقيقة والتوجيهات التى مهما يكن رأى بعض الناس فيها فإنها صادرة من قلب مخلص مؤمن بما يدعو إليه .

وبحسب القارئ أن يقلب صفحات الكتاب ليستمتع ويتزكى .

مصر الجديدة فى ١٤ يونيه ١٩٥٠ — عبد العزيز توفيق جاويد

كلمة المترجم للطبعة الثانية

أحمد الله كثيراً إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة . وقد بذلت فى تنقيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطبعات الإنجليزية للكتاب نفس ما بذلت من جهد فى مجلديه الأول والثانى . وأضفت إليه كدأبى فى سالفيه الشروح والفهارس الأبجدية . وبسّطت عبارته لتكون فى متناول كل فهم رغبة منى فى إبلاغ ثقافة المؤلف الرفيعة وعلمه الغزير وبصائره النفاذة إلى كل ذى عقل مستطلع يطلب النور .

مصر الجديدة فى ١٤ مايو ١٩٦١ ع . ث . ج

تصدير الطبعة الثالثة

كان من الطبيعى أن تنفد طبعتا الكتاب الأولى والثانية . ولا غرو فإنه بما حوى من ثقافة عميقة وفلسفة عقلانية ونظرة علمية حديثة ودعوة مخلصة إلى خير البشرية تكاد تتمم الرسالات العليا التى قام بها أفذاذ الرجال ، قد أصبح من الأركان العقلية التى لا يستغنى عنها مثقف فى هذا العصر .

وقد تصادف ، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع ، أن وقعت فى يدى طبعة إنجليزية حديثة جداً نقحها المستر رايموند پوستجيت فضبطه عليها ، وفعلت ذلك أيضاً بالمجلدين الأول والثانى من الطبعة الثالثة . وكذلك نقحت عليها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا .

وقد راجعت ترجمته مراجعة دقيقة . وأعدت النظر فى الأعلام فجاءت مطابقة لما ورد بالكتاب المقدس وغيره من المظان والمراجع وبذا أقدمه إلى القراء راجياً أن ينتفعوا به باعتباره موسوعة ضخمة من العلم والثقافة والتاريخ أتمنى أن يقبل عليها شبابنا إطلاعاً وانتهالا ؟

مصر الجديدة فى أول يناير ١٩٧٢ — ع . ت . جاوير

الكتاب السادس

المسيحية والإسلام

الفصل الثامن والعشرون

قيام المسيحية وسقوط الامبراطورية الغربية

---

١ – اليهودية[1] إبان الحقبة المسيحية

لن يتهيأ لنا فهم خصائص المنسيحية التى عليها الآن أن تلعب دوراً كبيراً فى تاريخنا ، والتى فتحت أعين الناس على نواح جديدة تبشر بإمكان قيام عالم موحد ، — حتى نرجع البصر بضع قرون ونحدثك عن الأحداث التى جرت فى فلسطين وسوريا ، وهما القطران اللذان نشأت فيهما المسيحية . ولقد أسلفنا إليك من قبل أهم الحقائق المتعلقة بأصل الشعب اليهودى وتقاليده ، وتحدثنا عن يهود التشتت (Diaspora) وعما فطرت عليه اليهودية من حيث جوهرها من تشتت وتشرد حتى وهى فى مهد بدايتها ، وعن التطور التدريجى لفكرة إله أحد عادل يحكم فى الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه على نفسه : أن يحفظ الشعب اليهودى ويرفعه مكاناً علياً . والفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً عجيباً من رحابة أفق لاهوتية ووطنية عنصرية حادة ضيقة . وكان

---

(١) أرض أو بلاد يهوديا أو يهودية أواليهودية هى ترجمة للفظة (Judea) الأجنبية . كما ورد فى المجلد الثانى من المعالم . وتسميها الموسوعة العربية الميسرة باسم جوديا . (المترجم)

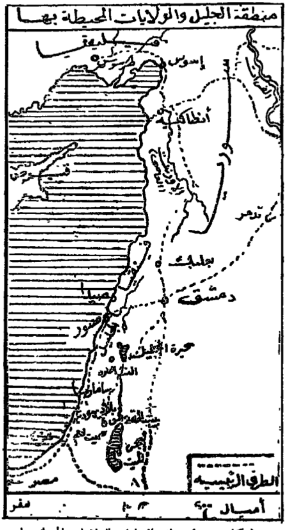
اليهود يترقبون مخلصاً معيناً : مسيحاً يخلص البشرية بطريقة محببة إليهم ، تنطوى على استرجاع ما كان لداود وسليمان من مجد أسطورى ، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام اليهودية الخيّرة والحازمة أيضاً . حتى إذا انحطت القوى السياسية للشعوب السامية ، وإذ أفل نجم قرطاجه من بعد صور وهوتا فى غياهب الظلمات ، وأصبحت أسپانيا ولاية رومانية ، فقد ترعرع ذلك الحلم وشاع . وليس ثمة شك أن الفينيقيين المتناثرين فى أسپانيا وإفريقية وفى كل أرجاء البحر المتوسط ، وهم قوم يتكلمون لغة شديدة القربى بالعبرانية ، ويعيشون محرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحقة ، — قد تحولوا إلى أتباع لدين اليهودية . ذلك أنه مرت فى التاريخ اليهودى أدوار قوية من الدعوة واستمالة الأنصار إلى اليهودية كما تقلبت عليه أدوار أخرى من شامل الغيرة والاعتزال . إذ حدث يوماً أن اليهود قهروا الإدوماين (Idumeans) وأجبروهم أجمعين أن يصبحوا هودا[1] . وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية فى زمان محمد (صلعم) ، وثمة شعب تركى فى جنوب الروسيا كان فى معظمه يهودياً فى القرن التاسع . والواقع أن اليهودية هى المثل الأعلى السياسى المعاد تشكيله لكثير من الشعوب المحطمة وهى فى غالب أمرها سامية الأصل . ولا مراء أن ما لليهود من التقاليد المالية والتجارية إنما يعود إلى الفئة الفينيقية منهم وإلى دخول الآراميين ملة اليهود فى بابل . على أن هذه الائتلافات والاندماجات وألوان التمثل ، التى كانت تقوم تقريباً بكل مدينة من مدن الإمبراطورية الرومانية ، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقاً ؛ قد ترتب عليها أن المجتمعات اليهودية كانت تتجر وتزدهر وتثرى وتتصل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية . ولم يحدث فى يوم من الأيام أن الشطر الرئيسى من الشعب اليهودى كان يقطن اليهودية ، كما أنه لم ينبعث إلى العالم من ذلك القطر أبدا .

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المتهودة كانت تنعم بتسهيلات وفرص عظيمة جداً من الناحيتين المالية والسياسية . فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى فى أيديهم ، وكانوا يستطيعون أن يستثيروا وأن يهدئوا ومابلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حتى آنذاك أوسع منهم انتشاراً ،

---

(١) تاريخ يوسيفوس .

ولكن كان لهم تراث قديم امتاز بتماسك أقوى مما كان لدى الإغريق . فكان الإغريقى عدوا للإغريقى ؛ أما اليهودى فكان لليهودى أخاً ونصيراً . فحيثما حل يهودى ، وجد رجالا لهم عقل مثل عقليته وتقاليد مثل تقاليده . فكان فى وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية والعون القانونى . من أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لهؤلاء القوم حساباً فى كل مكان إما بوصفهم مصدر عون لهم أو منهلا للقروض أو مبعثا للمتاعب . وهكذا حدث أن اليهود ظلوا محتفظين بكيانهم كشعب ، على حين أصبحت « الهلينية » نوراً عاماً يضىء للجنس البشرى كافة .



(شكل ١٢٠) منطقة الجليل والولايات المحيطة بها

ولسنا بمستطيعين أن نسرد هنا على سبيل التفصيل تاريخ ذلك القسم الأصغر من الشعب اليهودى الذى عاش فى بلاد اليهودية (Judea) نفسها . عاد هؤلاء اليهود إلى مركزهم القديم المحفوف بالمخاطر ؛ عادوا يلتمسون السلام مرة ثانية فى وسط طريق كبير مطروق إن صح هذا التعبير . لقد كانوا فى الزمان القديم ينزلون بين سوريا وآشور إلى الشمال ومصر إلى الجنوب . وها هم الآن بين السلوقيين شمالا والبطالمة جنوباً ، فلما أن ذهبت ريح السلوقيين ، هوت على رأسهم قوة الرومان . ونتيجة لهذا كله كان استقلال « بلاد اليهودية » على الدوام أمراً مقيداً غير مستقر . ولابد للقارئ أن يرجع إلى كتابى « الأخبار العتيقة » (Antiquities) و « حروب اليهود » لفلافيوس يوسيفوس — (وهو كاتب مطنب ممل

ذو نزعة وطنية جامحة تبعث فى الرأس الجنون) — إذا هو شاء أن يعرف من تقلب عليهم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعلين ، والمكّابيين والهيروديين ومن شاكلهم . كانت غالبية هؤلاء الحكام من الطراز الشرقى المعتاد ، ماكرين ، غادرين وملطخى الأيدى بالدماء . وقد أخذت منهم أورشليم ثلاث مرات ودمر لهم المعبد مرتين . ولم ينقذ هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد المحو التام إلا معونة يهود الشتت الأقوى نفوذاً ، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح المدينة تيتوس الابن المتبنى للإمبراطور فسبازيان وخليفته ، ودمرها هى والمعبد على السواء بعد حصار يضارع فى العنف والمرارة والهول حصار صور وقرطاجة . وقد فعل تيتوس ذلك محاولا أن يقضى على الشعب اليهودى القضاء المبرم إلا أنه فى الواقع زاد الشعب اليهودى قوة بتدميره النقطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه .

مرت بين العودة من الأسر وبين تدمير أورشليم قرون خمسة انقضت فى حروب واضطرابات أهلية داخلية ، ولكن ظل اليهود أثناءها محتفظين بصفات معينة ثابتة . فاليهودى لم يفتأ يؤمن بوحدانية الإله إيماناً راسخاً ؛ وهو لا يقبل أى إله آخر إلا الإله الواحد الحق . وإنه ليقف فى روما كما يقف فى أورشـــليم رافضاً فى رجولة عبادة أى قيصر رب . كما أنه استمسك جهد طاقته بمواثيقه مع ربه . فلم يكن يسمح بدخول أية تماثيل منحوتة إلى أورشليم ؛ بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من نسور اضطرت أن تبقى خارج المدينة .

وإنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود اتجاهين فكريين متباعدين أثناء تلك المئات الخمس من السنين . فأنت واجد إلى اليمين ، إن جاز لنا مثل هذا التعبير ، فئة اليهود العليا المتشددة ، وهم الفريسيون الذين يستمسكون بعقيدة السلف أبلغ استمساك ويحافظون تماماً حتى على أدق تفاصيل الشريعة ، وهم شديدو الوطنية قويو النزعة الانعزالية . وحدث ذات مرة أن سقطت أورشليم فى يد الملك السلوقى أنطيوخوس الرابع ، لأن استمساكهم بعقيدتهم أبى عليهم أن يدافعوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل . وكذلك ترتب على امتناع اليهود فيما بعد عن بذل أى جهد يوم السبت

لتدمير أدوات الحصار الذى ألقاه بومبى العظيم على أورشليم ، أنه استطاع أن يستولى عليها .

ولكن كان يوجد لقاء هؤلاء اليهود المتشددين ، يهود أخر واسعو الأفق ، هم يهود اليسار ، الذين كانوا يؤمنون بالمذاهب الهلينية ، ويمكن أن يضم إليهم الصدوقيون (Sadducees) — الذين لم يكونوا يعتقدون فى الخلود . وكان هؤلاء اليهود الأخيرون وهم اليهود الواسعو الأفق ، يميلون جميعاً — وإن بدرجات متفاوتة — إلى الامتزاج والاندماج فى الإغريق والشعوب « المهلنة » المحيطة بهم . وكانوا على أتم الأهبة أن يقبلوا فى مذهبهم أتباعاً جدداً ، وبذلك يتقاسمون ربوبية الرب ووعده مع البشرية كافة . بيد أن ما كسبوه من السماحة وسعة الأفق خسروه فى ناحية الاستقامة وحسن السمعة . فهم فى « بلاد اليهودية» يعتبرون العلمانيين المتكالبين على الأمور الدنيوية . ولقد ذكرنا من قبل كيف أن يهود مصر المهلنين فقدوا لغتهم العبرية واضطروا إلى نقل توراتهم إلى الإغريقية .

وظهر فى « بلاد اليهودية » فى أيام طيبريوس قيصر ، معلم عظيم قُدِّر له أن يحرر الإدراك العميق لبر الله ووحدانيته التى لا تقبل تحدياً ولا جدلا ، والتزامات الإنسان المعنوية نحو الله ، وهى التى كانت دعامة لقوة العقيدة اليهودية السلفية ، — يحررها من ذلك التشدد الضيق الاعتزالى الجشع ، الذى كان يخالطها فى الذهن اليهودى على أبلغ صورة خارقة . كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسى) الناصرى ، الذى هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسسها .

٢ — تعاليم يسوع (عيسى) الناصرى

إن الجمهور الذى سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم ، سيكون معظمه من المسيحيين ، وربما يكون فيه بعض قراء متناثرين من اليهود ، والأولون على أقل تقدير ، يعدون يسوع الناصرى شيئاً أعظم كثيراً من مجرد معلم من البشر ، كما يعدون ظهوره فى العالم لا حدثاً طبيعياً فى التاريخ بل شيئاً إعجازياً خارقاً ، يعترض ويغير ما للحياة من ناموس ثابت للتطور يهدف إلى « وعى مشترك وإرادة مشتركة » ويحوله عن سبيله

ـــ الأمر الذى ما برحنا حتى الآن نقفو أثره فى هذا الكتاب . بيد أن هذه المعتقدات على ذيوعها فى أوربا وأمريكا ، ليست مع ذلك معتقدات الناس كافة ولا الغالبية العظمى من الجنس البشرى ، ونحن إنما نكتب هذه « المعالم » فى تاريخ الحياة ، مجانبين بأقصى مستطاعنا كل ما من شأنه أن يثير منازعة أو جدلا . كما أننا نحاول أن نفترض ونحن نكتب أن من سيقرأون هذا الكتاب من الهندوك أو المسلمين أو البوذيين يعدلون فى عددهم من يقرأونه من الأمريكيين والأوربيين الغربيين . لذلك سنستمسك بالحقائق الظاهرة استمساكاً دقيقاً ونجانب ـــ دون أية منازعة أو إنكار ـــ كل الشروح اللاهوتية التى فرضت عليها فرضاً .

وسنخبرك بما اعتقده الناس فى يسوع الناصرى ، أما هو فإننا سننظر إليه كما بدا ، أى بوصفه بشراً على نحو ما يفعل المصور تماماً حيث يلتزم حين يصوره إظهاره فى صورة البشر . وسنعالج الوثائق التى تدون أعماله وتعاليمه على أنها وثائق بشرية عادية . فإذا سطع ضياء الألوهية من خلال تلاوتنا لها ، فلن نعينه ولن نحجبه . وهذا هو ما فعلناه آنفاً فى حالة بوذا ، وهو ما سننهجه قريباً مع محمد (صلى الله عليه وسلم) . فليست مهمتنا أن نكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية بل من وجهة التاريخ . وليست عنايتنا موجهة إلى أهمية حياته الروحية واللاهوتية ، بل إلى تأثيراتها على حياة الناس السياسية واليومية .

ويكاد يكون المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن شخصية يسوع (عليه السلام) محصوراً فى الأناجيل الأربعة (Gospels) ، وكلها كانت بالتأكيد موجودة بعد وفاته ببضع عشرات من السنين ، ومن الإشارات إلى حياته فى رسائل (Epistles) الدعاة المسيحيين الأوائل ، ويظن الكثيرون أن الأناجيل الثلاثة الأولى ، متى ومرقص ولوقا ، مستمدة من بعض وثائق أقدم منها ؛ ولكن إنجيل القديس يوحنا يتصف بطابع أخص وأبرز ؛ كما أنه يصطبغ بصبغة لاهوتية ذات طابع هلينى قوى . ويميل النقاد إلى اعتبار إنجيل القديس مرقص أصح ما كتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة . بيد أن الأناجيل الأربعة جميعاً تتفق فى إعطائنا صورة لشخصية واضحة الحدود تماماً . وهى تحمل من الإقتناع بصحتها نفس ذلك الإقتناع للذى تحمله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن بوذا .

وبالرغم مما أضيف إلى القصة من إضافات معجزية وأمور لا تصدق ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول « إن هنا لإنساناً حقاً . إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الخيال والاختراع » .

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطمست وراء تلك الصور الجامدة المتربعة التى عليها وثن البوذية المتأخرة المُذَهَّب ، فكذلك يشعر المرء أن شخص يسوع النحيل المكدود قد أضر به كثيراً ذلك الجو الوهمى وتلك الروح التقليدية اللذان فرضهما على صورته فى الفن المسيحى الحديث تبجيل خاطئ من رسّام تقى قانت . كان يسوع معلماً ذا خصاصة ، يتجول فى « بلاد اليهودية » المتربة اللافحة الشمس ، ويعيش على هبات عرضية من الطعام ؛ ومع ذلك فإنه يصور على الدوام نظيفاً ممشط الشعر مرجّله صقيل الإهاب ، نقى الثياب مستقيم العود ، ومن حوله سكون لا يريم كأنما هو منزلق فى الهواء . وهذا وحده قد جعله وهماً لا يؤمن به الكثير من الناس ، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضافات التحسين والتحلية غير الموفقة التى يضيفها بعض المتبتلين بغباء .

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز . فإن المعجزات المتصلة بمولد يسوع : ذلك النجم العظيم الذى جلب الحكماء من الشرق ليعبدوا الله عاكفين عند مهده بالمِذْوَد ، ومذبحة الأطفال الذكور فى بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنذر ، والهرب إلى مصر ، إنما هى أمور يظنها كلها كثير من الثقات من أمثال تلك المواد المضافة . وهى فى خير أحوالها حوادث لا ضرورة لها للتعاليم ، وهى تسلبها الشيء الكثير مما لها من قوة وسلطان عندما تجرد من مثل تلك الإضافات وكذلك الشأن فى مسألة النسب المتناقضة التى أوردها متى ولوقا ، والتى يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود ، كأنما كان شرفاً ليسوع أو لأى إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه . وإدخال هذه الأنساب أشــد إمعاناً فى الغرابة ومنافرة المعقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابناً ليوسف بتاتاً ، إذ قد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية .

فإذا نحن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات العسيرة ، وجدنا أنفسنا إزاء كائن مكتمل الإنسانية موفور الجد مرهف العاطفة والحساسية ، عرضة للغضب

السريع ، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عميقة : هى أبوة الرب العامة المحبة ومجىء مملكة السماء . وغنى عن البيان أنه كان شخصاً — إن جاز لنا أن نطلق عليه هذا اللفظ العادى — ذا جاذبية شخصية بالغة القوة . فكان يجتذب إليه الأتباع ويملؤهم بالحب والشجاعة . وكان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحضرته ويبرأون مما بهم ، ومع ذلك فإنه كان على الأرجح ذا بنية ضعيفة ، استنتاجاً منا من السرعة التى مات بها من آلام الصلب . وهناك خبر متواتر يقول بأنه أغمى عليه عندما كلف بأن يحمل صليبه إلى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف . وكان يناهز الثلاثين من عمره عندما شرع لأول مرة يعلم الناس . وظل يجوب البلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه ، ثم هبط أورشليم ، واتهم بأنه يحاول أن يقيم مملكة عجيبة فى « بلاد اليهودية » ، وحوكم بهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان بزمان طويل كانت آلامه قد انتهت .

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التى تؤلف المبادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند محدود جداً . إذ لا يوجد فى هذه الكتب كما قد يرى القارئ بنفسه ، ما يدعم ويؤيد كثيراً من تلك المبادئ التى يرى معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عام للخلاص . فإن سندها من الأناجيل غالباً ما يكون سنداً غير مباشر ومعتمداً على الإشارة . ولا بد إذن من تصيد ذلك السند تصيدا وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة . وفيما عـدا بعض فقرات تدور حولها المنازعات ، يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلا إلى يسوع فسّر فيها مبادئ الكفّارة والفداء أو حض فيها أتباعه على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس[1] (Sacrament) (وهى أعباء وظيفة رجال الكهنوت) . وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيما بعد ، العالم المسيحى بأسره . وليس هناك من دليل واضح على أن حواريى المسيح اعتنقوا ذلك المبـدأ . كذلك لا يبرز هو دعواه أنه « المسيح » ولا يضفى على اشتراكه مع الله فى الربوبية أى ثوب بارز ربما أحسسنا أنه لم يكن ليفوته أن يضفيه لو أنه كان يراه أمراً فى الدرجة الأولى من الأهمية . ومن أشـد ما يحير اللب قوله (إنجيل متى : الإصحاح ١٦ — ٢٠) : « حينئذ

---

(١) على أن السيد المسيح عليه السلام : « أخذ خبزا وشكر وكسر وأعطاهم قائلا هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم : اصنعوا هذا لذكرى » (لوقا ٢٢ : ١٩). (المترجم)

أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح» ! فمن العسير أن يفهم الإنسان السر فى هذا المنع(١)، إذا فرضنا أنه كان بعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص .

ثم إن مراعاة طقس السبت اليهودى ، وهو الذى استبدلوا به الأحد الميثرائى(٢) ، ظاهرة هامة عند كثير من النحل المسيحية ، على أن يسوع لم يرعَ السبت متعمداً وقال إنه خلق لأجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان لأجل السبت . وهو لم يفُه بكلمة واحدة عن عبادة أمه مريم فى صورة إيزيس مليكة السماء . كما أن الكثير مما هو من أخص خصائص المسيحية فى العبادة والطقوس لقى منه إغضاءاً تاماً . ولقد بلغ من جرأة الكتّاب المتشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحياً على الإطلاق . ويجب على كل قارئ أن يلجأ إلى مرشديه الدينيين ليستضىء بهديهم فى هذه الثغرات الخارقة فى تعاليمه . ونحن هاهنا ملزمون بأن تذكر تلك الثغرات لما تولد عنها من صعوبات ومنازعات ، كما أننا مضطرون أيضاً ألا نتوسع فيها .

ومما يسترعى الأنظار أيضاً ، تلك الأهمية الهائلة التى يضفيها يسوع على الفكرة التعليمية التى أسماها « مملكة السماء » ، وعدم أهميتها النسبية إجراءات وتعاليم غالب الكنائس المسيحية .

إن هذا المبدأ ، مبدأ مملكة السماء ، الذى كان رأس تعاليم يسوع ، والذى يلعب دوراً ضئيلا جداً فى العقائد المسيحية ، إنما هو ولا مراء من أشد المبادئ الثورية ، التى قدر لها — أبد الدهر كله — أن تحرك الفكر الإنسانى وتغيره . فلا غرو إذن أن عالم ذلك الزمان فاته أن يدرك مغزاها الكامل — وتراجع يائساً مرتاعاً ناكصاً عن أية درجة من الفهم لتحدياتها الهائلة لعادات الجنس البشرى ونظمه الراسخة . ولا عجب أن المسيحى الحديث والتلاميذ الجدد المترددين ينقلبون من فورهم إلى الفكرات المألوفة القديمة : فكرات المعبد والهيكل والآلهة الشرسة ، ومرعيات الاسترضاء والكاهن المتكرس والبركات السحرية . ولم تلبث رعاية القوم لهذه الأمور ، أن انتكست بهم ثانية إلى الحياة القديمة المألوفة الأثيرة ، حياة الأحقاد والأرباح والمنافسة والاستكبار . ذلك أن مبدأ مملكة السماء ، كما يلوح أن يسوع كان يبشر به ، لم يكن ليقل عن طلب جرىء لا هوادة فيه ينادى بإدخال تغيير وتطهير كاملين على حياة جنسنا المناضل ، أى إحداث

(١) كان المنع لحكمة ، لأن الجهر بأنه المسيح كما تقول الدوائر المسيحية المطلعة كان يؤدى إلى إيقاف الصلب ، والصلب وسيلة الخلاص . (المترجم)

(٢) انظر المعالم جـ ٢ ط ٣ ص ٥٤٥ ، ٦٣٣ . (المترجم)

تطهير شامل مطلق فى جوانية الناس وبرانيتهم[1] . وعلى القارئ أن يرجع إلى الأناجيل ملتمساً كل ما تبقى من هذه التعليمة الهائلة . فلسنا هنا بمعنيين إلا بالزلزلة القوية التى أحدثتها فى الفكرات الوطيدة القائمة .

كان اليهود على اقتناع تام بأن الله ، الرب الأوحد للعالم بأسره — رب بر وهدى ، بيد أنهم زعموه كذلك رباً متّجراً ، أتم مع أبيهم أبراهام (إبراهيم) صفقة هم قوامها ، وهى لاجرم صفقة طيبة جداً لهم : هى أن يرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة فى الأرض . ولشد ما كان ارتياعهم وغضبهم عندما شهدوا يسوع يكتسح أمامه كل ما يعتزون به من ضمانات ، إذ يعلّم الناس أن الله ليس من المساومين . وأن ليس هناك شعب مختار ، ولا أحظياء فى ملكوت السماوات . وأن الله هو الأب المحب لكل الأحياء ، وأنه لا يستطيع اختصاص البعض بالرعايات عدم استطاعة الشمس ذلك سواء بسواء . وأن الناس جميعاً إخوة كلهم خاطئ آثم وكلهم أبناء محبوبون لذلك الأب القدوس . وإن يسوع فى ضربه للناس مثَل ذلك السامرى الطيب ، قد ازدرى ذلك الميل الطبيعى الذى تخضع له نفوسنا جميعاً ، والذى ننزع به إلى تمجيد شعبنا نحن وإلى الحط من شأن ما لدى النحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وبر . وإنه فى المثل الذى ضربه عن العمال قد اطّرح تلك الدعوى العنيدة التى يدعيها اليهود بأن لهم ضرباً من حق الرهن الأول على الله جل جلاله . فالله — كما علم السيد المسيح — يخدم على السواء كل أولئك الذين يتلقاهم فى الملكوت . فليس هناك تميز فى معاملته إذ ليس لفضله وطيبته من حدود . وهو فضلاً عن ذلك يطالب الناس جميعاً ببذل أقصى ما فى مستطاعهم — كما يشهد المثل الذى ضربه عن « الوزنة المدفونة » وكما تعززه حادثة فَلْس الأرملة . وليس هناك أية امتيازات ولا خصم فى الأسعار ولا معاذير فى مملكة السماء .

بيد أن يسوع لم يقتصر فقط على ازدراء وطنية اليهود القبلية الحادة وحدها : فإنهم كانوا أيضاً شعباً ذا ولاء عائلى شديد ، وذلك بينما كان يسوع يبتغى أن يكتسح طوفان جارف من حب الله كل العواطف العائلية المتشددة الحافلة بالقيود الضيقة . فلم يكن بد لمملكة السماء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه . ويحدثنا الإنجيل أنه « وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه : فقال له واحد : هوذا أمك

(١) يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصلح جوانيتك يصلح الله برانيتك » . (المترجم)

وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك . فأجاب وقال للقائل له : من هى أمى ومن هم إخوتى ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمى وإخوتى ! ! لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى » ، (إنجيل متى الإصحاح الثانى عشر ٤٦ — ٥٠) .

ولم يقتصر يسوع على كيل الضربات للوطنية ولروابط الولاء العائلى باسم أبوّة الله العامة وأخوّة الجنس البشرى أجمع ، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستنكر كل ما ركب عليه النظام الاقتصادى من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية . فالناس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ؛ وكل ممتلكاتهم تنتمى إلى الملكوت ؛ والحياة الصالحة البرة لكل الناس ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما هى فى خدمة إرادة الله بكل ما لدينا من عدة وبكل ما نملك من كيان . ولطالما شهّر بالثروة الخاصة مرة بعد مرة كما ذم مدخرات الأفراد وعمل الاحتياطات فى حياتهم الخاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثا له ، وسأله أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية . فقال له يسوع لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا ، لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شىء واحد ، إذهب بع كل مالك وأعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى حاملا الصليب . فاغتم على القول ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة

« فنظر يسوع حوله وقال تلاميذه ما أعسر دخول ذوى المال إلى ملكوت الله ! فتحير التلاميذ من كلامه . فاجاب يسوع أيضا وقال لهم يا بنى ، ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله » (إنجيل مرقس . الإصحاح العاشر ١٧ — ٢٥) .

وفضلا عن ذلك فإن يسوع فى نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذى يجمع الناس كلهم ويجعلهم فرداً واحداً فى الله ، كان يضيق صدراً بما فى الديانة الرسمية من بر وصلاح يقوم على المساومة .

وهناك أيضاً جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لقواعد التقوى وحيلة التقى . « واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أورشليم . ولما رأوا بعضا من تلاميذه يأكلون خبزاً بأيد دنسة أى غير مغسولة لاموا . لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ . ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون . وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس وأباريق وآنية نحاس وأسرّة . ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيد غير مغسولة . فأجاب وقال لهم حسنا تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمني بشفتيه ، أما قلبه فمبتعد عني بعيداً . وباطلا يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليدالناس . غسل الأباريق والكؤوس وأموراً أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم » (إنجيل مرقس . الإصحاح السابع ١ — ٩) .

كذلك أيضاً ، نستطيع أن نلحظ عشرات المواضع التى ازدرى فيها تلك الفضيلة الأثيرة لدى المستمسكين بالشكليات ، وأعنى بها رعاية السبت .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجتماعية . فإن من الواضح من عشرات الدلائل ، أن تعاليمه كان لها طابع سياسى من أبسط الأنواع وحقا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم ولكنها موجودة فى قلوب الخلق ، وليست فوق عرش ؛ ولكن يضارع هذا فى الوضوح أنه حيثما أقيمت مملكته وأيا كان المدى الذى تقوم به فى قلوب الخلق ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويحدث له انقلاب ثورى بنفس ذلك المدى بالضبط .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أشياء أخرى من أقواله بسبب صممهم وعمايتهم ، فإن من الواضح أنهم لم يخف عليهم اعتزامه إحداث انقلاب ثورى فى العالم . وبعض الأسئلة التى كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التى أدلى بها ، تمكننا من أن نحدس نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة . فإن نزعته الصريحة فى مهاجمته السياسية تتجلى فى حادثة كحادثة العملة .

« ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسيين والهيروديسيين لكي يصطادوه بكلمة . فلما جاءوا قالوا له ، يا معلم ، نعلم أنك صادق ولا تبالى بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس ، بل بالحق تعلم طريق الله . أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ نعطى أم لا نعطى ؟ فعلم رياءهم وقال لهم : لماذا تجربوننى ؟ إيتونى بدينار لأنظره . فأتوا به . فقال لهم : لمن هــذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا له لقيصر . فأجاب يسوع وقال لهم : إعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (إنجيل مرقس . الإصحاح الثانى عشر ٢٣ — ١٧) . وهى قصة لو نظرنا إليها على ضوء سائر ما علّمه ، لم تبق لقيصر إلا الشىء القليل من نفوس الناس أو مما يمتلكون . .

وإن الجو الذى يتكنف خصومه ومعارضيه وظروف محاكمته وإعدامه ، لتظهر بأجلى بيان أنه كان يلوح لعين معاصريه فى صورة من يقترح صراحة — بل من قد اقترح فعلا صراحة — تغيير الحياة الإنسانية برمتها وصهرها وتوسيع جنباتها . ولكن حتى تلاميذه أنفسهم لم يدركوا المغزى العميق الشامل الذى ينطوى عليه ذلك الاقتراح . إذ كان لا يزال يغشى على عقولهم الحلم اليهودى القديم بملك أى مسيح يقضى على سلطان أسرة هيرودس المهلنين والسيد الأعلى الرومانى ، ويسترجع أمجاد داود الأسطوريه . ولعمرى لقد أغفلوا مادة تعاليمه ، على ما كان بها من وضوح وقصد إلى الغاية ؛ وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طريقته الخفية الفذة للبدء فى المغامرة التى ترفعه آخر الأمر إلى عرش أورشليم . فزعموه مجرد ملك جديد فى سلسلة الملوك التى لا نهاية لها ، ولكن من طراز شــبه سحرى ينطق بتصريحات شبه سحرية عن فضيلة مستحيلة .

« وتقدم إليه يعقوب ويوحنا إبنا زبدى قائلين : يا معلم نريد أن تفعل لنا كل ما طلبنا . فقال لهما : ماذا تريدان أن أفعل لكما ؟ فقالا له : أعطنا أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك فى مجــدك . فقال لهما يسوع لستما تعلمان ما تطلبان . أتستطيعان أن تشربا الكأس التى أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا ؟ فقالا له نستطيع ، فقال لهما يسوع : أما الكأس التى أشربها أنا فتشربانها وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان . وأما الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه

إلا للذين أعِدَّ لهم . ولما سمعوا العشرة ابتدأوا يغتاظون من أجل يعقوب ويوحنا . فدعاهم يسوع وقال لهم أنتم تعلمون أن الذين يُحسَبُونَ رؤساء الأمم يسودونهم وأن عظماءهم يتسلطون عليهم . فلا يكون هكذا فيكم . بل من أراد أن يصير فيكم عظيما يكون لكم خادماً ومن أراد أن يصير فيكم أولا يكون للجميع عبداً . لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليُخدَم بل ليَخدُم . وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (إنجيل مرقس . الإصحاح العاشر ٣٥ – ٤٥) .

كان هذا أسوأ عزاء لأولئك الذين كانوا يبحثون عن جزاء مناسب لخدماتهم ومتاعبهم التى يلاقونها فى اتباعهم إياه . فلم يستطيعوا أن يصدقوا هذا المبدأ الشديد القائل بمملكة قوامها الخـــدمة كانت فى حد ذاتها هى جزاءها العظيم الأوفى . ومع ذلك فإنهم حتى بعد وفاته على الصليب ، استطاعت عقولهم أن تقبل بعد انقشاع ذعرهم الأول ، الانكفاء إلى الاعتقاد بأنه كان مع ذلك ينزع منازع العالم القديم عالم الأبهات والامتيازات . وأنه سوف يبعث حياً من فوره بإحدى عجيبات المعجزات ، ويعود ويقيم عرشه بالأبهة العظيمة والسماحة الفياضة فى أورشليم . لقد ظنوا أن حياته خطة محكمة وأن مماته أحبولة مدبرة .

كان أعظم من آن يصل إليه فهم تلاميذه . وهل يعجب القارئ – بالنظر إلى ما قاله صراحاً – أن يشعر كل الأغنياء والموسرين برعب من أشياء غريبة ، وأن يحسوا بأن عالمهم يميد ويدور من حولهم بسبب تعاليمه ؟ ولعل الكهنة والحكام والأغنياء فهموه أكثر وأحسن مما فهمه أتباعه . ذلك بأنه كان يستخرج دفين مدخراتهم الصغيرة الخاصة التى كونوها من الخدمة فى مجتمعهم ويكشفها للأنظار فى ضوء حياة دينية عامة . كان أشبه شىء بصياد أخلاق رهيب يحفر عن الإنسانية ويخرجها من جحرها الدفىء الذى عاشت فيه حتى ذلك الحين . وتحت أنوار السراج الوهاج لمملكته هذه ، لم يكن يجوز وجود أية ممتلكات ولا امتيازات ولا استكبار ولا أفضلية (أسبقية) . ولعمر الحق ماكان فيها من حافز ولا جزاء إلا المحبة . أفمن العجيب إذن أن انبهر منه القوم وعميت عيونهم فتصايحوا كلهم عليه ؟ بل إن تلاميذه أنفسهم تصايحوا به عندما رفض أن

يعنى أعينهم من ساطع الضياء . أفمن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه لم يكن بين هذا الرجل وبين أنفسهم خيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهانة ؟ أعجيب إذن أن الجنود الرومانيين ، وقد واجههم وأذلهم شيء يعلو على أفهامهم ويهدد كل أنظمتهم ، يلوذون بالضحك الضارى ، ويتوجون هامته بالشوك ويضعون عليه ثوباً أرجوانياً ليتخذوا منه قيصراً سخرياً ؟ ذلك أن أخذهم إياه أخذ الجد ، كان معناه الدخول فى غمار حياة عجيبة رهيبة ، وترك مألوف العادات وضبط هائج الغرائز والدوافع ، ومحاولة درك سعادة لا يصدقها عقل .

أفمن العجيب أنه حتى هذا اليوم ، ما يفتأ هذا الجليلى أكبر مما تتسع له قلوبنا الصغيرة ؟

٣ ـ الديانات العامة الجديدة

ومع هذا فما يجب ملاحظته أنه بينما كانت تعاليم يسوع الحقيقية تضم كثيرا من الأشياء التى لا يستطيع أن يقبلها غنى أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبراطورى أو أى مدنى عادى محترم إلا وألم بطرائق حياته انقلاب هائل يقلبها رأسا على عقب ، فلم يكن منها شيء لا يبادر إلى تقبله بقبول حسن رجل ممن يتبعون تعاليم جوتاما ساكيا الحقة ، إذ ليس ثمة شيء يحول بين بوذى بدائى وبين أن يكون نصرانيا ، وكذلك ما من شيء يمنع أحد التلاميذ المباشرين ليسوع من اعتناق تعاليم جوتاما بوذا المسجلة .

وإليك الآن هذه القطعة المقتبسة من كتابات رجل صينى هو « موتى »(١) ، الذى كان يعيش فى زمان ما فى القرن الرابع ق . م ، وقت ما كانت تعاليم كنفوشيوس ولاهوتزه منتشرة فى الصين ، قبل هبوط البوذية إلى تلك البلاد ، فتأمل نغمتها وانظر كم هى نصرانية الروح .

« إن الاعتداءات المتبادلة بين دولة ودولة ، والاغتصابات المتبادلة بين عائلة وأخرى ؛ والسرقات المتبادلة بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ وافتقار الملك إلى الرفق والوزير إلى الولاء ؛

(١) عن « موتى » انظر للمترجم كتاب « التاريخ وكيف يفسرونه » الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر . (المترجم)

والحاجة إلى الحنان والواجب البنوى بين الوالد وولده ــ هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمبراطورية . وكل هذا راجع إلى انتفاء الحب المتبادل . فلو أمكن فقط أن تعم بين الناس تلك الفضيلة الواحدة ، فلن يصبح للأمراء ــ وقد أحب أحدهم الآخر ــ أى ميادين للقتال ؛ ولن يحاول رؤساء العائلات أن يأخذوا أى شيء غصبا ؛ ولن يرتكب الرجال أية سرقة ؛ ولاتصف الحكام والوزراء بالسماحة والولاء ؛ ولاصبح الآباء رحماء والأبناء بررة ؛ ولصار الإخوة منسجمين وأمسى التراضى بينهم هينا . ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا ، لما انقض قويهم على ضعيفهم ؛ ولما نهبت كثرتهم قلتهم ، ولما أهان غنيهم فقيرهم ، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضيعهم ولما غش خبهم[1] بسيطهم[2] » .

لا شك أن فى هذا مشابهة عجيبة لتعاليم يسوع الناصرى ، وإن صب فى قالب سياسى . وهكذا اقتربت أفكار « موتى » من ملكوت السماء .

وهذا التطابق الجوهرى هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسباب هاتين الديانتين العالميتين . فإن بداياتهما كانت مخالفة تمام المخالفة لنحل الكاهن والمذبح والمعبد ، وهى تلك النحل المقامة لعبادة آلهة محدودة المعالم معروفة الحدود واللاعبة فى مراحل تطور الإنسانية الأولى بين ١٥٫٠٠٠ ق . م و ٦٠٠ ق . م دورا عظيما كل العظم هاما كل الأهمية . أما هــذه الديانات العالمية الجديدة ، من ٦٠٠ ق . م فصاعدا ، فهى بالضرورة ديانات القلب والعالم العلوى الشامل . وهى التى جرفت أمامها كل تلك الأرباب المتنوعة المحدودة التى خدمت حاجة الإنسانية ، منذ أن تلاحمت المجتمعات الإنسانية بعضها فى بعض بعاملى الخوف والرجاء . وسنرى من فورنا عندما نصل إلى الإسلام أنه حدث للمرة الثالثة ، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأساسى الجديد ، مبدأ الحاجة إلى إخلاص عام من جميع الناس « لإرادة » واحدة . على أن محمداً اتعظ بما مر بالمسيحية من تجاريب ؛ فكان حاسما باتا فى إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا بشراً كغيره من الناس ، وبذا وقى تعاليمه شر كثير من الفساد والتصحيف .

ونحن حين نتحدث عن ديانات الإنسانية العظيمة هذه ، التى نشأت فيما بين غزو

---

(١) الخب : بكسر الخاء هو الغشاش الخادع . (المترجم)

(٢) نقلا عن هيرث (The Ancient History of China) الفصل الثامن

الفرس لبابل وتصدع الإمبراطورية الرومانية ، — إنما نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة . على أن مرد ذلك التنافس هو نقائصها وما تكدس فيها من إضافات وما زاد عليها من نمو طفيلى ، واختلافها فى اللغات وطريقة التعبير . وما ينبغى أن نشخص بأبصارنا إلى غلبة واحدة منها على الأخرى . أو قيام أى بديل جديد يحل محلها جميعاً ، بل إلى الصدق الصراح فى كل منها ، بعد إذ يصهر تماماً ويخرج نقيا من كل الشوائب والأدران ويغدو فيهن جميعاً هو نفس الصدق الواضح المبين : — وأعنى بذلك أن قلوب الناس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعاً ، يجب أن تخضع « لإرادة » عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعاً . ويقول نائب الأسقف إنج فى إحدى مقالاته الصريحة الجريئة : « إن القديس بولس قد فهم ما لم يدركه معظم المسيحيين ، وأعنى بذلك أن « بشارة المسيح » ليست « إحدى » الديانات ولكنها الدين نفسه فى أشد معانيه شمولا وعمقاً » .

ومع أن الحماقة دفعت الناس إلى كتابة الشىء الكثير عن التضارب بين العلم والدين ، فالحق أن ذلك التضارب شىء لا وجود له . فكل ما تصرح به كل هذه الديانات العالمية بطريق الوحى والاستبصار ، إنما هو شىء يكشف فيه التاريخ معا زدياد وضوحه ، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه — حقيقة معقولة يمكن إثباتها : هى أن الناس جميعاً يكونون أخوة واحدة عامة ، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد مشترك ، وأن حياتهم الفردية وأممهم وأجناسهم ، تتداخل نسباً وتمتزج دماً ولا تبرح فى امتزاج حتى تنغمر من جديد آخر الأمر فى مصير إنسانى واحد مشترك على هذا الكوكب الصغير السابح بين النجوم . وان العالم النفسانى ليستطيع اليوم أن يقف إلى جانب الواعظ ويؤكد لنا أنه ليس هناك سلام للقلب معقول ولا توازن ولا أمان للروح ، ما لم يجد الإنسان حياته بفقده إياها ، وما لم يدرب غرائزه وعواطفه الضيقة المحدودة وينظمها . ولا يخفى أن جنسنا وتجاربنا الدينية الشخصية يسيران جنبا إلى جنب فى تحاذ وثيق يخيل معه للمشاهد العصرى كأنما هما شىء واحد تقريباً فكلاهما يتحدث عن كائن كان فى بادئة أمره مشتتاً تحجب العماية عينيه ويكتنفه جو من مطلق الحيرة والارتباك . وهو يتحسس طريقه فى بطء سائراً نحو صفاء وخلاص يجمعهما هدف منظم متماسك ؛ ولعلكم ترون معى أن هذه هى معالم التاريخ فى أبسط

صورها ؛ وسواء كان للمرء هدف دينى ، أم كان ينكر كل هدف دينى إنكاراً باتاً ، فإن خطوط المعالم تظل كما هى .

٤ – صلب يسوع الناصرى

فى ٣٠ م حين كان طيبريوس الثانى إمبراطوراً على روما ، وبيلاطس البنطى والياً على بلاد اليهودية ، وقبل عيد الفصح بقليل ، هبط يسوع الناصرى إلى أورشليم ؛ والراجح أنه هبطها عند ذاك لأول مرة فى حياته . إذ كان حتى ذلك الحين يعظ الناس أكثر ما يعظهم فى الجليل ، ويعظهم فى كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها . يعظهم هناك فى معبد اليهود .

كان دخوله مدينة أورشليم نصراً سلمياً . إذ اجتمع حوله فى الجليل عدد عظيم من الأتباع ، وكان يضطر فى بعض الأحايين أن « يعلم » الناس من زورق فى بحيرة الجليل ، بسبب تزاحم الجمهور على الشاطئ – وتسامع الناس به وسبقته شهرته إلى العاصمة . فخرجت جماهير غفيرة لتحيته . وواضح بيّن أنهم لم يفهموا منحى تعاليمه ، وأنهم كانوا يشركون من حولهم فى اقتناعهم العام ، بأنه سيقلب النظام القائم بضرب من سحر البر والصلاح . وقد دخل المدينة راكباً جحشاً استعاره له تلاميذه ، والجمهور يرافقه رافعاً صوته بالتهليل والتكبير هاتفاً بكلمة (أوصنّا ! ! Hosanna) وهى لفظة تعبر عن الفرح .

فذهب إلى الهيكل . وكانت أفنيته الخارجية غاصة بمناضد الصيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكى يحرره زوار المعبد الاتقياء ! ! ! وانبعث هو وأتباعه يطردون هؤلاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم . وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيجابية الوحيدة .

ثم استمر يعلم الناس فى أورشليم أسبوعاً يحيط به جمهور منَ الأتباع جعلوا اعتقال السلطات له أمراً عسيراً . ثم جمعت الهيئة الرسمية أمرها ضد ذلك المقتحم الرائع . ذلك أن يهوذا (Judas) أحد تلاميذه ملأ الجزع واليأس قلبه لما شهده فى استيلاء معلمه على أورشليم من قلة غناء وجدوى ، فتقدم إلى الكهنة اليهود ليقدم إليهم نصيحته ومعونته فى

القبض على يسوع . فكوفئ على تلك الخدمة بثلاثين قطعة من الفضة . وكان لكبير الكهنة ولليهود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك العصيان الوادع الذى كان يملأ الشوارع بالجماهير المنفعلة ، فمن الجائز مثلا أن يسيء الرومان فهم الأمر ، أو أن ينتهزوه فرصة لإيقاع الأذى بالشعب اليهودى كافة . ومن ثم كان الحبر الأكبر قيافا (Caiaphas) — فى بالغ قلقه على إظهار ولائه للحاكم الرومانى الأعلى — على رأس من قاموا بالإجراءات التى اتخذت ضد ذلك المسيح (Messiah) الأعزل ، وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتمسكون بعقيدتهم السلفية أكبر المتهمين ليسوع .

وتحدثنا الأناجيل فى جلال ليس عليه من مزيد كيف قبض عليه فى ضيعة جثسيمانى (Gethsemane) ، وكيف حوكم وأدين على يد بيلاطس البنطى الوالى الرومانى ، وكيف نكل به الجنود الرومان وسخروا منه ، وصلبوه على التل المسمى بتل جلجثة (Golgotha) .

بذلك انهارت الثورة انهياراً تاماً وتخلى عنه تلاميذه على بكرة أبيهم ، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال « إنى لا أعرف الرجل » . إذ لم تكن هذه هى النهاية التى كانوا يرجونها من قدومهم العظيم إلى أورشليم . ولم يشهده فى ساعاته الأخيرة وهو على الصليب يعانى مرارة الألم المبرح والظمأ الشديد ، سوى بضع نفر من النساء والأصدقاء الأدنين . حتى إذا قارب هذا يوم العذاب نهايته ، استجمع ذلك الزعيم الذى تخلى عنه الناس جميعاً كل قواه باذلا آخر جهد لديه وصاح بصوت جهير « إلهى ! لماذا تركتنى ؟ » ثم أسلم الروح مخلفاً هذه العبارة ترجعها العصور ، أحجية أبدية للمؤمنين .

ولم يكن بد من أن يحاول بسطاء المؤمنين أن يهوّلوا من عنف الذعر الرهيب المتولد عن هذه المأساة ، بإذاعتهم أقاصيص سخيفة عن حدوث اضطرابات فى الطبيعة تشابه تلك التى اختلقت لتوكيد اهتداء جوتاما إلى الصراط السوى . فإنهم يخبروننا أن ظلمة قد غشيت الأرض . . . وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل . وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقا ، فهى لم تحدث أقل تأثير فى أذهان الناس فى أورشليم فى ذلك الزمان . ومن العسير علينا فى هذه الأيام أن نصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانغماس فى مثل هاته التعليقات الجوفاء على الأحداث . ولكن الشيء الأشد

هولا من هذا بكثير أن يفترض المرء وجود عالم لا يهتم فيما يظهر بهـذه الصلبان الثلاثة القائمة تحت شفق المســاء للقانى ، ولا يأبه بتلك الجماعة الصغيرة من النظارة المرتبكين المستوحشين . وأرخى الظلام على التل سدوله . وشرعت المدينة البعيدة فى القيام باستعداداتها لعيد الفصح ؛ وما من أحـد سوى ذلك النفر القليل من المحزونين العــائدين إلى منازلهم يُعنى بأمر يسوع الناصرى هل هو لا يزال يعانى سكرات الموت أو هو قد قضى وانتهى بالفعل . . .

أما الحواريون فقد غمرت أرواحهم إلى حين غاشية من الظلمات الدامسة . ثم ما لبثوا أن دب بينهم تهامس ثم أقاصيص متناقضة أو تكاد . . . بأن جسم يسوع ليس فى القبر الذى وضع فيه ، وأن واحدا منهم ثم آخر قد رآه حياً . وسرعان ما أخذوا يعزون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل القبور ، وأنه أظهر نفسه للكثيرين ، ثم صعد على مرأى من الناس إلى السماء . وجيء بشهود أعلنو بلهجة التأكيد القاطع أنهم رأوه يصعد بجسمه ظاهرا للعيان . لقد ذهب يطوى طباق السموات الزرقاء — إلى الرب . وسرعان ما ألقوا فى روع أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره ، فى قوة ومجد ليحكم البشرية كافة . وقالوا إنه يعود إليهم بعد برهة وجيزة ؛ على أنهم — وهم ينعمون بإحياء حلمهم القديم البراق بمجد دنيوى يحقق ذواتهم غاب عنهم ذلك النصيب الأعظم ، النصيب الهائل الجبار الذى خولهم إياه يسوع من ملكوت الله .

٥ — مبادئ أضيفت إلى تعاليم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هى قصة الكفاح بين التعاليم الحقة والروح المحض ليسوع الناصرى وبين التحديدات التى فرضها ، والإطنابات والزيادات التى أضافها ، والمسائل التى أساء فهمها ، أولئك الرجال البسطاء الذين أحبوه وساروا فى إثره من الجليل ، والذين غدوا يومئذ حماة رسالته وحملتها إلى البشرية . وتقدم إلينا الأناجيل وأعمال الرسل سجلا مرقعاً غير متوازن ، ولكن لا مجال للشك فى أنه فى جملته سجل تام الأمانة فى تصوير تلك الأيام الأولى .

والناصريون الأول وهو الاسم الذى كان يطلق على أتباع يسوع ، يتخبطون منذ البداية

فى غمرات الحيرة العظيمة إذ يتنازعهم أمران : تعاليمه من ناحية وما استحدثه التلاميذ من ناحية أخرى من صنوف الشروح والتفاسير . وقد أقاموا من بعده زماناً عاملين بسنته فى قهر النفس التام ؛ فجعلوا بضاعتهم مشاعاً بينهم ، ولم يتخذوا رابطة تربطهم إلا الحب . ومع ذلك فإنهم أسسوا عقيدتهم على الأقاصيص التى كانت تدور حول قيامته وصعوده السحرى الخلاب ، وحول عودته الموعودة . وقلَّ منهم من كان يفهم أن التبرؤ من النفس ونبذها هو جزاؤها بعينه ، وأنه هو نفسه مملكة السماء ؛ وكانوا يعدون ذلك التبرؤ قرباناً يخولهم جزاء من القوة والسيادة ، عندما تحدث العودة الثانية عما قليل . وقد أصبحوا جميعاً يرون أن يسوع هو المسيح الموعود ، ذلك المسيًّا الذى طالما انتظره الشعب اليهودى . واكتشفوا فى أقوال الأنبياء تنبوءات بالصلب — ويشدد إنجيل متى بصفة خاصة فى تأكيد هـــذه التنبوءات . وأنعشت هذه الآمال المبادئ النصرانية ، وشدت أزرها بفضل الحياة الحلوة النقية التى كان يحياها كثير من المؤمنين ، فأخذت تنتشر انتشاراً بالغ السرعة فى أرجاء بلاد اليهودية وسوريا .

وظهر للوقت معلم آخر عظيم ، يعده كثير من الثقات العصريين المؤسس الحقيقى للمسيحية — وهو شاءول الطرسوسى أو بولس . ويظهر أن شاءول هو اسمه اليهودى وأن بولس هو اسمه الرومانى . كان مواطناً رومانياً ، ورجلا أوتى علماً أوسع كثيراً وعقلية أضيق كثيراً مما يبدو أن قد أوتى يسوع . والراجح أنه كان يهودى المولد ، وإن كان بعض الكتاب اليهود ينكرون ذلك . ولا مراء فى أنه تعلم على أساتذة من اليهود . بيد أنه كان متبحراً فى لاهوتيات الإسكندرية الهلينية[1] وكانت لغته الإغريقية . ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكى القديم أن لغته الإغريقية غير مرضيـــة ؛ فهو لم يستخدم لغة أثينا ، بل إغريقية الإسكندرية ، بيد أنه استخدمها بقوة وطلاقة . وينعتها البروفسور جلبرت موراى بأنها « بالغـــة الجودة » . . « وهو متأثر بطرائق التعبير الفلسفى للمدارس الهلينستية وبأساليب الرواقيين (Stoicism) . على أن تمكنه من اللغة الراقية الرفيعة عظيم مدهش » . كان صاحب نظرية دينية ومعلماً

---

(١) يفرق المؤرخون بين العصر الهيلينى السابق على الإسكندر والهيلينستى الذى يجىء فى تاريخ الإغريق بعد وفاة الإسكندر إلى ظهور أوغسطوس قيصر . (المترجم)

يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل ، وهو فى رواية العهد الجديد يبدو بادئ ذى بدء فى إهاب الناقد المرير ، والخصم العنيد والمضطهد الناشط للناصريين (النصارى) جميعاً .

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أى بحث فى آراء بولس الدينية قبل أن يصبح من أتباع يسوع . ولا بد أنها كانت أساساً لآرائه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها ، كما أن أسلوب تعبيرها وطريقتها أسبغت بالتحقيق على مبادئه الجديدة لوناً خاصاً . وإنا نكاد نتخبط فى نفس الظلمات حول تعاليم غمالائيل ، الذى يقولون إنه هو المعلم اليهودى الذى كان بولس يجلس عند قدميه . كذلك لسنا ندرى ما هى التعاليم غير اليهودية التى درسها . ومن الراجح جداً أنه تأثر بالمثرائية . إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية . ويتضح لكل من يقرأ « رسائله » المتنوعة ، جنباً إلى جنب مع الأناجيل ، أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة . فما بشر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح الإنسانية ؛ أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الإله . كان يسوع فى نظره حمَل عيد الفصح ، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من كل عيب ودنس التى تتعقب فى إصرار ديانات الشعوب البيضاء الداكنة(١) . أمد بولس الناصريين بقوة جارفة لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تماماً لكارثة الصلب . وكان تفسيره ذاك نوراً ساطعاً سلط على دياجير الحيرة المطلقة التى رانت على عقول الناس .

ولم ير بولس يسوع قط . ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعاليمه سماعاً عن التلاميذ الأصليين . ومن الجلى أنه أدرك الشىء الكثير من روح يسوع ومبدئه الخاص بالميلاد الجديد ، بيد أنه أدخل هذه الفكرة فى صرح نظام لاهوتى ، نظام يتسم بشديد البراعة والخفاء ، لا تبرح فتنته إلى اليوم تستهوى العقول « فكرياً » بصفة رئيسية . ومن الواضح أن عقيدة الناصريين التى وجدها على صورة مبدأ للحفز والإثارة وأسلوب للعيش ، قد تحولت على يديه إلى مذهب « إيمان » . ذلك بأنه وجد الناصريين ولهم روح

---

(١) يشير المؤلف بهذا إلى الشعوب البيضاء الداكنة الأعين والشعر والساكنة أصولها حول البحر المتوسط (انظر المعالم ج ١ ، ص ١٧٧ ، ط ٣) (المترجم)

ورجاء ؛ وتركهم مسيحيين لديهم بداية عقيدة .

بيد أننا يجب أن نرجع القارئ إلى « أعمال الرسل » و « رسائل بولس » ، ليحصل على بيان واضح عن رسالة بولس وتعاليمه . كان رجلا هائل الطاقة والنشاط ، وقد علم الناس فى أورشليم وأنطاكية وأثينا وكورنثوس وإفيسوس وروما .

ويحتمل أيضاً أنه انحدر إلى أسپانيا . وليست طريقة وفاته بمعروفة على وجه التحقيق ، ولكن يقال إنه قتل فى روما إبان حكم نيرون . فقد شب حريق عظيم أتى على قسم كبير من روما ، فاتهمت الطائفة الجديدة بأنها تسببت فى ذلك الحريق . ولا شك أن انتشار المسيحية السريع مدين لبولس أكثر منه لأى رجل آخر بمفرده . فلم تكد تمضى على صلب المسيح عشرون سنة ، حتى استرعت هذه الديانة نظر الولاة الرومان فى ولايات عديدة . ولئن حصلت من يد القديس بولس على لاهوتها ، فلقد ظلت محتفظة بالكثير مما لتعاليم يسوع من السمة الثورية والبدائية . وقد أصبحت أكثر تسامحا نوعا ما مع الملكية الخاصة ، وأصبح فى وسعها أن تقبل نصارى أغنياء دون الإصرار على جعل ثرواتهم مشاعا ، واغتفر القديس بولس نظام الرق عند ما قال : « أيها العبيد أطيعوا فى كل شيء سادتكم »[1] ، ومع ذلك فقد صمدت كالصخر لا تلين إزاء بعض النظم الجوهرية فى العالم الرومانى . فإنها لم تجز البتة ربوبية قيصر . فلم يقبل المسيحيون قط أن تعبدوا الإمبراطور ، حتى ولا بإيماءة صامتة عند المذبح ، رغم ما فى ذلك من تعريض حياتهم للخطر . وإنها لتستنكر حفلات المجالدين[2] . وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء إلا قوى هائلة من المقاومة السلبية ، بدت منذ مستهلها فى ثوب ثورة صريحة ، تكيل الضربات للأسس الجوهرية للنظام الإمبراطورى السياسى إن لم يكن الاقتصادى. وأول ما نجد فى الأدب (: الكتابات) غير المسيحى من الشواهد على وجود المسيحية ، يبدو عند ما أخذ الموظفون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويتبادلون الآراء فى المشكلة الغريبة الماثلة بين

---

(١) كانت روح يسوع ، الروح الباعثة للحياة فى المسيحية ، والتى تسرى فى الأناجيل ، تتعارض تعارضا تاما مع كل من الملكية الخاصة والرق ، إلا أن اتجاه المسيحيين ، لم يتعين إطلاقا بمثل هذا التحديد . وكانوا فى الغالب أميل إلى التخفيف منهم إلى الإلغاء . (المؤلف)

(٢) المجالد Gladiator ، شخص وبخاصة عبد أو أسير ، يقاتل حتى الموت (فى المجتلد Arena) أو إنقاذ الحياة ، لإمتاع الجماهير بروما القديمة . (المترجم)

أيديهم ، مشكلة ذيوع عدوى ذلك العصيان الصادر من قوم لا شر يخشى منهم فيما عدا ذلك من شئون الدنيا .

ويغشى الغموض التام شطراً كبيراً من تاريخ المسيحيين فى القرنين الأولين من الحقبة المسيحية . فمع أنهم انتشروا فى كل أرجاء العالم ، فإنا لا نعرف إلا القليل النادر من فكراتهم أو طقوسهم وطرائقهم أثناء ذلك الزمان . ولم تكن لهم حتى حينذاك عقائد مستقرة ، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافات محلية كبيرة فى معتقداتهم ونظمهم غير المتكيفة إبان ذلك العصر . ولكن مهما يبلغ ما بينهم من فوارق محلية ، فيلوح أنهم كانوا فى كل مكان يحملون الشىء الكثير من روح يسوع . ومع أنهم كانوا حيثما حلوا أثاروا ضدهم عداء مريرا ودعاية مضادة قوية ، فإن نفس التهم الموجهة إليهم تشهد بما هم عليه من خير وصلاح عام .

وفى أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التى تكاد تضارعها فى سعة انتشارها بين سواد الشعب ، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس[1] . ويبدو أن المسيحيين اقتبسوا من الأولى يوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلا من يوم السبت اليهودى ، كما استعاروا فكرة الإكثار من استعمال الشموع فى الحفلات الدينية ، وأسطورة أداء العبادة بواسطة الرعاة (أعنى القسس) ، كما اقتبسوا أيضاً فيما يرجح ، تلك الفكرات أو العبارات التى لا تزال تمتاز بها إلى يومنا هذا بعض الشيع والتى تتكلم عن « الاغتسال فى دم » المسيح وعن كون المسيح تضحية بالدم . ذلك أنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلبا ، لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق ؛ فتصوير يسوع فى صورة المريق دمه من أجل البشرية ، إنما هو فى الحقيقة من أشد العبارات بعدا عن الدقة . ونحن وإن تذكرنا أنه لقى التعذيب والتنكيل وأنه ألبس تاجا من الأشواك ، وأن جنبه قد طعن بحربة ، فإنا لا نزال أبعد ما نكون عن « نبع يفيض دما » . بيد أن المثرائية ،

(١) سيرابيس كان مركبا من أوزيريس وأبيس (انظر ج ٢ ص ٣٨٨ من المعالم) . (المترجم)

وكانت تتركز حول بعض الخفايا التى عفى عليها اليوم النسيان ، تتخيل مثرا وهو يضحى بعجل مقدس خير . ويلوح أن جميع المقاصير المقدسة المثرائية تزدان بصورة لمثرا وهو يذبح ذلك العجل ، الذى ينزف دمه نزفاً عظيماً من جرح فى جنبه ، ومن ذلك الدم نشأت حياة جديدة . وكان المريد المتعبد الميثرائى يستحم بالفعل فى دم عجل التضحية ، وبذلك « يولد من جديد » . وكان عند انخراطه فى النحلة لأول مرة يدخل تحت سقالة يذبح العجل عليها ، فيسيل عليه دمه . ويخيل إلينا أنا نعالج هاهنا استمراراً لسفك الدماء البدائى للتضحية عند وقت البذار ، وهى فيما يحتمل الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعابد .

على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية فى الفكر المسيحى والطقوس المسيحية كان أعظم قدراً أو يكاد . إذ كان طبيعياً أن يجد المسيحيون فى شخصية حورس ، (الذى كان ابنا لسيرابيس وهو سيرابيس فى نفس الوقت) ، شبيهاً مرشداً لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا . وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس . ثم السمو بها مرتبة شبه قدسية — بالرغم مما سبق أن اقتبسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته — خطوة طبيعية جداً كذلك . وكان طبيعياً كذلك للمسيحية أن تقتبس وهى لا تكاد تعى ، الطرائق العملية للديانات الشائعة فى ذلك الزمان . فاتخذ قساوستها طريقة الرؤوس الحليقة والزى الخاص بالكهنة لمصريين ، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلى لتميز القسس . وتتابعت البدع واحدة فى إثر الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك « الإضافات المألوفة » . ولقد حاولنا من قبل أن نتصور عودة جوتاما بوذا إلى التبت ، واندهاله لعبادة تمثاله فى لهاسا (Lhassa) . ولو أن أحد الناصريين (النصارى) المخلصين ممن عرف واتبع معلمه الأشعث الضاوى من السفر فى وهج الشمس اللافح بالجليل ، أعيد فجأة إلى هذا العالم ثم زار مثلا قداساً فى كنيسة القديس بطرس بروما ، فلسنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى مماثلة عندما يعلم أن تلك الخشكنانة (القربان) الموجودة على المذبح إن هى إلا معلمه المصلوب .

والدين فى مجتمع عالمى ليس أشياء عديدة وإنما هو شىء واحد ، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية فى عالم ذلك الزمان ، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر دينى ، من أن تتحاسب وتتبادل العبارات والفكرات والطقوس . وكانت آمال الناصريين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح . ولكن ذكاء بولس المتوقد أحاط سيرته بالأهميـــة المستيقية . وكان يسوع دعا الناس رجالا ونساء إلى أداء واجب جبار : هو إنكار الذات والميلاد الجديد فى مملكة المحبة . وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمان المستجد فى ديانته أن يفر بعيداً عن هذا المبدأ البسيط الصريح ، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة ، — إلى الغوص فى مسائل ذهنية بحتة قوامها نظريات ومراسم معقدة لا تمس جوهر نفسه بأى حال فما أسهل أن ينضح الإنسان ذاته بالدم ومن أن يطهر نفسه من الحقد والمنافسة ؛ وأن يأكل الخبز ويشرب النبيذ مدعياً أنه قد امتص الألوهية ؛ وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب ، وأن يحلق الرأس ويستبقى النفس الأمارة بالسوء المستقرة فى داخله ! ! كان العالم غاصاً بأمثال هذه الفلسفة التهربية والمادة اللاهوتية فى القرون الاستهلالية الأولى للحقبة المسيحية . وليس يعنينا هنا أن نتوسع فى تفصيل الظواهر المميزة للأفلاطونية الحديثة (Neoplatonism)[1] والأدرية[2] (Gnosticism) والفيلونيـــة (Philonism)[3] وما إليها من تعاليم كانت كثيرة فى العالم الإسكندرانى . بيد أن الواقع أنه كان كله عالماً واحداً ، ذلك العالم الذى جمع بين هؤلاء وبين المسيحيين الأول . وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجين (Origen) وأفلوطين (Plotinus) وأوغسطين

(١) الأفلاطونية الحديثة : مزيج من الفلسفة الشرقية والأفلاطونية ، وهى فلسفة أفلوطين ، الذى عاش بالإسكندرية فى القرن الثالث . (المترجم)

(٢) الأدرية أو الأغنسطية حركة دينية نشأت والمسيحية ناشئة يراها بعض الناس زندقة ولكنها محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحى والفلسفة الإغريقية وعناصر مأخوذة من النحل السرية بعالم البحر المتوسط . ويرى الأغنسطيون أن لهم علما باطنيا بالمعنى الداخلى للديانة . وهو المعرفة التى يستطيعون أن يصلوا بها إلى الاستنارة والخلود . (المترجم)

(٣) الفيلونية : نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إغريقى من أصل يهودى ولد بالإسكندرية قرابة ٢٠ ق . م وفلسفته تخلط بين أفلاطون والكتاب المقدس ولها بعض الأثر فى المؤلفات المسيحية . (المترجم)

(Augustine) — بحركة الأخذ والعطاء التى لم يكن منها مفر فى ذلك الزمان .

وقد سمى يسوع نفسه ابن الله وابن الإنسان أيضاً ؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الاهتمام بشخصه : من هو؟ أو ما هو؟ ، وإن اشتد تركيزه كثيراً على التعاليم المتعلقة بالملكوت. وعند ما صرح بولس وأتباعه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله ، فإنهم — أخطأوا أم أصابوا — قد فتحوا ميداناً هائلا من الجدل . فهل كان يسوع رباً ؟ أم أن الرب خلقه ؟ هل هو والرب سواء أو هو منفصل عن الرب ؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هاته الأسئلة ، بيد أنه مضطر أن يدونها وأن يلحظ كم هى أسئلة لم يكن منها بد ، بسبب ذلك السلطان الهائل الذى كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة البشرية فى بلاد الغرب . حتى إذا وافى القرن الرابع من الحقبة المسيحية وجدنا المجتمعات المسيحية بأسرها فى حالة من الهياج والسخط بسبب الجدل الملتوى الخداع حول طبيعة الله — بحيث أهملت بدرجة كبيرة التعاليم الأكثر بساطة ؛ تعاليم الإحسان والأخوة والخدمة التى طبعها يسوع فى العقول مراراً وتكراراً .

وأهم الآراء التى ينبغى أن يلحظها المؤرخ هى آراء الآريوسية (Arians) والسابيلية[1] (Sabellians) والثالوثية (Trinitarians) . وكانت الآريوسية تتبع آريوس الذى كان يعلم أن المسيح كان أقل من إله ، وكان السابيلية يعلمون أنه حالة أو أقنوم للإله — فالإله هو الخالق والمخلص والمواسى ، كما يكون الرجل الواحد أباً وقيماً وضيفاً ؛ أما الثالوثية الذين كان إثناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس ، أقانيم ثلاثة مميزة ، بيد أنها إله واحـــد . وإنا لنرجع القارئ إلى عقيدة إثناسيوس يطلب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير ، ويطلب فيها النتائج المزعجة التى ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها ! ! . ويجب عليه أن يرجع إلى جيبون[2] إن شاء بياناً عن هذه الخصومات ملوءه السخرية والتهكم . على أن الكاتب الحالى

---

(١) السابيلية هم أتباع سابيليوس (القرن الثالث م) الذى كان يرى أن الله لا ينطوى إلا على شخص واحد وأن الثالوث لم يكن إلا ثالوثا من الوظيفة والإظهار . (المترجم)

(٢) أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر (فى ١٩٦٩ — ١٩٧٠) ترجمة عربية لجيبون بإشراف الأستاذ أحمد نجيب هاشم . فليرجع اليها القارئ . (المترجم)

لا يسعه إلا أن يعالجها دون أدنى رهبة ولاسخرية . وهو يرى من واجبه أن يعترف أنها تبدو له كأنما هي غليان مدمر تهدم مراجله فى العقل البشرى وتفيض منه الكوارث الوبيلة وأنها لاتتسق بتاتاً مع تعاليم يسوع البسيطة الصريحة المحفوظة لنا فى الأناجيل . ولم يعـد اعتناق المذهب التقليدى السليم (الأرثوذكسى) شرطاً لازما للحصول على الوظيفة المسيحية فحسب ، بل لمزاولة التجارة بين المسيحيين والحصول على المعونة المسيحية كذلك . فإن التمسك بنقطة صغيرة من نقاط المبادىء الدينية أو التزحزح عنها قد يكون معناه ثراء رجل أو إدقاعه . ومن العسير أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية من ذلك الزمان ، دون أن يشعر شـعوراً قوياً بتحكم الاتجاه الاعتقادى (Dogmatism) وباستبداد الأحقاد والمنافسات والتفيهقات بالرجال الذين مزقوا المسيحية إرباً من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة . ومعظم المجادلين الثالوثيين ــ إذ أن أهم ما تبقى من الوثائق هو وثائق الثالوثية ــ يتهمون خصومهم (وبحق ما يتهمونهم فى الغالب) بأن لهم دوافع دنيئة أخرى خفية . بيد أنهم يفعلون ذلك بطريقة تفضح روحهم الوضيعة فى جلاء تام . مثال ذلك أنهم يتهمون أريوس مثلابأنه يعتنق الإلحاد (الهرطقة) ، لأنه لم يعين أسقفاً على الإسكندرية . وكانت الفتن والحرمانات (من عضوية الكنيسة) والنفى تلازم على الدوام هذه الخصومات ، ثم جاء دور الاضطهاد الرسمى آخر الأمر . إذ اختلطت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين الإله ، بالسياسة والمنازعات الدولية . وكان الرجال الذين يتنازعون حول أشغالهم ، والزوجات اللائى يرغبن فى مضايقة أزواجهن ، يعتنقون فى هذا الموضوع الرفيع آراء متضادة . وكان معظم البرابرة غزاة الإمبراطورية الرومانية من الآريوسين ؛ والراجح أن مرد ذلك هو أن عقولهم البسيطة لم تكن لتفهم العقيدة « الثالوثية » .

ومن أيسر الأمور على المتشكك أن يهزأ من هذه المنازعات . ولكن حتى لو كنا نرى أن هذه المحاولات التى ترمى على وجه الدقة إلى تبيين مقدار ارتباط الله بنفسه ، فيها من الغرور والجرأة فضلاعن الفظاعة من الناحية الذهنية ما فيها ، فإنا على ذلك مضطرون إلى الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقة المخالفة لكل معقول . تفصيلات الاعتقاديات (Dogmas) المستحيلة ، كثيراً ما كانت تكمن وراءها عاطفة صادقة تهدف نحو الحق ،

وإن أساء القوم تصور ذلك الحق وفهمه . وكان لكل من الجانبين شهداء صادقو الشهادة . والحماسة التى تجلت فى هذه المنازعات وإن تكن حماسة وضيعة فى غالب الأحيان ، إلا أنها جعلت الشيع المسيحية على كل حال نشيطة جداً فى ناحيتى الدعاية والتعليم . ومع ذلك فينبغى ألا يخدعنا تاريخ الجماعة المسيحية فى القرنين الرابع والخامس من حيث هو فى معظمه سجل لهذه المنازعات التعسة ، إذ الواقع أن روح يسوع كانت تعيش فعلا وتتسامى بأرواح كثيرة بين المسيحيين . وفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل ، وإن جرى على الراجح التلاعب بها أثناء تلك المدة ، إلا أنها لم يقض عليها تماما ، وظل يسوع الناصرى فى جلال عظمته الوضاحة التى لا تجارى ، يعلّم الناس من خلال نصوصها . كذلك لم يمنع هذا الشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ بجبهة موحدة ضـد حفلات المجالدين وضد العبادة المشينة عبادة الأوثان والقيصر الرب .

٦ ـ كفاحات المسيحية واضطهاداتها

كان طبيعيا أن تعد المسيحية حركة عصيان للدولة وتفكيك لعراها ، ما تحدّت ربوبية قيصر والنظم التى تتميز بها الإمبراطورية ، والواقع أنها كانت تعد كذلك فى نظر معظم الأباطرة قبل قسطنطين الأكبر . فلقيت عداء جسيما ، انتهى آخر الأمر إلى بذل محاولات منظمة القضاء عليها . وكان ديكيوس (Decius) أول إمبراطور أنزل بها اضطهاداً رسمياً ، كما أن عهد دقلديانوس (٣٠٣ وما أعقبها من السنين) هو حقبة الشهداء العظيمة . والواقع أن اضطهادات دقلديانوس هى النزاع النهائى بين فكرة الإمبراطور الرب القديمة وبين الهيئة العظيمة البالغة بالفعل حد القوة والتى كانت تنكر ربوبيته . وكان دقلديانوس أعاد تنظيم شئون الملك والمملكة على أسس متطرفة من الحكم المطلق ، وألغى آخر ما تبقى من آثار النظم الجمهورية ؛ وهو أول إمبراطور يحيط نفسه إحاطة تامة بكل ما للملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة . فاضطره منطق مدعياته أن يحاول القضاء التام على ذلك النظام الذى كان ينكرها إنكاراً صريحا . وكان الاختبار الممهد للاضطهاد ، أن يطلب إلى « المسيحى» أن يقرب إلى الإمبراطور قربانا .

« ومع أن دقلديانوس الذى لم يبرح نافرا من سفك الدماء ، قد خفف من غلواء جالريوس الذى اقترح أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيا ، إلا أن العقوبات التى وقعت على المسيحيين المعاندين ، يمكن أن تعد من النكال الصارم ذى الأثر البالغ . فصدرت مراسيم تقضى بأن كنائسهم فى أنحاء الإمبراطورية يجب أن تهدم من أساسها ؛ ثم أنذر بعقوبة الإعدام كل من يجرؤ على عقد أية اجتماعات سرية بقصد العبادة الدينية . واتخذ الفلاســفة فى ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية ، هى توجيه الحماسة العمياء للدولة فى ذلك الاضطهاد ؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة المسيحية وعبقريتها دراسة كد وتوفر ؛ ولما كانوا لا يجهلون أن من المفروض أن المبادئ النظرية للعقيدة تحتويها كتابات الأنبياء والإنجيليين والرسل ، فأرجح الظن أنهم هم الذين اقترحوا إصدار الأمر بأن يسلم الأساقفة والقساوسة كل كتبهم المقدسة إلى الحكام ، الذين صدرت لهم الأوامر بأن يحرقوها فى هيئة علنية رهيبة ، وإلا نالهم شر الجزاء . وقد تضمن نفس المرسوم مصادرة أملاك الكنيسة على الفور ؛ وكانت الأجزاء المختلفة التى تتكون منها ، إما أن تباع لمن يدفع فيها أغلى ثمن أو تضم إلى الأملاك الإمبراطورية أو توهب للمدن أو الهيئات أو تمنح تلبية لطلب الطامعين من رجال البلاط . وبعد اتخاذ مثل هذه التدبيرات الفعالة لإلغاء العبادة ، وللقضاء على رئاسة المسيحية ، روئى من الضرورى تعريض أولئك الأفراد المنحرفين الذين يواصلون رفض عقيدة الطبيعة ، عقيدة روما وعقيدة أسلافهم ، لما لا يكاد يطاق من العنت والشقاء . وكان الأفراد المستنيرون من أبناء البيوتات يعدون غير أكفاء لحيازة الرتب أو تولى المناصب ؛ فأما الأرقاء فيحرمون حرماناً أبدياً من التطلع إلى الحرية ؛ كما أن الجماعة المسيحية بأجمعها حرمت حماية القانون . فقد خول للقضاة الحق فى أن ينظروا وأن يقضوا فى كل قضية ترفع أمامهم ضد أى مسيحى ؛ بيد أنه لم يكن مسموحا للمسيحيين أن يشتكوا من جور يصيبهم ؛ وهكذا كانت هذه الطائفة المتعسة هدفا لكل ظلم وعنت ، على حين يحال بينهم وبين الانتفاع بالعدالة العامة . ولم يكد هذا المرسوم يعرض على الملأ فى أبرز المواضع بنيقوميديا ، حتى امتدت إليه يدا مسيحى بالتمزيق المصحوب بأقذع التنديد والسباب تعبيراً عن المقت والاحتقار لمثل هؤلاء الحكام الفسقة الطغاة . وكانت جريمته

طبقاً لأخف القوانين وطأة ، توضع بمنزلة الخيانة العظمى وتجازى بالإعدام و فإن صح أنه كان رجلا ذا مرتبة وعلم ، فإن تلك الظروف ما كانت إلا لتزيد فى جرمه : وإذا هو يحرق أو قل يشوى على نار بطيئة . وإذا بجلاديه وقد امتلأوا حماسة للانتقام للإهانة الشخصية التى لحقت بالأباطرة ، يفتنّون فى إنزال العذاب ألواناً بالمسكين دون أن يستطيعوا لصبره قهراً ، وأن يغيروا من ابتسامة الثبات والزراية التى ظل محتفظاً بها على محياه وهو فى آلام نزعه الأخير . »(١) .

وهكذا افتتحت الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم بموت ذلك الشهيد المجهول . ولكن ما وصلنا من معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشدته إنما هو ــ كما يلاحظ جيبون ــ موضع الشك الكثير . وهو يقدر مجموع الضحايا الكلى بما يقارب الألفين ، ويقارن هذا بالثابت المؤكد من عدد جماهير المسيحيين الحاشدة الذين استشهدوا على أيدى زملائهم فى الدين أثناء فترة الإصلاح الدينى . ومن المعلوم أن جيبون شديد التحامل على المسيحية ، وهو هاهنا يبدو كأنما ينزع إلى التهوين من شأن تجلد المسيحيين وما عانوه من الآلام . ولا مراء أن كثيراً من المقاطعات أبدت نفوراً عظيماً فى تنفيذ المرسوم . بيد أن السلطات بذلت جهداً كبيراً فى تصيد نسخ الكتب المقدسة ، كما حدث أيضاً فى أماكن كثيرة هدم معظم الكنائس المسيحية . وعذب وأعدم كثير ، كما ملئت السجون بالأساقفة والقساوسة المسيحيين . ولزام علينا أن نتذكر أن المجتمع المسيحى كان يؤلف عنصراً ضخماً جداً بين السكان ، وأن نسبة كبيرة من الموظفين المكلفين بتنفيذ المرسوم كانوا هم أنفسهم يدينون بالعقيدة المحرمة . وكان جالبريوس صاحب الأمر فى الولايات الشرقية من أشد أنصار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة ، بيد أنه أدرك آخر الأمر وهو على فراش الموت (٣١١) أن لا فائدة ترجى من اعتداءاته على هذا المجتمع الضخم ، فأصدر مرسوماً بالتسامح ، يترجم جيبون خلاصته على الوجه التالى :

« كان من بين الأمور الجوهرية التى أهمتنا لمنفعة الإمبراطورية والمحافظة عليها ، اعتزامنا أن نصلح ونقيم من جديد كل شىء وفقاً للقوانين القديمة ونظام الرومان العام ، وقد رغبنا رغبة خاصة فى أن نهدى إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحيين

---

(١) انظر جيبون فى "Decline & Fall of the Roman Empire" الفصل السادس عشر . وبإشراف أحمد نجيب هاشم وترجمة محمد على أبو درة وآخرين ، أصدرت المؤسسة المصرية للطباعة والنشر طبعة عربية لطبعة مختصرة من جيبون أصدرها الاستاذ د . م . لو . (المترجم)

المخدوعين الذين تركوا الديانة والطقوس التي استنها آباؤهم ، واحتقروا في جرأة وغرور شريعة الأقدمين ، واخترعوا قوانين وآراء هوجاء وفقاً لما تمليه عليهم أهواؤهم ، وجمعوا من حولهم مجتمعاً مخلطاً من مختلف ولايات إمبراطوريتنا . وإذ أن المراسيم التي أصدرناها لدعم عبادة الآلهة ، قد عرضت كثيراً من المسيحيين للأخطار والمحن ، فلقي الكثيرون منهم حتفه ، وترك الأكثرون ممن لا يزالون يصرون على ضلالهم الأحمق محرومين من أي ممارسة عمومية للديانة ، فإنا نميل إلى أن نشمل هؤلاء التعساء بآثار رحمتنا المعتادة . لذلك فنحن نسمح لهم بأن يعبروا بحرية عن آرائهم الخاصة وأن يجتمعوا في اجتماعاتهم الدينية دون خوف أو مضايقة ، على شريطة دائمة هي أن يحافظوا على الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة . وسنوضح في أمر آخر مقاصدنا للقضاة والحكام ؛ ونأمل أن يطوع تسامحنا المسيحيين بأن يقدموا صلواتهم للرب الذي يعبدون ، من أجل سلامتنا ورخائنا ومن أجل سلامتهم ورخائهم ومن أجل سلامة الجمهورية ورخائها » .

وفي بضع سنين كان قسطنطين الأكبر في دست الملك ، يحكم في مبـــدأ الأمر بالاشتراك مع آخر (٣١٢) ثم يحكم منفرداً بالسلطان (٣٢٤) ، فانتهت على يديه أقسى محن المسيحية . ولئن كانت المسيحية قوة عصيانية مدمرة حيال روما الوثنية ، فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة في داخل مجالها ومجتمعاتها هي . وأدرك قسطنطين بعبقريته هـــذه الحقيقة . فإن روح يسوع بالرغم من الخلافات النظرية التي سادت المسيحيين جعلت منهم جماعة متعاطفة كبيرة في كل أرجاء الإمبراطورية بل في خارج حدودها . وأخذت العقيدة في الانتشار من وراء الحدود من البرابرة ، كما امتدت إلى فارس وآسيا الوسطى . وكانت مصدر الأمل الوحيد للتماسك الخلقي الذي استطاع قسطنطين أن يدركه في حمأة الآراء الضيقة والأثرة التي كان لزاماً عليه أن يحكم من فوقها . فهي ، وهي وحدها ، كانت صاحبـــة الوسائل المهيئة لتكوين « الإرادة » المنظمة ، تلك الإرادة التي كانت الإمبراطورية بسبب حاجتها إليها تتناثر أشلاء تناثر قطعة باليـــة من القماش . وفي (٣١٢) اضطر قسطنطين أن يحارب دفاعاً عن روما وعن مركزه ضد مكسينتيوس (Mxentius) فوضع طغراء[1]

---

(١) الطغراء : علامة ترمز إلى شخص أو جماعة ما تتألف من أحرف الاسم الأولى مرقومة على نحو متشابك . (المترجم)

اسم المسيحية على تروس جيشه وراياته ، وادعى أن رب المسيحين قاتل ذياداً عنه في نصره المبين في معركة جسر ميلفيان (Milvian) خارج روما بالضبط. وبهذا العمل تنازل عن كل ادعاء له بالربوبية التي أدخلها غرور الإسكندر الأكبر لأول مرة إلى العالم الغربي . وبموافقة المسيحيين ومعونتهم نصب نفسه ملكا ، له من الحكم المطلق نصيب أعظم مما أتيح لدقلديانوس نفسه . ولم تنقض بضع سنوات حتى أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية ، وفى (٣٣٧ م) عُمِّدَ قسطنطين مسيحياً وهو على فراش موته .

٧ — قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهري في التاريخ ويعـــدل في جوهريته على أقل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو أوغسوس قيصر . ولسنا نعرف إلا أقل القليل عن شخصيته أو حياته الخاصة ؛ إذ لم تهيئ لنا المقادير في زمانه مؤرخاً مثل پلوتارك[١] أو سويتونيوس[٢] (Suetonius) يبقى لنا على تفاصيل زاهية التلوين تتصل اتصالا وثيقاً بمعيشته الداخلية . أجل لدينا الآن مطاعن مما كتب أعداؤه ، كما أن لدينا في مقابل ذلك من الثناء عليه ما هو ظاهر الغلظ والسماجة . بيد أن واحداً من هؤلاء الكتاب لم يعطنا صورة له حية زاهية الألوان ، فإنه ليس بالنسبة إليهم إلا رمزاً لطائفتهم ، أو راية حزبية لهم . ويذكر خصمه زوسيموس (Zosimus) أنه كسرجون الأول ، كان غير شرعي المولد . إذ كان أبوه قائداً شهيرا ، على حين كانت أمه هيلانة ابنة صاحب خان في نيش ببلاد الصرب . على أن جيبون يرى مع ذلك أنه ثمرة زواج شرعي . ومهما يكن الأمر فإنه كان زواجا وضيعاً ، وقد طغت عبقرية قسطنطين الشخصية على نقائص خطيرة تكنفته . فإنه كان من الأميين أو يكاد ، وكان يعرف القليل الذي لا يكاد يذكر من الإغريقية . ويبدو أنه نفى حقا ابنه الأكبر كريسپوس ، وامر به فأعدم بتحريض من فاوستا امرأة أبي الفتى ؛ كذلك تحمل إلينا السجلات أنه اقتنع فيما بعد ببراءة كريسپوس ، وأمر بفاوستا فأعدمت ، بأن أُغلي عليها ماء حمامها حتى ماتت — على قول إحدى الروايات ؛ وبأن ألقيت للضواري (في رواية أخرى) عارية الجسم

(١) بلوتارك : (ح ٦٤ — ١٢٠) كاتب تراجم يوناني حاضر في الفلسفة بروما . وعينه هادريان واليا على اليونان . وكتابه « التراجم المتوازية » فيه موازنة بين كل اثنين من كبراء الإغريق والرومان . (المترجم)

(٢) سويتونيوس : مؤرخ لاتيني (إزدهر بالقرن الثاني الميلادي) ويعطينا كتابه « حياة القياصرة » معلومات شخصية كثيرة عنهم . (المترجم)

على جبل موحش ؛ على حين توجد كذلك وثائق مقنعة جداً تدل على أنها عاشت من بعده . فإن كانت أعدمت فعلا ، فإن ذلك لا يؤثر فى الحقيقة القائلة بأن أولادها الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها ، أصبحوا ورثة قسطنطين « بالتعين » . وواضح أنه لا يمكن الحصول على شىء يعتمد عليه فى هذه المعقدات الغامضة ، وعلى القارئ المتطلع أن يطلب أخبار هذه « الخبيصة » القائمة على مادة بالغة الندرة عند جيبون الذى دبجها بمهارة فائقة (الفصل ١٨) .

ومعروف أن جيبون كاتب ذو ميول مضادة للمسيحية ، فهو من ثم خصم معاد لقسطنطين ؛ بيد أنه يعترف أنه كان معتدلا عفيفاً . وهو يتهمه بالإسراف بسبب مبانيه العامة العظيمة ، كذلك يتهمه بالغرور والخلاعة ! لأنه لبس وقد تقدمت به السن شعراً مستعاراً (ولا يخفى أن جيبون نفسه كان يلبس شعره المستعار ويربطه برباط أسود مناسب) وتاجاً ملكيا وثياباً فاخرة . على أن جميع الأباطرة المتأخرين بعد دقلديانوس لبسوا التيجان والثياب الفاخرة .

ومع ذلك فلئن ظلت شخصية قسطنطين الكبير أشبه شىء بالأطياف ، ولئن لم تتكشف تفاصيل حياته الخاصة إلا عن مأساة يغشاها الإبهام ، فإنا مع ذلك نستطيع أن نتخيل كثيرا مما كان يجول فى ذهنه . ولا بد أنه كان ذهنا يشعر بالوحشة الأليمة وهو فى خاتمة سنى حياته . كان أكثر استبداداً من أى إمبراطور سابق — أعنى أنه كان أقل استشارة واستعانة بغيره ، إذ لم يبق لديه أحـــد من أهل الثقة ذوى الروح الغيرية العامة[1] ، ولم يكن هناك مجلس شيوخ (سناتو) ، ولا أى مجلس أيا كان يشاركه وضع الخطط وتطويرها . فإلى أى مدى أدرك ذلك الرجل ضعف إمبراطوريته وإلى أى حد كان يرى الكارثة الشاملة التى كانت عند ذاك وشيكة الحدوث ؟ ذلك ما لا نســتطيع أن نعتمد فيه إلا على الحدس والتخمين . ومهما يكن الأمر فإنه جعل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية بيثنيا . وقد مات والقسطنطينية عبر البسفور ما تزال تبنى . ويلوح أنه — شأن دقلديانوس — قد أدرك انقصام[2] ظهر معالم ممتلكاته وشكلها العام . .

---

(١) يقصد المؤلف بهؤلاء كل شخص يعنى بالشئون العامة وخدمة الجمهور . (المترجم)

(٢) انقصم الظهر بمعنى انكسر . (المترجم)

وركز اهتمامه على الشئون الخارجية ، وعلى الأخص إلى شئون بلاد المجر وجنوب الروسيا والبحر الأسود . وقد أعاد تنظيم أداة الحكم فى الإمبراطورية ، وأعطاها دستوراً جديداً وسعى فى أن يكون أسرة مالكة . وكان مجدداً لا يهدأ له بال ؛ فحاول أن يعالج الفوضى الاجتماعية بمساعدته نظام الطوائف على التطور . وهو فى هذا يترسم خطى سلفه العظيم دقلديانوس . فحاول أن يجعل من الفلاحين وصغار الزراع طائفة ، وأن يحظر عليهم الانفصال عما فى حوزتهم من أرض ، وهو فى الحقيقة قد سعى أن يجعلهم موالى أرض (Serfs) . ذلك بأن الوارد من الأرقاء العمال قد نضب معينه ، إذ أن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو : فانقلب يتلمس العلاج فى نظام موالى الأرض ، واقتضت جهوده الخلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق لها مثيل . وتشير كل هذه الأمور إلى عقل قوى يشعر بالوحدة الموحشة . وتتجلى قوة ابتكاره الأصيلة فى فهمه البيِّن للحاجة إلى بعض القوى الأخلاقية الموحِّدة التى لا بد منها لتماسك بنيان الإمبراطورية .

ويبدو أنه لم يدرك الاختلافات العنيفة القائمة بين رجال اللاهوت إلا بعد أن تحول بوجهه صوب المسيحية . فأنفق جهداً عظيماً للتوفيق بين هذه الفروق لكى يتسنى له أن يبث فى المجتمع تعاليم تتصف بالتناسق والانسجام ، وبناء على مشورته عقد مجمع عام للكنيسة (٣٢٥) فى نيقيا ، وهى مدينـــة تقع قرب نيقوميديا فى مواجهة القسطنطينية . ويقدم إلينا يوسبيوس (Eusebius)[1] بياناً عجيباً عن هـــذا الإجتماع الغريب ، الذى كان يترأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحياً معمداً . لم يكن أول مجلس عقده من أجل الكنيسة ، لأنه سبق له أن رأس فى (٣١٤) مجلساً فى آرل (Arles) . جلس الإمبراطور فى بهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب ، وإذ أنه كان رقيق الزاد من الإغريقية ، وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة ملامح وسحنة وإيماءات المتناظرين وسماع نغمات أصواتهم . وكان المجلس عاصفاً . ولما قام آريوس (Arius) المسن ليتكلم ، لطمه على وجهه شخص هو نيقولاس الميرى (Nicholas of Myra) ، ثم هرول الكثيرون بعد ذلك إلى الخارج ، وقد وضعوا أصابعهم فى آذانهم فى رعب مفتعل من هرطقات الرجل الشيخ . وإن المرء ليلذ له أن

(١) يوسبيوس (ح ٢٦٠ – ٣٤٠ م.) هو أبو التاريخ الكنسى . ويعتقد أنه ولد بفلسطين . عين أسقفا لقيصرية ح ٣١٣ ولعب دوراهاما فى مجمع نيقيا . (المترجم).

يتصور الإمبراطور العظيم ، وهو فى أشد القلق على روح إمبراطوريته ، كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانقسامات ، منحنياً نحو مترجميه يسألهم إيضاح تلك الضجة .

وتمخض هـــذا المجمع عن « بيان العقيدة النيقية » وهو بيان « ثالوثى » دقيق ، وناصر الإمبراطور هذه العقيدة « الثالوثية » . ولكن لما حدث فيما بعد أن أثناسيوس اشتط فى الحملة على الأريوسيين ، أمر به فنفى من الإسكندرية ، ولما رغبت كنيسة الإسكندرية فى حرمان آريوس ، أجبرها على أن تعيده إلى حظيرتها .

٨ ـ تأسيس المسيحية الرسمية

إن عام (٣٢٥ م) يعد من أنسب التواريخ لكتابنا هذا . إذ هو تاريخ أول مجمع عام « مسكونى Oecumenical » بكامل هيئته للعالم المسيحى بأسره : (فأما ذلك المجمع الذى عقد فى آرل وذكرناه آنفاً فكان اجتماعاً للنصف الغربى فقط) . وهو يسجل دخول الكنيسة المسيحية والدير المسيحى بصفة قاطعة إلى مسرح الشئون الإنسانية ، على النحو المفهوم عن ذلك الدين فى العالم اليوم عامة . وهو يحدد التعريف الدقيق للتعاليم المسيحية بواسطة قرار العقيدة النيقية (Nicene Creed) .

ومن الضرورى أن نستلفت نظر القارئ إلى الفروق العميقة بين مسيحية نيقيا هذه التامة التطور وبين تعاليم يسوع الناصرى . فإن المسيحيين جميعاً يعتقدون أن الأولى تنطوى على الثانية وتحتويها احتواء تاماً ، على أن هذه مسألة تخرج عن مجالنا . فمن الواضح تماماً أن تعاليم يسوع الناصرى تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذى ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين . وهى لم تكن كهنوتية ، ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل . ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس . وكان قربانها « قلباً كسيراً خاشعاً » . وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة . بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين ، وإن احتفظت بتعاليم يسوع فى الأناجيل كنواة لها ــ كانت فى صلبها « ديانة كهنوتية » ، من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف من السنين ، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة ، والعمل الجوهرى فى العبادة فيها

هو القربان بقربه قسيس متكرس للقـــداس . ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من الشمامسة والقساوسة والأساقفة .

ولئن اتشحت المسيحية بأردية خارجية تشابه نحل سيرابيس أوآمون أو بعل مردك مشابهة غير عادية ، فلابد لنا من تذكر أنه حتى كهانتها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها . فإنها لم يكن لديها فى أى مكان أى صورة مجسدة شبه قدسية للرب . ولم يكن هناك معبد رئيسى يحوى الرب ، وذلك لأن الرب موجود فى كل مكان ولم يكن هناك قدس أقداس . وكانت مذابحها المنبثة فى كل مكان موجهة كلها إلى الثالوث العام الذى لا يرى . والمسيحية حتى فى أقدم مظاهرها كانت تحوى شيئاً جديدا .

وثمة أمر هام جدا علينا أن نلحظه ونسجله وهو الدور الذى لعبه الإمبراطور فى تثبيت المسيحية . فلم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبير هو الذى دعا لاجتماع مجمع نيقيا، بل إن كل المجامع العظيمة ، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١ ، ٥٥٣) وواحد بإفيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخلقدون (Chalcedon) (٤٥١) ، جمعتها كلها يد الإمبراطور، والجلى الذى لا خفاء فيه أن قدرا كبيرا من تاريخ المسيحية فى ذلك العصر يشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع إن لم يزد . وكان قسطنطين كما سبق أن نوهنا مستبدا (أوتوقراطياً) مطلقاً . ذلك بأن آخر آثار الروح الجمهورية الرومانية قد اختفت فى أيام أوريليان ودقلديانوس . وكان يحاول بالقدر الذى هيأته له معارفه ، أن يعيد — قبل أن يفوت الأوان — تكوين الإمبراطورية المتضعضعة ، وكان يعمل من غير مستشار أو ناصح ، أو أى رأى عام أو أى شعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من وسائل العون والضبط . فإن فكرة محق كل خصومة وانقسام ، والقضاء على كل فكر بواسطة فرض عقيدة « اعتقادية Dogmatic » واحدة على المؤمنين جميعاً ، إنما هى فكرة استبدادية أوتوقراطية بأشمل معانى الكلمة ، وإنها لفكرة الرجل الفرد الذى يعمل بغير معين والذى يشعر أنه لكى يستطيع أن يعمل ينبغى أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد . ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره ، سلسلة من الكفاحات العنيفة التى كان لا بد من حدوثها نتيجة لمباغتته الناس بدعوته الفجة إلى الإجماع على رأى . وعنه

إقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية ، وإنشــاء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها .

وجاء بعد ذلك مستبد عظيم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodosius I) أو ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ — ٣٩٥) فســاهم من فوره فى فرض طابع استبدادى صريح على المسيحية الكاثوليكية . فحرم على من لم تصح عقدتهم من المسيحين عقد الاجتماعات ، وسلم كل الكنائس للثالوثيين ، وقضى على معابد الوثنية فى كل أرجاء الإمبراطورية ، وفى ٣٩٠ أمر بتمثال سيرابيس العظيم بالإسكندرية فحطم . إذ لم يكن ليسمح بعد ذلك بوجود أية منافسة ولا أية مناقضة لوحدة الكنيسة المتماسكة .

ولسنا بمستطيعين أن نخرك هنا بما عانته الكنيسة من المتاعب الداخلية الهائلة ولا عن عدم هضمها للزنادقة مثل أتباع أريوس وأتباع بولس[١] والأدريين (الأغنسطيين) والمانويين . ولو أنها كانت أقل استبداداً وأكثر تسامحاً مع الأفكار المتنوعة ، فلربما أصبحت هيئة أقوى بكثير مما وصلت إليه . ولكنها على كل هذه الاضطرابات ، ظلت زماناً تحتفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فيها من التعاطف ورحابة الأفق ما لم تصل إليه الإنسانية قبل ذلك قط . ولما وافى القرن الخامس إذا المسيحية أخذت بالفعل تتبوأ منزلة أعظم وأقوى وأشد دواماً مما وصلت إليه أية إمبراطورية فى الماضى . لأنها لم تكن مجرد شىء مفروض على الناس فرضاً بل هى قطعة من نسيج عقولهم . وقد تجاوز اتساعها أقصى حدود الإمبراطورية بكثير ، حتى شملت أرميلية وفارس والحبشة وإيرلندة وألمانيا وحتى تغلغلت فى الهند والتركستان . « وهى وإن تألفت من مجاميع منتثرة انتثاراً متباعداً ، فإن الناس كانوا يفكرون فيها بوصفها جماعة واحدة للمسيح وشعباً واحداً لله . واستطاعت هذه الوحدة المثالية أن تجد للتعبير عن نفسها سبلا عديدة . فإن تبادل الاتصال بين المجتمعات المسيحية المتنوعة كان قائماً على قدم

---

(١) أتباع بولس (Paulicians) : فرقة من الزنادقة نشأت بسوريا والشرق فى القرن السابع عقيدتها خليط من الأغنسطية والمانوية . واشتق اسمهم من القديس بولس الذى كانوا يولونه وكتاباته تبجيلا عظيما . (المترجم)

وساق . وكان المسيحيون الذين هم على سفر ، على يقين دائماً من استقبال حار وترحاب كريم من إخوانهم فى الدين . وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى . وكان المبشرون ودعاة الإنجيل ينتقلون على الدوام من مكان إلى مكان . وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف ، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية ، منتشرة انتشاراً واسعاً . وهكذا وجد الشعور بالوحـــدة طرائق منوعة للتعبير عن نفسه . حتى لكأن تطور أجزاء متباعدة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة ، طرازاً مشتركاً بينهن جميعاً »[1] .

وقد احتفظت المسيحية على الأقل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة للروح حتى عام ١٠٥٤ ، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية اللاتينية اللسان ، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة وهى الكنيسة « الأرثوذكسية » ، انفصلتا إحداهما عن الأخرى لسبب صورى هو إضافة كلمتين على العقيدة ، فإن الملة القديمة كانت أعلنت « ان روح القدس منبثق من الأب » . وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أى ومن الإبن أيضاً) بل وأضافتها فعلا ، وبذلك أخرجوا اليونان من مجتمعهم الدينى لأنهم أبوا أن يتبعوا ملتهم . على أن مسيحيى شرق سوريا وفارس وآسيا والهند كانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل فى زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس متذرعين بمثل هـــذه الذرائع ، — إذ كانت هناك كنائس فى مرو وهيرات وسمرقند . فهؤلاء المسيحيون الآسيويون الشديدو الطرافة يعرفون فى التاريخ باسم الكنيسة النسطورية ، وقد امتـــد سلطانهم إلى صميم بلاد الصين . كذلك فصلت الكنيستان المصرية والحبشية نفسيهما فى زمن مبكر جداً لمثل هذه النقاط التى لا سبيل إلى تفسيرها . ومهما يكن الأمر ، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمى بين شطرى الكنيسة الرئيسية الناطقين باللاتينية والإغريقية بزمن كبير ، كان هناك انفصال فعلى جاء فى أعقاب انقسام الإمبراطورية . ذلك بأن أحوالهما تباعدت منذ البداية . فعلى حين كانت الإمبراطورية الشرقية الإغريقية اللغة متماسكة البنيان ، وعلى حين ظل الإمبراطور فى القسطنطينية متسلطاً على الكنيسة ، فإن النصف اللاتينى من الإمبراطورية قد انهار

---

(١) الموسوعة البريطانية مادة « تاريخ الكنيسة » ص ٣٣٦ .

كما سبق أن قلنا ، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمبراطورى .

وفضلا عن ذلك فإنه بينما كانت السلطة الكنسية (الإكليروســية) فى إمبراطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطاركة فى القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس ، فإن السلطة فى الغرب تركزت فى بطريرك أو بابا روما . وكان الجميع يعترفون على الدوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطاركة ، وتآزرت كل هذه الأمور على تبرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحق فى ممارسة سلطات شبيهة بسلطات الإمبراطور . حتى إذا سقطت الإمبراطورية الغربية سقطتها النهائية ، اتخذ البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذى كان الأباطرة يتخذونه لأنفسهم ، وبذا أصبح كاهن القرابين الأعلى فى قديم التقاليد الرومانية ، فأما فى بلاد الغرب فقد اعترف الناس له اعترافاً كاملا بالسيادة العليا على المسيحيين هناك ، فأما فى داخل ممتلكات الإمبراطور الشرقى ودائرة اختصاص البطاركة الأربعة الآخرين ، فقد كان من الضرورى منذ البداية توخى منتهى الحذر فى حث الناس على تقبل تلك السيادة .

وكان القول بتولى الكنيسة الحكم الدنيوى منتشراً بالفعل فى القرن الرابع الميلادى . فإن القديس أوغسطين وهو من أهل مدينة هيبو[1] بشمال إفريقية ، كتب بين ٣٥٤ ، ٤٣٠ معبراً عن تطور الفكرات السياسية للكنيسة فى كتابه « مدينة الرب » . وكتاب « مدينة الرب » ينتقل بفكر قارئه مباشرة إلى إمكان تحويل العالم إلى « مملكة سماء » لاهوتية منظمة . والمدينة كما يصورها أوغسطين إنما هى «مجتمع روحى من المؤمنين المقدور لهم الإيمان منذ الأزل » ، بيد أن الانتقال من ذلك إلى التطبيق السياسى للفكرة لم يكن بالخطوة الواسعة . إذ كان ينبغى للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التى تسود الشعوب جميعاً ، والقوة التى ترشدها العناية الربانية وتحكم من فوق عصبة عظيمة من الدول الأرضية . وتطورت هاته الفكرات فيما أعقب ذلك من أعوام فأصبحت نظرية سياسية وسياسة محددة . وبينما الشعوب البربرية تستقر وتتحول إلى المسيحية ، شرع البابا يدعى أن له السيادة العليا على ملوكهم . ولم تنقض بضع قرون حتى أصبح البابا من

---

(١) فى الموسوعة العربية الميسرة أنه ولد بمدينة تجستى النوميدية . ونوميديا إقليم قديم فى شمال غرب فريقيا يطابق بالتقريب الجزائر الحديثة . (المترجم)

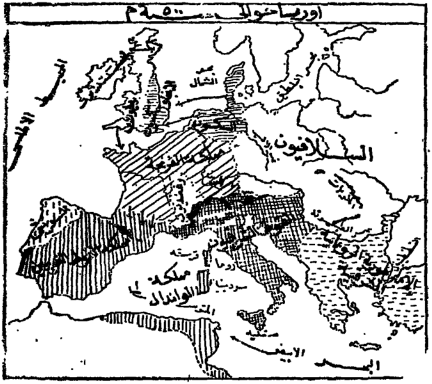
الناحية النظرية ، وإلى حد معين من الناحية العملية ـ الكاهن الأعلى والرقيب والقاضى والملك القدسى للعالم المسيحى . وامتد سلطانه غرباً إلى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبراطورية القديمة : إلى إيرلندة والسويد والنرويج وشمل كل بلاد ألمانيا . وانقضت ألف عام أو تزيد ، وأوربا تسود فيها هذه الفكرة القائلة بوحدة المسيحية ، وهى التى تتصور العالم المسيحى فى صورة ضرب من حلف من الدول ، يمتنع أعضاؤه حتى فى أيام الحروب عن إتيان كثير من الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوّة المشتركة والولاء المشترك للكنيسة . ومن أسف أن تاريخ أوربا منذ القرن الخامس فما بعده حتى القرن الخامس عشر ظل فى الأغلب تاريخاً يسجل فشل هذه الفكرة العظيمة ، فكرة قيام حكومة عالمية مقدسة ، ـ عن تحقيق نفسها عملياً

٩ ـ خريطة أوربا فى ٥٠٠ م .

أدلينا إليك فى الفصل السابق ببيان عن أهم الغارات التى قامت بها الشعوب المتبربرة . وفى إمكاننا الآن أن نقوم بمساعدة إحدى الخرائط بمراجعة وجيزة لأقسام أوربا السياسية عند ختام القرن الخامس . فى ذلك الحين ، لم يبق للإمبراطورية الغربية وهى الإمبراطورية الرومانية الأصلية ، أثر بوصفها قسما سياسياً متميزاً منفصلا . فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطاماً بالياً وحل محلها فى عقول الناس بأجزاء كثيرة من أوربا الشرقية الهلّينية التى أصبحت هى « الإمبراطورية » فى عرفهم . وكان الإمبراطور فى القسطنطينية لا يزال هو الإمبراطور ـ من الناحية النظرية على الأقل .

أما فى بريطانيا فكان الأنجل (الإنجليز) والسكسون والجوت ـ وهم أجيال من التيوتون البرابرة البالغى الهمجية قد غزوا نصف إنجلترة الشرقى . وكان البريطون (Britons) لا يزالون صامدين فى غربى الجزيرة ، بيد أنهم كانوا يرغمون على التقهقر إلى الخلف رويدا رويدا نحو ويلز وكورنوال . على أن الأنجلوسكسون كانوا فيما يبدو من أشد البرابرة الغزاة قساوة وتأثيراً فعالا فيمن حولهم ، فحيثما سادوا حلت لغتهم محل اللغــة الكلتية أو اللاتينية اللتين كان البريطانيون يستخدمون إحداهما ـ ولسنا ندرى

على وجه التحقيق أيهما كانوا يســـتخدمون . ولم يكن هؤلاء الأنجلوسكسون تنصروا بعد .



(شكل ١٢١) خريطة أوربا حوالى سنة ٥٠٠ م .

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندة وأرض الراين فكانت تحت حكم مملكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدناً . بيد أن وادى الرون كان تابعاً لمملكة منفصلة هى مملكة البرجنديين . على حين كانت أسبانيا وشطر من جنوب فرنسا تحت حكم القوط الغربيين ولكن السويڤ كانوا يملكون الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة .

ولقد سبق أن كتبنا عن مملكة الوندال بإفريقية ؛ فأما إيطاليا ، وكانت لا تزال رومانية السكان والعادات ، فإنها وقعت فى قبضة القوط الشرقيين . لم يبق هناك إمبراطور بروما ؛ بل كان يتولى الحكم هناك ثيودوريك الأول بوصفه أول ملوك القوط . وكان حكمه يمتد عبر جبال الألب إلى بانونيا وينحدر جنوبا فى الأدرياتى إلى دالماتيا وبلاد الصرب .

على حين كان أباطرة القسطنطينية يحكمون إلى الشرق من مملكة القوط حكماً ثابتاً مستقراً . وما برح البلغار حتّى ذلك الوقت قبيلة مغولية من الرحّل راكبة الخيول فى منطقة الفولجا . أما الصربيون الآريون فقد انحدروا حديثاً نحو الجنوب إلى شواطئ البحر الأسود ، إلى المواطن الأصلية للقوط الغربيين ؛ ولم يكن المجريون ذوو الأرومة التركية الفنلندية ، وصلوا بعد إلى أوربا . وكان اللومبارد نازلين حتّى ذاك الوقت فى شمال الدانوب .

ويمتاز القرن السادس بدور من القوة تفيأته الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥) . فاسترجعت الإمبراطورية مملكة الوندال عام ٥٣٤ م ؛ وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م . وما أسرع ما انحدر اللومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت جستنيان (٥٦٥) ، فاستقروا فى لومبارديا ، على أنهم تركوا رافنا وروما وجنوب إيطاليا وشمال إفريقية تحت حكم الإمبراطورية الشرقية .

ذلك هو الوضع السياسى للعالم الذى تطورت فيه فكرة عالم المسيحية **Christendom** . والحق إن الحياة اليوميـــة لذلك الزمان كانت تتقلب فى مستوى خفيض جداً ــ لا جرم ــ من النواحى الجثمانية والذهنية والخلقية . وكثيراً ما يقال إن أوربا قد انحدرت إلى البربرية فى القرنين السادس والسابع ، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال . والأصح كثيراً أن يقال إن مدنية الإمبراطورية الرومانية قد دخلت فى دور انحلال خلقى متطرف . والبربرية نظام اجتماعى ذو طراز أولى ، ولكنه منظم داخل نطاقه ؛ بيد أن أوربا من دون تمزقها السياسى كانت فى حالة فوضى اجتماعية . ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحدى قرى المتوحشين (Kraal) بجنوب إفريقيا بل معنويات حى فقير بإحدى المدن . فى القرية المتوحشة ، يعرف المتوحش أنه ينتمى إلى مجتمع ، ويعيش ويتصرف وفقاً لهذا ، فأما فى حى الفقراء ، فإن الفرد لا يعرف ولا يعترف بأى كائن أكبر منه ولا يتصرف مرتبطاً إلى ذلك الكائن .

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضعف أن تعيد ذلك الإحساس المفقود وأعنى به الإحساس بالمجتمع وأن تعلم الناس أن يلتفوا حول فكرة « عالم المسيحية » .

- لقد أصبح البناء الاجتماعي والاقتصادى للإمبراطورية الرومانية حطاماً وأشلاء . فإن حضارتها حضارة ثراء وسلطان سياسي يقومان على ما ترسف فيه كتلة البشرية الكبرى من قيود واسترقاق . أجل إنها تجلت فى مشهد من الفخامة الظاهرية والكماليات المترفة ، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الخارجى النبيل كل ألوان القساوة والغباء والركود ، فكان لا بد لها من أن تتحطم ، وكان لا بد من إزالتها قبل أن يستطيع أن يخلفها ما هو خير منها .

ولقد سبق أن استرعينا الأنظار إلى موتها الذهنى . إذ أنها لم تنتج فى ثلاثة قرون علماً ولا أدباً له أية قيمة . والواقع أن الاستطلاعات المخلصة غير المغرضة والدوافع النقية الصافية لن تجد مجالا يتيح للعالم فلسفة متزنة وعلماً راقياً وفناً منظماً ، إلا حيث يوجد رجال ليسوا من الثراء والقوة بحيث يغرون على الإغراق فى الملذات . وليسوا فقراء مكدودين بحيث لا يعنون بشيء وراء الحاجة اليومية . على أن بلوتوقراطية روما : (حكومة الأثرياء المترفين) (Plutocracy) قد جعلت مثل هـذا الشيء أمراً مستحيلا . فعندما لا يجد الرجال والنساء أن لهم حداً يلتزمونه ولا ضابطاً يكبحهم ، فإن شواهد التاريخ تدل بأجلى بيان أنهم جميعاً بلا استثناء عرضة لأن يصبحوا وحوشاً عتاة فى إمتاع النفس بالملذات ؛ فإن أضناهم العسر وأذلهم الشقاء ، لجأوا إلى الأحزان الفاجعة أو إلى الفتن الهوجاء أو فزعوا إلى الدين وما فيه من تقشف وتزمت .

على أنه يخيل إلى أننا ربما جانبنا الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقياً تعساً فى هذه « العصور المظلمة » ، التى وصلنا إليها الآن ؛ ويكون أقرب إلى الصدق كثيراً أن نقول إن ذلك الخداع العنيف السوقى الخشن الذى ركبت عليه الإمبريالية الرومانية ، ذلك العالم من السياسيين والمغامرين وأرباب الأملاك والماليين ، قد هوى فى خضم البؤس الذى كانت أمواجه تتلاطم حولهم من قبل . ولا يخفى أن معلوماتنا التاريخية عن تلك الأزمان بتراء ناقصة إلى أبعد حد ، فقل أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا ، وقلما كان هناك تشجيع على الكتابة إطلاقاً ؛ ولم يكن هناك ضمان يكفل لأى إنسان سلامة كتاباته أو يؤكد احتمال قراءتها . بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدراً يتيح لنا أن نقول إنه لم يكن مجرد عصر لصوصية وحروب ، بل عصر مجاعة ووباء . إذ لم تظهر فى العالم حتى

ذلك الحين أية هيئة صحية ذات أثر فعال ، ولا بد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضى على كل إجراء صحى يتخذ . فإن تخريب آتيلا لشمال إيطاليا لم يوقفه إلا انتشار الحمى فى ٤٥٢ . كما حدث وباء عظيم من الطاعون الدملى قرب نهاية حكم جستنيان (٥٦٥) ، كان له أثر كبير فى إضعاف دفاع إيطاليا أمام اللومبارد . وفى ٥٤٣ مات عشرة آلاف إنسان فى يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيبون « إن هذا العدد كان يموت كل يوم ») . وكانت مراجل الطاعون تغلى وتهدر فى روما عام ٥٩٠ . وكان القرن السابع كذلك قرناً منكوباً بالطاعون . ويسجل بيد[1] (Bede) الإنجليزى ، وهو أحد الكتاب القليلين فى زمانه ، أوبئة حدثت فى إنجلترة فى ٦٦٤ ، ٦٧٢ ، ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، أى ما لا يقل عن أربعة فى عشرين سنة ! ويقرن جيبون الوباء الجستنيانى بالمذنب العظيم الذى ظهر عام ٥٣١ ، وبما دهى به العالم أثناء حكم ذلك العاهل من الزلازل المتتابعة الخطيرة . فيقول « غودرت كثير من مدن الشرق خاوية على عروشها ، وذبل المحصول والعنب على الأرض فى كثير من أصقاع إيطاليا » . وهو يدعى حدوث « نقص ظاهر فى النوع الإنسانى لم يعوض قط فى بعض من أجمل أقطار الدنيا » . وقد بدا للكثيرين فى تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يجعل الحياة مستساغة مقبولة قد أوشك على الزوال .

ومن المحال علينا أن نعرف إلى أى حد كانت العامة أتعس حالا فى ظلال هذه القذارة وعدم الاطمئنان منها تحت نظام الإمبراطورية الطاحن . أجل إنه ربما اختلفت الظروف بين مكان وآخر ، فهنا حكم أشرار عنيفين وهناك حرية معتدلة ، وقد تلقى مجاعة فى هذه السنة ووفرة خيرات فى التى تليها . فلئن كثر اللصوص ، فإن جامعى الضرائب والدائنين قد اختفوا . وإن ملوكاً من أمثال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونوا فى الواقع إلا أطيافا وحكاماً لا سلطان لهم على معظم من يسمون برعاياهم . كانت حياة كل ناحية ترزح فى مستوى خفيض ، ليس به إلا القليل من التجارة والأسفار. وقد يسيطر بعض المقتدرين من الأشخاص على مساحات كبرت أو صغرت من الريف ؛ مدعيا على قدر من الحق والعدالة يختلف زيادة ونقصاناً ، لقب لورد أو كونت أو دوق مستقى من تقاليد الإمبراطورية المتأخرة أو من الملك . ويقوم هؤلاء

---

(١) بيد (ح ٦٧٣ – ٧٣٥) لاهوتى ومؤرخ إنجليزى ، سمى بيد الوقور . كتب أعمالا علمية ولاهوتية وتاريخية كثيرة . (المترجم)

النبلاء المحليين بجمع فرق من الأتباع وبناء معاقل حصينة لأنفسهم . وكثيراً ما كانوا يتخذون لأنفسهم مبانى قديمة يكيفونها وفق حاجتهم . مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المجتلد الذى طالما شهد حفلات المجالدين ، حول إلى قلعة ، وكذلك حول المسرح المدرج فى آرل . وكذلك أيضاً حولت مقبرة هادريان العظيمة بروما .

وكان يحدث فى المدن والبلدان المتهدمة التى صارت عند ذاك غير صحية ، أن هيئات صغيرة من مهرة الصناع كانت تتضافر وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها ، مع وضع أنفسهم فى حماية بعض النبلاء المجاورين .

١٠ ــ خلاص العلوم على يد المسيحية

حملت هيئات الرهبنة : (الديرية) المسيحية التى أخذت تنشأ فى العالم الغربى إبان القرنين السادس والسابع ، نصيباً بالغ الأهمية فى عملية إعادة التبلور الاجتماعى الذى حدث فى هذين القرنين بعد ما جرى فى الرابع والخامس من التحطم والانصهار .

كانت الأديرة موجودة فى العالم قبل ظهور المسيحية . وفى الفترة التى ألم فيها الشقاء الاجتماعى باليهود قبل زمان يسوع الناصرى ، كانت طائفة من النساك الإسينيين[١] تعيش منعزلة فى مجتمعات وقد وهبت نفسها لحياة تقشفية من الوحدة والطهر وإنكار الذات . كذلك أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتزلوا غمرة الجهود العامة والتجارة فى العالم ، ليعيشوا عيش التقشف والتأمل . والواقع أن قصة بوذا ، كما سردناها لك ، أبانت أن مثل هذه الفكرات لا بد أنها كانت منتشرة فى الهند قبل أيامه بزمن بعيد ، وأنه عاد فنبذها وراء ظهره آخر الأمر . ونشأت فى زمن مبكر جداً من تاريخ المسيحية حركة مشابهة لهذه ، تتنكب ما يغمر حياة الناس اليومية من منافسة وحمية وشدائد . وفى مصر على وجه الخصوص ، خرجت حشود كبيرة من الرجال والنساء إلى الصحراء ، وهناك عاشوا عيشة عزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات ، وظلوا يعيشون فى فقر مدقع فى الكهوف أو تحت الصخور على الصداقات التى تقذفها

(١) الإسينيون : جماعة إخاء دينية بين اليهود الأقدمين كانت تعيش عيشة شظف انعزالية والملكية بينها شيوع . (المترجم)

إليهم الصدقة من أولئك الذين يتأثرون بقداستهم . وربما لم يكن لمثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى المؤرخ - فإنها لعمرى أنفس منسحبة من التاريخ بحكم طبيعتها ذاتها - لولا ذلك الاتجاه الذى اتخذته للفور تلك النزعة الديرية (Monasticism) بين الأوربيين الأكثر نشاطاً والأميل إلى الناحية العملية .

ويعد القديس بندكت الذى عاش بين سنتى ٤٨٠ ، ٥٤٤ من أهم الشخصيات فى قصة تطور الديرية فى أوربا . ولد فى مدينة اسپوليتو (Spoleto) بإيطاليا ، وكان شاباً كريم الأصل جم الكفاية . وقد ألقت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالها ، فمال إلى الحياة الدينية كما مال بوذا ، وأطلق لتقشفاته العنان فى مبدأ الأمر . فهناك على مبعدة خمسين ميلا من روما تقع سوبياكو (Subiaco ، وعنــد نهاية خانق فى نهر الأنيو (Anio) تحت أجمــة من الأعشاب والشجيرات ، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمبراطور نيرون ، يطل على بحيرة صناعية صنعت فى أيام الرخاء المنصرم ذاك بحجز مياه النهر . وهناك اتخذ بندكت - وكان أهم ما فى حوزته قميص من الشعر - مقامه بكهف فى صخرة عالية متجهة جنوباً تطل على النهر ، وهى فى مركز يصعب الوصول إليه ، إلى حد أن أحد المعجبين به كان يضطر أن يدلى إليه طعامه بحبل وهناك أقام ثلاث سنوات.ذاعت فيها شهرته : مثلما ذاعت شهرة بوذا فى ظروف مشابهة قبل ذلك بألف سنة .

وكما حدث فى حالة بوذا ، فإن قصة بندكت أضيف إليها بفضل تلاميذ له سخفاء بسيطى العقول ، طائفة من سخيف الحكايات القائمة على المعجزات والكرامات . على أننا لا نلبث حتى نجده وقد انصرف عن تعذيب النفس ، وأخذ يدير مجموعة من اثنى عشر ديراً ، كانت ملاذ عدد كبير من الناس . ويجلب الشباب إليه ليتعلموا على يديه العلم ، وبذا تغير وجه حياته كلية .

وانتقل من سوبياكو جنوباً إلى مونتى كاسينو ، وهو جبل فى منتصف المسافة بين روما ونابلى ، موحش جميل ، يقوم فى وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الرائعة . ومن الشائق أن نلحظ أن القــديس وجد هنا فى القرن السادس الميلادى ، معبداً لأپولو وأجمة[1] مقدسة ، كما وجد أن المنطقة الريفية المجاورة ماتزال تتعبد فى ذلك

(١) الأجمة : الشجر الكثير الملتف . (المترجم)

المعبد . لذا لم يكن بد من أن يبدأ عمله ، بالتبشير لدين المسيح ، فاستطاع فى شىء من العسر أن يقنع الوثنيين البسطاء أن يهدموا معبدهم وأن يقطعوا أجمتهم . وما لبثت المؤسسة المنشأة على مونتى كاسينو أن بلغت حد الشهرة والقوة فى حياة مؤسسها . وإنا لنستطيع أن نعرف شيئاً من روح بندكت الحقيقية وإن اختلطت بمخترعات وطرهات سخيفة صاغها خيال رهبان مولعين بالعجائب : من أبالسة تنصاع للرقى ، وتلاميذ يمشون على الماء وأطفال موتى يعودون إلى الحياة . غير أن الأقاصيص التى تمثله ينهى عن التطرف فى قمع النفس وإذلالها ، إنما هى أقاصيص لها مغزى ودلالة خاصة . فإنه أرسل رسالة لراهب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع بربط نفسه بسلسلة إلى صخرة فى غار ضيق يثبط فيها من حماسته ويدعوه فيها أن يخفف من غلوائه . قال بندكت : « كسّر أغلالك ، لأن خادم الله الحقيقى ، لا يغل إلى الصخور بالحديد ، وإنما يربطه المسيح إلى الهدى والبر » .

والميزة الثانية التى يمتاز بها بندكت بعد مقاومته لتعذيب النفس والعزلة ، إصراره على ضرورة الجد فى العمل . وتسطع فى ثنايا الأساطير دلائل واضحة تشهد بالشغب الذى أحدثه تلاميذه ومريدوه النبلاء ؛ الذين وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الكدح الشديد بدلا من أن يعيشوا عيش التقشف والبطالة معتمدين على خدمة إخوانهم من أبناء الطبقة الدنيا . والشىء الثالث العجيب حول بندكت هو نفوذه السياسى . فإنه نصب نفسه لإصلاح ذات بين القوط والطليان ، ومن المعروف أن توتيلا (Totila) ، ملك إيطاليا القوطى ، حضر إليه يطلب مشورته ، وأنه تأثر به تأثراً عظيما . ولما استرجع توتيلا نابلى من الإغريق ، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حتى الجنود المأسورين بالإنسانية . وذلك بينما حدث عندما استولى بليساريوس قائد جستنيان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات ، أنه احتفل بنصره بإقامة مذبحة عامة .

والواقع أن هيئة الرهبنة التى أوجدها بندكت ، كانت بداية عظيمة جداً فى العالم الغربى . ومن بين أتباعه المبرزين البابا جريجورى الكبير (٥٤٠ — ٦٠٤) ، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠) ؛ وهو من أشد الباباوات اقتداراً وهمة وتشاطاً ؛ حيث أرسل بعثات تبشيرية تكللت جهودها بالتوفيق إلى من لم يعتنقوا الدين المسيحى وعلى

الأخص إلى الأنجلوسكسون . وحكم فى روما كأنه ملك مســتقل ، ينظم الجيوش ويعقد المعاهدات . وإلى نفوذه يرجع الفضل فى فرض قواعد المذهب البندكتى وأصوله على كل الرهبنات اللاتينية تقريباً .

ويرتبط كاسيودورس (٤٩٠ – ٥٨٥) بهذين الاسمين ارتباطاً وثيقاً من حيث تطور الرهبنة (الديرية) من مجرد تعذيب النفس الأنانى لدى النساك الأول ، إلى القيام بدورها فى خدمة الحضارة . وواضح أنه كان أسن بكثير من البابا جريجورى ، ويصغر بندكت بعشر سنوات ، وكان شأن هذين – ينتمى إلى أسرة نبيلة من البطارقة ، أسرة سورية استقرت فى إيطاليا . قضى مدة كبيرة من حياته موظفاً فى خدمة ملوك القوط ؛ ولما حدث بين سنتى ٥٤٥ ، ٥٥٣ ، أن مهد خلع هؤلاء الملوك والوباء العظيم ، الطريق لحكم اللومبارد البربرى الجديد ، راح يلتمس الملاذ فى حيـــاة الرهبانية ، فأنشأ ديراً على أرض مزارعه الخاصة ، وجعل الرهبان الذين جمعهم يشتغلون على نفس النسق البندكتى تماماً ، وإن كنا لا ندرى هل كان رهبانه يتبعون بالفعل القواعد والأصول البندكتية التى كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان فى مونتى كاسينو . ولكن لا يتطرق الشك حول تأثيره على تطور هذا النظام العظيم القائم على العمل والتعليم والدراسة . ومن الجلى أنه قد راعه ما زان على التعليم من انحلال عام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد العالم . لذا وجه إخوانه منذ البداية إلى ضرورة حفظ هذه الأشياء وإعادتها إلى نصابها . فجمع المخطوطات القديمة وأمر بها فنسخت . وقام بصنع المزاول والســاعات المائية وما شابهها من أجهزة : وهو قبس ضئيل أخير للعلم التجريبى خفق هنيهة فى تلك الظلمات المتكاثفة . وألف كتاباً فى تاريخ ملوك القوط ؛ ومن أوضح الدلالات على شعوره بحاجة زمانه ، إصداره سلسلة من الكتب المدرسية عن الفنون الحرة[1] وكتاباً فى الأجرومية أعنى قواعد اللغة . والراجح أن سلطانه ، يكاد يرجح سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قوية لإعادة النظام الاجتماعى فى العالم الغربى إلى نصابه .

---

(١) الفنون الحرة (Liberal Arts) : هى فروع معينة من الفكر والعلوم الإنسانية تعد وسائل لا بد منها للتنمية الفكرية مثل النحو والمنطق والرياضيات . (المترجم)

وكان انتشار أديرة النظام أو السلك البندكتي فى القرنين السابع والثامن عظيما جداً . فإنا نجـدها فى كل مكان مركزاً للنور يعيد مستوى التهذيب إلى نصابه ويحافظ عليه ويرفع لواءه ، ويقيم ضرباً من التعليم الأولى ، وينشر فنونا مفيدة ويكثر من عدد الكتب ويختزنها ويصونها ، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثالا لعمود فقرى اجتماعى . ومضت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوربية مكوناً من رقع وخيوط للاستنارة فى عالم لولا الأديرة فيه لعمته الفوضى برمته . ومما يرتبط بأديرة البندكتيين ارتباطا وثيقاً ، تلك المدارس التى نمت للفور فأصبحت جامعات القرون الوسطى . وكانت مدارس العالم الرومانى قد زالت زوالا تاما فى طوفان الانهيار الاجتماعى العام . ولقد جاء أوان كان عدد قليل جدا من القسيسين فى بريطانيا وبلاد الغال يستطيع أن يقرأ الأناجيل أو كتب الصلوات . فكأن التعليم لم يرجع إلى نصابه فى العالم إلا تدريجياً . بيد أنه عند ما رد إلى نصابه ، لم يعد بوصفه عملا إجبارياً يلزم بأدائه عبد عالم ، بل بوصفه الخدمة الدينية لطبقة خاصة من الرجال الذين حبسوا أنفسهم عليه .

وحدث فى شرق الإمبراطورية كذلك أن تقطع حبل التعليم ، بيد أن السبب هناك لم يكن الاضطراب الاجتماعى قدر ما كان عدم التسامح الدينى ، كما أن الانقطاع لم يكن بأية حال تاما كما حدث فى الغرب . فأقفل جستنيان ما بأثينا من مدارس منكمشة ومنحلة ذهنيا وشرد رجالها (٥٢٩) . بيد أنه فعل ذلك فى معظم الأمر لكى يقضى على كل منافس للمدرسة الجديدة التى كان يقيمها فى القسطنطينية والتى كانت تحت الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى .

ولما لم تكن للعلوم اللاتينية الجديدة فى الجامعات الغربية الناشئة كتب دراسية ولا أدب خاص بها ، فإنها اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتى القوى لنقيض ذلك ، أن تعتمد اعتماداً كبيراً على الأدب اللاتينى (الكلاسيكى) القديم وعلى التراجمات اللاتينية للأدب الإغريقى . وبذلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلك الأدب الفاخر يعظم كثيرا ما كانت تود أن تحتفظ به .

١١ – الفن البيزنطى

منذ أن نقلت حاضرة الإمبراطورية إلى الشرق أى إلى بيزنطة ، يظهر فى العالم طراز جديد من الفن المعمارى وروح فنية جديدة ، هو الطراز البيزنطى . وبلغ ذلك الفن درجة عالية من التطور إبان حكم الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥ م) وسنحدثك عنه فى الفصل التالى . ثم انحط ثانية وعاد فارتفع إلى أوج جديد فى القرن الحادى عشر . وهو لا يبرح إلى يومنا هذا تراثاً فنياً حياً فى شرق أوربا . وهو يعبر عما جاءت به المسيحية الرسمية الجديدة من قيود ودوافع . وقد أفرغت فيه على التقاليد الكلاسيكية السمات الشرقية ، وبخاصة بعض النزعات المصرية والفارسية . وتحل فيه الفخامة محل الصراحة والرشاقة .

ومن بين ما تختص به زخرفته من خصائص احتواؤها على قدر معين من الصلابة . وقد ذهب كل ما كان يحتويه التصوير والنحت الإغريقى والرومانى من مرونة ، وظهر فى مكانها فسيفساء[1](Mosaics) تحمل أشكالا مسطحة سيمترية التصوير منتصبة فى مواجهة تامة . ولا تكاد تجد البتة رسماً جانبياً (Profile) ولا أى أثر للتقصير[2] . وكأنما أصبح ذلك الجسم الطبيعى الذى كان يقدسه الإغريق ، موضع الملائمة وشيئاً يخشى شره . ومن ثم بلغ ذلك الفن وقاراً عظيما رصيناً . فتبدو صور الرب الخالق والعذراء والطفل والقديسين العظام ، الضخمة المصنوعة من الفسيفساء ، ممعنة فى التفكير ، وهى تطل على المشاهدين من علياء القباب العظيمة التى هى موضوعة فيها . وتجلت نفس تلك الصلابة الوهاجة فى التصوير وتحلية الكتب بالصور ، وانحط فن النحت من الناحية الأخرى ، واستبدلت الأشكال المجسدة (أى التماثيل) بنوافذ شبكية Lattices زاهية الألوان ذات حليات محفورة . وكانت أشغال الذهب

---

(١) وهو ما يسمى بفصوص اللعب أو السليزلى . (المترجم)

(٢) التقصير (Foreshortening) : تمثيل المنظور بحيث تقصر فى الظاهر الخطوط الساقطة . (المترجم)

والفضة والميناء تعمل بإتقان لم يسبق له مثيل . وغالباً ما كانت مصنوعات النسيج المستجلبة من الشرق ذات رسوم فارسية لا لبس فيها . ولم تلبث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثّل الأجسام قضاء أتم وأكمل .

وكذلك أصبحت الموسيقى ضخمة ولها شأنها . وكانت موسيقى القرون المسيحية الأولى أقرب إلى التبتل والحماسة منها إلى الإتقان والصقل ، وهى تنهل من منابع « سامية » أكثر منها « هلّينية » . فأما الموسيقى الدنيوية فحظورة حظراً تاماً . فقد قال القديس جيروم « إن الفتاة المسيحية يجب ألا تعرف ما هو اللير أو الناى » . فأما ترتيل المزامير وعزفها على الآلات ، فشيء نقله المسيحيون من الصلوات اليهودية ، وقصر قصراً يتراوح زيادة ونقصاناً على الجوقات (الكورس) المنظمة . وكان الترتيل التجاوبى (Antiphonal) شائعاً . وكان جماعة المصلين ينشدون التراتيل بطبيعة الحال فى نغمة موسيقية موحدة الصوت والطبقة وذلك لأن التوزيع الغنائى (Part Singing) لم يكن قد اخترع بعد . وكان إنشاد التراتيل متنفساً عظيماً ينفس عن العواطف المكبوتة . فظهر قدر وفير من التراتيل فى اللغتين اليونانية واللاتينية . ويقال إن بعضها لا يزال باقياً فى تراتيل موجودة إلى وقتنا هذا . وقد وضع القديس جريجورى (جريجورى الكبير) ، ذلك المنظم العظيم للكنيسة ، الذى لدينا عنه مزيد من القول نحدثك به فى فصل تال ، أسس موسيقى القداس الكنسى فى القرن السادس .

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ آسيا أثناء انحلال الامبراطوريتين الغربية والبيزنطية

١ – جستنيان الكبير(١)

ركزنا التفاتنا فى الفصلين السابقين بصفة رئيسية على ما حدث فى فترة قصيرة نسبياً قوامها أربعة قرون من انهيار النظام السياسى والاجتماعى فى القسم الغربى من الإمبراطورية الرومانية العظيمة : إمبراطورية قيصر وتراجان ، ولم يفتنا أن ننعم النظر ذلك الانهيار والإفاضة فى بلوغه الذروة . ولا مراء أن أى فرد ذكى الفؤاد عمومى الروح(٢) ، يعيش فى زمان القديس بندكت أوكاسيودورس وفى نفس ظروف حياتهما ، – كان يخيل إليه أن الحضارة قد أخذ ضياؤها يخبو وآذنت شمسها بالمغيب . على أن النظرة الأرحب التى تتيحها لنا دراسة التاريخ العام ، تطوع لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه بوصفها دورا – ولعله كان دورا ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمفاهيم الاجتماعية والسياسية فى انطلاقها إلى الأمام . ولئن حدث أثناء ذلك الزمان ، أن إحساسا قاتما بنكبة فادحة يجثم على صدر أوربا الغربية ، فلا بد لنا من أن نتذكر فى مقابل ذلك أن أجزاء عظيمة من العالم لم يلم بها أى تقهقر ولا انحطاط .

(١) من شاء استزادة فى تاريخ ذلك الإمبراطور فعليه أن يقرأ للمترجم كتاب «الحضارة البيزنطية» تأليف استيفن رانسيمان (مجموعة الألف كتاب ومكتبة النهضة المصرية) . (المترجم)

(٢) عمومى الروح Public spirited هو من يخدم الغير بدافع من حب المصلحة العامة وهو الغيرى الروح كما أسلفنا فى هامش سابق . (المترجم)

ويجنح الكتاب الأوربيون ، بسبب انشغال بالهم الدائم بالدولة الرومانيــة الغربية وسيطرتها على أفكارهم ، إلى الإسراف فى الميل إلى التقليل من شأن تماسك الإمبراطورية الشرقية التى كان مركزها القسطنطينية . وغنى عن البيان أن تلك الإمبراطورية كانت لها تقاليد أقدم بكثير من تقاليد روما . فلو أن القارى نظر إلى الخريطة التى تبين مدى اتساعها فى القرن السادس ، ولو أنه تأمل أن لغتها الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية ، لأدرك أن ما نعالجه هنا ، إنما هو فرع



(شكل ١٢٢) صورة بالفسيفساء لجستنيان وبلاطه

من الإمبراطورية الرومانية بالاسم فقط . إذ الواقع أنهـا هى الإمبراطورية الهلّينية التى طالما حلم بها « هيرودوت » ، والتى أسسها الإسكندر الأكبر . حقا إنها كانت تدعو نفسها « الرومانية » وتدعو سكانها « روماناً »[١] ، ولا تزال اللغة اليونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romaic) . وحقاًأن قسطنطين الكبير كان ضئيل الحظ من اليونانية وأن لهجة جستنيان فى نطقها كانت رديئة . على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسم والشكل لا تستطيع أن تغير الواقع ، وهو أن الإمبراطورية كانت فى حقيقتها هلّينية ، لها فى زمن قسطنطين الكبير ماض من

(١) ويسميها العرب بدولة الروم . (المترجم)

ستة قرون ، وأنه على حين تقلصت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية تقلصاً كاملا فى مدى أربعة قرون ، فإن هذه الإمبراطورية الرومانية الهلّينية قد صمدت أكثر من أحـــد عشر قرناً من ٣١٢ عند ابتداء حكم قسطنطين الكبير إلى ١٤٥٣م ، عند ما سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين .

وعلى حين اضطررنا أن نحدثك عن حدوث ما يشبه الانهيار الاجتماعى الكامل فى الغرب ، فلم يحدث فى الشرق انهيار مماثل لذاك . فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة فى المناطق الريفية وتواصل رواج التجارة . وظلت القسطنطينية قروناً عديدة أعظم وأغنى مدينة فى العالم . ولن نشغل أنفسنا ها هنا بأسماء أباطرتها المتعاقبين وحماقاتهم وجرائمهم ومؤامراتهم . فإنهم شأن معظم ملوك الدول العظيمة ، لم يكونوا ليوجهوا إمبراطوريتهم ، بل هى التى كانت تدفعهم دفعاً . ولقد سبق أن عالجنا فى شىء من الإسهاب موضوع قسطنطين الكبير (٣١٢ – ٣٣٧) . وذكرنا ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ – ٣٩٥) ، الذى وحد الإمبراطورية لفترة يسيرة ، وذكرنا چستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥) . وسنذكر لك من فورنا شيئاً عن هرقل (٦١٠ – ٦٤١) .

ولعل چستنيان كان كقسطنطين يحمل فى عروقه دماً سلافياً . كان رجلا واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم ، ومن حسن حظه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لمقدرته إن لم تفقها ، وهى الإمبراطورة ثيودورا ، التى كانت فى صباها ممثلة ذات سمعة مغموزة . على أن محاولاته الطموحة لاسترداد عظمة الإمبراطورية القديمة ، أثقلت فيما يرجح مواردها بالضرائب[١] . ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإفريقية من الوندال واستعاد معظم إيطاليا من القوط . كذلك استرد جنوب أسبانيا . وبنى الكنيسة العظيمة الجميلة كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية ، وأسس جامعة وجمّع القوانين . بيد أننا يجب أن نضع إلى جوار هذا إقفاله مدارس أثينا . ولكن اجتاح العالم فى زمانه طاعون عظيم ، وانهارت بموته تلك الإمبراطورية الموسعة المجددة كما تنهار مثانة نفخت بالهواء إذا وخزها دبوس . فذهب القسم الأكبر من فتوحه الإيطالية إلى أيدى اللومبارد ، ونذكر هنا أن إيطاليا تحولت فى ذلك الزمان إلى

(١) عن المزيد من تاريخ هذه الحقبة ، انظر كتاب « ميلاد العصور الوسطى » تأليف موس وترجمة المترجم (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب) . (المترجم)

صحراء أو ما يشبه الصحراء . ذلك أن مؤرخى اللومبارديين يؤكدون أنهم نزلوا فى قطر خال من الناس . وانحدر الآفار والصقالبة (السلاف) يعيثون فساداً من أرض الدانوب إلى الأدرياتى ، وأخذ أقوام من الصقالبة يستقرون فيما هو الآن صربياً وكرواتيا ودالماتيا ، فأصبحوا يوغوسلاف هذا الزمان . وفضلا عن ذلك فإن نزاعاً عظيماً مضنياً نشب بين الإمبراطورية وبين الساسانيين فى فارس .

ولكن يجدر بنا قبل أن نقول شيئاً عن هـذا الكفاح ، الذى أوشك فيه الفرس ثلاث مرات أن ينتزعوا القسطنطينية ، والذى كان العامل الفاصل فيه هزيمة الفرس العظيمة قرب نينوى (٦٢٧) ، يجدر بنا أن نلخص بغاية الإيجاز تاريخ بلاد الفرس منذ أيام البارثيين .

٢ ـ الإمبراطورية الساسانية فى فارس

سبق أن عقدنا موازنة بين القرون الأربعة الوجيزة التى عاشتها الإمبريالية الرومانية وبين الحيوية العنيـدة لإمبريالية إقليم دجلة والفرات . وألقينا نظرة عجلى على المملكتين البلخية الباكترية[١] والسلوقية المهلستين اللتين ازدهرتا مدة ثلاثة قرون فى النصف الشرقى مما غزاه الإسكندر من بلاد . وأخبرناك كيف هبط البارثيون أرض الجزيرة فى القرن الأخيـر ق . م . ووصفنا لك معركة كاراى (Carrhae) ونهاية كرسوس . ومنذ ذلك الحين فما بعده بقرنين ونصف استمرت أسرة الأرشكيين البارثية تحكم فى الشرق بينما حكمت الدولة الرومانية فى الغرب ، على حين فصلت بينهما أرمينية وسوريا ، وكانت الحدود تنتقل شرقاً أو غرباً تبعاً لزيادة قوة أحد الطرفين على الآخر . ولحظنا أقصى امتداد بلغته الإمبراطورية الرومانية شرقاً فى عهد تراجان (انظر الخريطة (١١٤) المرافقة للفصل ٢٧ القسم الأول ص ٦١١ ج ٢) ، كذلك لاحظنا أن « الهندو إسكيذيين Indo-Scythians » تدفقوا قرابة ذلك الزمان إلى الهند (الفصل ٢٧ ـ القسم الخامس) .

وشبت ثورة فى ٢٢٦ ، وحلت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى منها هى الساسانية ، وهى أسرة فارسية قومية يرأسها أردشير الأول . وكانت إمبراطورية

(١) بلخ (بَقتر) : وهى ما تسمى الآن باكتريا : كانت ملتقى الحضارة الهندية وغيرها . (المترجم)

أردشير الأول ذات مشابهة عجيبة من وجهة واحدة بإمبراطورية قسطنطين الكبير بعد ذلك بمئة سنة . ذلك بأن أردشير حاول أن يقوى أواصر تماسكها بأن اهتم بالوحدة الدينية وأصر عليها واتخذ من عقيدة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية للبلاد ؛ وسنذكر المزيد عنها فيا بعد .

وتحولت هذه الإمبراطورية الساسانية الجديدة من فورها إلى العدوان ، فاستولت على أنطاكية (Antioch) فى حكم شابور الأول ابن أردشير وخلفه. وقد ذكرنا من قبل كيف هزم الإمبراطور فاليريان (٢٦٠) وأخذ أسيرا . على أنه بينا كان شابور عائداً من حرب مظفرة فى آسيا الصغرى ، إذ انقض عليه أذينة وهزمه ، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربى على مركز تجارى عظيم فى الصحراء هو تدمر (Palmyra) .

وقد ظلت تدمر زماناً قصيراً فى عهد أذينة ، ثم فى أيام أرملته الزبّاء (Zenobia) ، دولة ضخمة تمتد كالإسفين بين الإمبراطوريتين . ثم سقطت فى يد الإمبراطور أورليان الذى حمل الزباء مكبلة بالأصفاد لتكون فى روما آية فخار لنصره (٢٧٢) .

ولسنا بمحاولين أن نقفو تقلبات الحظ بالساسانيين أثناء القرون الثلاثة التالية . ففى طوال ذلك الزمان انهكت حروب فارس وإمبراطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى إنهاك الحمى . وانتشرت المسيحية انتشاراً واسعاً ولكنها كانت موضع الاضطهاد ، إذ أنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يدعى الوبوبية غير العاهل الفارسى ، فرأى فى المسيحية مجرد دعاية لمنافسه البيزنطى . وأصبحت القسطنطينية حامية المسيحيين ، وأضحت فارس حامية الزرادشتيين ، وبمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين ٤٢٢ قبلت إحدى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مع النصرانية . وفى ٤٨٣ انفصل نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذكسية وكونوا الكنيسة النسطورية ، التى نشرت — كما سبق أن ذكرنا — مبشريها فى كل أنحاء آسيا الوسطى والشرقية . ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوربا

قد حرر الأساقفة النصارى فى الشرق من سيطرة البطاركة البيزنطيين ، وبذا أزال عن كاهل الكنيسة النسطورية ما كان يحوم حول ولائها السياسى من شبهات ، فإنه أدى إلى تسامح تام مع المسيحية فى بلاد فارس .

وابتدأ بحكم كسرى الأول (٥٣١ — ٥٧٩) الملقب أنوشران آخر عهود القوة الساسانية . كان معاصراً لجستنيان وعديلا مكافئاً له . فأصلح نظام الضرائب وأعاد الزرادشتية السلفية الحقة ، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن) ، التى أنقذها من حكم نصارى الحبشة ، ودفع بتخومه الشمالية حتى التركستان الغربية ، وخاض سلسلة من الحروب مع چستنيان . وبلغت شهرته بوصفه حاكماً مستنيراً درجة رفيعة جعلت الفلاسفة الإغريق ينتقلون إلى بلاطه عندما أغلق چستنيان مدارس أثينا . إذ التمسوا فيه الملك الفيلسوف — ذلك السراب الذى أمعن كنفوشيوس وأفلاطون فى البحث عنه فى زمانيهما كما سبق أن ألمعنا . ولكن الفلاسفة وجدوا جو الزرادشتية السلفية أقل ملاءمة لأذواقهم من جو المسيحية السلفية . وفى ٥٤٩ ترفق كسرى بهم بأن أدخل فى هدنة عقدها مع چستيان فقرة تبيح لهم العودة إلى بلاد الروم ، وتستوثق أنهم لن يضارّهم أحد بسبب فلسفتهم الوثنية أو بسبب سلوكهم الذى تجلى فيه ميلهم حيناً ما إلى فارس .

وإنا لنسمع فى أيام كسرى أنوشروان لأول مرة عن شعب هونى جديد فى آسيا الوسطى ، هم الأتراك الذين دخلوا فيما نعلم فى محالفة معه أولا ثم مع القسطنطينية .

وتقلبت الحظوظ ألواناً على كسرى الثانى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨) حفيد كسرى الأول . فإنه فى بداية حكمه أحرز انتصارات باهرة على إمبراطورية القسطنطينية . وقد وصلت جنوده إلى خلقدون ثلاث مرات (فى ٦٠٨ ، ٦١٥ ، ٦٢٦) وهى المدينة المواجهة للقسطنطينية ، واستولى على أنطاكية ودمشق والقدس (٦١٤) . وحمل من القدس صليباً ، قيل أنه الصليب الحقيقى الذى صلب عليه يسوع ، حمله إلى عاصمته المدائن (طيشفون) . (ولكن جزءا من هذا الصلب الحقيقى أو صليبا ما آخر حقيقيا انتقل قبل ذلك إلى روما . إذ أحضرته من القدس فيما يقال «الإمبراطورة هيلينا» ، وهى أم قسطنطين التى جعلت مثلا أعلى ورفعت إلى مصاف القديسات ، وهى قصة

أظهر نحوها جيبون الشيء القليل من الاحترام[1] . وفى ٦١٩ فتح كسرى الثانى مصر ذلك القطر الهين اللين . وأخيراً أوقف الامبراطور هرقل (٦١٠) ، هذه الحياة المليئة بالفتوح عند حدّها ، حيث شرع يسترجع قوة القسطنطينية العسكرية المحطمة . وظل ردحاً من الزمن يتجنب الدخول فى معركة كبيرة أثناء جمعه قواته . ثم تقدم إلى الميدان بكل جد فى ٦٢٣ . فلقى الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كللت بمعركة نينوى (٦٢٧) ، ولكن أحداً من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغاً يتيح له أن يهزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية . فلما أشرف الكفاح على نهايته ، كان هناك جيش فارسى على ضفاف البسفور لم يهزم ، وذلك رغم وجود قوات بيزنطية مظفرة فى أرض الجزيرة .

وفى ٦٢٨ خلع ابن كسرى الثانى أباه وقتله . وتم صـلح غير حاسم بين الإمبراطوريتين المنهكتى القوى بعد ذلك بعام أو ما يقاربه ، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة ، وأعيد الصليب الحقيقى إلى هرقل ، فأرجعه إلى أورشليم محوطا بجو من الفخامة والحفاوة .

٣ – اضمحلال سوريا فى عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة ، نقدم إليك فى إيجاز أهم الأحداث فى تاريخ الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية على السواء . بيد أن الشيء الذى يهمنا ويلذ لنا ويعسر مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التى توالت على حياة السكان عامة فى هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان . ولا يجد كاتب هذه السطور شيئاً مقطوعاً بصحته إلا النزر اليسير فى حديث تلك الأوبئة العظيمة التى نعلم أنها اجتاحت العالم فى القرنين الثانى والسادس من هذه الحقبة . ومن المحقق أن تلك الأوبئة أفنت السكان ، والراجح أنها أفسدت النظام الاجتماعى فى تلك المناطق على نفس النحو الذى نعرف أنها أحدثته فى الإمبراطوريتين الرومانية والصينية .

وقد دبج المرحوم السير مارك سايكس (الذى جاءت وفاته فى غير الأوان فى

---

(١) اضمحلال الإمبراطورية الرومانيـة وسقوطها The Decline & Fall of the Roman Empire الفصل الثالث والعشرون .

باريس أثناء وباء الأنفلونزا سنة ١٩١٩ ، خسارة لا تعوض على بريطانيا العظمى) فى كتابه « آخر ميراث الخلفاء » The caliph's last Heritage ، استعراضاً مشرقاً للحياة العامة وأحداث آسيا الغربية أثناء الفترة التى نحن بصددها . قال متحدثاً عن القرون الأولى التى افتتحت بها الحقبة الحالية ، « أصبح توجيه الإدارة العسكرية والمالية فى الإمبراطورية منعزلا فى أذهان الناس عن الناحية العمليـــة للحكم انعزالا تاماً ؛ وبالرغم من قيام أبشع أنواع استبداد البلهاء والسكيرين والمعتوهين والطغاة والمجانين والمتوحشـــين والنساء الخليعات ، الذين كانوا يتولون زمام الحكم من وقت إلى آخر ، فإن أرض الجزيرة وبابل وسوريا كانت تحوى عددا هائلا من السكان ، وبها قنوات وسدود ضخمة تحظى بالصيانة المستمرة ، كذلك ازدهرت التجارة والعمارة ، بالرغم من زحف الجيوش المعادية اللانهائى ذهاباً وجيئة وبالرغم من التغيير المستمر فى جنسية الحاكم . وكانت مصلحة كل فلاح مركزة فى المدينة التى يتبعها ؛ كما أن اهتمام كل مواطن كان موجها إلى تقدم مدينته ورغدها ؛ كما أن دخول جيش معاد ربما كان أمرا ينظر إليه فى بعض الأحايين بعين الرضا والارتياح ، إذا كان نصره مضمونا وكان تسديده لما يتعاقد عليه محققا .

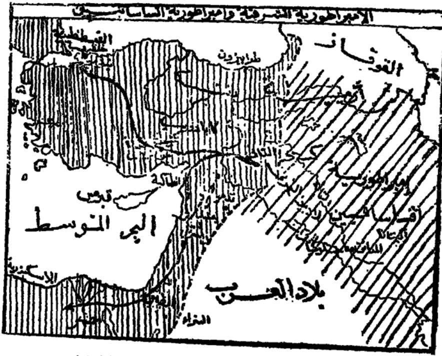
« ولا بد أن غارات أهل الشمال[1] كانت من الناحية الأخرى مثار الذعر والهلع ، إذ كان لا بد للقرويين حينـــذاك أن يعتصموا خلف أسوار المدن ، ومن هناك كانوا يستطيعون أن يبصروا الدخان الذى يدل على ما ينزله الرحّل بممتلكاتهم من تدمير وإتلاف . وما دامت القنوات لم تمسسها يد المدمرين (والواقع أنها بنيت فى متانة وحيطة تضمنان سلامتها) ، لم يكن هناك ضرر يستعصى على الإصلاح .

على أن حالة الحياة فى أرمينية وبلاد بنطُس كانت مخالفة لهذه تمام المخالفة . إذ كانت تلك البلاد مناطق جبلية تعمرها قبائل شرسة على رأسها نبلاء أقوياء من الوطنيين ، تحت ملوك بيدهم مقاليد الحكم ، على حين كان المزارع المسالم فى الوديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الضرورية . . . . وكانت كيليكيا وكاپادوكيا خاضعتين

---

(١) أى الطورانيين من التركستان أو الأقار من القوقاز . (المؤلف)

تمام الخضوع لسلطان الروم ، وقد احتوتا على مدن عديدة غنية راقية الحضارة ، فضلا عن امتلاكهما لبحرية تجارية ضخمة . وإذا نحن انتقلنا من كيليكيا إلى الدردنيل ، ألفينا ساحل البحر المتوسط مزدحماً بالمدن الثرية والمستعمرات اليونانية ، وهي المختلطة تماماً فكراً ولغة ، مع تجلي روح الرغبة في الاستقلال والنزعات المحلية ، تلك الروح التي تبدو قطعة من طبيعة الخلق اليوناني . وكانت المنطقة اليونانية تمتد من كاريا إلى البسفور ، وتمضي بحذاء الساحل حتى سينوب على البحر الأسود ، حيث تأخذ في الانتهاء تدريجياً .



(شكل ١٢٣) خريطة الإمبراطورية الشرقية وإمبراطورية الساسانيين

« وتجزأت سوريا إلى أجزاء عجيبة تشبه ستاراً متعدد الرقاع من الإمارات والمدن الملكية ؛ تبدأ في الشمال بدولتي كوماچين والرها (Edessa)[1] شبه الهمجيتين . وإلى الجنوب من هاتين كانت بامبيكي (مبوج)(Bambyce) بمعابدها الفخمة وحكامها الكهنة . وإلى ناحية الساحل كان يتجمع عدد كثيف من السكان حول المدن المستقلة : أنطاكية وأپاميا وحمص (Emesa) ؛ على حين كانت هناك في البرية مدينة بالميرا (تدمر) السامية التجارية العظيمة ، التي أخذت ترقى مدارج الشهرة والعظمة بوصفها أرض

(١) ومكانها الآن مدينة أورفه بتركيا . (المترجم)

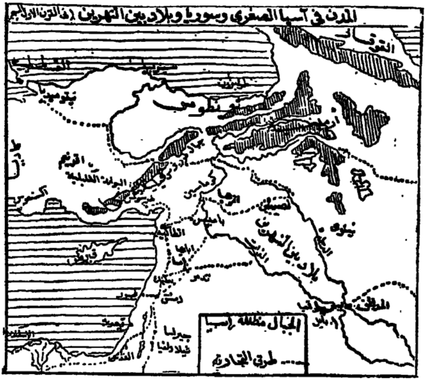
التبادل التجارى المحايدة بين پارثيا وروما . وإنا لنجد بين جبال لبنان ولبنان الخلفية مدينة بعلبك (هليوپوليس) وهى فى أوج مجدها ، وما تزال بقاياها المحطمة تأخذ حتى الآن بمجامع إعجابنا . . . فلو عرجنا نحو الجليل وجدنا المدن العجيبة جِرَش (Gerasa) وفلادلفيا (عمان) وهما متصلتان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية[1] هائلة . ولا تزال سوريا غنيـــة بخرائب ذلك العصر وبقاياه إلى حد لا يصعب علينا معه أن نرسم لأنفسنا عن حضارتها صورة حية . ذلك أن فنون الإغريق التى أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد ، قد تطورت إلى درجة من الفخامة قاربت حد الابتذال السوقى . فإن جزالة الحليات والإسراف فى النفقة والمباهاة بالثراء لتدل جميعاً على أن أذواق الساميين الشهويين ذوى الروح الفنية كانت آنذاك على ما هى عليه الآن . ولقد وقفت يوماً فى أبهاء الأعمدة بتدمر وتغديت يوماً آخر فى فندق سيسل ، ولولا أن الثانى مبنى من الحديد الملطخ بالخشب والجص الزائف والمموه بالذهب الزائف والقطيفة الزائفة والحجر الزائف ، لتوهمت أن تأثير هذا هو نفس تأثير ذاك . أما سوريا فكان بها جموع وفيرة من الأرقاء تكفى لإقامة مبان حقيقية ، غير أن الروح الفنية بها بلغت من الوضاعة دركاً يماثل ما تخرجه الآلات . فأما فى غير المدن ، فلا بد أن سكان القرى كانوا يتخذون مساكنهم بطريقة تدانى ما يفعلونه الآن حيث يبنون جدرانها من الطين والحجر العارى . على حين أنه فى المراعى البعيدة فى الخارج ، كان البدو يرعون قطعانهم بملء حريتهم تحت حكم ملوك النبط[2] (Nabatean) من بنى جلدتهم ، أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة فى القوافل التجارية العظيمة .

« ومن وراء الرعاة وأرضهم تمتد الفلوات اللافحة ، وتقوم بدور التخوم والحصون المنيعة التى تدفع الشر عن الإمبراطورية الپارثية خلف نهر الفرات حيث تقف مدن عظيمة من أمثال طيشفون (المدائن) وسلوقيا وهاترا ونصيبين وحوران ومئات أخرى من المدن ، نسى الناس منها حتى مجرد أسمائها . كانت هـــذه المدن العظيمة تعيش على ما تغله أرض الجزيرة من وفرة هائلة من الحبوب . وكانت تروى آنذاك بالقنوات التى

---

(١) السقايات المائية (Aqueducts) هى قنوات مبنية فوق عقود عالية لنقل الماء داخل المدن وهى شبيهة بمجرى العيون الموجود بمنطقة فم الخليج بالقاهرة . (المترجم)

(٢) النبط ، شعب عربى كان يسكن القسم الشمالى من بلاد العرب فى موقع الدولة الأردنية الآن . (المترجم)



(شكل ١٢٤) خريطة المدن فى آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بين النهرين
(فى القرن الأول المسيحى)

توارت أسماء منشئها — حتى فى تلك الأيام — فى غيابات الماضى السحيق . وكانت بابل ونينوى قد درستا من الوجود . على حين أخلى خلفاء فارس ومقدونيا مكانهم لبارثيا . بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتغير فيهم شىء عما كان عليه الحال عند ما أخضع البلاد قورش الفاتح لأول مرة . وكانت لغة كثير من المدن الإغريقية ، حتى لربما انتقد مواطنو سلوقيا المثقفون فلسفات أثينا ومآسيها (تراچيدياتها) . على أن الملايين من السكان الزراع كانوا لا يعرفون عن هذه الأمور فيما يحتمل أكثر مما يعرفه كثير من فلاحى مقاطعة إسكس اليوم عما يجرى فى العاصمة البريطانية » .

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية فى نهاية القرن السابع .

« وكانت سوريا عند ذاك أرضاً فقيرة منكوبة . ولا بد أن مدنها العظيمة ، وإن كانت لا تزال آهلة بالسكان ، قد تكاثرت فيها الخرائب التى لم تكن الموارد المالية العامة

كافية لإزالتها ؛ ولم تكن دمشق وأورشليم نفساهما أفاقتا مما أصابهما من ويلات الحصارات الطويلة الفظيعة . وانحطت عمان وجرش إلى مصاف القرى التعسة تحت سلطة البدو وسيادتهم . ولعل حوران كانت لا تزال على شيء من دلائل الرخاء الذى اشتهرت به أيام تراجان . بيد أن مبانى ذلك الزمان التعسة وكتاباته الخشنة التى تعوزها البراعة تشير جميعاً إلى اضمحلال محزن مؤلم ، وهناك فى وسط رمال الصحراء ، كانت تدمر تقف خاوية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم فى قلعتها . فأما عن الشواطئ وفى لبنان فكان هناك لقديم التجارة والأعمال والثروة ظل لا يزال مشاهداً ، فأما فى الشمال فلا بد أن الخراب والدمار والإفقار والوحشة كانت الحالة التى تعم أراضيها التى ظلت يغير عليها المغيرون بانتظام لا يفتر طوال مئة سنة ، كما تملكها عدو لها مدة خمسة عشر عاماً . ولا بد أن قد انحطت الزراعة وقل السكان قلة ملموسة بسبب تعاقب الطاعون والمحن وصبهما العذاب عليها ألوانا .

« وهوت كاپادوكيا إلى درك الهمجية على درجات غير محسوسة . وسويت بسطح الأرض الكنائس العظيمة (البازيليك) والمدن الكبيرة التى لم يستطع الريفيون البسطاء أن يصلحوها ولا أن يعيدوها إلى سابق عهدها . وطفقت الجيوش الفارسية تذرع شبه جزيرة الأناضول طولا وعرضاً وتهلك الحرث والنسل ، على حين تعرضت المدن العظيمة للسلب والنهب » .

٤ ــ أولى رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مشغولا بإعادة النظام فى سوريا هذه المقفرة المنكوبة بعد وفاة كسرى الثانى أبرويز وقبل عقد الصلح النهائى مع فارس ، أن أحضرت إليه رسالة غريبة . وكان حاملها قد دفعها إلى مخفر إمبراطورى أمامى فى البرية الممتدة إلى الجنوب من دمشق . وكانت الرسالة بالعربية ، وهى اللغة السامية غير المعروفة ، لغة الشعوب المترحلة فى الصحراء الجنوبية . ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل لها ــ أضاف إليه الترجمان فيما نعتقد بعض ملحوظات تنم عن الاحتقار والاستهزاء .

كانت تحدياً غريباً بليغاً من شخص يدعو نفسه باسم « محمد نبي الله » . وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) على ما يظهر ، يدعو هرقل أن يعترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعبادته . ولم يكن فى الوثيقة بعد هذا أى شىء آخر محدد ؛

وليس هناك سجل اثبت فيه تسلم هذه الرسالة ، ويغلب على الظن أنها ذهبت دون رد . والراجح أن الإمبراطور هز كتفيه ، فى شىء من التفكه[1] بهذه الحادثة .

بيد أن من فى المدائن كانوا يعرفون عن محمد قدراً أكبر . إذ قالوا عنه — إفكاً وبهتاناً — إنه نبي مقلق كذاب [كذا ! ! ؟ . .] ، حرض اليمن ، وهى الولاية الغنية فى جنوب بلاد العرب ، على الثورة على « ملك الملوك » الفارسى . وكان الملك قباذ مثقل العاتق بالأعمال . فقد خلع أباه كسرى الثانى أبرويز وقتله ، وأخذ يحاول أن يعيد تنظيم القوات العسكرية الفارسية . وإليـــه كذلك جاءت رسالة تطابق تلك المرسلة إلى هرقل . فأغضبه ذلك الأمر . فمزق الرسالة وألقى بها فى وجه حاملها — وأمره بالانصراف .

ولما أن نبئ النبى (صلى الله عليه وسلم) بذلك ، وهو فى بلدته النائية الصغيرة المتواضعة « المدينة » ، غضب غضباً شديداً وصاح قائلا : « اللهم مزق ملكه شر ممزق » (٦٢٨ م) .

---

(١) ذكر ابن هشام فى سيرته أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبى ومعه كتاب إلى هرقل . وأضاف ابن سعد فى الطبقات الكبرى قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية ابن خليفة الكلبى إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر ، فدفعه عظيم بصرى إليه وهو يومئذ بحمص ، وقيصر يومئذ ماش فى نذر كان عليه إن ظهرت الروم على فارس أن يمشى حافياً من قسطنطينية إلى إيلياء (القدس) ، فقرأ الكتاب وأذن لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص . فقال : « يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم ؟ » قالت الروم : « وما ذاك أيها الملك ؟ » قال « تتبعون هذا النبى العربى » قال : فحاصوا حيصة حمر الوحش ، وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم وخافهم على نفسه وملكه ، فسكنهم ثم قال « إنما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم فى دينكم ، فقد رأيت منكم الذى أحب ، فسجدوا له » . جزء ٢ ص ٢٣ — ٢٤ . (المترجم)

٥ ـ زرادشت وماني

على أنه يجدر بنا قبل أن نواصل الحديث في نشأة الإسلام في العالم ، أن نستكمل بحثنا في حال آسيا عند فجر القرن السابع . ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها عن التطور الديني في المجتمع الفارسي أثناء العهد الساساني .

تغلبت الزرادشتية منذ أيام قورش فما بعدها على آلهة نينوى وبابل الأقدمين . وكان زرواستر Zeroaster (وهو الهجاء الإغريقي لكلمة زاراثوسترا Zarathustra[1] الإيرانية) آريا مثل بوذا . ولسنا ندري شيئاً عن العصر الذي عاش فيه ، ويرجعه بعض الثقات إلى سنة ١٠٠٠ ق . م ، ويجعله آخرون معاصراً لبوذا أوكنفوشيوس . ولا يزيد على علمنا هذا ، علمنا بمحل ميلاده أو جنسيته بالدقة . فأما تعاليمه فمحفوظة لنا في الزند أفيستا (Zend Avesta) . ولكن نظراً لأنها لم تعد تلعب دوراً كبيراً في شئون العالم ، فليس في طوقنا أن نعالجها هنا في أي تفصيل . وصفوة القول أن التعارض بين رب للخير وهو أهورا مزدا (هرمزد) : إله النور والصدق والصراحة والشمس ، وبين رب شرير هو أهريمان : رب الخفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل ، هو محور ديانته . ونجـــدها في التاريخ محوطة آنفاً بنظام طقوسي وكهنوتي ، وليس لها أصنام ولكن لها كهنة ومعابد وهياكل ، تتقد عليها نار مقدسة وقام عليها الطقوس القربانية . ومن بين خصائصها المميزة ، حظرها دفن الموتى أو إحراقهم . والفرسيس (Parsees) الهنود ، وهم آخر من بقي من الزرادشتيين إلى يومنا هذا ، لا يزالون يلقون موتاهم داخل أبراج معينة مفتوحة ، هي « أبراج الصمت والخشوع » التي تنتابها العقبان .

وكانت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أردشير فمن بعده (٢٢٧ م) ، ورئيسها هو ثاني رجل في الدولة بعد الملك ، وطبقاً لأدق

---

(١) زرادشت بالعربية . (المترجم)

مقتضيات العرف القديم ، كان الاعتقاد السائد أن الملك قدسى أو شبه قدسى وله علاقة مودة صميمة خاصة مع هرمزد .

بيد أن ما كان يجرى فى العالم من اختمار دينى لم يترك للزرادشتية السيادة المطلقة على الإمبراطورية الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقاً ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك ، بل نشأت طوائف جديدة فى فارس حاملة فكرات ذلك الزمان المستحدثة . ولقد سبق أن ذكرنا فرعاً أو نوعاً مبكراً من الزرادشتية هو المثرائية . وهى عقيدة انتشرت فى أوربا فى القرن الأول ق . م بعد حملات پومپى الكبير فى الشرق . فمال إليها الجنود والعامة ميلا هائلا ، وظلت حتى عهد قسطنطين الكبير منافسة خطيرة للنصرانية . ومثرا هو إله النور « الذى يصدر » عن أهورا مزدا (هرمزد) ويولد ميلاداً إعجازياً بنفس الطريقة التى يصدر بها الأقنوم الثالث فى الثالوث المسيحى عن الأول . ولسنا بحاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع من الجذع الزرادشتى . على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هى المانوية ، وهى تستحق الآن بعض الالتفات .

ولد مانى مؤسس المانوية فى عائلة كريمة بمدينة إكباتانا العاصمة الميدية القديمة (٢١٦ م) . وتلقى تعليمه فى طيشفون . وكان أبوه ناسكا ينتمى إلى إحدى الطوائف الدينية ، فتربى فى جو من البحث والدراسات الدينية . وانتهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل ، الذى هو القوة المحركة لكل صاحب رســالة دينية . ودفعته الظروف إلى إعلان مبادئه . إذ أنه شرع يبشر بتعاليمه عند تولى شابور الأول ثانى ملوك بنى ساسان فى ٢٤٢ م .

ومما يتسق وخصائص تفكير الناس فى تلك الأيام ، أن تحتوى تعاليمه على ضرب من مزج الأديان والآلهة (الثيوكرازيا) . فأعلن أنه لا يأتى بأى شىء جديد . ذلك بأن كبار مؤسسى الأديان من قبله كانوا جميعاً على صواب : فإن موسى وزرادشت وبوذا ويسوع المسيح ـ كانوا جميعاً أنبياء صادقين ، بيد أنه وكل إليه أن يوضح تعاليمهم الناقصة المضطربة ويتوجها ، وقد قام بهذا بروح زرادشت وأسلوبه . وهو يفسر ما فى الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بين النور والظلمة . وأهورا مزدا (هرمزد) عنده هو الإله وأهريمان هو الشيطان . ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سقط من

النور إلى الظلمة ؟ وكيف يحرر من أغلاله وينقذ من الظلام ؟ ثم ما هو الدور الذى يقوم به يسوع فى هذا الخليط العجيب من الديانات ؟ هذه أمور ما نحن بمستطيعين أن نفسرها هنا وإن رغبنا . فإن اهتمامنا بالموضوع تاريخى بحت وما هو باللاهوتى .

ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية أن مانى لم يكتف بالطواف فى إيران مبشراً بأفكاره الجديدة هذه التى بدت له مقنعة تمام الإقناع ، بل دخل التركستان وهبط الهند وعبر الممرات إلى الصين . ولا شك أن حرية التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة . وهى شائقة تثير الاهتمام كذلك ، لأنها تعرض على أنظارنا أن التركستان لم يعد قطر مترحلين خطرين ، بل إقليما تزدهر فيه المدن وينال فيه الرجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتيح لهم البحث فى المسائل اللاهوتية .

وقد انتشرت فكرات مانى شرقاً وغرباً فى سرعة عظيمة ، وكانت دوحة مثمرة ظلت تمد العالم المسيحى بأسره بالزندقات (الهرطقات) طوال ما يقارب الألف سنة .

وعاد مانى إلى طيشفون فى زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم إليه أنصار كثيرون . فتمخض هذا عن احتكاكه بالدين الرسمى وبرجال الدين . وفى ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب ، وأمر بحبسه لسبب مجهول فسلخ . ومن ثم أخذوا يصبون على أتباعه أعنف الاضطهاد . ومع ذلك فإن المانوية صمدت فى فارس بضعة قرون مع المسيحية النسطورية والزرادشتية السلفية أعنى « المزدكية Mazdaism » .

٦ — الشعوب الهونية فى آسيا الوسطى وبلاد الهند

الآن ينجلى لنا إلى حد ما أنه فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، لم تكن فارس وحدها ، بل الأقاليم التى تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان ، — على درجة من المدنية تتجاوز كثيراً فى تقدمها مرتبة الفرنسيين والإنجليز فى ذلك الزمان ، وقد رفعت غشاوة الغموض عن تاريخ هذه الأقاليم فى العشرين السنة الأخيرة ، واكتشف «أدب»[1] ضخم جداً ، لم يقتصر تدوينه على لغات من المجموعة التركية وحسب ، بل تجاوزها

(١) يعنى المؤلف بلفظة « أدب » لمعنى العام للكلمة الذى يدل على جميع ما سطر فى اللغة من كتابات ومؤلفات . (المترجم)

إلى اللغة الصغدية[1] (Sogdian) وإلى لغة آرية أخرى . وترجع هذه المخطوطات الباقية إلى اليوم إلى القرن السابع وما يتلوه من قرون . والأبجدية فيها مقتبسة من الآرامية ، وقد أدخلها المبشرون المانويون . وإن كثيراً من المخطوطات المكتشفة ليجلّى علينا من آيات الجمال ما يضارع خير ما أنتجه الرهبان البندكتيون . وقد وجد بعض الرَّق[2] (Parchement) مشدوداً فى النوافذ مكان الزجاج . وفى هذه المخطوطات ترجمات لأجزاء من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية ، وجدت مختلطة بمقـدار كبير جداً من الأدب المانوى . وما برح الكثير من تلك المواد فى انتظار اليد التى تتولاها بالفحص الدقيق .

ويصرح السير دنيسون روس بأن هذا الإقليم الآسيوى الأوسط ، كان لا يزال إلى حد كبير آرياً لغة وثقافة ، وكان فنه لا يزال فى جل أمره هندى الأرومة أو فارسى الأصول . وتدل كل الدلائل على صحة الرأى القائل بأن هذه القرون التى هى فى أوربا قرون كوارث وتأخر ، كانت بالمقارنة عصر تقدم فى آسيا الوسطى فما وليها شرقاً حتى بلاد الصين . ولسوف نحصل يوماً على تاريخ متصل الحلقات يسجل الأحداث التى حدثت فى ذلك الإقليم أثناء القرون الحالكة التى عمت فيها الفوضى أوربا — إذ حظيت حضارة ذلك الإقليم إبان زمان كان المناخ فيه موائماً ، بدور رقى غير عادى . وفى برلين الآن مجموعة من الرسوم الجدارية المنقولة من التركستان فى تلك المدة ، وكأنما هى تكهن خارق للمعتاد لما ظهر (بعد ذلك بستة قرون) بفرنسا وألمانيا فى القرن الثالث عشر من ثياب ومعدات . فإن الأشكال والرموز المألوفة للملوك والملكات والغلمان فى ورق اللعب مثلا ، ترى بنصها فى هذه الصور الزاهية . فقد كانت هناك حياة تبلغ فى جذالتها وامتيازها مبلغ حياة القرون الوسطى الأوربية أزهى أحوالها وهى تشابهها مشابهة عجيبة . ويختلط الشقر والسمر فى هذه المناظر ، ويكثر الأصهبون[3] وهم فى العادة نتيجة للتخليطات العنصرية .

---

(١) الصغدية نسبة إلى صغديانا وهى ولاية من ولايات دولة الفرس القـديمة تقابل اليوم مناطق سمرقند وبخارى . (المترجم)

(٢) الرق (بفتح الراء) جلد رقيق يكتب فيه . (المترجم)

(٣) الأصهب هو الأحمر الشعر . (المترجم)

وكانت الشعوب الهونية التى صارت تسمى آنذاك تتاراً وأتراكاً تقوم فى شمال بحر قزوين بحركة انتقال مستمرة نحو الغرب تواصلت حتى القرن السادس ، ولكن يجدر بنا أن نعدها فيضاً للفائض من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها . وكان العالم من الدانوب إلى الحدود الصينية ما يزال فى معظم شأنه عالم ترحل وبداوة تنمو به بلدان ومدن على طرق التجارة الرئيسية . ولسنا فى حاجة إلى تفصيل القول ها هنا عن الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب منهم ، وهو النزاع الأبدى بين الطورانى[1] والإيرانى . ولسنا نسمع شيئاً عن أى زحف عظيم للفرس نحو الشمال ، ولكن كانت هناك غارات نحو الجنوب عظيمة خليقة بالتذكر قام بها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوين والآلانيين إلى الغرب منه قبل أن بدأت مجموعة الحركات الكبيرة فى القرنين الثالث والرابع نحو الغرب ، وهى التى حملت الآلانيين والهون إلى صميم قلب أوربا . وانتقل المترحلون إلى شرق فارس كما اتجهوا جنوباً مخترقين أفغانستان إلى الهند ، وذلك فضلا عن هذه الحركة المتجهة نحو الشمال الغربى . فكأن هذه الأنهار الجياشة بالمترحلين كانت تفيض على كل من جانبى فارس . ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة « يويه تشى » الذين انحدروا آخر الأمر إلى الهند بوصفهم الهنـدوإسكيذيين فى القرن الثانى . على أن قسما متأخراً من هؤلاء اليويه تشى ظل مقيما على بداوته بآسيا الوسطى ، وتكاثر عدداً فى سهوب التركستان ، وهم يعرفون باسم الإفثاليين أو الهون البيض . فبعد أن أقاموا ثلاثة قرون وهم مصدر إزعاج وخطر على الفرس ، أخذوا يغيرون آخر الأمر على أرض الهند فى إثر أقاربهم حوالى ٤٧٠ ، وكان هذا بعد موت أتيلا بحوالى ربع قرن . على أنهم لم يهاجروا إلى بلاد الهند ، بل ظلوا ينتهبون فى البلاد ذهاباً وغدواً ، ثم يعودون بأسلابهم إلى موطنهم الأصلى ، مثلما فعل الهون فيما بعد إذ استقروا فى سهل الدانوب العظيم وأخذوا ثمة يغيرون على كل أوربا .

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التى نستعرضها الآن ، يتعاقب عليه على الدوام هذان الغزوان : غزو اليويه تشى أى الهندوإسكيذيين الذين أزالوا كما قلنا آخر آثار الحكم الهلينى ، ثم غزو الإفثاليين . وقد دفعت الطائفة الأولى من هؤلاء ،

---

(١) أطلق الإيرانيون ثم العرب ذلك الاسم على سكان التركستان وآسيا الوسطى ولغاتهم. (المترجم)

أى الهندو إسكيذيين أمامها ، موجة من السكان المطرودين من أوطانهم هم الساكا (sakas) ، وبذا تكون الهند قد لقيت فى النهاية ثلاث موجات من إغارات البرابرة حدثت قرابة ١٠٠ م وقرابة ١٢٠ م وقرابة ٤٧٠ م . غير أن الثانية من هذه الغزوات ، هى الوحيدة التى غدت فتحاً مستديماً واستقراراً مقيما . واتخذ الهنود الإسكيذيون مركزهم الرئيسى على الحدود الشمالية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة ، هى أسرة كوشان (Kushan) وهى التى حكمت معظم شمال الهند حتى بنارس شرقاً .

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول) ، وهو الذى ضم إلى شمال الهند كلا من قشغر ويرقند وخوتان . وكان — مثله مثل أسوكا (أو أشوكا) — عاملا قويا على رفع شأن البوذية ، ولابد أن هذه الفتوح التى تكونت منها هذه الإمبراطورية العظيمة على الحدود الشمالية الغربية ، أقامت بين الهند والصين والتبت علاقات وثيقة مستمرة

ولن نهتم هاهنا بذكر ما ألم بعد ذلك بالقوة المسيطرة على الهند من انقسام واتحاد وتحالف ، لاستعصائها على البحث هاهنا فى هذا الحيز الضيق بين أيدينا . فكانت الهند فى بعض الأحيان مجموعة كبيرة من الدول كرقعة الشطرنج ؛ وربما تغلبت إمبراطورية كإمبراطورية الجوبتا (Gupta) على مساحات عظيمة منها . وازدهرت إمبرطورية الجوبتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس . وفى ظل رعايتها قامت الهندوكية العصرية ، وظهرت فترة من النشاط الأدبى العظيم . على أن هذه الأمور لم تغير إلا قليلا طريقة الحياة العادية لدى الشعوب الهندية . وصمدت البرهمانية فى وجه البوذية وازدهرت الديانتان جنباً إلى جنب . وكانت كتلة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الآن إلى حد كبير جداً ؛ فتلبس الثياب وتزرع الأرض وتبنى بيوتها على نفس الشاكلة الحالية

وغارات الإفثاليين جديرة بالذكر ، لا بسبب تولد عنها من آثار مستديمة بل بسبب ما ارتكبه الغزاة من الفظائع . فقد كان هؤلاء الإفثاليون أقرب الناس شبهاً بهون أتيلا فى بربريتهم ؛ كانت الغارة كل همهم ، فلم ينتجوا أسرة ملكية كأسرة كوشان ؛ واحتفظ رؤساؤهم بمركز قيادتهم العليا فى التركستان القريبة . وقد سمى ميهيراجولا (Mihiragula) أعظم زعمائهم كفاية باسم أتيلا بلاد الهند : ويروى أن إحدى تسلياته

المحبوبة كانت لعبة غالية كبيرة النفقة ، هى دحرجة الفيلة فى الهاويات للتفرج على آلامها . وأثار ما ارتكبه من فظائع أمراء الهند التابعين له فثاروا عليه وخلعوه (٥٢٨) . على أن القضاء النهائى على غارات الإفثاليين على الهند لم يأت من جانب الهنود ، بل جاء نتيجة لتدمير المركز الرئيسى للإفثاليين على نهر سرداريا أو سيحون (Oxus) (٥٦٥) على يد قوة الأتراك النامية ، إذ هاجموهم متحالفين مع الفرس . وما لبث الإفثاليون بعد هذه الهزيمة أن انحلوا انحلالا سريعاً تاماً وانصهروا فى السكان المحيطين بهم ، مثلما فعل الهون الأوربيون بعد وفاة أتيلا قبل ذلك بمئة سنة . ذلك أن البدو المترحلين الذين ليس لديهم أرض مراع مركزية لا بد أن يتفرقوا ، إذ ليس أمامهم غير التشتت من سبيل . ويقال إن بعض عشائر الراچپوت (Rajput) الرئيسية الموجودة إلى يومنا هذا فى راچپوتانا فى شمال الهند ، تنحدر من هؤلاء الهون البيض .

وإنا لمضطرون أن نمسك آسفين تماماً عن الإدلاء بأى بيان عن تطور الفروسية فى هذه الولايات الراچپوتية الصغيرة ، وهى عجيبة المماثلة لتطور الفروسية المعاصرة لها فى أوروبا .

ثم إننا لا نستطيع أيضاً أن نتتبع ولو فى معالم إجمالية تطور الفن الهندى بين أيام الإسكندر ومجىء الإسلام : إذلم يقم أى دارس بدراسة تلك الحقبة ولم يمهد لنا السبيل فى هذا الصدد . ولا يخفى أن التأثير الهلّينى فى الفن الهندى والعمارة الهندية عميقاً ، والراجح أن الفنانين وعلى الخصوص المصورين منهم كانوا لا ينفكون يغدون ويروحون بين فارس وآسيا الوسطى والهند . وذلك أن الفن البوذى تتجلى فيه روح هلّينية قوية . ولما حدث فى القرن الثانى



An Epthalite Coin ...

(شكل ١٢٥) عملة إفثالية

وما يتلوه من قرون ميلادية ، أن انتشرت البوذية فى الصين كما سبق أن ذكرنا ، حملت معها شيئا من رشاقة الفن الهلّينى وطابعه وأدخلته على الأشكال الصينية الممثلة لبوذا وعلى

الفن الديني الصيني عامة . ولكن للهند مناخاً قتالا يقضي على كل عمل في قديم مهجور . فإن أسرات مالكة من التي كاد النسيان يعفّي عليها تماماً ، كانت تعيش بالهند عيشاً جميلا مترفاً ، ولكنها لم تخلف من ورائها إلا القليل مما أوتيت من ألوان الجمال .

وهناك أثر فاتن أخاذ تبقّى عن هذا الزمان ، وهو يرى في كهوف أجانتا (Ajanta) المنقوشة جدرانها التي أخذت صورها تذوى وتتعسر رؤيتها . ومن حسن الحظ أن قد أخذت لها صور يمكن الاطلاع عليها بوساطة الجمعية الهندية . وتوجد أجانتا في حيدر آباد في ممر هام بجبال قندهيا ، وقد كان هناك بين القرنين الثاني والسابع الميلاديين دير بوذى به كثير من الأبهاء والدهاليز المفرغة في الصخر ، وفي هذه الفترة وفي القرنين الخامس والسادس بوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش على حساب ملوك ورجال أثرياء متنوعين ، زينها عدد من الفنانين المهرة الموهوبين . وإنا لننظر إلى هذه البقايا في أيامنا هذه ذاهلين ، فإنها بلغت من الفصاحة في الترجمة عن ثراء وذكاء وشهوية الحياة في البلاط كل مبلغ ، فلولا هذه الصور لزالت هذه الأمور من ذاكرة الناس تمام الزوال ، ولا تزال موضوعات تلك الصور في كثير من الحالات موضع نظر وأخذ ورد ؛ فإن بعضها مناظر تمثل حياة بوذا وأساطير تدور حوله ؛ وبعضها تبدو خاصة بالرب إندرا (Indra) ، وبعضها لا يزيد عن صفحة من حياة البلاط اليومية . وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بعثة سياسية موفدة من كسرى الثاني أبرويز . وقد زار هـــذه الكهوف والنقوش في أيام محمد (صلى الله عليه وسلم) يوان تشوانج ، وهو رحالة صيني سنحدثك عنه بالكثير من القول عما قليل .

٧ ــ أسرتا هان وتانج بالصين

هذه القرون السبعة التي شهدت بداية ونهاية الأباطرة في روما ، ورأت حياة أوربا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، تتحطم ثم يعاد سبكها ، ـــ شهدت كذلك تغيرات عميقة الأثر جداً في العالم الصيني . ويتسع بين المؤرخين الصينيين واليابانيين والأوربيين فرض مفاده أن عهدى أسرة هان التي نجد الصين تحت حكمها في

بداية هذه المدة وأسرة تانج التى بها انتهت ، يعتبران من عهود الرفعة المماثلة ، وأنهما كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابهة أو تكاد ، وأن قرون الانقسام الأربعة التى مرت بين نهاية أسرة هان (٢٢٠) وبداية أسرة تانج (٦١٨) ، كانت قرون اضطراب لاقرون انتقال ضرورى . ويخال بعض الناس أن انقسامات الصين إن هى إلا انقسامات سياسية ومحلية . إذ ينخدعون لأن الصين كانت فى نهاية هذه القرون الأربعة كما كانت فى مستهلها ، تشغل نفس المركز فى آسيا ، وأنها ظلت طوال تلك القرون نفس الصين المعروفة ، إذ لم تبرح صاحبة ثقافة مشتركة وكتابة مشتركة ومجموعة مشتركة من الفكرات — وهم فى ذلك يتجاهلون عمليتى الهدم والبناء الجوهريتين اللتين ظلتا تجريان ، كما تفوتهم أوجه الشبه الكثيرة بين ما مر على الصين وأوربا من أحداث.

حقاً إن الانهيار الاجتماعى لم يبلغ أبداً فى العالم الصينى مبلغه الكامل فى العالم الأوربى . فقد بقيت هناك طوال المدة بأجمعها مساحات مترامية كان من الميسور فيها أن يتواصل التحسين والإتقان فى كل فنون الحياة . فلم يحدث بها تقوض تام فى النظافة والزخرفة والإنتاج الفنى والأدبى كالذى علينا أن نسجله فى الغرب . وليس هناك مثيل لما حدث فى أوربا من صدوف عن التماس الرشاقة والمتعة . فإنا نلحظ مثلا أن « الشاى » ظهر فى العالم ، وفشا استعماله فى كل أرجاء الصين . وبدأت الصين تحتسى الشاى فى القرن السادس الميلادى . وظهر بين الشعراء الصينيين من يكتبون كتابات بهيجة عن تأثيرات الفنجان الأول والفنجان الثانى والفنجان الثالث ، وهكذا ، واستمرت الصين تنتج تصويراً جميلا بعد سقوط أسرة هان بزمن بعيد . ففى القرن الثانى والثالث والرابع ، نقشت مناظر طبيعية[1] برية من أروع ما أبدعته يد الإنسان على مر الدهور . واطرد ظهور العدد الموفور من إنتاج الزهريات والنحاتات الجميلة . ولم ينقطع إنشاء المبانى الرشيقة وأعمال الزخرفة . وابتدأت الطباعة عن كتل من الخشب فى نفس زمان احتساء الشاى ، وظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب فى الشعر .

وهناك فروق بأعيانها بين الإمبراطوريات العظيمة فى الشرق والغرب ساعدت كلها على ترسيخ قدم الأولى وتثبيت أركانها . فلم يكن للصين عملة عامة . ولذا فإن

---

(١) المنظر الطبيعى البرى Landscape : منظر أرضى كمنظر قرية أو غابة وقد يكون فيها أشخاص أو حيوانات لا تشغل جزءا مهما من الصورة . (المترجم)

ما كان للعالم الغربى من نظام للدفع نقداً وائتماناً[١] ، وهو النظام الذى يجمع بين الكفاية والخطر فى وقت واحد ، لم يكن مما ابتليت به الصين فى حياتها الاقتصادية . وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت مجهولة . فقد كانت الولايات المختلفة تستعمل فى صفقاتها الصغيرة « نقداً » مثقوباً من الزنك والنحاس ، فأما فى الكبرى فلم يكن هناك من شيء سوى سبائك مدموغة من الفضة . وإذن فهذه الإمبراطورية العظيمة كانت لا تزال تقوم بغالب أعمالها التجارية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذى كان منتشراً فى بابل أيام التجار الآراميين[٢] . وقد استمرت على هذا الحال حتى فجر القرن العشرين .

ولقد رأينا كيف قُضى علىَ النظام الاجتماعى والاقتصادى فى الجمهورية الرومانية بسبب سيولة الملكية ، تلك السيولة الشديدة التى أوجدتها النقود . فأصبحت النقود شيئاً مجرداً قائماً بذاته ، وانقطعت صلتها بالقيم الحقيقية التى كان مفروضاً أنها تمثلها . فوقع الأفراد والمجتمعات فى الدّيْن وقوعاً مخالفاً لكل معقول ، ووقع العالم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين ، وهم رجال كانوا لا يتداولون بينهم أية ثروة حقيقية ، بل كان فى طوقهم أن يطالبوا بالنقود ويسحبوها . فأما الصين فلم يحدث مثل ذلك التطور المالى . بل ظلت الثروة فى الصين حقيقية ومرئية ملموسة . ومن ثم لم تكن بالصين حاجة إلى أى قانون ليسينى (Licinian) ولا إلى تيبريوس جراكوس يدافع عن حقوق المدينين[٣] . ففكرة الملكية فى الصين لم تتجاوز كثيراً حدود الأشياء الملموسة . فلم يكن بها « عمال » أرقاء ولا جماعات مستعبدة فى الخدمة . وإن كان هناك بنات إماء يقمن بالأعمال المنزلية ونساء يُبعن ويُشترين بيع الرقيق ، بيد أن هذا لم يكن إلا توسعة طفيفة لما عليه النساء من مألوف الذل المنزلى . وكان شاغل الأرض والمستفيد منها هو فى معظم الحالات المالك الفعلى لها أو يكاد ، ولا يدفع إلا ضريبة الأراضى . وكان هناك قدر معين من نظام ملكية الأراضى ذات الرقاع الصغيرة ، على أنه لم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من

---

(١) نظام الدفع نقداً وائتماناً Cash & Credit System . (المترجم)

(٢) الآراميون : قبائل رحل بشبه جزيرة العرب . رحلت إلى وادى الفرات فى ١٥٠٠ ق . م . واقتبسوا حضارة الأموريين والكنعانيين ونشروها فى سوريا . (المترجم)

(٣) انظر المجلد الثانى من المعالم ص ٥٦٨ ط ٣ . (المترجم)

الرجال يعمل أجيراً مقابل أجر يدفع في غالب الأمر عيناً – شأن ما كان يحدث في بابل القديمة .

وكانت هذه الأشياء من عوامل الاستقرار كما أن شكل الصين الجغرافي كان من عوامل الوحدة ؛ ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت ، وربما يكون الترف عامل وَهَنها ، وعندما حدث آخر الأمر في نهاية القرن الثاني الميلادي أن دكت ذلك النظام الكارثة العالمية كارثة الوباء العظيم ، وهو نفس الوباء الذي بدأ في الإمبراطورية الرومانية قرناً من الارتباك والاضطراب ، انهارت أسرة هان انهيار شجرة نخرة خاوية هبت عليها ريح عاصفة . وتبدى في الشرق والغرب على السواء نفس الاتجاه إلى الانقسام إلى عدد من الولايات المتناحرة ونفس إغارات الحكام البرابرة .

ويعزو المستر فو كثيراً من خوَر الصين السياسي في تلك المدة إلى انتشار النزعات الأبيقورية التي نشأت – فيما يرى – عن المذهب الفردي المتشكك الذي أنشأه لاوتزى . ويعرف دور الانقسام هذا باسم « عهد الممالك الثلاث » . وشهد القرن الرابع أسرة مالكة من الهون متمدنة نوعاً ما ، وقد فرضوا أنفسهم حكاماً على مقاطعة شن سي (Shen-Si) . ولم تشمل هذه المملكة الهونية شمال الصين فحسب ، بل مساحات عظيمة من سيبيريا ؛ وتمثلت أسرتها المدنية الصينية ، وحمل نفوذها تجارة الصين ومعرفتها وثقافتها قُدُماً حتى الدائرة القطبية . ويوازن المستر فو بين هـذه المملكة السيبيرية وبين إمبراطورية شرلمان في أوربا التي سنصفها لك من فورنا . فمعناها عنده أن البربري أصبح ذا طابع « صيني » مثلما أن شرلمان البربري أصبح رومانيا .

ونشأت عن امتزاج هؤلاء السيبيريين والعناصر الصينية الشمالية من الأهالي ، أسرة سوى (Suy) التي فتحت الجنوب . وتؤذن أسرة سوى هذه ببداية عصر نهضة ببلاد الصين . فألحقت جزائر لوتشو (Lu-chu) بالصين أيام أحد ملوك سوى ، ومرت البلاد بدور من النشاط الأدبي العظيم : ويحدثوننا بأن عدد مجلدات المكتبة الإمبراطورية في ذلك الزمان زيد إلى ٥٤ ألف مجلد . وشهد فجر القرن السابع استهلال عهد أسرة تانج (Tang) العظيمة التي قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون .

ويصر المستر فو على أن نهضة الصين التى ابتدأت بأسرة سوى وبلغت ذروتها أيام تانج كانت ميلاداً حقيقياً جديداً للبلاد . وهو يكتب قائلا « لقد ظهرت روح جديدة ، وهى تدمغ مدنية تانج بخصائص تميزها تماماً عن كل ما عداها . إذ أن عوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها فى بعض ، وهى : (١) الثقافة الصينية المتحررة[1] ، (٢) المذهب الصينى الكلاسيكى العتيق Classicism ، (٣) البوذية الهندية ، ثم (٤) شجاعة أهل الشمال :

« لقد ولدت صين جديدة : فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم العسكرى عند أسرة تانج مختلفاً تمام الاختلاف عما كان عليه الحال عند أسلافها ، وتأثرت الفنون أيما تأثر وانتعشت كثيراً بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى . ولم يكن الأدب مجرد استمرار للقديم ؛ بل كان إنتاجاً جديداً ».وكانت مدارس البوذية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة ، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية »

. « وربما لذ لنا أن نقارن تكوين الصين هذا ، بما آل إليه أمر الإمبراطورية الرومانية فى آخريات أيامها . فكما كان العالم الرومانى مقسما إلى نصفين غربى وشرقى ، كذلك كان العالم الصينى مقسما إلى شمالى وجنوبى . وقد قام البرابرة فى حالة الصين وحالة روما بإغارات متماثلة : وأسسوا سيادات أو دولا من نوع واحد . وضارعت إمبراطورية شرلمان إمبراطورية الأسرة السيبيرية (واى Wei) التالية ؛ ويقابل استرجاع الإمبراطورية الغربية المؤقت على يد جستنيان ، استرجاع الشمال مؤقتاً على يد ليويو (Liu-yu) . ويضاهى الفرع البيزنطى الأسرات الجنوبية . على أن العالمين تفارقا من هذه النقطة . فاستعادت الصين وحدتها ؛ على حين لا يزال باقياً على أوربا أن تحذو حذوها » .

وكانت ممتلكات الإمبراطور تاى تسنج (Tai-Tsung) (٦٢٧) — وهو ثانى ملك فى أسرة تانج — تمتـــد جنوباً إلى أنام (Annam) وغرباً حتى بحر قزوين . وكانت

---

(١) Liberal Culture وهى ذلك الضرب المستنير المهذب من الثقافة الخليق بالسادة المهذبين والجنتلمانية . (المترجم)



(شكل ١٢٦) الإمبراطورية الصينية ومقارنة مساحتها بالإمبراطورية الرومانية

حدوده الجنوبية فى هذا الاتجاه تساير حدود فارس . فأما حدوده الشمالية فامتدت بمحاذاة جبال آلتاى من سهوب القرغيز فى شمال صحراء جوبى . بيد أنها لم تشمل كوريا التى غزاها ابنه وضمها إلى ممتلكاته . وقد استطاعت أسرة تانج هذه أن تنشر الحضارة بين سكان الجنوب أجمعين وأدمجتهم فى الجنس الصينى ، وكما أن صينيى الشمال يسمون أنفسهم « رجال هان » ، يسمى صينيو الجنوب أنفسهم « رجال تانج **Tang** » . وتم تنسيق القوانين وجمعها فى مدونات ، ونقح نظام الامتحان الأدبى ، وأصدرت طبعة كاملة مضبوطة من كل الآداب الصينية القديمة .

ووفدت على بلاط الإمبراطور تاى تسنج بعثة سياسية من بيزنطة ، وأهم من ذلك ، أن قد أتت من فارس جماعة من المبشرين النسطوريين (٦٣٥) فاستقبلهم تاى تسنج باحترام عظيم ، واستمع منهم إلى أهم مواد عقيدتهم ، وأمر بترجمة الكتب المقدسة المسيحية إلى الصينية ليفحصها فيما بعد .

وما لبث فى ٦٣٨ أن أعلن أنه وجد الديانة الجديدة مرضية تماماً ، وأنه يجوز التبشير بها فى الإمبراطورية . كذلك سمح ببناء كنيسة وتأسيس دير . ويوجد

فى سيان فو (Sianfu) اليوم حجر منحوت يدعونه الأثر النسطورى يرجع تاريخه إلى ٧٨١ م ، وقد سجلت عليه هذه الوقائع باللغة الصينية .

كذلك حضرت إلى بلاط تاى تسنج بعثة أدعى إلى العجب عام ٦٢٨ م قبل مجىء النساطرة بسبعة أعوام . وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من ينبع ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كنتون بحراً فى فلك تجارى . (ومن الشائق أن نلحظ لهذه المناسبة وجود أمثال تلك السفن التى كانت تعمل فى التجارة بين الغرب والشرق فى ذلك الزمان) . أرسل هؤلاء العرب محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى سبق لنا ذكره والذى نعت نفسه « نبى الله » . والرسالة التى أحضروها إلى تاى تسنج هى فيما يرجح نفس الدعوة التى أرسلت فى السنة نفسها إلى هرقل الإمبراطور البيزنطى وإلى قباذ فى طيشفون[١] .

على أن ملك الصين لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل ، ولا أهان الرسول كما فعل قباذ قاتل أبيه ، بل أحسن استقبالهم وترجم عن لذة عظيمة فى آرائهم اللاهوتية وساعدهم فيما يقال على بناء مسجد من أجل التجار العرب فى كنتون — وهو مسجد باق إلى اليوم وهو من أقدم مساجد الدنيا .

٨ — أغلال الصين الذهنية

كان تحضر[٢] الصين وثقافتها وقوتها فى ظل حكم ملوك تانج الأوائل نقيضاً ناصعاً واضحاً للانحلال والفوضى والانقسامات فى العالم الغربى ، وهى حال قد تثير على الفور طائفة من أمتع الأسئلة فى تاريخ المدنية . فلماذا لم تحتفظ الصين بتلك الزعامة التى فازت بها بفضل عودتها السريعة إلى الوحدة والنظام ؟ فلماذا لا تتسلط إلى اليوم على العالم ثقافياً وسياسياً ؟

لقد ظلت زماناً طويلا وهى على التحقيق السباقة المتقدمة . وما نستطيع أن نقول مع

---

(١) هى مدائن كسرى : عاصمة الساسانيين وتقع . ج . ق بغداد . (المترجم)
(٢) يقصد الكاتب بالتحضر أو الحضرية دماثة الأخلاق وحسن الآداب والتهذيب وهى صفات أهل الحضر . (المترجم)

الثقة والاطمئنان إن العالم الغربى قد شرع يسبق الصين من جديد ، إلا بعد ألف سنة ، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا وانتشار الكتب المطبوعة والتعلم فى الغرب وبزوغ فجر الاكتشاف العلمى العصرى . فنى عهد أسرة تانج ، وهو أعظم عهودها ، وفى ظل أسرة صنج (٩٦٠ — ١٢٧٩) الفنية النزعة وإن كانت على شىء من التدهور ، ثم كذلك إبان حكم آل منج المتقفين (١٣٦٨ — ١٦٤٤) ، تتجلى الصين للعالم فى مشهد من الرفاعية والسعادة والنشاط الفنى المتقدم أشواطاً بعيدة على أى دولة معاصرة . فإذا راعينا أنها أحرزت ذلك القدر الكبير تساءلنا لماذا لم تحرز المزيد ؟ كانت السفن الصينية تمخر البحار ، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان(١) ، فلماذا لم يكتشف الصينيون قط أمريكا أو استراليا ؟

وهناك رسوم للبوشمن قديمة نقشت على الصخور ، ربما دلت على أن سفناً صينية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقية فى تاريخ ما غير معلوم ، كما يقال إن هناك آثاراً تدل على نزول زوار صينيين فى بلاد المكسيك ، فلئن صح هذا ، فإن واحداً من هذين الاكتشافين العرضيين لا يبدو أنه اتُّبع بغيره مثلما لم يتابع أحد طواف القرطاجيين حول إفريقية أو مثلما لم تتبع زيارات أهل الشمال (Northmen) لأمريكا بزيارات أخرى . ويقول المستر ڤوجان : إن هناك أيضاً رسوماً صينية محفورة فى الصخور فى نيوزيلندة ونيوكاليدونيا . على أن توفر العبقرية الفردية والإقدام غير المتواصل ، لا يكفى لتوطيد اكتشاف من الاكتشافات فى يد أحد المجتمعات ولا يضمن أن يؤتى ثماره

---

(١) من المشكوك فيه أن يكون الصينيون عرفوا البوصلة البحرية . ويستخلص هيرت فى كتابه «تاريخ الصين القديم» ، ص ١٢٦ فما بعدها ، بعد فحص دقيق لكل العصور والأزمنة ، أنه ولو أن من المحتمل أن يكون شىء كالبوصلة عرف فى الأزمنة السحيقة ، فإن العلم به احتواه النسيان لمدة كبيرة بعد ذلك ، حتى ظهر مرة أخرى فى العصور الوسطى كآلة بأيدى الحادين (وهم الذين يوكل بهم اختيار أفضل المواقع للقبور الخ) . وأول ذكر واضح لاستعمالها كمرشد للبحارة ورد فى كتاب فى القرن الثانى عشر ، يشير إلى استخدامها فى سفن أجنبية بين الصين وسومطرة . ويميل هيرت الى الاعتقاد بأن الرواد العرب يحتمل أن رأوها فى أيدى لحادين صينيين ثم طبقوا استعمالها على الملاحة ، حتى إنهم استطاعوا بعد ذلك إعادتها إلى الصين فى صورة البوصلة البحرية . (المؤلف)

ويصبح معرفة وطيدة قابلة للاستعمال . ولا بد أن يكون المجتمع نفسه مستعداً لتقبله والإفادة منه .

ومن المحقق أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع – وإن كانت فردية منعزلة متفرقة – ما لا يقل عما فى أى جزء من أجزاء العالم . وعرف الصينيون البارود فى القرن السادس . واستعملوا التسخين بالفحم الحجرى والغاز استعمالا محليا قبل أن تستخدم هذه الأشياء فى أوربا بقرون . فأما إقامتهم للكبارى وهندستهم المائية فدهشة جديرة بالإعجاب ؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تبدى فى الآنية المطلية بالميناء واللاكيه[1] لعظيمة جداً . فلماذا لم ينشئوا قط طريقه التسجيل والتعاون فى البحث ، تلك الطريقة التى وهبت العلم الحديث للعالم ؟ ولماذا ، بالرغم من مرانهم العام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعليم الذهنى إلى كتلة السكان العامة ولم يتخللها ؟ ولماذا كانت جماهير الصين اليوم ، كما كانوا على الدوام أميين بالرغم من المستوى الرفيع للذكاء الطبيعى الاستثنائى المنتشر بينهم ؟

من المألوف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات غالباً ما تكون جوفاء . فيقال لنا إن الصينى أشد المخلوقات البشرية محافظة ، وإن عقله – على نقيض الأجناس الأوربية – ملفوت نحو الماضى ، وأنه العبد الخاضع بإرادته لآداب اللياقة والتقاليد إلى درجة لا يكاد يتصورها العقل الغربى : وهو يمثَّل كأنما له عقلية مميزة إلى حد يجعل الإنسان يتوقع غالباً أن يجد فى تركيب المخ فارقا يفسر ذلك الاختلاف . والقائلون بهذه الآراء يقتبسون التماس كنفوشيوس لحكمة القدماء لدعم ذلك الزعم .

على أننا لو فحصنا هذا التعميم (الحكم العام) فحصا أدق وأضبط لتبدد فى الهواء هباء منثوراً . فإن قوة الابتكار والمبادرة الذهنية الفائقة والإقدام العقلى المتحرر والميل إلى التجريب ، تلك المزايا التى نعتقد أنها قوام خصائص الذهن الغربى ، لا تتجلى فى تاريخ

---

(١) اللاكيه lacquer دهان محلول الك وهو مادة راتنجية (قلفونية) يفرزها نبات الكوكوس لاكا Coccus Lacca الذى ينتج صباغاً أحمر زاهياً . (المترجم)

هذا الذهن إلا فى أثناء أدوار معينة وتحت ظروف استثنائية . وفيما عدا ذلك ، لا يتجلى العالم الغربى إلا مضارعا للصين فى التزام التقاليد والمحافظة على كل قديم . ومن الناحية الأخرى ، فإن العقل الصينى كان إذا حفزه حافز يبدى قدرة على الاختراع والابتداع وتعددا فى المزايا كالأوربى سواء بسواء ، كما أن الذهن اليابانى المجانس له يكاد يفوقه فى هذا . فإذا اتخذت من الإغريق مثالا ، وجدت أقصى ما بلغوه من قوة ذهنية واقعاً فى المدة بين القرن السادس ق ؟ م . وبين اضمحلال متحف الإسكندرية أثناء حكم البطالمة المتأخرين فى القرن الثانى ق . م . ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده ، بيد أن تاريخ ألف سنة من سنى الإمبراطورية البيزنطية أظهر أن العالم الهلّينى راكد الذهن كالصين سواء بسواء . ثم إننا قد سبق أن وجهنا النظر إلى عقم الذهن الإيطالى نسبياً أثناء العهد الرومانى ، وإلى وفرة خصبه منذ « نهضة إحياء العلوم » . وكذلك الذهن الإنجليزى ، فقد مر به دور من التوقد فى القرنين السابع والثامن ، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرن الخامس عشر . كذلك ذهن العرب كما سنخبرك من فورنا ، قد تألق تألق النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام ، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أى شيء ذى بال . ومن الناحية الأخرى كان هناك على الدوام قدر عظيم من المقدرة على الاختراع مبعثر فى الصين ، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصينى من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية . وإنا لنبالغ فى مدى احترام الصينيين لآبائهم ؛ فقد كان قتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شيوعاً بين الأباطرة الصينيين ، لدى حكام فارس أنفسهم . وفضلا عن ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدثت بالصين حركات تحريرية كثيرة ، وكفاحات عديدة ضد «الأساليب العتيقة» .

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم الذهنى الحقيقى فى أى مجتمع من المجتمعات تبدو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الغرض غير متحيزة العقول ، بلغت من الحرية مبلغاً يجعلهم لا يكدحون ولا يحماون هما يستنفد القوى من أجل حاجاتهم الدنيوية ، ولم يبصل فى ثرائها وسعة سلطانها إلى حد يغريهم بالإسراف فى الشهوات أو المظاهر أو القساوات . ويجب أن يتوافر لهم شعور بالطمأنينة ، لا غرور بالتفوق . وأسلفنا كذلك أن هذه الطبقة يجب أن تتهيأ لها القدرة على الكلام بحرية وأن تتواصل بسهولة . ويجب ألا

تراقب لمظنة الزندقة أو تضطهد لأية آراء قد تعبر عنها . ولا مراء أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تغمر بلاد الإغريق فى أحسن أيامها . والواقع أن طبقة من القوم الأذكياء المهذبين الأحرار تبدى على صفحات التاريخ حيثما ظهرت فلسفة جريئة مدونة أو تقدمات علمية فعالة .

ولا بد أن الصين كانت تضم فى أيام تانج وصنج ومنج كثرة من القوم المنعمين من نفس الطبقة التى كان منها معظم شبان « أكاديمية » أثينا أو أذكياء إيطاليا النابهين فى عصر النهضة أو أعضاء الجمعية الملكية اللندنية ، وهى الجمعية التى كانت بمثابة الأم من العلم الحديث ؛ ومع ذلك فإن الصين لم تنتج فى عصور الفرص التى أتيحت لها شيئاً يماثل تلك البدايات العظيمة للحقائق المسجلة المحللة .

فإذا نبذنا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق العنصرية العميقة بين الصين وبين الغرب ، تلك الفوارق التى تجعل الصينيين محافظين بطبيعتهم ، وتجعل الغرب تقدمياً بطبعه ، وجب علينا إذن أن نبحث عن السبب الفعال لهذا الفارق فى روح التقدم ملتمسين إياه فى نواحى أخرى . ويميل كثير من الناس أن يبحثوا فى اتجاه آخر عن السبب الفعال فى تأخر الصين ذلك التأخر العظيم بالرغم مما لها من ميزات أصيلة أثناء القرون الأربعة أو الخمسة الأخيرة — وهم يرون أن تكبيل الذهن الصينى فى كتابة وفى صيغ للفكر بلغت من الإحكام التفصيلى والصعوبة حداً جعل طاقة البلاد العقلية مستنفدة استنفاداً عظيما فى تحصيلها هو مرد ذلك كله . وعندى أن هـذا الرأى جدير بالفحص والنظر .

وقد سبق أن أعطيناك بياناً عن خاصيات الكتابة الصينية واللغة الصينية . والكتابة اليابانية مشتقة من الصينية كما هو معلوم ، وتتكون من مجموعة من الصيغ أسرع تدويناً . والعدد الكبير من هذه الصيغ « كتابة تصويرية رمزية »[1] منقولة عن الصينية وتستخدم بالضبط بنفس الطريقة التى تستخدم بها الكتابة التصويرية الرمزية « الصينية » ، على أن هناك كذلك عدداً من العلامات يستعمل للتعبير عن المقاطع ؛ ولليابانيين مجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة مجموعة الأحرف السومرية الممثلة للمقاطع والتى سبق أن وصفناها . ولكن الكتابة اليابانية تظل بعد ذلك طريقة سمجة كالخط المسمارى سواء بسواء ، وإن لم تصل بسماجتها وتعقيدها إلى درجة

---

(١) « كتابة تصويرية رمزية **Ideograms** » أى رموز كتابية هى كما أسلفنا ج ١ ط ٣ من المعالم ص ١٩٤ صورة أو رمز تستعمل فى نظام الكتابة .

الصينية ؛ وقد قامت ببلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أبجدية غربية . على أن كوريا تقلست إلى الأمام خطوة من زمان بعيد ، ونحتت أبجدية حقيقية من المصادر الصينية نفسها .

وفيما عدا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن فى العالم ، تقوم على أبجديات البحر المتوسط ، وهى أسهل حفظاً واتقانا من الصينية بشكل لا يسمح بأية موازنة . ومعنى هذا أنه بينما الشعوب الأخرى لا تتعلم لتدوين اللغة المألوفة لديها إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبياً ، فإن الصينى ملزم أن يتمكن من أحشاد عظيمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة . فليس عليه أن يتعلم العلامات وكفى ، بل التجميع المقرر لتلك العلامات أيضاً ، حتى يتاح له إظهار المعانى المختلفة . فيجب والحالة هذه أن يجعل نفسه ملما بعدد من المؤلفات القديمة التى تتخذ مثالا يحتذى . وبناء على هذا ، فبينما أنت واجد فى الصين أعداداً عظيمة من الناس يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور ، فلن تجد إلا القليلين ممن تتسع معارفهم لإدراك معنى فقرة فى إحدى الصحف ، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن يقرأوا ما قد يرمى إليه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أى ظلال ممتازة للمعانى . وهذا يصدق أيضاً على اليابان وإن يكن بدرجة أقل . ولا مراء أن القراء الأوربيين وبخاصة أصحاب تلك اللغات التى لا تلتزم نظاما بعينه والغنية بالألفاظ مثل الإنجليزية والروسية ، يختلفون اختلافاً عظيما فيما بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التى يستطيعون فهمها ومدى فهمهم لها ؛ فإن قوتهم فى اللغة تختلف باختلاف محصولهم من المفردات ؛ بيد أن ما يقابل ذلك من مستوى الفهم عند الصينيين ، يستدعى تحصيله بذلا من الجهد والوقت أعظم كثيراً . فان تعليم الموظف (الماندرين Mandrin) فى الصين إنما هو فى معظم شأنه تعلم للقراءة .

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقة المتعلمة أثناء سنى قابليتها للتعلم والاستيعاب وإكبابها على الآداب القديمة الصينية يجعلها متحيزة لهذه العلوم التقليدية التى ألفقت فيها مثل هذا القدر الكبير من الزمان والطاقة . وقل من الرجال الذين كدحوا فى عقولهم بعلم من العلوم ، من يطرح برضاه ذلك العلم جانباً ، مفضلا عليه شيئا آخر جديداً غير مألوف . وغنى عن البيان أن هذا الميل شىء لا ينفرد

به الشرق دون الغرب . وهو يبدو ظاهراً ملموساً عند كبار علماء الجامعات البريطانية والأمريكية مثلما يتجلى لدى أى ماندرين صينى . وإن البريطانيين فى الزمن الحاضر ليرفضون أن يتزحزحوا خطوة عن طريقتهم الهمجية فى الهجاء والإملاء ، بالرغم من المزايا العظيمة الواضحة التى ستعود على التعليم الشعبى والدعاية القومية من الانتقال إلى الأبجدية الصوتية[1] والهجاء الصوتى . ولابد أن خصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمى المترتب على تلك الكتابة قد قاما عصراً بعد عصر بعملية غربلة قوية تظاهر العقول المفرغة فى قوالب جامدة كما تظاهر عقلية الخذلقة العملية الجوفاء وتنصرها على الطراز الجامح الخلاق ، وتستبعد هذا الأخير من مراكز النفوذ والسلطان . وعندى أن هذا التفسير مستساغ ومقبول إلى حد كبير .

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدته إلا إبان أسرة منج الحديثة نسبياً . وكانت أسرة منج (١٣٦٨ — ١٦٤٤) أسرة وطنية النزعة محافظة على القديم ، استردت الصين بعد حكم المغول . ويقول المستر ل . ى . تشن L. Y. Chen : إن أول أباطرة أسرة منج قال عندما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تدقيقاً : « لسوف يجلب هذا إلى مصيدتى كل من فى العالم من ذوى العقول » . وقد سجنت « الآداب القديمة الخمسة والكتب الأربعة » عقل الصين فى محبسها . فعندما يحل الزمن الذى ينتهى فيه أى رجل من شق طريقه فيها كدحاً وكداً يكون تقدير القيم لديه ، قد بلغ من الصلابة واستعصاء العلاج مبلغه عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفورد .

ولقد جرت محاولات عديدة لتبسيط الكتابة الصينية ولإقتباس طريقة أبجدية . ففى أيام البوذية الأولى بالصين ، عندما ترجم قدر عظيم من المؤلفات عن السنسكريتية : أوشكت المؤثرات الهندية على بلوغ تلك الغاية . وقد اخترعت فى الواقع أبجديتان صينيتان ، وحظيت كل منهما بشىء يسير من الاستعمال . ولكن الشىء الذى حال دون تعميم استعمال هاتين الأبجديتين ، والذى لا يزال حتى اليوم يقف فى سبيل أى « طريقة صوتية » للكتابة الصينية ، هو أنه على حين ترى الكتابة الأدبية وأسلوب العبارة الفصحى واحداً لا يتغير من أقصى الصين إلى أقصاها ، فإن لغة العامة المتداولة تختلف فى كل من طريقة نطقها وصيغها الاصطلاحية المألوفة اختلافاً يبلغ من الاتساع حداً يجعل الرجل من أبناء

---

(١) الطريقة الصوتية Phonetie فى الكتابة الإفرنجية طريقة لا تتمسك بالإملاء التقليدى المعروف للكلمات وإنما تمثل الكلمات أو تصور أصواتها بعلامات وحروف مميزة . (المترجم)

إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبناء ولاية أخرى . وهناك على ذلك « لغة صينية فصحى » وهى عبارات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة عن الكتب ينطق بها المتعلمون ويفهمونها على وجه العموم ، وتتعلق آمال الكثيرين من المصلحين التربويين بالصين فى الوقت الحاضر على احتمال استخدام طريقة أبجدية للكتابة فى هـــذه الصينية الفصحى . وقد صيغت أبجدية صينية ، وهى تعلم فى المدارس العامة ، وتنشر بها الصحف والنشرات . وقضى على نظام الامتحان الجامد الذى قتل كل ابتكار فكرى خلاق .

كذلك أحدثوا تبسيطاً جسيما يتمثل فى إدخال صيغ الحديث الاصطلاحية المنطوقة إلى الصينية المكتوبة . وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى اليسر والوضوح . فإن مثل هذه الصينية وإن كتبت بالحروف القديمة أسهل قراءة وكتابة ، وهى مكيفة لحاجات التعبير الأدبى العصرى تكييفاً أوفق كثيراً من الصينية الكلاسيكية القديمة .

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز زعامة الإنسانية المحقق . فإن ما نالته الصين فى الماضى من النجاح والرخاء القـــديم والقناعة العامة ، لابد وأنها عملت عملها بتلك البلاد لتبرير كل ما فطر عليـــه جنسنا البشرى من طمأنينة نفســـية وروح محافظة طبيعيين . فلو نظرنا إلى المسألة من الناحية البيولوجية ، فما من حيوان بمحتاج إلى التغير ، ما حسنت أحواله حسناً يكفل له البقاء فى وقته الراهن . وما يزال الإنسان فى هذا الأمر حيواناً . وقد ظلت الصين ما يربى على الألفى سنة حتى القرن التاسع عشر ، دون أن يخامرها أو يداخل تاريخها إلا أقل إحساس بأى شكوك خطيرة حول تفوق مدنيتها بوجه عام على مدنيات العـــالم كله ، ولم يكن هناك تبعاً لذلك أى سبب ظاهر يحدو بالصينى إلى إحداث أى تغيير . فقد أنتجت الصـــين فيضاً وفيراً من الفن الجميل وبعض الشـــعر الممتع وطباخة مدهشة وآلاف الملايين من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جيلا بعد جيل . وكانت وما تزال بلاد ملكيات صغيرة ؛ وكل الأيدى فيها مطلوبة ، ويمكن استخدامها جميعاً أعمال زراعية عتيقة تعود إلى عهد الأجداد . هذا إلى آن هناك منافذ أمام القوى الجانحة إلى الاتساع . إذ لا يزال فى الشمال والغرب متسع عظيم للإقامة والاستيطان وإذن فإن شيئاً ذا بال لم يحدث ، فلم يقم توتر داخلى حاد يشتت شمل العشيرة العائلية الصينية القائمة على نظام الأبوة . وهى العائلة التى تزوج أبناءها فى سن مبكر وتحتفظ بهم فى المنزل

قبل أن يحصلوا على الاستقلال الاقتصادى . هكذا سارت الصين فى طريقها عصراً بعد عصر ، وما تزال تسير دون أن يداخلها أى شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك العبودية ولا المذلة ولا التعس العام التى كانت تحف بحكم الأغنياء الإمبراطورية الرومانية ، حتى أدت فى النهاية إلى انهيارها . أجل كان هناك والحق يقال فقر كثير واستياء كبير . بيد أنه لم يكن فقراً جماعياً لقوم مطرودين من أملاكهم ، ولم يكن استياء شعبياً لا مناص منه . فبعد كل شدة وبعد كل كارثة ، تبرأ نفوس السكان ، وتلتئم الجراح . ولقد عمر النظام الصينى ألف سنة ، لاح فيها ممتنعاً على كل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتأوه ويترنح . أجل حدثت تغييرات فى الأسرات المالكة وثورات وأدوار فوضى ومجاعات وأوبئة ؛ كما حدث غزوان عظيمان نصبا أسرتين أجنبيتين على عرش « ابن السماء » ؛ ولكن لم تحدث تلك الصدمات التى توجد انقلابا ثوريا فى نظام الحياة اليومية . وقد يأتى الأباطرة والأسرات المالكة ويذهبون ؛ فأما الماندرين والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما هى عليه . فالمدنية الصينية وإن ظلت منذ أسرة تانج فما بعدها ، تنتشر فى بطء واستمرار فى أنام وكمبوديا وسيام والتبت إلى نيبال وكوريا ومنغوليا ومنشوريا ، لا تنطوى على شيء نستطيع تسجيله لها عدا ذلك التقدم الجغرافى . وكان صينيو القرن السابع الميلادى شعباً ممدناً يعادل فى كل من حضارته ونواحيها الجوهرية ما كانوا عليه بعد ذلك بألف سنة .

٩ – الفن الصينى القديم

ربما جاز لنا هنا أن ندلى بكلمة حول فن الصين وعمارتها فى عهد أسرتى هان وتانج وما جاء بينهما من أسرات أخرى . والصينيون ، لأسباب لا نستطيع البتة أن نحللها ، فضلوا على الدوام استعمال الخشب والطوب على استعمال الحجر فى المبانى . ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موفورة ببلاد الصين . ولا يكاد التاريخ يسجل لنا فيما قبل القرن الحادى عشر الميلادى أى خرائب وأطلال ولا أية مبان اللهم إلا السور العظيم . على أن الصور والسجلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهد أسرة « تسى إن » أو أبكر منها .

وأقدم أشكال المبانى تشتق اشتقاقاً مباشراً من الخيمة المغولية . وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذى قد يكون ثنائياً أو ثلاثياً وبه أشغال خشبية محفورة ومطلية باللك (الجملكة) . وربما كان السقف نفسه مغطى بقراميد صقيلة ألوانها زاهية ؛ والمبانى على العموم ذات طابق واحـــد وتنتشر انتشاراً أفقياً . وهناك ظاهرة كثيرة الحدوث فى التصميم الصينى هى الممرات التكريمية ذات العقود . وتكثر القناطر الحجرية ، والكثير منها على درجة عالية من الرونق . والپاجودا[١] المشيرة إلى السماء طراز ثالث للبناء ، وهذه ومعها الشرفات والدرابزينات تكمل الصورة العامة للمبانى الصينية . تلك هى الصورة الممثلة للفن المعمارى فى الصين فى أوائل الحقبة المسيحية ؛ وهى ما تزال على هذا الحال إلى يومنا هذا . ويقال إن الپاجودا — وربما كان ذلك غير صحيح ترجع إلى بدايات هندية بوذية ، وأنها المعادل الصينى « للإستوپا » التذكارية الهندية .

ولهذا الاستخفاف بالمواد الطويلة الأجل القوية الاحتمال أثره فى معرفتنا بفن التشكيل الصينى قبل أسرة هان . ويكاد البرونز أن يكون هو الاستثناء الوحيد . فإنا نعرف بوجود زلع[٢] وتماثيل من البرونز ترجع إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شانج . وهى من جمال الشكل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجـــود عالم بأكمله يعاصرها من المنتجات المماثلة التى لم يبق منها اليوم شىء . ولسنا نصل إلا فى عصر أسرة هان وبعد بداية الحقبة المسيحية ، إلى دور من أدوار الحياة الصينية ترك آثاراً كثيرة فى أى مادة أخرى عدا هذه .

ويحدثنا أهل الذكر إن « التصوير » كان فن الصين الأساسى ، وكانت تصنع منه أشغال بالغة الجمال والرونق فى عهد أسرة هان . وينوه التاريخ باسم كوكاى تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع الميلادى) بأنه من أعظم أساتذة المرقاش[٣] الصينيين . وما يزال بعض أعماله باقية ، ويتجلى فيها من النضج والأستاذية ما يشهد بوجود مدرســة راسخة

---

(١) الپاجودا أو الإستوپا : نصب بوذى على صورة أكمة ذات قبة . (المترجم)

(٢) الزلعة وعاء معروف ، وهو الجرة الكبيرة . (المترجم)

(٣) المرقاش هو ريشة المصور . (المترجم)

القدم فى الفن فعلا . والتصوير الصينى يُعمل دائما أبدا بالألوان المائية . وإنا لنجد بدلا من التصاوير الجصية الجدارية (الفرسكوهات)[١] الكبيرة صورا رقشت على الحرير والورق، ، وهى تختلف عن المنتجات الغربية فيما تظهر من كراهية إيجابية لتمثيل مظهر البروز (Relief) . فهى مسطحة[٢] هوائية رقيقة ، كما أنها تعالج المناظر الطبيعية البرية أكثر مما تعالج التمثيل الدقيق للجسم البشرى . وعصر أسرة تانج يعده كثير من النقاد العصر الذهبى لفن التصوير الصينى .

فأما فن النحت الصينى فإنه لم يواكب بأية حال فن التصوير الصينى ولا يكاد يكون له شأن يذكر إلى جوار الإنتاج الأوربى ، على أن الخزف الصينى من الناحية الأخرى فائق فى امتيازه . فقد جرت عادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لنار حرارتها أشد كثيراً مما جرت به العادة فى العالم الغربى ، وأنتجوا عند نهاية حكم أسرة تانج خزف البورسلان[٣] وما لا نظير له من أنواع التزجيج[٤] واتصف خزف أسرة هان بالفعل ببالغ الصلابة والإبداع . وتوجد الآن فى المنازل والمجموعات الأوربية أعداد وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الخدم والخيل والجمال وما إليها ، وكلها ترجع إلى زمن أسرة تانج . وقد استخرجت كلها من القبور ، وكان الأصل فى وضعها فى هذه القبور أن تحل محل العبدان والحيوان التى كانت تسفك دماؤها فى ماض أكثر همجية . واستمرت مذابح القبور هذه التى يقصد بها تزويد الرئيس المغولى الراحل بالخدمة والدواب فى أرض الظلال : (القبور والموت) ، استمرت فى الصين حتى القرن السابع أو السادس ق . م . ثم استبدلت بها التماثيل . على أن الهون فى أيام أتيلا ما برحوا يراعون العادة القديمة ، عادة الذبح الحقيقى . على أنها كانت بادت فى مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت محلها هناك الصور والتماثيل الجنائزية .

---

(١) التصوير الجصى أو الفرسكو **Frescoe** ضرب من الصور وطريقة لتصوير الثابت على بياض الجدران الطرى كثيرا ما تخلط فيه الألوان بزلال البيض . (المترجم)

(٢) الصورة المسطحة : هى التى ليس فيها ما يوحى بالعمق والمسافة . (المترجم)

(٣) خزف البورسلان **Porcelain** : صنف من الصينى أبيض ورقيق وشبه شفاف كان يصنع أولا بالصين . (المترجم)

(٤) التزجيج : وضع غشاوة شبه زجاجية على سطح الخزف . (المترجم)

١٠ – رحلات يوآن تشوانج

فى عام ٦٢٩ ، وهى السنة التالية لوصول مبعوثى محمد (ﷺ) إلى كنتون وبعد هبوط المبشرين الذين بعث بهم البابا جريجورى إلى إنجلترة بنيف وثلاثين سنة ، قام عالم بوذى متبتل يدعى يوآن شوانج أو (هيوين تسيانج) كما يفضل بعض الثقات أن يكتبوا اسمه – برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو أى (سيجنان) وهى عاصمة تاى تسنج . غاب عن بلاده فى هذه الرحلة ستة عشر عاماً ، وعاد (٦٤٥) وكتب



شكل (١٢٧) خريطة تبين طريق يوان شوانج من الصين إلى الهند ٦٢٩ – ٦٤٥

عن رحلاته بياناً يعتز به الصينيون كقطعة من الآداب الكلاسيكية القديمة . وإن فيما مر به من تجربة لنقطة أو نقطتين جديرتين بالملاحظة ها هنا ، لأنهما تساهمان بقسط فى استعراضنا العام لحالة العالم فى القرن السابع الميلادى[١] .

كان يوآن تشوانج نظيراً لهيرودوت فى غرامه بالعجائب وسرعة تصديقه إياها ، وإن أعوزه ما للكاتب الثانى من الحاسة التاريخية الممتازة ؛ فلم يكن ليطيق أن

(١) عن وصف جغرافى تفصيلى لتلك المناطق أنظر الطبعة الثالثة المجلد الثانى من « المعالم » ص٦٤٦ (المترجم)

يمر بنصب أو خرابة دون أن يعلم عنه قصة ما خرافية . وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الأدب ، هى التى منعته من إحاطتنا بتفاصيل كثيرة عن كيفية تنقله ، ومن كان برفقته ، وكيف كان يقيم ، أو ماذا كان يأكل ، وكيف كان يدفع نفقاته — وهى تفاصيل لها قيمتها البالغة لدى المؤرخ ؛ ومع ذلك ، فإنه ينفحنا مجموعة من ومضات براقة عن الصين وآسيا الوسطى والهند فى المدة التى نحن بصدد بحثها .

كانت رحلته رحلة هائلة . ذهب فيها وعاد منها بطريق هضبة الپامير . فذهب بالطريق الشمالى عابراً صحراء جوبى ، مسايراً المنحدرات الجنوبية لجبال تيان شان ، مطوقاً حافة بحيرة إسيك كول (Issik-kul) العظيمة العميقة الزرقاء ، وبذا وصل إلى طشقند وسمرقند ، ثم سار يترسم إلى حد ما خُطى الإسكندر الأكبر متجهاً جنوباً نحو ممر خيبر وپيشاوار . ثم عاد بالطريق الجنوبى مخترقاً الپامير من أفغانستان إلى قشغر ، وبذا يكون قد سار على امتداد خط التراجع الذى اتبعته قبيلة « يويه تشى » فى اتجاه مضاد قبل ذلك بسبعة قرون ، ومر بطريق يرقند على امتداد منحدرات الكوين لن ، حتى عاد إلى طريقه القديم قرب النهاية الصحراوية للسور العظيم . وكان سلوك كل من هذين الطريقين يتضمن تسلقاً شاقاً لجبال وعرة . وليس من المستطاع اقتفاء أثره أثناء رحلاته ببلاد الهند ؛ فإنه ظل هناك أربعة عشر عاماً ، اخترق أثناءها كل شبه الجزيرة من نيپال إلى سيلان .

وكان هناك فى ذلك الزمان مرسوم إمبراطورى يحرم السفر إلى الخارج ، حتى لقد انطلق يوآن تشوانج من سيان فو خفية كأنما هو مجرم هارب . وتعقبته السلطات لمنعه من تنفيذ مشروعه . وإن القارئ ليجد فى كتابه « الحياة » ، كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصاناً هزيلا أحمر اللون يعرف طرق الصحراء ومسالكها ، وكيف تفادى مخفرا على الحدود بمساعدة « شخص أجنبى » ، صنع له على النهر جسراً من الحسك أدنى من ذلك الموضع ، وكيف أنه عبر الصحراء مسترشداً بعظام الموتى من الرجال والماشية ، وكيف رأى سراباً ، وكيف نجا بأعجوبة مرتين من السهام عندما كان يتزود بالماء بالقرب من أبراج الخفارة فى الطريق الصحراوى . وحدث ذات مرة أنه ضل الطريق فى صحراء جوبى ، وظل أربع ليال وخمسة أيام ولا ماء معه ؛ وتجمد

إثنا عشر نفراً من رفاقه وماتوا برداً وهو فوق الجبال بين أحضان الجليد . كل هذا الذى روينا موجود فى كتاب « الحياة » ؛ إذ أنه لا يقول عن ذلك غير القليل فى بيانه الشخصى عن أسفاره .

وهو يعرض علينا الترك — وهم التطور الجديد لمجتمع الهون ، وقد ملكوا لا ما هو الآن التركستان فحسب ، بل كل ما يقوم على امتداد الطريق الشمالى بأكمله . وهو يذكر أسماء مدن جمة ويشير إلى الزراعة واتساع رقعتها . ويولم له الولائم حكام عديدون ، وهم إما من حلفاء الصين أو من أتباعها إلى حد ما ، كما يولم له آخرون من بينهم خان الترك وهو شخص فاخر فى ثياب خضراء من الأطلس ، وقد عقص شعره الطويل بالحرير .

« وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشاة بالذهب تشع فخامة وضاءة تخلب الأبصار ؛ وقد جلس الوزراء الحاضرون والقائمون بالخدمة على بسط فى صفوف طويلة على كلا الجانبين ، وكلهم مرتد ثياباً فاخرة من وشى الديباج ، على حين كانت بقية الحاشية صاحبة النوبة تقف من ورائهم . ولقد رأيت أنه وإن كان والياً من ولاة مناطق التخوم ، فلقد أحاطه مع ذلك جو من السمو والظرف . خرج الخان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوآن تشوانج الذى دخل الخيمة بعد تحية كريمة . . . وبعد فترة وجيزة ، أدخل على الخان رسل من الصين ومن كاو تشانج فقدموا رسائلهم وأوراق اعتمادهم ، فقرأها الخان وسر منها كثيراً ، وأمر فأجلس الرسل ؛ ثم أمر لنفسه ولهم بالنبيذ والموسيقى وبشراب العنب للحاج . وعند ذلك تبادل القوم الأنخاب ، وكان لملء كؤوس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف ، بينما ارتفعت أنغام الموسيقى عن آلاتها المتنوعة : ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة ، فإنها أدخلت السرور على المشاعر وأنعشت الملكات الذهنية . وبعد قليل قدمت إلى الآخرين أكوام من شواء لحم البقر والضأن ، وقدم للحاج الطعام المباح من أمثال الكعك واللبن والفواكه المسكرة والشهد والعنب . وبعد انتهاء الوليمة ، قدم شراب العنب مرة ثانية ، ودعا الخان يوآن تشوانج أن ينتهز المناسبة فينفح المجتمعين بعض علمه ، وعند ذلك بسط الحاج لهم مبادئ « الفضائل العشر »

والرفق بالحيوان وكمالات البارامبتا (Paramitas)[1] وفك الرقاب . فانحنى الخان رافعاً يديه وأمن مسروراً مغتبطاً وتقبل التعاليم » .

وبيان يوآن تشوانج عن سمرقند يصورها مدينة كبيرة ذات رغد ورخاء ، « إنها مستودع تجارى عظيم ، والمنطقة المحيطة بها عظيمة الخصوبة ملتفة الأشجار كثيرة الأزهار ومنتجة لكثير من الخيول الصافنات . وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاط » : ومما يجدر ذكره لهذه المناسبة : أنه لم يكن هناك فى ذلك الزمان شىء يمكن تسميته مدينة فى إنجلترة الأنجلو سكسون .

ومع ذلك فكلما اقتربت روايته مما مر به فى الهند من خبرات ، تغلبت نزعة الحاج التقى العالم فى شخص يوآن تشوانج على نزعة الرحالة ، وعند ذاك يصبح الكتاب مزدحماً بأقاصيص فظيعة تروى معجزات لا سبيل إلى تصديقها . ومع ذلك فإنا نحصل على انطباعة عن المساكن والثياب وما إليها ، وكلها وثيقة الشبه بما فى الهند اليوم . وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إلى اليوم : من شدة تنوع الأشكال والهيئات المختلفة للجماهير ، لهو نقيض صريح للصين بما يعم جميع جماهيرها من الثياب الزرقاء . ووجود الكتابة والقراءة بالهند أيام بوذا من الأمور المشكوك فيها : فأما آنذاك فقد صارت الكتابة والقراءة من المهارات الشائعة تماماً . ويقدم إلينا يوآن تشوانج بياناً ممتعاً عن جامعة بوذية عظيمة فى نالاندا ، كشفت أخيراً خرائبها ورفعت عنها الأتربة . ويبدو أن نالاندا وتاكسيلا كانتا مركزين تعليميين كبيرين فى زمان يرجع فى قدمه إلى عهد فتح المدارس الفلسفية فى أثينا . كذلك زار كهوف أجانتا التى مر الحديث عنها . وقد وجد يوآن تشوانج نظام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله ضده بوذا ، ووجد نجم البراهمة فى تألق وصعود لاريب فيه . وهويذكر الطوائف الأربعة الرئيسية التى ذكرنا[2] . بيد أن بيانه عن وظائفها وأعمالها يختلف نوعاً ما . فهـو يقول إن السودرا (Sudras) هم حراث الأرض . ويقول الكتاب الهنود إن عملهم كان خدمة الطوائف الثلاثة « المولودة مرتين » الأعلى منهم .

ولكن كما سبق أن ألمعنا فإن بيان يوآن تشوانج عن واقع الأحوال الهندية يغمره ما كدسه فيه من الأساطير والمختلقات الورعة . فمن أجل هذه دون غيرها جاء ، وبهذه كان

---

(١) كمالات البارامبتا : هى فضائل الكمال المطلق مثل ، العفاف والاحسان والصبر والحكمة ، التى ينبغى أن يمارسها كل من تتوق نفسه إلى سلوك سبيل النبوة البوذية . (المترجم)

(٢) انظر المعالم ج ١ ص ٢٣٤ ط ٣ . (المترجم)

يفرح ويغتبط . فأما ما عدا ذلك فواجب قد ألقى على عاتقه رغماً عنه كما سنرى .
فإن عقيدة بوذا التى ظلت إلى أيام أسوكا ، بل حتى فى زمن متأخر يصل إلى عهد كانيشكا (Kanishka) ، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهاما نبيلا ، تتبدى لنا آنذاك تائهة فى بيداء من الهراء غير المعقول ، حيث تحولت إلى فلسفة تؤمن بوجود سلسلة لا نهاية لها من البوذوات وإلى أقاصيص كرامات وأعاجيب شبيهة بتمثيليات عيد الميلاد الايمائية (Pantomime) ، وإلى إناث يحملن حملا إعجازيا ويلدن فيلة ذوات ستة أنياب ، وإلى أمراء محسنين يقدمون أنفسهم طعاماً لنمرات جائعات ، ومعابد مشيدة على قلامة ظفر مقدسة وما إلى ذلك من أشياء . ولسنا بقادرين أن ندلى بمثل هاته الأقاصيص هنا ، فإن كان القارئ ميالا إلى مثل هذا النوع من الأشياء ، وجب عليه أن يرجع إلى مطبوعات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية ، حيث يجد طوفانا من مثل هذا الهذيان . وذلك بينما البرهمانية قد أخذت تكسب الأنصار وتفوز بالتفوق من جديد فى كل مكان فى منافستها لهذه البوذية التى تقوضت فكرياً واختنقت تحت زخارفها المذهبة ، كما لحظ ذلك يوآن تشوانج آسفا .

وإلى جوار هذه الشواهد الدالة على وجود اضمحلال فكرى كبير فى الهند ، يجوز لنا أن نلحظ أيضا تكرار الحديث عن المدن الخربة المهجورة فى بيانات يوآن تشوانج . فإن شطراً كبيراً من البلاد لم يبرح يكابد من غارات الإفثاليين وسلبهم والفوضى المترتبة عليها . فإنا نجد مثل هذه الفقرة مراراً وتكراراً : « لقد ذهب شمالا بشرق مخترقاً غابة عظيمة ، وكان الطريق ممراً ضيقاً خطرا يكثر به الجاموس البرى والفيلة البرية ، ويتربص فيه اللصوص والقناصة على الدوام لقتل المسافرين ، حتى إذا خرج من الغابة وصل إلى إقليم كوشيه ناكالو (كوزينا جارا) . وكانت أسوار المدينة حطاماً خربة ، بينما البلدان والقرى قد هجرها أهلوها . وكانت أسس مبانى المدينة القديمة المبنية من الطوب ، (أعنى المدينة التى كانت القصبة) تمتد فى دائرة يزيد محيطها على عشرة من الأميال الصينية (لى[1] Li) . فأما عدد السكان فقد تضاءل إلى أقصى حد ، حتى أصبح داخل المدينة خراباً موحشاً » . ومع ذلك ، فلم يكن هذا الخراب عاماً بأية حال . إذ

---

(١) لى Li : هو ميل صينى يساوى على الأرجح أكثر من ثلث ميل إنجليز . (المترجم)

لا يقل عن ذلك كثيراً ما يذكره الكاتب من المدن المزدحمة والقرى الآهلة والمزارع الناشطة .

ويتحدث كتاب « الحياة » عما لقيه الكاتب من مشاق فى طريق عودته : إذ وقع فى أيدى اللصوص ؛ وغرق الفيل الضخم الذى كان يحمل غالب متاعه ؛ ولقى صعوبة كبيرة فى الحصول على دابة جديدة . ولكن لا سبيل هنا إلى معالجة هذه المغامرات .

والظاهر أن عودة يوآن تشوانج إلى سيان فو عاصمة الصين كانت نصراً مبيناً . فلا شك أن بشراء يسعون بين يديه كانوا يبلغون الناس بمقدمه . وأعلنت بالبلاد عطلة عامة ؛ وازدانت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجاؤها سروراً بأنغام الموسيقى . وحف به الناس أثناء دخوله إلى المدينة فى موكب فخم حافل . واحتاج حمل مغانم رحلاته إلى عشرين حصاناً ؛ ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذية المكتوبة بالسنسكريتية ، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البتولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض ؛ وحمل معه تماثيل جمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة ، وما بين ذهبية وفضية وبلورية أو من خشب الصندل ؛ وكانت معه صور مقدسة ، وما لا يقل عن مئة وخمسين أثراً حقيقياً مشهوداً بصحة نسبته إلى بوذا . وقُدِّم يوآن تشوانج للإمبراطور ، فعامله معاملة صديق شخصى ، وأخذه إلى القصر يسأله يوماً بعد يوم عن عجائب تلك الأراضى الغريبة التى قضى فيها مثل ذلك الزمن الطويل . ولكن بينا الإمبراطور يسأل عن الهند ، كان الحاج ميالا ألا يتكلم إلا عن البوذية .

ويحتوى ما يتلو ذلك من تاريخ يوآن تشوانج على حادثتين تلقيان الضياء على النشاط الفكرى لهذا العاهل العظيم تاى تُسنج ، الذى كان فيما يرجح مسلماً بقدر ما كان مسيحياً أو بوذياً (١) . والعيب فى كل المتخصصين فى الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شئون دياناتهم الخاصة ، ومن أوجه اختلافها عن الديانات الأخرى ؛ ولعل مزية — أو عيب — أولئك الساسة الخلاقين من أمثال تاى تسنج أو قسطنطين الكبير ،

---

(١) يشيد الكتاب البوذيون بذكر تاى تسنج لاستقباله يوآن تشوانج (٦٤٥) . بيد أن مؤرخى المسلمين فعلوا مثل ذلك بسبب مسجد كنتون ، وكذلك فعل الكتاب المسيحيون من أجل مالقيه المبعوثون النساطرة (٦٣١) ومن هنا جاء استنتاج المؤلف بما اجتمع فى عقل هذا الإمبراطور من احترام لهذه الأديان الثلاثة . (المترجم) .

أنهم لا يعرفون من تلك الأمور إلا القليل نسبياً . وواضح أن الخير الجوهرى الكمين فى هذه الديانات جمعاء كان يبدو لعين تاى تسنج خيراً جوهرياً واحداً لا يختلف فى إحداها عنه فى الأخرى . لذا كان من الطبيعى أن يقترح على يوآن تشوانج أن ينبذ الحياة الدينية ، وأن يلتحق بوزارة الخارجية ، وهو اقتراح لم يقبله يوآن تشوانج لحظة واحدة . وعند ذلك أمر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب عن أسفاره ، وبذا حصل على هذا الأثر الأدبى النفيس الذى نكتنزه معتزين به . وأخيرا اقترح تاى تسنج على البوذى المتشبع تماماً بمبدئه أن يستخدم معرفته بالسنسكريتية فى ترجمة مؤلفات المعلم الصينى العظيم لاو تزى (Lao-Tse) لينتفع بها القراء الهنود .

ولا مراء أن الإمبراطور رأى فى ذلك ردا عادلا للجميل وخدمة نافعة للخير الجوهرى الكامن وراء الديانات جميعاً . ذلك أنه كان يرى بوجه الإجمال أن لاو تزى لا يقل عن بوذا إن لم يكن خيرا منه . وإذن فلو أن عمله (مؤلفه) وضع تحت بصر البراهمة لتلقوه بالترحاب . وبنفس هذا الروح بذل قسطنطين الكبير قصاراه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما ودياً . وطبيعى جداً أن مقترحه هـذا قد رفضه يوآن تشوانج . فإنه اعتكف فى أحـد الأديرة ، وقضى بقية حياته مترجماً بأسلوب صينى رشيق كل ما وسعه جهده من الأدب البوذى الذى أحضره معه .(*)

(*) عن الدين والفلسفة والتاريخ ببلاد الصين والهند وغيرها من أقطار الغرب والشرق ، أنظر للمترجم : « التاريخ وكيف يفسرونه » : تأليف البان ورجرى [نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر بماسبيرو] . (المترجم)

الفصل الثلاثون

محمد (صلى الله عليه وسلم) والاسلام

---

١ – بلاد العرب قبل محمد (ص)

سبق أن وصفنا كيف حدث فى ٦٢٨ م أنه أمَّ مجالس بلاط هرقل وقباذ وتاى تُسنج رسل من العرب ، أرسلهم شخص معين هو محمد ، « رسول الله » ، المقيم فى بلدة « المدينة » التجارية الصغيرة ببلاد العرب . وسنخبرك الآن من كان ذلك النبى الذى نشأ بين بدو الصحراء العربية وتجارها .

فمنذ أزمان سحيقة كانت بلاد العرب ، عدا شريط اليمن الخصيب الممتد فى الجنوب الغربى ، أرض بدو رحّل ، وهى المنبت الرئيسى للشعوب السامية . فمن بلاد العرب وفى أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشمال والشرق والغرب إلى بلاد المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الجزيرة بالعراق . وقد لاحظنا فى هذا الكتاب كيف غمرت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتغلبت عليهم ، وكيف مكن الفينيقيون والكنعانيون الساميون لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وكيف اتخذت الشعوب السامية حياة الاستقرار فى بلاد بابل وآشـور ، وكيف غزا الهكسوس مصر ، وكيف استقر الآراميون تماماً فى سوريا متخذين من دمشق عاصمة لهم ، وكيف فتح العبرانيون « أرض الميعاد » فتحاً جزئياً . وقد انتقل

الكلدانيون فى تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية ، واستقروا فى الأراضى الجنوبية السومرية القديمة . وكان كل غزو يُدخل فى التاريخ هذا القسم من الشعوب السامية ثم ذاك . بيد أن كل واحدة من هذه الجماعات كانت لا تفتأ تترك نواة قبلية من خلفها تزود الغزوات التالية فى المستقبل بالرجال .

وتاريخ الإمبراطوريات الأعلى تنظيما فى عهد الحصان والحديد : إمبراطوريات الطرق والكتابة ، يظهر لنا بلاد العرب متمددة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد الفرات والدجلة ، كما يصورها خزاناً للقبائل المترحلة التى تغير وتتجر وتتقاضى الجزية من أجل حصانة القوافل وحمايتها . أجل إنها تعرضت فى بعض أيامها للخضوع لسلطان خارجى ضعيف موقت . وإن كلا من مصر وفارس ومقدونيا وروما وسوريا والقسطنطينية ثم فارس من جديد لتدعى على التعاقب شيئاً من السيادة غير الحقيقية على بلاد العرب ، وتعلن عليها ضربيا لا أساس له من الحماية . وكانت هناك فى عهد الإمبراطور تراجان ولاية رومانية تسمى « بلاد العرب » ، وكانت تتضمن إقليم حوران الذى كان خصباً آنذاك وتمتد حتى البتراء (Petra) . وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدينته التجارية إلى مرتبة موقتة من الرفعة . كذلك كان حال أذينة (أوديناثوس الپالميرى) صاحب تدمر الذى ذكرنا من قبل سيرة حياته القصيرة . وكانت بعلبك كذلك مدينة صحراوية أخرى بلغت رفعة موقتة وما تزال خرائبها تدهش السائح .

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى عرب الصحراء باسم (Saracens) : أعنى المشارقة .

وفى أيام كسرى الثانى الملقب بأبرويز ، ادعت فارس نوعاً معيناً من السيادة على بلاد العرب ، وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب . وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بضع سنين تحت حكم النصارى الأحباش ، وظلت قبل ذلك سبعة قرون وهى تحت حكم أمراء من بنى جلدتها ، يعتنقون الدين اليهودى ، وهو أمر خليق بالملاحظة .

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادى أية أمارات على وجود أية قوة

غير مألوفة أو طاقة خطرة فى الصحراوات العربية . إذ كانت حياة البلاد تسير على ما كانت عليه منذ أجيال طويلة . فحيثما وجدت رقعة خصبة ، أعنى حيثما كانت هناك عين أو بئر ، كان يعيش سكان زراعيون قليلو العدد فى مدن مُسوّرة ، محاذّرة من البدو الذين يتجولون مع أغنامهم وماشيتهم وخيولهم فى الصحراء . وكانت المدن الرئيسية تنشأ على امتداد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرتبة ثانوية ، وكانت فى طليعتها المدينة (: يثرب) ومكة . وفى بداية القرن السابع كانت يثرب بلداً يحتوى على ما يقارب ١٥ ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها ، فيما يحتمل عشرون أو خمسة وعشرون ألفاً . وكانت يثرب بلداً أفضل نسبياً من حيث المياه ، بها أحراش نخيل كثيرة ؛ وكان سكانها من اليمانية ، أى من أهالى الأرض الخصيبة فى الجنوب ، أما مكة فمدينة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء ذى طعم مرير ويسكنها بدو حديثو الاستقرار .

ولم تكن مكة مجرد مركز تجارى ولا كان ذلك أول وأهم صفاتها ، بل كانت مثابة حج للناس . فكان بين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الحلف يتمركز فى مكة وبعض أماكن مقدسة أخرى ؛ وكانت هناك أشهر حُرم (هدنة) تقف فيها الحروب وتمتنع الثارات ، وعادات مرعية من حماية الحجيج وإكرامهم . وقد نما بالإضافة إلى هذا عنصر أوليمبى[1] فى هذه الاجتماعات . إذ كان العرب قد أخذوا يكتشفون فى لغتهم مجالى الروعة والجمال ، فكانوا يلقون القصائد الحماسية وأغانى الغزل . وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأسهم « أمير الشعراء » للحكم بين الشعراء ومنح الجوائز ؛ وكانت الأغانى الفائزة بالجوائز تغنى فى كل بلاد العرب .

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس سحيقة القدم آنذاك . وهى معبد مربع صغير من الأحجار السوداء ، حجر الزاوية فيه من الأحجار النيزكية . وكان هذا الحجر النيزكى يعد رباً ، وفى حمايته كل الآلهة القبلية الصغيرة ببلاد العرب . وكان سكان مكة الدائمون قبيلة من البدو ؛ استولوا على هذا المعبد وأقاموا أنفسهم سدنة له . فيأتيهم فى الأشهر الحرم أفواج عظيمة من الناس يسيرون حول الكعبة وفق طقوس

---

(١) نسبة إلى منطقة أوليمبيا اليونانية القديمة التى كانت تقام فيها المهرجانات. (المترجم)

دينية معينة ، فينحنون ويقبلون الحجر ، ويشتغلون كذلك بالتجارة وإلقاء المقطوعات الشعرية . وكان المكيون يجنون أكبر الفوائد من هؤلاء الزوار .



(شكل ١٢٨) خريطة بلاد العرب والبلاد المتاخمة لها

ولشد مايذكرنا هذا بحالة بلاد الإغريق الدينية والسياسية قبل ذلك بأربعة عشر قرناً . بيد أن وثنية هؤلاء العرب الأشد بداثية أخذت تتعرض للهجمات من جهات عدة . فأُدخل العرب فى دين اليهودية أفواجاً أثناء عهد المكابيين[1] والهيروديين ببلاد اليهودية (Judea) ؛ وكانت اليمن ، كما سبق أن ذكرنا ، قد وقعت على التعاقب فى حكم اليهود (أعنى العرب المعتنقين لليهودية) ، فالمسيحيين فالزرادشتيين . وواضح أنه لا مفر من حدوث الكثير من المناقشة الدينية أثناء انعقاد أسواق الحج فى مكة وما شابهها من مراكز : وطبيعى جداً أن تكون مكة هى معقل نحلة الوثنية القديمة التى وهبتها أهميتها ورخاءها ، فأما المدينة فهى من الناحية الأخرى ذات ميول يهودية ، وتقع بالقرب

---

(١) المكابيون : أسرة يهودية ظهرت فى القرنين ٢ ، ١ ق . م . وأسرة هيرود ، حكمت فى فلسطين فى زمن المسيح عليه السلام . (المترجم)

منها مستقرات لليهود . فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينـــة فى حالة منافسة وتنازع .

٢ ــ حياة محمد (ص) حتى الهجرة

كان مولد محمد مؤسس الإسلام بمكة قرابة ٥٧٠ م . ولد فى فقر بالغ ، وكان ضئيل الحظ من العلم ، ولو قيس حتى بمعايير الصحراء لكان أميا غير متعلم ، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقاً (١) . وظل بضع سنوات يشتغل بالرعى ؛ ثم دخل بعدئذ فى خدمة سيدة معينة اسمها خديجة ، وهى أرملة تاجر موسر . ولعله كان يعنى (٢) بإبلها أو يساعد فى أعمالها التجارية . ويقال إنه سافر مع القوافل إلى اليمن (٣) وإلى سوريا . والظاهر أنه لم يكن تاجراً عظيم النفع لها فى تجارتها ، ولكنه أوتى من الحظ نصيباً موفوراً ، فأعجبت به السيدة فتزوجته ، فتضايقت (٤) من ذلك عائلتها تضايقاً كبيراً . ولم يكن عند ذاك قد تجاوز الخامسة والعشرين . وليس من المحقق أن زوجته كانت أسن منه بكثير ، وإن أجمع التواتر على أنها كانت فى الأربعين . والراجح أنه لم يقم بأية رحلات طويلة بعد الزواج . وولد له أطفال عديدون ، كان اسم أحـــدهم

---

(١) علام الشك وأميته (عليـــه الصلاة والسلام) مقطوع بها بنص القرآن فى مواضع متعددة منه . (المترجم)

(٢) المجمع عليه فى الكتب الإسلامية أنه (عليه الصلاة والسلام) أشرف على تجارة لها إلى الشام مقابل أجر معلوم . (المترجم)

(٣) لم يثبت أنه عليه الصلاة والسلام سافر إلى اليمن لا للتجارة ولا لأى غرض آخر . والثابت المعروف من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين ، مرة وهو حدث فى حوالى الثانية عشرة من عمره فى صحبة عمه أبى طالب وأخرى حينما كان فى حوالى الخامسة والعشرين نائباً عن السيدة خديجة (رضى الله عنها) فى تجارتها . (المترجم)

(٤) قال الدكتور هيكل فى كتابه «حياة محمد» ص ٨٤ ما نصه «فلم تبطئ خديجة أن حددت الساعة التى يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج – وزوجها عمها عمرو بن أسد إذ كان خويلد قد مات قبل حرب الفجار – مما يكذب ما يروى من أنه كان حاضراً ولم يكن راضياً عن هذا الزواج» . (المترجم)

عبد مناف(١) — أى خادم الرب المكى « مناف » ، وهذا يدل على أن محمداً لم يكن قد توصل فى ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية(٢) .

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يعيش فى مكة عيشاً عادياً كبعل لزوجة ثرية . وربما كان هناك أساس للظن بأنه أصبح شريكاً فى بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج الزراعى . فلو أن إنساناً زار مكة سنة ٦٠٠ م لرأى فيه فيما يرجح شخصاً أشبه بالمترفين ، شخصاً حيياً وسيم الطلعة ، متنقلا بين المجالس ، منصتاً للحديث ، وشاعراً غير مجيد(٣) ، ورجلا ذا مرتبة ثانوية على وجه العموم .

وليس فى وسعنا أن نتحدث عن حياته الخاصة إلا على سبيل الظن والتخمين . وقد اعتقد بعض المتوقدى الخيال من الكتاب أنه كانت تلم به أدوار صراع روحى عظيم ، وأنه كان يخرج إلى الصحراء فى آلام مبرحة من الشك والرغبة القدسية . « ففى هدأة الصحراء ليلا ، وفى قيظ ظهيرة الصحراء نهاراً ، عرف النبى نفسه كما يفعل الناس جميعاً وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش ، ذلك أن الصحراء لله ، وفى الصحراء لا يستطيع إنسان أن يجحده »(٤). وربما كان الحال كذلك حقا ، ولكن

---

(١) الثابت قطعاً أنه لم يولد له عليه الصلاة والسلام ولد بهذا الإسم . والثابت أن نفسه الشريفة كانت تنفر منذ صباه من كل أصنام العرب . ولعل الكاتب قد اختلط عليه الأمر فجعل من عبد مناف الجد الثالث للنبى عليه الصلاة والسلام اسما لأحد أبنائه . (المترجم)

(٢) وهل قال أحد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام قد جاء بجديد من ناحية العقيدة والدين قبل الأربعين عندما جاءه الروح الأمين وهو يتحنث فى غار حراء ؟ وهل لا يعتبر نفور محمد (ص) الطبيعى من الأصنام وكل ما يمت إليها بصلة من طقوس وقرابين وتمظيم الخ من أمارات السمو الروحى الذى عرف به بين قومه من طريق تمسكه بكامل الصفات والأخلاق حتى لقبوه بالأمين ، والذى حفزه إلى التفكير والتأمل والتحنث بحثاً عن الحق الذى هداه فى النهاية إلى نهجه القويم حتى هبط عليه الروح الأمين بالرسالة والقرآن الكريم . (المترجم)

(٣) معاذ الله أن يتصف النبى بقول الشعر ؛ والله نزهه عن الشعر فى كتابه الكريم ولم ترو كتب السيرة الشريفة قط أنه عليه السلام قال شعراً فى صباه . (المترجم)

(٤) السير مارك سايكس .

لم يقم أى دليل[١] على حدوث مثل تلك الرحلات الصحراوية . ومع ذلك فإنه كان ولا مراء يفكر تفكيراً عميقاً فيما حوله من أشياء . ويحتمل أنه رأى كنائس مسيحية فى سوريا[٢] ، ويكاد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم ، وأنه استمع إلى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود فى الكعبة الذى كانت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثمئة ببلاد العرب . ورأى جماهير الحجيج ولحظ أمارات الختل وعدم الإخلاص والخرافات المتجلية فى وثنية البلدة فضاق بذلك ذرعاً . وربما كان اليهود قد هدوه إلى الاعتقاد فى الرب الواحد الحق ، دون أن يدرك ما حدث له[٣]

أخيراً لم يستطع أن يكتم هذه المشاعر فى نفسه زمناً أطول . فلما بلغ الأربعين شرع يتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجته أول الأمر كما هو واضح وإلى نفر قليل من أصدقائه المخلصين . وجاء بآيات معينة ، أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء ، وكانت تحتوى على الجزم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة معقولة عن البر والتقوى . كذلك أصر على وجود حياة فى الدار الآخرة ، وعذاب جهنم للمستهين والشرير ، وجعل الفردوس نُزُلاً للمؤمنين بالإله الواحد . وفى ما عدا دعواه أنه نبي جديد ، لا يبدو أن قد كان فى هذه المبادئ شيء بارز الجدة فى ذلك الزمان ، بيد أن هذه التعاليم كانت فى عرف مكة دعوة إلى الشغب والفتنة ، وهى التى كانت تعتمد فى بعض معايشها على نحلتها المتعددة الآلهة ، والتى كانت لذلك مستمسكة بالأصنام يوم كان سائر العالم قـــد أخذ ينبذها . وقد قال محمد ﷺ – كما قال مانى –

---

(١) المتواتر المجمع عليه أن ذلك حدث منه عليه السلام وإلا فأين حديث غار حراء ؟

(المترجم)

(٢) إطلاق القول بأنه عليه الصلاة والسلام زار سوريا لا يقوم عليه دليل إذ أنه لم يتعد فى زيارتيه الشام مدينة بصرى محط قوافل المكيين وهى فى أقصى الجنوب الشرقى لفلسطين الحالية .

(المترجم)

(٣) لم يكن النبى عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من اليهود فإن العرب فى جاهليتهم الوثنية كانوا يعرفون الله الخالق وإنما كانوا يتخذون من الأوثان والأصنام فى بداية أمرهم بها شفعاء فى تقربهم إلى الله زلفى . فلما تقادم عليهم العهد سجدوا لها من دون الله مع ذكرهم لاسمه ومعرفتهم له وذلك ظاهر فى أشعارهم وخطبهم فى الجاهلية .

(المترجم)

بأن الأنبياء من قبله وبخاصة عيسى وإبراهيم كانوا معلمين فلسيين ، ولكنه يكمل تعاليمهم ويختمها . وهو لم يذكر البوذية بأى حال . وربما كان ذلك لأنه لم يسمع قط باسم بوذا . فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة فى الركود والتأخر من الناحية اللاهوتية .

وظلت الديانة الجديدة بضع سنين وهى سر تحتفظ به جماعة صغيرة من البسطاء ، هم : خديجة زوجة النبى ، وعلى ابنه المتبنى ، وزيد وهو عبد ، وأبو بكر وهو صديق معجب به . وظلت بضع سنين نحـلة مغمورة فى بيوت قليلة بمكة ، كانت مجرد عبسة وزمجرة خافتة فى وجه عبادة الأوثان ، بلغ من خمول شأنها وضآلة أمرها أن زعماء البلدة لم يعيروها أدنى اهتمام . ثم أخذت تقوى ويصلب عودها . وأخذ محمد يجهر بالدعوة أكثر ويعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة ، ويتوعد عبدة الأوثان والكفرة بنار جهنم . ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم . فبدا للكثيرين أنه إنما يهدف إلى إقامة نوع من الدكتاتورية فى مكة وإلى اجتذاب كثير من البسطاء والمتذمرين إلى جانبه . وبذلت قريش محاولة لتثبيط الحركة الجديدة والقضاء عليها .

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن ؛ ولا يجوز سفك أى دم داخل أسوارها ؛ ومع ذلك فإن القوم نغصوا عيش أتباع المعلم الجديد تنغيصاً شديداً إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة . فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة المسيحية . على أن النبى نفسه لم يمس بسوء — لما له من عزوة قوية تحميه ، بينما لم يشأ خصومه أن يفتحوا على أنفسهم باب الثأر الدموى . وليس فى إمكاننا تتبع تأرجحات الكفاح فى هذا المقام . بيد أن من الضرورى أن نذكر حادثة واحدة محيرة فى حياة النبى الجديد ، يقول عنها السير مارك سايكس « إنها تثبت أنه كان عربياً صميماً » فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله ، عاد فداخله التردد . فجاء ساحة الكعبة وأعلن[1]

(١) هذه فرية الغرانيق ، وإن تعدد الصورة المروية للآيات المزعومة من « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى » أو « وإن شفاعتهن لترتجى » الخ لما يجعل تصديق الرواية مستحيلا ناهيك عن أنه لا يعقل أن يمتدح القرآن أصنام قريش فى بعض آيات ثم يعقب ذلك مباشرة بالاستنكار فى نفس الصورة كما هو ظاهر من قوله تعالى « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ، الخ ؛ فإذا وضعنا « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن =

أن أرباب مكة وربّاتها ، قد تكون قبل كل شيء حقيقية ، وقد تكون ضرباً من القديسين الذين لهم قوة الشفاعة .

فوبل تّراجعه بالحمية والحماسة من قريش ، ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم [كذا ! . . .] ، وذلك يدل على أن الخوف من الله — كان لا جرم — يملأ جوانب قلبه ، فما بدر منه فى حق الأمانة أكبر دليل على أمانته ونزاهته[1] . ومن ثم بذل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا ! . . .] . فقال إن الشيطان تلبس لسانه[2] ، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجددين . وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة ، متأججاً على صورة أشد وأعنف ، دون أى أمل آخر فى الصلح .

وانقضت فترة من الزمن كانت لقريش وأنصارها فيها اليد العليا . فوجد محمد نفسه بعد عشر سنوات من الرسالة رجلا قد بلغ الخمسين من العمر ، وأخفق إخفاقاً تاما فى مكة . وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت ، وكان كثيرون من كبار أنصاره ماتوا أيضاً قبل ذلك بقليل . فخرج يلتمس الجوار فى بلدة الطائف القريبة ، ولكن للطائف ردته بالأحجار والسباب . حتى إذا أظلمت الدنيا فى وجهه كأحلك ما تكون ، انفتحت أمامه أبواب الحظ . إذ وجد أنه كان موضع تقدير وإعجاب فى مكان لم يكن له بحسبان . ذلك بأن يثرب (المدينة) كانت تمزقها الانقسامات الداخلية شر ممزق ، وكان كثير من أهلها ، اجتذبتهم تعاليم محمد أثناء موسم الحج إلى مكة . ولعل

لترتجى . . . . (ثم أردفناها بقوله تعالى) . . . . ، « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا الخ » لكان المدح والذم لشىء واحد متتابعين ، فليس من المعقول إذن أن يكون ذلك صدر عن محمد الذى لم يرو عنه أحد أقوالا أو يسند إليه أفعالا متناقضة متضاربة طوال حياته .

ولعل عدم ذكر ابن هشام شيئاً عن هذه القصة يشير إلى شىء هام وهو أنه يحتمل كثيراً أن هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لم تكن قد وضعت وشاعت فى أيامه وبذلك تكون هذه القصة وضعية فى تاريخ متأخر حشرت حشراً فى التفسير وغيره « أنها تعليل لنزول آيات أخرى من غير تمحيص أو تحليل .

(المترجم)

(١) وكيف يزل وهو المعصوم من الخطأ والواعى لقوله تعالى « لو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ولقطعنا منه الوتين » وهو بعد ذلك يبلغ القرآن الذى أخذ الله على نفسه حفظه « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » من كل دعاية وكل سوء . (المترجم)

(٢) الواقعة وكل ما تفرع منها محض اختلاق ولم يأت بها إلا مؤرخ واحد هو اليعقوبى .

(المترجم)

اليهود الكثيرى العدد فى المدينة زعزعوا فى قلوب الناس مكانة عبادة الأصنام العتيقة . فأرسلت إليه الدعوة للحضور ليحكم المدينة باسم ربه[١] .

على أنه لم يذهب من فوره بل راح يتفاوض سنتين ، ويرسل الصحابة ليعلموا الناس فى المدينة ويحطموا ما بها من الأوثان . ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة إلى المدينة لكى يكونوا فى انتظاره عند وصوله ؛ ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأنصار مجهولين فى مدينة غريبة . واستمر خروج المؤمنين هذا ، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر[٢] .

وبالرغم من أنه كان مفروضا أن مكة حرم آمن ، فانه أوشك أن يقتل هناك . وواضح أن كبار أهل مكة كانوا على علم بمـا كان يجرى فى المدينة ، فأدركوا ما يحدق بهم من خطر لو تهيأ لذلك النبى الخارج علم أن يسيطر على بلد فى طريق قوافلهم الرئيسى إلى سوريا . فلا بد إذن للعرف أن ينثنى أمام الضرورة القاهرة ؛ فأجمعوا أمرهم على أن محمداً (ص) يجب أن يموت ، سواء أترتب على ذلك ثأر أم لم يترتب . فدبروا أن يقتلوه فى فراشه ، ولكى يشتركوا جميعا فى إثم خرق قواعد الحرم الآمن المقررة ، ندبوا جماعة منهم لتنفيذ ذلك يمثل أفرادها كل عشيرة فى البلدة ما خلا بنى هاشم عشيرة محمد . ع أن محمداً كان دبر هجرته من قبل ؛ فلما اقتحموا عليه حجرته فى سدفة الليل ، وجدوا عليا ابنه المتبنى ، نائما أو متناوما فى فراشه .

وكانت الهجرة مليئة بالمخاطر ؛ إذ كانت المطاردة شديدة سريعة . وأخذ المدربون من قصّاصى الأثر فى الصحراء يقصون مواطئ الجمال فى شمال مكة ؛ على أن محمداً وأبا بكر انطلقا جنـوبا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والمؤن مخبأة[٣] ؛ ومن ثم قاما بدورة عظيمة إلى المدينة . حيث وصل النبى ومعه زميله

---

(١) ليس فى شروط بيعة العقبة ما يؤيد الزعم بدعوته للحكم . (المترجم)

(٢) الصحيح أنه بقى بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام عدد من المؤمنين والمؤمنات ، ما لبثوا أن نزحوا إلى المدينة بعد الهجرة . (المترجم)

(٣) ما للمؤلف يتغاضى عما لابس الهجرة من آيات بينات أسهب فيها كتاب السيرة ولم يشذوا فى تفاصيلها ؟ أين نشاط المكيين فى تعقب الفارين ، وأين قصة الغار وبقائهما به أياماً ثلاثة ، وأين ذكر وقوف جماعة من المطاردين بباب الغار وارتدادهم عنه بفضل من الله الذى يتحدث عنه القرآن =

الصدّيق ؛ واستقبلا بحماسة كبيرة فى ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ . وكان فى ذلك خاتمة ابتلائه وبداية صولته وسلطانه .

٣ ـ محمد (ص) يصبح نبياً منافحاً[1]

لقد ظلت شخصية نبى الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أتم الحادية والخمسين من عمره ، موضوع الحدس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهـــل الرأى . فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ . وإنا لنستبين فيه رجلا أوتى قوة تصورية هائلة ، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، وله أغلب مزايا البدوى ونقائصه[2] .

وكان ابتداء حكمه « بدوياً محضاً » . فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طرّا ـــ حسب تفسير محمد ـــ بدأ بسلسلة من السرايا على قوافل[3] مكة ، دامت أكثر من

= « إن لا تنصروه فقد نصره الله من قبل : ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » وأين حديث سراقة الذى جد فى طلبه هو وأبى بكر وما كان من غوص قوائم فرسه فى الرمل وارتمائه من فوقها وطلبه الأمان من فريستيه المرموقتين لما وضع لرأسيهما من مكافأة مجزية ، على أن يتكفل برد الطلب ؟ ولكن ليس ينتظر منه ـ وهو غير المؤمن ـ أن يورد ما يثبت لمحمد عليه الصلاة والسلام الرسالة والنبوة ؟ (المترجم)

(١) عن غزوات الرسول وسراياه انظر كتاب « المغازى » للواقدى طبع جامعة أكسفورد وكلمة **Fighting** التى استعملها المؤلف لا تعنى بالضرورة دائماً كلمة « مقاتل » وقد اخترنا منافحاً لأنه أكثر الألفاظ انطباقاً على حالة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره فى المدينة ، إذ كانوا يلودون عن حقوقهم المسلوبة التى أنكرها عليهم المكيون ، فقد أخرجوهم من ديارهم عنوة واستباحوا دماءهم وما كان لهم من مال وعتاد ، وما كان النبى صلى الله عليه وسلم ومن ورائه المهاجرون ليعبأوا بحطام الدنيا ومتاعها ، لكنهم والأنصار معهم فى صعيد واحد ، ما كانوا لتهدأ لهم ثائرة حتى ينتزعوا من المكيين بالسلم أو بالحرب ، بالمفاوضة والإقناع أو بالتهديد والبطش ، حقوقهم المقررة كسائر الناس فى حرية الرأى وحرية العقيدة وحرية العودة إلى الوطن .

(المترجم)

(٢) حاشا أن تكون للنبى نقائص . فلئن كان البدوى إنساناً عادياً ، فإن النبى هو رسول الله الذى لا ينطق عن الهوى .

(المترجم)

(٣) أنكر بعض المتعصبين من كتاب أوربا هذه السرايا وسموها « غارات » وهى هى صفة المصادرة بعينها التى أقرها « القانون الدولى » وعمل بها قادة الجيوش فى جميع العصور ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية ـ عبقرية محمد للأستاذ العقاد ص ٦٤ . (المترجم)

عام كامل دون أن تلقى واحدة منها أى توفيق . ثم حدث حادث جلل ، هو نقض الهدنة العتيقة المسنونة ، هدنة الحلف العربى فى شهر رجب الحرام . فإن جماعة من المسلمين فى موسم السلم الأصيل هذا ، هاجموا غدراً قافلة صغيرة وقتلوا رجلا . وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذى أصابوه ، وقد أتوه بأمر النبى(١) .

ثم نشبت فور ذلك معركة . فإن قوة مكونة من سبعمئة رجل خرجت من مكة لتستقبل فى الطريق قافلة أخرى وتوصلها إليها ، فالتقوا بفئة مغيرة كبيرة عدتها ثلثمئة : وحدث بين الطرفين قتال ، هو معركة بدر التى انهزم فيها لكيون وخسروا خمسين أو ستين من القتلى وما يعادلهم من الجرحى . وعاد محمد إلى المدينة منتصراً وقد ألهمه الله وهذا النجاح ، أن يأمر بقتل عدد من خصومه اليهود فى المدينة الذين كانوا قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود .

على أن مكة صممت على الانتقام لبدر ، وأنزلت بأتباع النبى فى معركة « احد » بالقرب من المدينة ، هزيمة غير حاسمة . وقد وقع النبى وكاد يقتل ، وهرب كثيرون من أتباعه . ومع ذلك فإن المكيين لم ينتفعوا من ميزة غلبتهم بدخول المدينة(٢) .

---

(١) ينقل المؤلف هاهنا بعض اقاويل المستشرقين فى سرية عبد الله بن جحش التى قال فيها الأستاذ العقاد ما نصه « فهى سرية استطلاع لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه . . . . . وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا النبى عليه السلام الخمس من غنيمتهم ، فأباه عليه السلام وقال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبى وساءت لقياهم بين أهل المدينة » . ص ٧٨ عبقرية محمد . وظاهر من هذا أن هذه الفعلة لم تكن بأمر من النبى صلى الله عليه وسلم . وتجمع كتب السيرة كلها على أن السرايا لم يكن القصد الأول والأخير منها غير دفع مكة إلى التسليم للمسلمين بالمدينة بحقوقهم التى ذكرناها آنفاً .

(المترجم)

(٢) ما الذى يدل عليه انتصار موتور ثم تقاعسه عن أن يتابع المهزوم حتى يقضى عليه قضاء مبرماً لا تقوم له بعده قائمة ؟ ألم يكن المسلمون شوكة فى ظهر المكيين وهذا النصر فرصة ذهبية للخلاص منهم نهائياً ؟ لا نحسب القارئ ، وقد أغفى المؤلف عن هذه المسائل ، إلا مدركا لما بين السطور من أن المكيين قد تكلفوا فى هذا النصر خسارة جسيمة أجبرتهم على الرضاء من الغنيمة بالإياب . وجدير بنا أن نقرر هنا أن المعركة فى بدايتها وعندما حمى وطيسها كانت تتطور لمصلحة المسلمين وكانت الأحوال كلها توحى بأن المسلمين لا بد منتصرون ، لولا أن الرماة بالنبل ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد أوقفهم على ربوة خلف المسلمين لحماية ظهورهم وأوصاهم ألا يغادروا مكانهم حتى ولو رأوا أن المسلمين يقتلون —

ثم تركزت كل طاقات النبي ردحاً من الزمان فى استثارة أتباعه الذين كانت عزائمهم على ما يبدو قد أصابها الكثير من الفتور ويسجل القرآن الكريم المحنة التى كانت تمر بها المشاعر فى تلك الأيام . يقول السير ماوك سايكس : « وسور القرآن التى ترجع إلى هذه الفترة ، تبز نظيراتها كلها تقريباً فى جلالها وروعتها ويقينها الرائع » ، وإنى لأقدم للقارئ هنا مثالا يحكم عليه من تلك الآيات الجليلة نقلته عن الترجمة الصحيحة الحديثة التى قام بها مولانا محمد على[1] : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين . ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تُصْعِدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غماً بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون . ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمَنَة نعاساً يغشى طائفةً منكم ، وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر شيء ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور . إن الذين

--- قتلا ، نسوا وصيته عليه الصلاة والسلام حينما أبصروا المكيين يتزحزحون إلى الوراء تحت ضغط المسلمين فظنوا أن الهزيمة قد حلت بهم وأنه أولى بهم أن ينزلوا إلى الميدان إلى جنب إخوانهم ، وعندها فطن خالد بن الوليد – وكان لا يزال على الوثنية وعلى رأس فرسان مكة – إلى أهمية الربوة فاستدار بفرسانه وفجأ المسلمين برجاله من الخلف ، وكذلك وقع المسلمون بين نارين ، ومع ذلك فلم يهنوا ولم يضعفوا بل قاتلوا قتالا مجيداً وأنزلوا بأعدائهم خسارة أعجزتهم كلية عن السير فى الشوط إلى نهايته . وهكذا يكون هذا النصر أشبه شيء بالهزيمة إذ لم يقض منه المكيون وطرا ، ولم يشف لهم غلة ، اللهم إلا قتل نفر من المسلمين وثروهم ى بدر فى كثير من اقيالهم .

(المترجم)

(١) وهى التى أصدرتها المجلة الإسلامية .

تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور رحيم » (آل عمران) .

واستمرت المناجزات سجالا غير فاصلة بضع سنين ، وأخيراً بذلت مكة آخر جهودها لكى تخمد إلى الأبد قوة المدينة النامية . فجمعت قوة مختلطة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل — وهى قوة هائلة بالنسبة للزمان والإقليم . وكانت بطبيعة الحال قوة غير نظامية تماماً من المشاة والفرسان والجمّالة ، ولم تكن مستعدة لأى شىء عدا مناوشات الصحراء العادية . وكان كل ما لديها من سلاح هو القسى والحراب والسيوف . فلما أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت غمامات هائلة من النقع وأصبحت بمرأى من أكواخ المدينة وبيوتها ، فبدلا من أن تجد قوة أصغر منها ومن نفس صنفها مستعدة للنزال كما كان منتظراً ، وجدت ظاهرة جديدة أفسدت عليها خططها وحيّرتها : هى خندق وسور . ذلك أن محمداً احتمى وراء خندق أنشأه حول المدينة بمشورة فارسى أسلم[١] !

فبدا ذلك الخندق لعين الخليط البدوى أشد الأشياء مخالفة لأصول النزال الشريف والروح الرياضية القويمة . فداروا حول المكان راكبين . وأخذوا يتصايحون معبرين للمحصورين عن رأيهم فى الأمر كله . وأطلقوا بضع سهام ، ثم خيموا آخر الأمر لبحث هذه الإساءة الفاحشة . غير أنهم لم يصلوا فى شأنها إلى قرار حاسم . فإن محمداً لا يريد أن يبرز إليهم ؛ وأخذت الأمطار تهطل ، وابتلّت خيام الأحلاف وأصبح الطهى عسيراً ، ودب دبيب الخلاف بينهم فى الرأى وأخذ صبرهم ينفد ، ثم ذوى ذلك الحشد العرمرم مرة ثانية متفرقاً شراذم وثللا ، دون أن يتلاحم مع المسلمين فى معركة (٦٢٧) . فتفرقت الجماعات شمالا وشرقاً وغرباً وجنوباً ، وأصبحت ظللا من القتام وزال كل خطر لها . وكان بالقرب من المدينة قلعة لليهود ، كان محمد مغضباً من قبل عليهم ، بما أبدوه من عدم احترام لعقيدته[٢] . وكانوا أظهروا ميلا

---

(١) عن وصف إعداد ذلك الخندق وكيف شارك الرسول عليه السلام فى حفره بنفسه أنظر كتاب « المغازى » للواقدى طبع جامعة أكسفورد ص ٤٤٢ — ٤٤٥ .

(المترجم)

(٢) الواقع أنه كان بين الرسول عليه السلام وبين قريظة عهد نقضه أولئك عندما أحاطت الأحزاب بالمدينة إذ تراسلوا مع قريش وأخذوا يلقون الرعب فى المدينة وأعدوا جيوشهم للانقضاض على —

إلى الانضمام إلى من خيل إليهم أنهم أصحاب الكفة الراجحة المحتملون فى هذا الصراع النهائى ، هنالك أطبق محمد عليهم ، وذبح كل الرجال وكانوا تسعمئة ، وسبى النساء والأطفال . ويحتمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل ، من بين المساومين على مشترى هؤلاء السبايا والعبيد . ولم يحدث قط بعد ذلك الإخفاق العجيب أن انبعثت مكة بتحدٍّ فعّال لمحمد ، وأخذ كبار رجالها ينضمون إليه واحداً بعد الآخر .

ولسنا بحاجة إلى تتبع دورات الهدنة والمعاهدة التى انتهت آخر الأمر بمد سلطان النبى إلى مكة . وكانت خلاصة الاتفاق أن يتجه المؤمنون نحو مكة عندما يُصلّون ، بدل أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس ، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين ، وأن تكون مكة مركز الحج للدين الجديد . وما دام رجال مكة قد ضمنوا استمرار تدفق الحجيج إلى بلدهم ، فالظاهر أنهم لم يكن يعنيهم كثيراً ، هل يجتمع الناس باسم إله واحد أم آلهة كثيرة . وأخذ اليأس من تحويل أى عدد كبير من المسيحيين واليهود إلى الإسلام يدب إلى محمد دبيباً متزايداً ، فأنشأ يكف عن التشديد على فكرته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد فى الحقيقة ربا واحداً . « فالله » قد أخذ يصبح شيئاً فشيئاً ربه الخاص به ، وخاصة وقد أصبح الآن بهذه المعاهدة مقيداً بحجر الكعبة النيزكى ، كما أخذ يبعد قليلا عن أن يكون رباً وأباً للبشرية جمعاء[1] .

— جيوش المسلمين من الخلف . حياة محمد ص ٣٠١ طبعة أولى . سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ — ٢٧٤ ، وفيها ذكر العهد بين النبى صلى الله عليه وسلم وبنى قريظة ونقضهم لعهدهم الذى عاهدوا عليه وانحيازهم إلى الأحزاب وتهديدهم مؤخرة المسلمين بفتح ثغرة فى تحصيناتهم للأحزاب ليثبوا منها على المسلمين وكل ذلك خيانة عظمى ، ومع أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث إليهم يذكرهم بالعهد ويطلب إليهم التقيد به فقد أجابوا رسله بخلع النقاب والتنكر للمسلمين وسب الرسول علنا وإصرارهم على مؤازرة الأحزاب أحلافهم الجدد ضد المسلمين ، فهل يرجى من أحد بعد هذا كله أن ينسى لهم هذه الفعلة الشنيعة وألا يعاقب عليها بمثلها ؟ .

(المترجم)

(١) إن هذا الذى نقله المؤلف هو رأى المستشرقين ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحد قط عن نصوص التنزيل التى تنص جميعها على الاعتراف بالأنبياء جميعا وأن الله رب العالمين كافة . وكيف يسوغ لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يختص نفسه بالله ربا من دون الناس ، وهو الذى يخفض جناحه للمسيحيين واليهود على السواء . ويستثنيهم من وصمة الكفر ويدعوهم أهل الكتاب أى (التنزيل من عند الله) . وما ذلك إلا لأنهم يقرون لله بالعبودية كالمسلمين سواء بسواء . وإن يكن المؤلف يقصد قوله تعالى « لقد كفر الذين =

وكان النبي أظهر بالفعل ميلا إلى أن يعقد مع مكة صفقة ، وها قد تمت الصفقة آخر الأمر . وكانت السيادة على مكة تستحق بذل هذا التساهل[١] . ولسنا بحاجة إلى الكلام عن الغدوات والروحات وعن نزاع أخير حدث بين الطرفين . وصفوة القول أن محمداً دخل مكة فى ٦٢٩ سيداً مطاعاً وحُطم صنم مناف — وهو الرب الذى سمى ابنه يوماً ما باسمه — فهوى تحت قدميه وهو يدخل الكعبة[٢] .

ومن ثم أخذ سلطانه يمتد ، وحدثت معارك وخدع ومذابح ؛ بيد أن الغلبة كانت له على الجملة ، حتى دانت له فى النهاية بلاد العرب قاطبة ؛ حتى إذا تمت له السيادة على كل بلاد العرب فى ٦٣٢ ، انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو فى الثانية والستين .

وليس فى سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التى ختمت بها حياته بعد الهجرة

= قالوا إن الله ثالث ثلاثة » فذلك هو ما يتفق تماماً مع وحدانية الله المجردة التى ظل يدعو إليها طوال رسالته والتى خاطب بها القرآن المسيحيين واليهود فى مجتمع المدينة فى قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

(المترجم)

(١) نسجل على المؤلف هنا هذا الاعتراف الصريح إذ أن ذلك يبين بجلاء ما كان النبى عليه أفضل الصلاة والسلام يحرص عليه جد الحرص من حقن الدماء وغلبة العقل والحكمة فتثوب مكة إلى رشدها وتخلى بين المسلمين وبين حقوقهم المشروعة المباحة لغيرهم من حرية الرأى والعبادة دون عنت ولا إعنات . فلما وجد عليه الصلاة والسلام أن مكة قد أصمت آذانها وأعماها الكبر وصدها عن السبيل القويم وتمادت فى طغيانها حتى حاولت قتله فلما فاتها ذلك أهدرت دمه ، هجر موطنه وهاجر إلى المدينة ، وفيها حاول بكل ما أوتى من قوة أن يظهر لمكة أن المسلمين قوة تستطيع التنكيل بها وبمصالحها المادية عساها تفيق من غفلتها وتتصالح مع المسلمين وتكف عن أذاهم وتتركهم وشأنهم يدعون إلى دينهم ويزاولون عبادة الله وحده على طريقتهم المثلى ، ولكنها أبت إلا الاسترسال فى غيها والمبالغة فى كيدها وتأليب العرب لنصرتها ولم يسع النبى صلى الله عليه وسلم مع هذا إلا أن يرد القوة بالقوة وما زال يفعل حتى خضدت شوكة مكة وتقوضت دعائم شركها وبان ضعفها فخفض لها جناح رحمته وبسط لها يد السلم التى انقبضت عنها من قبل يدها حمية واستكباراً . ولعل القارئ إذا رجع إلى صلح الحديبية وما تم فيه واجد فيما ظهر به النبى عليه الصلاة والسلام من روح الإنسانية الكاملة ما يؤكد له إفاضة ما أوجزناه هنا .

(المترجم)

(٢) ليس بين أبناء النبى كما أسلفنا من يسمى بعبد مناف قط ولا ندرى من أين جاء المستشرقون الذين نقل عنهم المؤلف بهذه الفكرة . (راجع مقدمة أسد الغابة فى أخبار الصحابة وسيرة النبى وذكر أولاده وأزواجه) .

(المترجم)

غير القليل مما يفرق سلوكه العام عن سلوك أى شخص يجمع شتات الشعوب فى كنف حكم ملكى موحد . والفارق الوحيد هو استعماله الدين الذى جاء به ، مادة يشد بها أجزاء مملكته بعضها إلى بعض . كان يستخدم الدبلوماسية ويدارى تارة ويقسو ويشتد أخرى ، أو يتساهل ويلين ، حسبما تقتضى المناسبة والظرف(١) ، كأى ملك(٢) عربى قد يوجد فى مكانه ، وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدراً طفيفاً من الروحانية(٣) . كذلك لم تكن حياته المنزلية إبان فترة سلطانه وقدرته على التصرف ،

(١) ما كانت المداراة ولا القسوة من صفاته البتة صلوات الله عليه ، وإن المؤلف ليناقض نفسه فى فصل تال حين يذكر قدرة الرسول عليه الصلاة والسلام على اجتذاب صداقة الأصدقاء والاحتفاظ بهم ، وهذا لعمرى أمر لا يتأتى إلا لمن كان حقاً على خلق عظيم أبعد ما يكون من المداراة والقسوة . ولسنا نجد أبلغ فى الرد على هذا القول من قول العلى الكريم فى مخاطبة نبيه الأمين :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وقوله تعالى وهو أصدق القائلين : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

(المترجم)

(٢) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأعرابى الذى قال النبى « أنت سيدنا » فأجابه عليه السلام « السيد الله تبارك وتعالى » .

(المترجم)

(٣) هذه تهمة يحب المبشرون أن يلصقوها بالإسلام مكابرة منهم وتعصبا وقد دحضها الأستاذ الإمام محمد عبده ، فليرجع القارئ إلى ما كتبه فيها رحمه الله ، ويتزود به . وأية روحانية أكبر من أخذ الناس جميعهم ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم ، أميرهم وحقيرهم بما شرعه القرآن الكريم من إقامة الصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والجهاد فى سبيل الله ونعنى بذلك جهاد النفس الأمارة بالسوء بالإضافة إلى جهاد الكفار أعداء الله ، وتطهير النفس من أدران الفساد المادى وحملهم حملا على نبذ الرذائل والتحلى بالفضائل وبخاصة الصدق والحلم والعلم والتواضع والرحمة والإخاء فى الله والمساواة المطلقة والصبر وإنكار الذات ونبذ المادة وما تغرى به ، إلا بما يقوم بالأود ويقضى ضرورات الحياة ، والإيمان بالله إيماناً صادقاً صادراً من أعماق قلب عامر بحبه عالم بأنه معه فى السر والعلن « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » كما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام ظل طوال حياته لا ينى لحظة ولا يترك فرصة إلا ويذكر الناس فيها بالله والآخرة والحساب والثواب والعقاب ويضرب لهم الأمثال بنفسه قولا وعملا فهو الصادق الأمين البر الرحيم الصابر المتوكل الخافض جناحه للمؤمنين ، المؤثر على نفسه ، الكاظم الغيظ ، الواثق بربه ، العامل بوحيه وأوامره . وقصارى القول إنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطقة وقد لخصها الله تعالى فى قوله « وإنك لعلى خلق عظيم » . ومن ثم حضه تعالى الناس على اقتفاء أثره وترسم خطاه : « ولكم فى رسول الله أسوة حسنة » . ولعمر الحق إن ذلك كله لقليل من كثير مما كان عليه الرسول صلوات الله عليه وما كان عليه أصحابه الأقمار النيرة من قوة روحية لا تغالب ، بما استحقوا به أن يحظوا بملكوت السموات الذى لا نجد له فى الإنجيل والتوراة مؤهلات روحية أبلغ وأسمى وأبعد أثراً مما جاء به عليه الصلاة والسلام وأخذ به نفسه وأهله وأصحابه =

خير أنواع الحياة ولا أسعدها . وهو يبدو حتى وفاه خديجة ، يوم كان فى الخمسين ، الزوج المخلص لامرأة واحدة – ولكنه عاد عند ذلك – كما يفعل الكثيرون من الرجال عندما تعلو بهم السن[١] – فأظهر بالنساء اهتماماً قوياً .

فتزوج زوجتين بعد وفاة خديجة ، كانت إحداهما الصغيرة عائشة ، التى أصبحت وظلت شريكته الأثيرة صاحبة السلطان الأكبر عليه . ثم أضاف إلى أهل بيته عدداً من نساء أخريات ، ما بين زوجات وإماء . وأدى هـذا إلى كثير من المتاعب والاضطراب ، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، فإن هذه التعقيدات ما تزال تستلزم من المؤمنين الكثير من التفسير والنقاش .

وقد كان هناك مثلا قصة حول السيدة عائشة ؛ فإنها خُلّفت فى ظرف ما على حين تابع الهودج والجمل السير بينما كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات ؛ ولذا صار لزاماً أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك[٢] . ثم نزلت

= ومن دخل فى دينه دون تفريق أو تمييز .

(المترجم)

(١) « ولو كانت لذات الحس هى التى سيطرت على زواج النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الشهوات أن يجمع النبى إليه تسعاً من الفتيات الأبكار اللاتى اشتهرن بفتنة الجمال فى مكة والمدينة والجزيرة العربية ، فيسرعن إليه راضيات فخورات ؛ وأولياء أمورهن أرضى منهم وأفخر بهذه المصاهرة التى لا تعلوها مصاهرة . لكنه لم يتزوج بكراً قط غير عائشة رضى الله عنها ، ولم يكن زواجه بها مقصوداً فى بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التى عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة .

أما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام فما من واحدة منهن – رضى الله عنهن – إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة » (عبقرية محمد للعقاد ، ص ٢٠٠ – ٢٠٢) .

(٢) يقول السير وليم موير تعليقاً على هذا الحادث ما ترجمته : « إن حياة عائشة قبل هذا الحادث وبعده تدعونا إلى القطع ببراءتها وعدم التردد فى دحض أية شبهة أثيرت حولها » . (حياة محمد » . على أننا لا نجد رداً أبلغ ولا أقطع للشك بيقين من قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين . لولا

الآيات أيضاً فيما غلب على بيت النساء هذا من تلهف على « الحياة الدنيا وزينتها » وعلى « التمتع بالرفاهية » . ثم هبت عاصفة جدل قوية لأن النبي زوج فى البداية ابنة عمته زينب بنت جحش من ابنه المتبنى زيد ، « فلما قضى زيد منها وطراً » أخذها النبي وتزوجها — ولكن الأمر كما يوضحه التنزيل ، إنما كان فقط بقصد إظهار الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقى . « زوجناكها كى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا » ومع ذلك فمن المحقق أن آية بسيطة فى القرآن(١) كانت تُغنى عن هذه المظاهرة العملية الشديدة . وحدث بالإضافة إلى هذا تمرد فى الحريم بسبب المحبة الزائدة التى أظهرها النبي لجارية مصرية ، ولدت له غلاماً(٢) — وهو غلام كان يحنو عليه حنواً شديداً ، ذلك أن لم يعش له واحد من أبناء خديجة . وكل هذه المتاعب المنزلية تمتزج أعظم امتزاج

= جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . (سورة النور) (المترجم)

(١) لم يكن الرسول كما تصور المبشرون « رجلا يأخذ بعقله الهوى . . . فلم يعرف عنه فى حياة خديجة ولم يعرف عنه قبل زواجه منها أنه كان ممن تغريهم مفاتن النساء فى وقت لم يكن فيه على النساء حجاب . (حياة محمد) للدكتور هيكل .

ويقول الأستاذ العقاد ما نصه : وكانت للنبى زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهى زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التى زوجها زيداً بن حارثة بأمره وعلى غير رضى منها ، لأنها أنفت — وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسول الله — أن يتزوجها غلام عتيق . هذه أيضاً لم يكن « للذات الحس » المزعومة سلطان فى بناء النبى بها بعد تطليق زيد إياها وتعذر التوفيق بينهما ، ولو كان للذات الحس سلطان فى هذا الزواج لكان أيسر شىء على النبى أن يتزوجها ابتداء ولا يروضها على قبول زيد وهى تأباه . فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسنها شىء كان يجهله يوم عرض عليها زيداً وشدد عليها فى قبوله . فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه وإغلاظها بالقول له كان زواج النبى بها « حلا لمشكلة » بيتية بين ربيب فى منزلة الابن وابنة عمة أطاعته فى زواج لم يقترن بالتوفيق . (عبقرية محمد ص ٢٠١) للعقاد .

(٢) أنظر للرد على ذلك فى حياة محمد ص ٤١٦ ، ٤١٧ . للدكتور محمد حسين هيكل .

بتصورنا لشخصية النبي . وكانت — صفية — إحدى زوجاته يهودية[١] ، تزوجها ليلة المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل . إذ استعرض السبايا في آخر النهار ، فراقت نظره وحملت إلى خيمته .

هذه وقائع بارزة في هذه الإحدى عشرة سنة من حياة محمد .

هذا وليس عدلا أن نتخذ الغلو لنا رائداً ، فمن الناحية الأخرى هل تراك علمت قط بأن رجلا على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقاً ؟ ذلك أن من عرفوا محمداً أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيماناً به . وقد آمنت به خديجة طوال حياتها — على أنها ربما كانت زوجة محبة . وأبو بكر شاهد أفضل ، وهو لم يتردد قط في إخلاصه . كان أبو بكر يؤمن بالنبي ، ومن العسير على أي إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يؤمن بأبي بكر . وكذلك علي ، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه . لم يكن محمد دجالا بأية حال ، وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله[٢] .

---

(١) « وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبي عليه السلام في معاملة جميع الناس ولا سيما النساء اللاتي تنكسر قلوبهن في الذل بعد فقد الحماة والأقرباء ، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بني قريظة بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها فاختارت الزواج منه عليه السلام » عبقرية محمد ص ٢٠٤ . فكأنه عليه السلام لم يتصرف إزاءها تصرفاً يتنافى مع ما فطر عليه من خلق كريم وذوق سليم ورحمة بالضعفاء . (المترجم)

(٢) المفروض أن المؤلف لا يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأينا أن نترك هذا القول وغيره ليطلع عليه المسلمون ويتجهوا إلى دحضه والرد عليه بما يعرفون عن نفس الرسول صلى الله عليه وسلم من روحانية وقدسية وتواضع ورحمة إلى غير ذلك مما جمعه الله جلت صفاته في نعته نبيه العظيم بأنه لا ينطق عن الهوى ، ولو رجعت إلى تاريخ الرسول بأكله لرأيت أن المؤلف قد تنكب طريق الحق والإنصاف إذ لم تكن للنبي عليه الصلاة والسلام صفة واحدة مما تفضل بها المؤلف عليه ، بل الأمر على النقيض من ذلك إذ كان النبي صلوات الله عليه الفضائل الكونية كلها في صورة حية كما أن القرآن الكريم الذي أنزل عليه قد نهى جزماً وصراحة عن الرذائل كلها ومن بينها تلك التي عددها المؤلف ولا يمكن لعقل بشر أن يتصور خروج محمد عليه الصلاة والسلام على ذرة مما نزل به القرآن خاصة وهو القائل « أدبني ربي فأحسن تأديبي » . فضلا عن أن أحداً من الرواة لم يرو البتة أنه عليه السلام ند يوماً عما أدبه به ربه ، ولا أن أحداً من صحابته أخذ عليه يوماً شيئاً من هذا الذي ينتقده المؤلف ، فكأن كل أعماله صلوات الله عليه كانت مما يقبله الذوق السليم في عصره .

(المترجم)

ولئن كانت رغبته فى صفية يوم مقتل زوجها تدهش عقولنا العصرية ، فإن حبه لإبراهيم الصغير ابن مارية المصرية وحزنه المفرط عندما توفى الطفل ، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك الذين خبروا عاطفة الحب ولوعة الحرمان .

وهو حين سوى التراب فوق القبر الصغير بيديه قال « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحى وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » .

٤ ـ تعاليم الإسلام

على أن سمات محمد الشخصية(١) شىء ، وصفة الإسلام ـ تلك الديانة التى أسس ـ شىء آخر . لم يناصب محمد يسوعاً أو مانى أى عداء . ولكن الإسلام هو الذى ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة ، وتقاليد المجوس الزرادشتية المنحلة ، وهى الأمور التى يعنى بها المؤرخ أعظم ما يعنى وسواء أكان الأمر بفضل النبى صلى الله عليه وسلم ، أم بسبب صدف وملابسات معينة لنشأة الإسلام وصفات بعينها فى الصحراء التى منها نشأ ، فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثير من الصفات الممتازة النبيلة .

وقد حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام فى آخر السنة العاشرة للهجرة . وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة ، ينقلها إلينا التواتر كما يلى . وبديهى أن هناك خلافاً حول الألفاظ . ولكن ليس ثمة نزاع فى أن عالم الإسلام ، وهو عالم به مع ذلك ثلاثمئة مليون نفس ، يتقبلها حتى اليوم قاعدة لحياته ويعمل بها إلى حد كبير . وسيلحظ القارئ أن أول فقرة فى الخطبة تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء . وتجعل الفقرة الأخيرة منها ، الزنجى المؤمن عدلاً للخليفة . وربما لم تكن تلك الكلمة رفيعة(٢) رفعة بعض أقوال يسوع الناصرى ، بيد أنها أسست فى العالم تقاليد عظيمة ، للتعامل العادل الكريم ، وإنها لتنفخ فى الناس روح الكرم والسماحة ، كما أنها إنسانية السمة ممكنة التنفيذ .

---

(١) أسلفنا الرد على مزاعم المؤلف والمستشرقين فيما يتعلق بشخص الرسول عليه السلام وما نرى داعيا إلى تأكيد أن الرسول هو روح الإسلام وقائده وحاديه فجميع أعماله هى السنة وجميع تصرفاته هى الأسوة وجميع أقواله هى الأحاديث النبوية الشريفة ولا يمكن عقلا الفصل بين نبى رسول وبين رسالته النبوية . (المترجم)

(٢) القارئ أن يحكم بعد أن يقرا الخطبة ، على روعة ألفاظها وعباراتها وما اشتملت عليه من جوامع الأخلاق ونبيل الأفكار ورفيع المبادئ . (المترجم)

وقد أنشأت مجتمعاً أكثر تحرراً من أى مجتمع آخر سبقه ، مما غمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعى . قال : —

« أيها الناس : اسمعوا قولى ؛ فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا كحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل رباً موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن رِبا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس [من] أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطلع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم — ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبيِّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ؛ واستحللتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلّغت ؛ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا به أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمُنّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمُنّ أنفسكم . اللهم هل بلّغت ؟ » .

فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس فى الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى ، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيده فيه ، ويعادل هذا فى الأهمية التوحيد الذى لا هواده فيه ، والذى يتجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله ، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم . وكان الإسلام منذ البداية قاطعاً مانعاً إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التى أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وغطت بالدخان على روح يسوع . وكان مصدر قوته الثالث تحديده الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة ، وبيانه الصريح عن المغزى العرفى المحدود للأهمية المنوطة بمكة . وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان ؛ ولم يترك إسم خياط مفتوحاً ينفذ منه كاهن القربان فى الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة . لم تكن مجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نبوية خالصة ، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع . أو ديانة جوتاما فى أيام حياة جوتاما ، ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير . ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ . ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة .

كان ديناً مليئاً بروح الرفق والسماحة والأخوة ؛ وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم ؛ كان دين فطرة تحوى ما للصحراء من عواطف الفروسية ؛ وكان يتوجه بمناشدته المباشرة إلى أشيع الفطر الغالبة على تكوين الرجال العاديين . وقد ناصبته اليهودية عداء مريراً ، وهى التى اتخذت من الرب كنزاً عنصرياً تكتنزه لجنسها . كما تألبت عليه المسيحية وهى التى كانت تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث وقوانين الإيمان والهرطقات التى لم يكن أى رجل عادى ليستطيع أن يميز فيها الرأس من الذنب ؛ كما حاربته المزدكية نحلة المجوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب مانى . ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه يهتمون إلا بشىء واحد هو أن ذلك الرب (الله) الذى كان يبشر به الرسول ، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم ، رب بر وهدى وتقوى ، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه — فى عالم طافح بالتقلقل والخيانة والانقسامات التى لا تسامح فيها — على أخوة عظيمة متزايدة بين رجال جديرين بالثقة فى هذه الدنيا ، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أنفسهم بالسرمدى المتواصل من التسبيح والعبادة ، على حين يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالون يحظون

بالدرجات العلا ، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكافئة والملذات البسيطة اليسيرة الفهم من أمثال تلك التى تتلهف عليها نفوسهم . وقد أوصل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية ، دون أن يلجأ إلى أية ومزية مبهمة ودون أى تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس .

٥ — الخليفتان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجسد فى محمد ﷺ فقط ، وإنما فى صديقه الحميم ونصيره أبى بكر . ولا يقوم أدنى شك فى أنه إن كان محمد هو العقل المفكر والخيال الخصب للإسلام البدائى ، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته . ففى كل أيام حياتهما معاً كان محمد هو الذى يقول الشىء ، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان . فإذا داخل محمدا شىء من التردد[1] سارع أبو بكر إلى مساندته . كان أبو بكر رجلا عامر النفس باليقين خلوها من الشكوك ، وكانت معتقداته تقطع قطعاً حاسماً وتتمخض كسكين شاحذة — عن أفعال جازمة . وما يخالجنا إلا شديد التأكد فى أن أبا بكر ما كان ليدارى أو يصانع حيال أرباب مكة الأصاغر ولا كان بحاجة إلى الوحى ليفسر للناس تصرفاته فى حياته الخاصة[2] . فلما أن مرض النبى بالحمى فى السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، كان أبو بكر هو الذى أعقبه خليفة له وإماماً للناس ، وكانت ثقة أبى بكر التى لا تتزعزع فى الله وبره وهداه . هى التى منعت الشقاق بين مكة والمدينة ؛ وهى التى أخمدت فتنة واسعة النطاق أثارها الأعراب البدو على ضريبة الزكاة المجبية للصالح العام ، وهى المسماة « حرب الردة » ؛ وهى التى دعته أن ينفذ إلى سوريا حملة غزو كان النبى الراحل أعدها . ثم أنشأ أبو بكر ، بذلك الإيمان الراسخ الذى يزحزح الجبال وتلك البساطة التقية والعقل الراجح ، ينصّب نفسه لتنظيم إخضاع العالم بأسره لحكم الله وإرادته — بجيوش صغيرة يتألف كل منها من ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عربى — أخذاً بتلك الرسائل التى بعث بها النبى ﷺ من المدينة فى (٦٢٨) لكل ملوك العالم .

---

(١) سبق أن رددنا على المؤلف فى مثل هذه النقاط فلا داعى للتكرار والعصمة للأنبياء فى أداء الرسالة مكفولة بجميع النصوص المنزلة . (المترجم)

(٢) كل هذه أمور سبق الرد عليها فليرجع إليها القارئ .

ثم إننا لا ندرى ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالعقيدة التى جاء بها الرسول ما دامت —

وأوشكت المحاوله أن تؤتى ثمارها . ولو قيض للإسلام عشرون رجلا من طينة أبى بكر وممن يصغرونه سناً فواصلوا عمله لنجح على التحقيق فى بلوغ تلك الغاية . وما قارب الإسلام هذا النجاح وأوشك أن يبلغه إلا لأن بلاد العرب كانت آنذاك مركزاً للإيمان والعزيمة ، ولأنه لم يكن هناك فى أى مكان آخر فى العالم حتى حدود الصين ، اللهم إلا فى سهوب الروسيا أو التركستان ، مجتمع آخر من رجال أحرار الأرواح لهم أى قوة من إيمان بحكامهم وزعمائهم . ذلك أن عظيم الإمبراطورية البيزنطية هرقل قاهر كسرى الثانى (أبرويز) ، قد انحدر عن أوج مجده ونالته علة الاستسقاء ، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمبراطوريته . وكانت فارس متردية فى الحضيض الأوهد من دركات انحطاط الملكية . فإن قباذ الثانى قاتل أبيه لقى حتفه بعد حكم دام أشهراً قليلة ، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فملأت حياة القصر نشاطاً ، ولكنها أضعفت قوة البلاد . ولم تنته الحرب بين فارس والإمبراطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بداية حكم أبى بكر . وكان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب أوسع استخدام ؛ وانتشرت فى أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات للعرب المتنصرين ممن يدينون للقسطنطينية بولاء ليس له من أساس ؛ وكانت مناطق التخوم الفارسية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربى تابع للفرس ، مقر إمارته الحيرة . وكان سلطان العرب قوياً فى مدن من أمثال دمشق ، حيث كان السادة من مسيحى العرب يقرأون وينشدون أحدث ما ينتجه المتبارون من الشعراء فى الصحراء من القصيد . وبهذا كانت فى متناول الإسلام مقادير وفيرة من المواد اليسيرة التمثل مهيأة لتقبل دعوته .

والحملات العسكرية التى بدأت عند ذاك من ألمع ما خلّد تاريخ العالم . فقد أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستاناً مونقاً من رجال ممتازين ويبرز اسم خالد بينهم أزكى نجم وأسطعه فى نخبة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء . فحيثما حل قائداً لجيش كان النصر حليفه ، ولما أن دفعت الغيرة الخليفة عمر بن الخطاب إلى خلعه — ظلماً منه لا يغتفر — لم يحدث أية ضجة ، بل راح يخدم الله فى سرور وإخلاص

— العقيدة لم تتأثر أولا وأخيراً بأى شىء مما يأخذه المؤلف ويدعيه المستشرقون وأعداء النبى والإسلام فى قديم الزمان وحاضره . إن محمدا هو رسول الإسلام وفكره ومتلق وحيه وصاحب سنته ، ولا يمكن أن تنفصل الفروع الأصول . (المترجم)

تحت إمرة الذين كان كبيراً عليهم[١] . ولسنا بمستطيعين أن نتتبع قصة هذه الحروب هاهنا ؛ ويحسبنا أن نقول إن الجيوش العربية وجهت ضرباتها فى نفس الوقت إلى سوريا البيزنطية ومدينة الحيرة على التخوم الفارسية ، وكانوا فى كل مكان يخيرون الناس بين أمور ثلاثة : فإما أن تدفع الجزية ، وإما أن تؤمن بالله الحق وتنضم إلينا ، وإما أن تقتل . فالتقوا بجيوش كثيرة ، جيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها فهزموها . ولم يحدث فى أى مكان أن قوبلوا بشىء اسمه المقاومة الشعبية . فإن سكان أراضى الرى والزراعة الآهلة فى أرض الجزيرة بالعراق ، لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو پرسپيوليس[٢] أو المدينة ؛ فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسى وبين العرب ، كان العرب ، أعنى عرب السنين العظيمة ، أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر ؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلا . وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود . وكما كان الحال فى الغرب كان كذلك فى الشرق ، إذ كان الغزو يتحول إلى ثورة اجتماعية . ولكنها كانت هاهنا ثورة دينية أيضاً لها حيوية ذهنية جديدة متميزة .

---

(١) يقول شورتز فى تاريخ العالم (هلموت) إن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوى على وصمة . فإنه ارتكب الفسق وهى خطيئة خطيرة فى مجتمع يبيح تعدد الزوجات . (المؤلف)

ولكن المعلوم أن هذه الحادثة التى يعدها ولز فسقاً قد عرضت على أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو من نعلم فى ورعه وتقواه فلم يرها كذلك وأقر خالداً على تصرفه . وفضلا عن هذا لم يكن ما حدث من عمر رضى الله عنه عن غيرة ولا ظلم ؛ ذكر ابن الأثير أن عمراً رضى الله عنه استدعى خالداً إلى المدينة بعد العزل ، فلما وصلها وفد على عمر شكاه ، وقال قد شكوتك إلى المسلمين ، فبالله إنك فى أمرى لغير مجمل ، فقال له عمر « من أين هذا الثراء ؟ قال من الأنفال والسهمان ما زاد على ستين ألفاً فلك ، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها فى بيت المال ، ثم قال « يا خالد ، والله إنك على لكريم وإنك إلى لحبيب » وكتب إلى الأمصار « إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت أن يتواكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكون بمعرض فتنة » وعوضه عما أخذ منه .

تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ (الطبعة الأولى بالمطبعة الأهلية المصرية سنة ١٣٠١ هـ) . (المترجم)

(٢) مدينة فارسية قديمة تقع على بعد أربعين ميلا إلى الشمال الشرقى من مدينة شيراز الحالية ، غير بعيد من مجرى نهر البلوار واسمها عند المؤرخين العرب اصطخر .

(المترجم)

وكان خالد هو الذى قاد المعركة الحاسمة (٦٣٦) ضد جيش هرقل على ضفاف اليرموك ، وهو أحد روافد الأردن . إذ كانت الكتائب — شأنها على الدوام — خلواً من القدر الكافى من الفرسان الصالحين ؛ فكأن طيف كراسوس الشبح على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق عبثاً دون أن يتعظ بمصرعه أحد ؛ فكانت الجيوش الامبراطورية تعتمد فى أعمال الخيالة على الجنود العربية المسيحية الحليفة ، وانحاز هؤلاء إلى المسلمين عندما التقى الجيشان . وأقام الجيش البيزنطى موكباً عظيما من القساوسة والرايات المقدسة والصور والآثار القدسية ، وساعدهم فوق ذلك الرهبان بتراتيلهم . ولكن الآثار لم يكن لها أى سحر ، كما أن الاعتقاد فى الترتيل كان ضئيلا . فأما فى الجانب العربى ، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيوش بخطبهم وانطلقت أصوات النساء فى المؤخرة بالزغاريد تشجيعاً لرجالهن حسب العادة العربية القديمة . وكانت صفوف المسلمين مليئة بالمؤمنين الذين كان يتلألأ أمام نواظرهم أمران : النصر أو الفردوس . ولم يعد فى نتيجة المعركة أدنى ريب بعد انحياز الراكبة غير النظامية . وانقلبت محاولة العدو للتراجع إلى تشتيت شمله تشتيتاً لم يلبث أن تحول إلى مذبحة . وكان الجيش البيزنطى يحارب وظهره إلى النهر ، الذى أصبح للوقت مليئاً بأشلاء قتلاه .

ومن بعدها أخذ هرقل يتخلى عن سوريا شيئاً فشيئاً لأعدائه الجدد ، بعد إذ لم يمض على استرداده لها من يد الفرس إلا زمن قصير . وسرعان ما سقطت دمشق ، وبعد ذلك بسنة دخل المسلمون أنطاكية . ثم اضطروا أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لجهد آخر بذلته القسطنطينية لاستردادها ، على أنهم ما لبثوا أن عادوا فدخلوها تحت قيادة خالد ماكثين بها إلى آخر الدهر .

وفى نفس الوقت حدث فى الجبهة الشرقية ، بعد أن أصاب العرب نجاحاً ابتدائياً سريعاً استولوا به على الحيرة ، أن اشتدت مقاومة الفرس . وكان النزاع على العرش قد انتهى آخر الأمر بتولية ملك ملوك جديد ، واكتشاف قائد ذى مقدرة هو رستم . فالتحم بالعرب قرب القادسية (٦٣٧) . وكان جيشه جحفلا مخلطا كالذى اقتاده دارا إلى تراقيا أو الذى هزمه الإسكندر فى إسوس . كان خليطاً من المجندين ، وكان لديه ثلاثة وثلاثون فيلا حربياً ، وجلس على عرش ذهبى من فوق منصة مرتفعة خلف



(شكل ١٢٩) خريطة بدايات الدولة الإسلامية

الصفوف الفارسية وهو يلاحظ المعركة ويشرف عليها ، وهذا العرش يذكر القارئ بهيرودوت والهلس بونت وسلاميس قبل ذلك بما يزيد عن الألف سنة . واستمرت المعركة ثلاثة أيام . وكان العرب فى كل يوم يهجمون ، فيصمد الجيش العظيم الفارسى فى مكانه ، حتى يسدل الليل ستاره آمراً بالهدنة ، وتلقّى العرب فى اليوم الثالث أمداداً ، وحاول الفرس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاسمة ، بأن قاموا بهجوم بالفيلة . ولقد جرفت تلك الوحوش الهائلة فى مبدأ الأمر كل شىء أمامها ؛ ثم جرح أحدها جروحاً أليمة ، فجن جنونه وأخذ يندفع هنا وهناك بين الجيشين ، وانتقل الزعر منه إلى الفيلة الأخرى ؛ واستمر الجيشان مصعوقين فترة من الزمان فى أصيل شمس الغروب ، وهما يلاحظان الجهود الجنونية التى تبذلها هذه الوحوش

الشهباء الصارخة كي تهرب من جموع الرجال المسلحين المعذبة لها والتي أحاطت بها من كل جانب. وقد حدث بمحض الصدفة أن الفيلة خاضت في الجيش الفارسي آخر الأمر ولم تخض صفوف العرب، وأن كان العرب هم الذين قيض لهم أن يهجموا هجمة فعالة في الصميم على أثر الفوضى التي وقعت في صفوف أعدائهم. وبعد الغسق أطبقت ظلمة الليل، ولكن الجيوش لم تتباعد هذه المرة. وظل العرب الليل كله يكيلون الضربات لأعدائهم باسم الله، ويضغطون على الفرس المحطمين المتقهقرين. وبزغ الفجر وفلول جيش رستم تفر مبتعدة عما يملأ ميدان القتال من الفوضى وبقايا المعركة المتناثرة. وكانت تلك الفلول تمضي في طريق مملوء بالأسلحة المتناثرة والأدوات الحربية، وكثير من دواب ومعدات الحمل والموتى والذين في النزع. فأما المنصة والعرش الذهبي فقد تكسرا، وكان رستم صريعاً بين كومة من الموتى.

وكان أبو بكر قد مات من قبل في ٦٣٤، فتولى الخلافة من بعده عمر وكان حماً للنبي[١]. وقد انجزت أعظم فتوح المسلمين في عهد عمر (٦٣٤ – ٦٤٤). فطردت الإمبراطورية البيزنطية من سوريا طرداً تاماً. على أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس. واجتيحت أرمينية وفتحت كل أرض الجزيرة، كما فتحت فارس وراء النهرين. وانتقلت مصر انتقالا يكاد يكون سلبياً من يد الروم إلى العرب[٢]، وبذلك استطاع الجنس السامي في بضع سنين، باسم الله ورسوله، أن يسترد تقريباً كل الأقاليم التي خسرها للفرس الآريين قبل ذلك بألف سنة. وسقطت بيت المقدس في وقت مبكر، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتمل الحصار، وبذلك حدث أن

(١) ورد في الأصل Brother-in-Law أي عديل النبي او شقيق زوجته وهذا خطأ والصحيح هو ما أثبت هنا، حيث تزوج النبي (ص) حفصة بنت عمر. (المترجم)

(٢) إن فتح العرب لمصر عزل الحبشة عن سائر العالم المسيحي، ثم يظل العالم بعد ذلك ألف عام دون أن يسمع شيئاً عن هذه البلاد النائية التي بقيت على المسيحية. وفي منتصف القرن الخامس عشر ظهرت في روما فجأة بعثة حبشية تستعلم عن بعض نقط معينة تتعلق بالعقيدة المسيحية. وكانت تشيع في العالم المسيحي أسطورة عن بلاد مسيحية عظيمة في الشرق هي بلاد پريسترچون أي القديس يوحنا. والظاهر أنها قامت على قصص محرفة عن الحبشة ومختلطة بأقاصيص أخرى عن زعماء من المغول تنصروا على أيدي النساطرة

(المؤلف)

« الصليب الحق » الذى حمله الفرس قبل ذلك باثنتى عشرة سنة ، ثم أعاده هرقل بمشقة كبيرة انتقل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى . على أنه ظل باقياً فى أيد مسيحية ؛ ونصت المعاهدة نفسها أن ينعم النصارى بالتسامح فى مقابل دفع الجزية على الرؤوس فقط ؛ وتركت الكنائس بأسرها والآثار والذخائر المقدسة بأجمعها فى حوزتهم .

واشترطت بيت المقدس مقابل تسليمها شرطاً عجيباً . فإن المدينة أبت أن تسلم إلا للخليفة عمر نفسه . وكان الخليفة حتى ذلك الحين مقيما فى المدينة ينظم الجيوش ويدبر شئون القتال عامة . فحضر إلى بيت المقدس (٦٣٨) ؛ على أن طريقة حضوره والحالة التى وحدها عند مجيئه تبين مبلغ السرعة التى أوهن النجاح بها بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها . جاء فى رحلة طويلة أمدها ستمئة ميل ومعه تابع واحد ليس غير ؛ وكان راكباً جملا ، وكانت عدته فى السفر كيساً صغيراً من شعير وآخر من تمر وقربة ماء وجفنة من خشب . واستقبله قواده الكبار خارج المدينة ، وهم يرتدون أثواباً فاخرة من الحرير ويمتطون صهوات جياد مزركشة السروج والأعنة . وتملك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب . فانزلق من رحله ، وجمع بيديه الثرى والأحجار ، ثم لطخ هؤلاء السادة المتأنقين وهو يصيح بهم سباباً . فلماذا كانت هذه الإهانة ؟ وما معنى هذا التأنق ؟ وأين المقاتلون الأشداء ؟ وأين رجال الصحراء الخشنون ؟ إنه ليأبى على هؤلاء « الطواويس » المتأنقين المعجبين بأنفسهم أن يسيروا فى معيته . فواصل المسير مع تابعه ، وسار الأمراء المتأنقون من خلفه عن بعد — خارج مجال قذفه إياهم بالأحجار . التقى منفرداً ببطريرك بيت المقدس ، وهو الذى تملك المدينة فيما يظهر من حكامها البيزنطين . وأخذ يتعامل والبطريرك على ما يرام فطافا معاً بالأماكن المقدسة ، وأنشأ عمر ، وقد هدأت ثائرته بعض الشىء ، يوجه النكات الساخرة الماكرة إلى أتباعه ذوى الثياب الفاخرة .

ومما له دلالته كذلك على نزعة ذلك الخليفة رسالة عمر إلى أحد عماله — وكان ابتنى لنفسه قصراً بالكوفة — يأمره فيها أن يهدمه ثانية .

كتب إليه يقول : « بلغنى أنك شئت أن تحاكى إيوان كسرى(١) ، وأنك شئت أن تحيط نفسك بالأبواب التى كانت له ، أفترغب كذلك أن يكون لك ما كان لكسرى

(١) بمدينة طيشفون .

من حراس وحجاب ؟ أم تريد أن تباعد بينك وبين المؤمنين وتجعل بين مجلسك وبين الفقراء حجاباً ؟ أم تريد أن تخالف سنة « النبى » ، وتصير إلى ما كان عليه ملوك الأعاجم من الأبهة والفخامة ، فتردى فى نار جهنم كما تردوا ؟ »[١] .

٦ – أيام عظمة بنى أمية

كان أبو بكر وعمر بن الخطاب[٢] أعظم شخصيتين فى تاريخ الإسلام . لا يتسع المجال هنا لوصف الحروب التى تم بها فى خمس وعشرين ومئة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسى وأسبانيا ، ومن قشغر على حدود الصين إلى مصر العليا . وبحسبك خريطتين لتبيان المدى الذى دفع به الباعث القوى للعقيدة الجديدة الفكرة العربية والقرآن العربى قبل أن استطاعت النزعة الدنيوية أى روح التجارة والنهب القديمة وبريق الرداء الحريرى ، أن تستعيد كامل سلطانها القاتل لذكاء العرب وإرادتهم . وسيلحظ القارئ كيف سار المد العربى العظيم فى آثار خطى يوآن تشوانج ، وكيف تم فى سهولة بإفريقية أن فتوح الوندال السهلة قد كُرِرت فى الاتجاه المضاد أعنى من الجنوب إلى الشمال ، وإذا خامرت القارئ أية أوهام مضللة فى أن حضارة من الحضارات الممتازة سواء أكانت فارسية أم رومانية أم هلّينية أم مصرية ، غمرها هذا الفيضان الجديد ، فإنه كلما سارع إلى نبذ مثل هاته الفكرات من عقله كان ذلك خيراً له . فإن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت تلك الأيام تقديمه . لقد ساد لأنه كان يجد فى كل مكان شعوباً تبلد حسها سياسياً ، تُسلَب وتُظلم وتُخوَّف ولا تُعلَّم ولا تُنظَم ، كما وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال . كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية كان لها نشاط فعلى فى العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب الجمهرة الغفيرة من البشرية عامة نظاماً أفضل من أى نظام آخر سبقه . وكان النظام الرأسمالى الاسترقاقى فى الإمبراطورية الرومانية ، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية فى أوربا ، قد انحلت انحلالا تاماً وانهارت قبل أن نشأ الإسلام . ولم يحدث

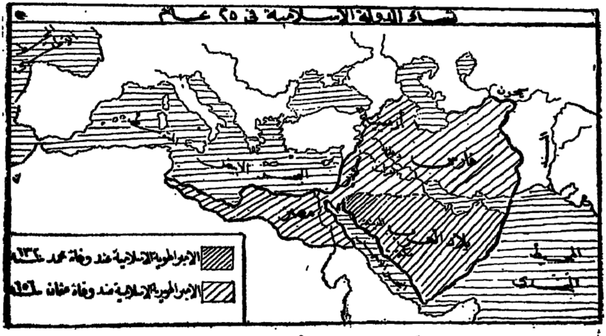
---

(١) نقلا من : schurtz in Helmolt's History of the World.

(٢) درج كتاب الغرب على تسمية هذا الخليفة باسم عمر الأول ، وتسمية عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى باسم عمر الثانى (المترجم)

أن دب دبيب الانحلال فى الإسلام أيضاً ، إلا عنـــدما ضاعت ثقة البشرية فى إخلاص ممثليه .

ولقد تبددت معظم طاقته فى غزو بلاد فارس والتركستان وتمثّلهما . وكانت أقوى طعناته هى الموجهة من فارس نحو الشمال والمنطلقة إلى الغرب عبر مصر . ولو أنه ركز قوته الأولى على الإمبراطورية البيزنطية ، فلا شك فى أنه كان مستطيعاً انتزاع القسطنطينية حوالى القرن الثامن والوصول إلى قلب أوربا بنفس السهولة التى وصل بها إلى هضبة البامير . حقاً إن الخليفة معاوية حاصر تلك العاصمة سبع سنوات (٦٧٢ — ٦٧٨) ، وكذلك فعل سليمان (٧١٧ ، ٧١٨) ؛ بيد أن الضغط لم يدعم ولم يتواصل ، وظلت الإمبراطورية البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصناً متداعياً يدفع الشرق عن أوربا . ولا جدال أن الإسلام كان يستطيع على التحقيق أن يجد فى المتنصرين حديثاً أو الباقين على الوثنية من آفار وبلغارين وصربيين وصقالبة وسكسون — رجالا مستعدين للانضواء تحت رايته استعداد أتراك آسيا الوسطى . ومع أنه بدلا من الاســتمساك



(شكل ١٣٠) خريطة نشأة الدولة الإسلامية فى ٢٥ عاما

بالاستيلاء على القسطنطينية ، دار إلى أوربا أولا بطريق إفريقية وأسبانيا الملتوى البعيد ، فإنه لم يصادف إلا فى فرنسا فى نهاية خط مواصلات هائل البعد عن بلاد العرب قوة كافية البأس لإيقاف تقدمه .

وقد تسلط سادة مكة البدو على الإمبراطورية الجديدة منذ البدايه . فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخب فى المدينة للخلافة بطريقة شكلية غلب فيها الصياح ، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثالث ، على أن ثلاثتهم كانوا مكيين من أسر عريقة . ولم يكونوا من رجال المدينة . ومع أن أبا بكر وعمر كانا رجلى بساطة وتقشف مطلق واستقامة ، فقد كان عثمان أدنى منهما مرتبة ، وهو رجل من طراز أصحاب الثياب الحريرية . فلم يكن الغزو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب ، وبخاصة من أجل مكة ببلاد العرب ، وبالأخص لنفسه هو وللمكيين ولعشيرته الأقربين بنى أمية . كان رجلا ذا مكانة شريفة ، نصب نفسه لخدمة وطنه وبلدته وقومه . ولم يسلم مبكراً كما فعل سلفاه الأولون[١] . وانضم إلى النبى لأسباب سياسية فى عملية أخذ وعطاء عادلة [كذا ! . . .] وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلا عجيباً له شخصية مدهشة متوقدة ، ويصبح ملكاً شرقياً ، كثكير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين ، ولكنه لا يزيد على ذلك شيئاً .

وإن حكم عثمان ومقتله ليبرزان بوضوح عواقب ما حدث فى عهد النبى[٢] ، بمقدار ما شهدت حياة أبى بكر وعمر بما انطوت عليه تعاليمه من جذوة قدسية . إذ كان محمد صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى الديبلوماسية فى أوقات كان أبو بكر يجنح فيها إلى الصلابة ، وكان العنصر الجديد من الجشع الأرستقراطى الذى ظهر بتولية عثمان أحد

---

(١) الصحيح أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن عثمان أسلم قبل عمر وثلاثتهم من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكلهم من المهاجرين المخلصين لله وللرسول ولم يكن لأحدهم بغية خاصة من وراء إسلامه فقد ضحى كل منهم فى سبيل الإسلام بالنفس والنفيس وتحمل آلام التعذيب والتشريد والفقر والمهانة من أجل عقيدته ودينه . وعن عثمان بن عفان وفضله على الإسلام والثورة التى أدت إلى مقتله ، انظر الموسوعة العربية الميسرة . (المترجم)

(٢) أسلفنا عليك القول فى تفنيد تلك المزاعم بما فيه الكفاية . (المترجم).

ثمرات تلك التصرفات الدبلوماسية . وكانت عواقب ذلك الحريم ، حريم النبى المتجمع من غير تمحيص ، والمنازعات والغيرات العائلية التى استكنّت خلف أمور المسلمين أثناء حكم الخليفتين الأولين ، قد أخذت تتسلل إلى ضوء النهار . فإن علياً وهو ابن عم النبى وابنه المتبنى(١) وزوج ابنته فاطمة ، كان يعد نفسه صاحب الحق فى الخلافة دون سواه . وكانت ادعاءاته تياراً خفياً يترقرق معبراً عن امتعاض المدينة ، وعشائر مكة المنافسة لارتفاع شأن بنى أمية . ولكن عائشة زوجة النبى الحظية ، كانت تغار على الدوام من فاطمة وتعادى عليا . فانحازت إلى عثمان . . . وبذلك تنهار بداية قصة الإسلام البديعة فجأة فى حمأة هـــذا النزاع والمناوشة بين الوراث والأرامل(٢) .

---

(١) لم يتبن النبى صلى الله عليه وسلم عليا وإنما هو قد ضمه إليه ؛ وهو ابن عمه أبى طالب ، فى أيام اشتدت فيها الأزمة على الناس وفعل مثل ذلك العباس بجعفر بن أبى طالب تخفيفاً عن أبى طالب لكثرة عياله حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبياً فاتبعه وآمن به وصدقه .   (المترجم)

(٢) إن كان هذا القول من جانب المؤلف هو بسبب تاخر على كرم الله وجهه عن بيعة أبى بكر بما عده الشيعة سنداً لأحقيته فى الخلافة دون أبى بكر وعمر وعثمان ؛ فإننا نبادر إلى القول بان علياً إنما تاخر من بيعة أبى بكر لا لأنه يرى أحقيته فى الخلافة ، وإلا لظل طوال حياته دون مبايعة ، وإنما كان ذلك منه لأنه استنكر أن يبرم الأمر من دونه ومن دون بنى هاشم فلما تبين له إجماع المسلمين دخل فى الجماعة وبايع . فاما أمهات المؤمنين فما أبعد هذا القول فيهن عن الصحة ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعقد على واحدة من زوجاته إلا لسبب هام وذلك ظاهر من كتب السيرة والتفسير ، فبعضهن كان زواجه منها بسبب التشريع كما حدث فى حالة زينب بنت جحش مثلا ، وبعضهن كان زواجه منها للتآلف وإحكام الروابط كما حدث فى حالة حفصة . وبعضهن للوفاء لهن بما يكفيهن شر العيلة مثل أم حبيبة مثلا الخ . فإن أردت الاستزادة فعليك بكتب السيرة ففيها تفصيل ذلك بما يشهد أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يتزوج دون غرض تقتضيه الرسالة السمحة أو تمحيص ، وإنما كان له من زواجه من كل واحدة من زوجاته رضى الله عنهن غرض يهدف إليه ، ويضاف إلى ذلك أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل فى شئون الدولة إطلاقاً لا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ولا بعده . وما كان خروج عائشة رضى الله عنها مع الزبير وطلحة عن كراهية لعلى كرم الله وجهه ولكن لأن الزبير وطلحة أوهماها أن عليا لم يكترث لدم عثمان المطلول فخرجت معهما . حتى إذا مرت بالحوأب واشتد نباح كلابها سأل سائل عن اسم المكان فلما ذكر على مسمع منها وتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيتكن تنبحها كلاب الحوأب الخ » صرخت وأبركت الجمل وهمت بالرجوع وظلت مكانها حتى تصايح الناس بإشراف على كرم الله وجهه على اللحاق بهم فسارت معهم إلى البصرة . =

وفى ٦٥٦ رجم جماعة من الرعاع عثمان – وهو شيخ فى الثمانين – بالأحجار فى شوارع المدينة ثم طاردوه إلى منزله وقتلوه . وأصبح علىّ آخر الأمر خليفة لكى يقتل بدوره هو أيضاً (٦٦١) . وفى إحدى معارك هاته الحرب الأهلية ميزت عائشة نفسها وقد أصبحت سيدة عجوزاً شجاعة حادة الطبع ، بأن قادت(١) ضد علىّ معركة وهى فى هودج على جمل . فأسرت وأحسنت معاملتها .

وبينما كانت جيوش الإسلام تتقدم منصورة فى غزوها المظفر للعالم ، أصابها هذا الداء ، داء الحرب الأهلية بضربة على أم رأسها . ماذا كانت قيمة « حكم الله فى العالم » لدى عائشة ، ما دامت تستطيع أن تقضى على فاطمة الممقوتة ؟ وماذا كان يجنى الأمويون وأتباع علىّ على السواء من وحدة البشرية ، وقد قام بينهم مثل ذلك الثأر العظيم الحار الذى يتلهون به ويتسلون والذى الخلافة هدفه وغنيمته فى النهاية(٢) ؟ لقد انقسم العالم الإسلامى شطرين ، قسمته الضغائن والجشع والسخافة الحزبية لحفنة من رجال ونساء فى المدينة . ولا يزال هذا الشقاق قائماً إلى اليوم . فإن هناك حتى يومنا هذا قسما رئيسيا من المسلمين هم الشيعة ممن يدينون بفكرة حق على الوراثى فى الخلافة « كمادة رئيسية فى عقيدتهم » ! وهم منتشرون فى فارس والهند .

ولكن شطراً آخر يعادل هؤلاء فى الأهمية هم « السنيون » ، الذين لا يسع المراقب المحايد إلا أن يوافقهم على آرائهم ، ينكرون هذه الإضافة العجيبة إلى عقيدة محمد البسيطة . ونحن – على قدر ما نستطيع أن نستنتج على بعد الزمان بيننا وبينهم – نرى أن عليا كان فرداً عاديا جداً .

ومراقبة هذا الصدع يتمشى فى بداية الإسلام البديعة الرائعة ، أشبه الأشياء بملاحظة حالة مريض يتطرق إلى عقله الضعف . وإنا لنحيل القارئ إلى « الأدب »(٣)

= وهذا الخروج من جانب عائشة رضى الله عنها لم يكن منها إلا حفاظاً على الدم المطلول ومطالبة بمعاقبة المجرمين وإن كانت قد خدعت بهذا الأمر وعميت عليها الأغراض الحقيقية للذين حفزوها على الخروج معهم . والواقع أن مرد الفتنة الكبرى كلها هو شيخوخة عثمان وتسلط بنى أمية فى أقامه على شئون المسلمين تسلطاً أسخط الناس (انظر الموسوعة العربية الميسرة) . (المترجم)

(١) هى لم تقد المعركة وإنما كان هودجها فى وسطها لأن أنصار طلحة والزبير أبوا إلا الالتفاف حول الهودج بزعم الدفاع عنه (المترجم)

(٢) يبلغ من شدة إعجاب المؤلف ببداية الإسلام واندفاعته الأولى وهى معجبة فعلا ، أن يتسخط هذا السخط البالغ على الخلافات التى نشبت بين كبار القادة . ولكن المؤلف يغلو ويقسو وينسب الأشياء إلى غير أسبابها الحقيقية كاعتقاده الخاطىء فى غيرة عائشة من فاطمة . (المترجم)

(٣) يقصد المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات التى ظهرت حول ذلك الموضوع ، فالأدب هنا مستخدمة بمعناها العام الواسع . (المترجم)

الكثير المدون فى هــذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلم كيف أن الحسن بن على سمته زوجته ، وكيف قتل أخوه الحسين . ولسنا نتجاوز أن نذكر اسميهما فى هذا المكان ، لأنهما لا يبرحان يمــدان قسما كبيراً من البشرية بمجال مفعم بالعواطف التشيعية والامتعاض المتبادل . وهما أعظم الشهداء مكانة لدى الشيعة . وقد أحرقت الكعبة البيت العتيق بمكة بين غدو المصادمات الناشبة بين مختلف الأطراف ورواحها ، وطبيعى أن تبتدئ لشأنها فى إثر ذلك منازعات لا نهائية بين المسلمين : فهل يجب أن يعاد بناؤها فى نفس هيئتها القديمة بالضبط أو على مقياس أكبر كثيراً ؟

لقد رأينا مرة أخرى فى هذا القسم وسابقه ، كيف أن الكفاح الحتمى لهذا الدافع الجديد ، الذى هو أحدث الدوافع وآخرها ، والذى يدعو إلى الوحدة فى الشئون العالمية ، والذى يكافح ما ركب فى البشرية من نزعات دنيوية ؛ ورأينا كذلك كيف أن دار النبى بما سادها من تقلقل وتعقيد كانت منذ البداية أشبه الأشياء بتركة مثقلة بالأعباء فى العقيدة الجديدة[1] . ولكن لما كان هذا التاريخ ينحدر بعد ذلك إلى الجرائم العادية والمؤامرات التى تحدث فى أية أسرة مالكة شرقية ، فإن دارس التاريخ سيدرك نقطة جوهرية ثالثة فى إصلاحات محمد العالمية . فإنه كان عربياً أمياً ، غير ملم بالتاريخ ، ولا بكل تجاريب روما وبلاد الإغريق السياسية ، ويكاد يكون غير ملم كذلك بتاريخ بلاد اليهودية الحقيقى[2] ؛ فترك أتباعه من غير خطة لحكومة مستقرة تنظم إرادة المؤمنين العامة وتركزها[3] ، وخلفهم من غير صورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة التى هى الطابع الغالب على تعاليم الإسلام الجوهرية (مع استعمالنا للكلمة بمعناها العصرى) .

---

(١) وما دخل دار النبى بإدارة دفة سياسة الدولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ؟ الحق إننا لا نجد مبرراً لهذا الإقحام الغريب . وكل ما فى الأمر أن بنى أمية انتهزوا فرصة ضعف عثمان وقرابتهم منه فوطدوا مركزهم فى الدولة . وكانوا قوماً تجاراً دنيويين ، ذوى نزعة جاهلية ولم يجدوا تلقاءهم سوى على بن أبى طالب وهو رجل زاهد لم يؤت قدرتهم على الختل والخداع . (المترجم)

(٢) هذه الأمية وعدم الإلمام بخبرات روما والإغريق السياسية وبتاريخ أرض اليهودية الحقيق هى البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك فى مواضع متعددة منها على سبيل المثال :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون » (سورة العنكبوت) .

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » . (سورة الشورى) . (المترجم)

(٣) لعل المؤلف يشير بهذه العبارة إلى أن النبى لم يستخلف أحداً من بعده ، وفاته أن الشورى من النقاط الأساسية فى حكم الإسلام بنص القرآن . وذلك ما تم فى انتخاب الخلفاء الأربعة الأول . (المترجم)

وكان حكمه حكماً فردياً مطلقاً ، ومن ثم ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة . وبذا لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقدماً بل تراجعا(١) عن الحريات التقليدية وقوانين الصحراء العرفية . وكان نقض هدنة الحج(٢) الذى أدى إلى معركة بدر أبشع وصمة للإسلام الناشئ . والله هو المدبر الأعلى للإسلام نظريا ، ولكن سيده الفعلى كان على الدوام أى رجل يبلغ من القوة ومن موت الضمير ما يجعله يسلب الخلافة ويستمسك بها . وإذ أن رجلا كهذا يصبح عرضة لشبوب الثورات عليه والإقدام على اغتياله ، فإن قانون الإسلام النهائى كان إرادة ذلك الرجل .

وقد ارتفع شأو أسرة بنى أمية زماناً بعد موت على وظلت قرنا من الزمان تقريبا تعطى الإسلام حكامه وولاته .

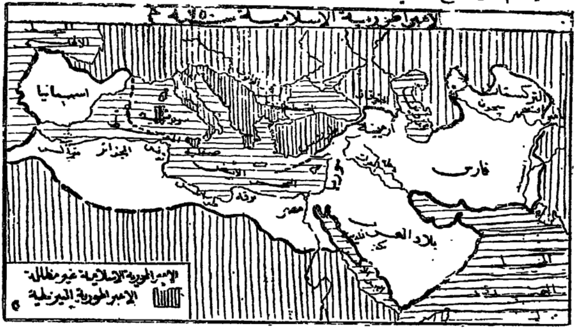
ويبلغ من انشغال مؤرخى العرب بالمنازعات على العرش وبجرائم ذلك العصر أن

---

(١) إن كان الانصراف عما كانت عليه الجاهلية من إباحية وتفلت وخروج عن السمة الإنسانية ومنافاة لروح كل قانون وخلق وعدم وجود حكومة موحدة ولا نظام معمول به ، يعد فى نظر المؤلف تراجعا فانعم به من تراجع . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف هنا إلى سرية عبد الله بن جحش ويتخذ منها مغمزاً على الإسلام ؛ وتنسى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرسل عبد الله بن جحش وأصحابه لغزو أو شىء من أعمال القتال . وإنما أرسله للاستطلاع فقط ؛ وذلك ظاهر تماماً من كتابه (ص) لعبد الله ، كما أن المؤلف أغفل غضب النبى من القوم عند عودتهم بقوله ؛ « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ووقف العير والأميرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، وكذلك سقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم هلكوا واشتد تعنيف المسلمين لهم حتى أنزل الله تبارك وتعالى « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر من القتل » (سورة البقرة) وفى هذا أبلغ رد على المؤلف الذى يتخذ من هذه السرية وسيلة لأخذ المآخذ على الإسلام فى بدايته متناسياً صد الكفار المسلمين عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام ، وإخراج المسلمين منه وهم أهله ، وفتنتهم للمسلمين مع أن كل واحدة من هذه أشد من القتل وأنكى من القتال وتستدعيهما . هذا ، وزيادة فى الإيضاح نقول إن سرية عبد الله بن جحش لا علاقة لها بغزوه بدر الكبرى لأن المسلمين هم الذين خرجوا لاعتراض عير قريش القادمة من الشام فخرج جيش قريش لحماية عيرهم . ولكن العير حين أفلتت من المسلمين عز على كفار قريش وأقيالها ان يرجعوا فاستعمل بعضهم دم الحضرمى (الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش) وسيلة للتحريض على من قال منهم بالعودة دون قتال ، وبذلك كانت قريش البادئة فجعله الله نكالا عليها ونصر المسلمين نصراً مبيناً . (المترجم)

أصبح من العسير علينا أن نتتبع التاريخ الخارجي لتلك الفترة . ومهما يكن الحال فإنا نجد سفنا إسلامية تمخر البحار وتهزم الأسطول البيزنطى فى قتال بحرى عظيم بإزاء ساحل ليكيا (Lycia) (وهى إقليم جبلى ج . غ . آسيا الصغرى) (٦٥٥ م) ، ولكن كيف احتاز المسلمون هذا الأسطول المظفر فى هذا الوقت المبكر من تاريخهم ؟ ذلك أمر لسنا نعرفه بوضوح . والراجح أنه كان فى معظمه مصريا . ولا شك أن الإسلام ظل بضع سنين متحكما فى شرق البحر المتوسط ، وفى ٦٦٩ ثم فى ٦٧٤



(شكل ١٣١) خريطة الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠ م

قام معاوية (٦٦١ — ٦٨٠) أول خليفة أموى عظيم بهجومين بحريين على القسطنطنية . وكان لزاما أن يكون الهجومان بحريين لأن الإسلام طالما كان تحت الحكم العربى ، لم يتغلب قط على حاجز جبال طوروس[1] . وفى نفس المدة ظل المسلمون يدفعون كذلك بغزواتهم أبعد فأبعد فى صميم آسيا الوسطى . وعلى حين كان الإسلام آخذاً فى الاضمحلال فعلا فى منطقته المركزية ، كان لا يفتأ مع ذلك يضم إليه حشوداً عظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحا جديدة بين الشعوب التركية التى كانت حتى ذلك الزمان منقسمة على نفسها هائمة لا وجهة لها فى الحياة . ولم تعد المدينة بعد

(١) وفى عهد معاوية أيضاً استولى العرب على معظم جزر شرق البحر المتوسط مثل رودس وإقريطش وإرواد وقبرص بقيادة مقدم الجند جنادة بن أمية وعبد الله بن أبى السرح وغيره من أمراء البحر المظفرين . (المترجم)

مركزاً صالحا لمغامرات الإسلام الهائلة فى آسيا وإفريقية والبحر المتوسط ، وبذا أصبحت دمشق العاصمة الطبيعية للخلفاء الأمويين .

ومن أعظم هؤلاء – يوم تبددت إلى حين سحب المؤامرات على العرش – عبد الملك (٦٨٥ – ٧٠٥) والوليد الأول (٧٠٥ – ٧١٤) اللذان ارتفع شأو الأسرة الأموية فى عهديهما إلى ذروة المجد والعظمة . فانتقل الحد الغربى إلى جبال البرانس ، على حين كانت ممتلكات الخليفة فى الشرق تتاخم حدود الصين . وأنفذ الخليفة سليمان بن الوليد[١] (٧١٥) سلسلة ثانية من هجمات المسلمين على القسطنطينية ، كان أبوه[٢] قد وضع خططها وأعد العدة لها . وكان الهجوم بحراً شأن ما حدث أيام الخليفة معاوية قبل ذلك بنصف قرن من الزمان – وذلك لأن آسيا الصغرى كما أشرنا من تونا لم تكن غزيت بعد . وقد أخذت السفن بصفة رئيســية من مصر . وأبدى الإمبراطور ليو الإيسورى[٣] – وهو مغتصب للعرش – فى الدفاع مهارة وعناداً خارقين للمعتاد فخرج من داخل أسوار المدينة خروجا مباغتا رائعا تمكن به من إحراق معظم سفن المسلمين ، وقطع خط الرجعة على الجيوش التى كانوا أنزلوها على الناحية الأسيوية من البسفور ، وبعد حملة دامت سنتين فى أوربا (٧١٦ – ٧١٧) دُحر المسلمون . ثم جاء شتاء لا نظير له فى القساوة فأكمل هزيمتهم .

ومن هذه الآونة فصاعدا يبدأ مجد السلالة الأموية فى الأفول . لقد تبـــدد عند ذاك الدافع الأول الهائل للإسلام . فلم يحدث بعد ذلك أى توسع فضلا عن ظهور اضمحلال بيّن فى الحماسة الدينية . وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين ، ولكن هضمه لهؤلاء

---

(١) سليمان هو ابن عبد الملك وهو أخو الوليد وليس ابنه . (المترجم)

(٢) ظاهر أن المقصود بابيه هنا الوليد بن عبد الملك وهو أخوه كما نوهنا قبلا . (المترجم)

(٣) انظر كتاب « الحضارة البيزنطية » تاليف رانسيمان (ص ٣٩ – ٤٥) وقد عربه المترجم لإدارة الترجمة والألف كتاب [مكتبة النهضة المصرية] .

والإمبراطور لاوون (ليو الإيسورى) (٦٨٠ – ٧٤٠) جندى اغتصب العرش فى ٧١٧ ، ونجح فى الدفاع عن القسطنطينية على العرب . (المترجم)

الملايين كان هضما ناقصا وسيئا . فإن إمبراطورية خلفاء محمد الهائلة الجديدة بهذه ابتعلت المدن والشعوب والطوائف والأجناس بأكملها والوثنيين العــرب والهنود والمسيحيين والمانوية والزرادشتيين والوثنيين الطورانيين . وحتى ذلك الحين ، كان من الخصائص المشتركة بين جميع عظماء أصحاب الرسالات الدينية ، الداعين إلى توحيد العالم ، الوقوع فى خطأ شائع ، هو قبولهم المثل العليا الأخلاقية والدينية التى مال الناس إليها قبل زمانهم كما لو كانت مثلا عليا عمومية . فكانت دعوة محمد مثلا متجهة إلى الفروسية التقليدية ، وإلى ما وقر فى نفوس أذكياء العرب فى زمانه من إحساسات بالوحدة الربانية . وكانت هــذه الأمور كامنة فى طوية مكة والمدينة وضميرهما . فكان كل ما فعله أن أخرجها من مستقرها[١]

فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت فى قالبها الخاص ، اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها ، والتزمت أن تنمو فى تربة أخرجتها عن صورتها السوية وحولتها عن طريقها القويم . وكان مرجعها الوحيد هو القرآن . وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التى لم تتذوق نغمات اللغة العربية ، أعنى كما يبدو لكثير من العقول الأوربية اليوم حليطا من البلاغة الرائعة المعنى الممتازة الروح التى يمازجها — ولنقلها صراحة — قعقعة غامضة لا كيف لها[٢] . وقد عاب مغزاه الحق

(١) لو صح هذا الزعم لكان لزاماً أن تسير دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فى يسر وسهولة ، مع أن الواقع أنها لقيت فى مكة مهدها ، معارضة قوية وعداوة مرة أليمة وأذى شديداً من المكيين المسلمين ومعهم النبى صلى الله عليه وسلم ، ولبث المسلمون يتجرعون كؤوس العذاب ألواناً ولم يسلم من ذلك أحد منهم ، كما تعاقد المكيون على مقاطعة الهاشميين وحرمانهم اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً من كل ما هو مقرر لغيرهم ، لقاء نصرتهم محمد عليه الصلاة والسلام وعدم تسليمه لهم ليقتلوه ويستريحوا مما كاله لأصنامهم من السب ولتسفيهه أحلامهم ونيله من عقولهم ومداركهم ، بل إنهم عقدوا الخناصر بعد أن أعيتهم فيه الحيلة ، على قتله وتفريق دمه فى القبائل إعناتاً لبنى هاشم وإعجازاً لهم عن إشهار السيف الثار . وعندئذ هاجر النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب وتفتحت بذلك الآفاق للدعوة الحرة وجعل الدين ينتشر بالطرق الطبيعية التى كان أهمها وأنجعها الإقناع بالحجة الدامغة والمنطق السليم المعجز . (المترجم)

(٢) هذا رأى لا نستغربه على رجل انعدم إلمامه باللغة العربية أصلا ، ناهيك بتذوق أدبها وبلاغتها تلك المؤهلات التى احتازها الوليد بن المغيرة أحد أقيال مكة زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، والتى تؤهله =

عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غياباً تاماً . ذلك عندنا هو مردّ ما أظهرته العناصر الفارسية والهندية من المسلمين من استعداد للانضمام إلى صفوف الشيعة بسبب نقطة خلاف كانوا عن الأقل يستطيعون إدراكها والإحساس بها . وإلى نفس المحاولة للتوفيق بين ذلك الشيء الجديد وبين التراث القديم . يرجع ذلك الغلوّ الفقهى الذى سرعان ما نهض يتساءل : أكان القرآن – ولم يبرح منذ الأزل – قديماً قِدَمَ الله[1] ؟ وإنا لتأخذنا الدهشة حيال خروج هذه الفكرة عن كل معقول إذا نحن لم نتبين فيها على الفور محاولة حسنة القصد لمسيحى من رجال العلم أسلم ، وأراد أن يُسبغ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة عند الله وكان الكلمة الله[2] » .

ولم يحدث قبل ذلك أن واحداً من عظماء أصحاب الرسالات الدينية الداعين إلى وحدة العالم قد أظهر يوماً أدنى فهم للواجب التعليمى العظيم ، واجب الشرح الواضح المنوع فضلا عن التنظيم الفكرى الذى تنطوى عليه مقدماتها وقضاياها الأولية : بل تراهم جميعاً يكررون نفس القصة ، قصة الانتشار السريع الذى نشبهه بقليل من الماء صب فوق مسطح عظيم ، مصحوبة بكل ما يعقب ذلك من سطحية وفساد .

ولا ينقضى طويل زمن حتى نسمع الأقاصيص عن خليفة أموى هو الوليد الثانى (٧٤٣ – ٧٤٤) ، الذى هزأ بالقرآن وأكل الخنزير وشرب الخمر ولم يُقم الصلاة . وربما كانت هذه القصص صحيحة أو ربما كانت تشاع لأسباب سياسية . ومهما تكن الحال فقد نشأت فى مكة والمدينة حركة تطهرية رجعية تقاوم استخفاف دمشق وترفها . وثمة عائلة عربية أخرى عظيمة هى عائلة العباس (العباسين) ظلت تدبر الخطط زمناً طويلا للاستيلاء على صولجان الحكم ، فأنشأت تستغل التذمر العام والنزاع بين بنى أمية

= أن يتذوق ما فى القرآن من فصاحة وبلاغة ومعاق فذة . إذ يصف ما سمع من محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن « والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لثمر أعلاه ، ومغدق أسفله ، وأنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته » البداية والنهاية ج ٣ ص ٦١ . (المترجم) .

(١) سير مارك سايكس .

(٢) انجيل يوحنا ، الأصحاح الأول : آية ١ .

وبنى العباس أقدم من الإسلام . وكان متصل الحلقات قبل ميلاد محمد . وحمل هؤلاء العباسيون لواء « شهداء » الشيعة : علىّ وابنيه الحسن والحسين ، وأقاموا الدليل على أنهم والشيعة سواء[1] . وكان علم بنى أمية أبيض ؛ فاتخذ العباسيون علما أسود حداداً على الحسن والحسين ، وأسود لأن السواد أشد تأثيراً فى النفوس من أى لون آخر . وفضلا عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد علىّ مغتصب . وفى ٧٤٩ قاموا بثورة محكمة التدبير ، وطاردوا آخر خليفة أموى وقتلوه بمصر . وكان أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين ، فبدأ حكمه بأن جمع فى سجن واحد كل ذكر حى من سلالة أمية استطاع أن يضع يده عليه ، وأمر بهم جميعا فذبحوا . وقـد جمعت أجسامهم فيما يقال ، ومد من فوقها بساط من أدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيعة الكئيبة ، جلس أبو العباس ومستشاروه يطعمون[2] . زد على ذلك أن قبور خلفاء بنى أمية نبشت وأحرقت عظامهم وذريت بين مهب الرياح الأربعة . وهكذا انتقموا آخر الأمر لما حل بعلى من مظالم ، وزالت أسرة أمية من التاريخ .

ومن الأمور الشائقة الجديرة بالملاحظة ، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بخراسان وكان إمبراطور الصين يشد أزرها .

٧ ــ انحلال قوة الإسلام فى ظل العباسيين

على أن ذرية على لم يقدَّر لها أن تسهم فى هذا النصر طويلاً . فإن العباسيين كانوا مغامرين وحكاما من طراز أقدم من الإسلام . فلما قضوا من قصة علىّ وطرهم المنشود ، كان ثانى إجراء قام به الخليفة الجديد أن يتصيد الأحياء من عترة على وفاطمة ويذبحهم .

---

(١) ليست الشيعة عليا وابنيه الحسن والحسين ، وإنما هى حركة ينتصر أهلها لعلى وابنيه وأبنائهم على أنهم أصحاب الحق الأول فى الخلافة أى أنهم كانوا يناصرون مبدأ الوراثة وهذا هو المبدأ الذى أكد العباسيون أنه يرجح حقهم فى الخلافة على حق الأمويين لأنهم أبناء عم النبى . وهنا بالذات يضع المؤلف يده دون أن يدرك على أساس الصدع الذى ظهر فى الإسلام بسبب شيخوخة الخليفة عثمان ، وهو الشقاق القديم فى الجاهلية بين الهاشميين والأمويين . (المترجم)

(٢) ليس هذا عمل أبى العباس وإنما هو عمل عمه عبد الله وقائد جيشه وواليه على الشام . (المترجم)

وواضح أن التقاليد القديمة فى فارس الساسانية وفى فارس قبل الإغريق كانت فى طريق عودتها إلى العالم . وبارتقاء العباسيين عرش الخلافة أفلتت السيادة البحرية من قبضة الخليفة وذهبت معها شمال إفريقية وأسبانيا التى نشأت فيها دول إسلامية مستقلة ، وكانت أسبانيا من نصيب رجل من بنى أمية أفلت من الموت .

وانتقل محور الأهمية فى الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى أرض الجزيرة . وشيد المنصور الذى تولى الخلافة بعد أبى العبلس عاصمة جديدة لنفسه فى بغداد بالقرب من خرائب المدائن (طيشفون) (Ctesiphon) العاصمة الساسانية القديمة . وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسـواء ، وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية . ولم يعدْ للمدينة ومكة آنئذ من أهمية قط إلا كمركزين للحج يولى المؤمنون وجوههم شطرهما فى الصلاة[١] . على أن العربية استمرت فى انتشارها وحلت محل اللغة الرومية وأصبحت لغة المتعلمين فى كل أرجاء العالم الإسلامى لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة القرآن .

ولن ندلى إليك إلا النزر اليسير عن ملوك العباسيين بعد أبى العباس . وكانت تنشب سنة بعد سنة فى آسيا الصغرى حرب مناوشات سريعة رجراجة ، لم تفز فيها بيزنطة ولا بغداد بأى كسب دائم ، وإن وصل المسلمون فى غزوهم مرة أو مرتين إلى البسفور . وظهر نبى كذاب هو المقنع ، ادعى الألوهية واستمر مدة قصيرة الأمد ، ولكنه أتعب الدولة وشغلها . ودبرت مؤامرات وشبت ثورات ترقد اليوم فى أسفار التاريخ هزيلة باهتة كما ترقد الزهرات الميتة بين دفتى سفر قديم . وثمة خليفة عباسى آخر لا مندوحة لنا من ذكر اسمه ، وذلك لما يدور حوله من الأساطير وما له من أهمية حقيقية سواء بسواء ، ذلك هو هرون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩) . لم يكن فحسب خليفة لإمبراطورية ظاهرها الرخاء فى عالم الحقيقة ، بل كان كذلك خليفة إمبراطورية

---

(١) حج المسلمين هو البيت الحرام ، وللحج مناسك مثل عرفة والصفا والمروة وغيرها وكلها بجوار مكة ، كما أن قبلة المسلمين للصلاة هى المسجد الحرام بمكة ؛ والمدينة حرمتها الخاصة فى نظر المسلمين ؛ فهى فى نظرهم فقط مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومثواه الأخير بعد الوفاة ، ومن ثم كانت زيارتهم لها قبل الحج أو بعده واجبة للتزود عن قرب بزيارة قبر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام . (المترجم)

خالدة لا تغرب لها شمس فى عالم القصة السرمدى ، فهو هرون الرشيد فى « ألف ليلة وليلة » ؛

ويدبج السير مارك سايكس فى وصف إمبراطوريته الواقعية بيانا نقتبس منه فقرات معينة[١] ، كتب يقول : « كان البلاط الإمبراطورى مهذبا مترفا غنيا غنى لا حد له ؛ وكانت العاصمة بغداد ، مدينة تجارية هائلة تحيط بقلعة ضخمة هى مقر الحكم والادارة ، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام منظم على قواعد صحيحة ومرتب ترتيبا تاما ؛ وفيها كثرت المدارس والكليات ؛ وإليها تقاطر الفلاسفة والطلاب والعلماء والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم الممدن : . وكانت العواصم الاقليمية مزدانة بالمبانى العمومية الضخمة ؛ وتتصل فيما بينها بخدمة سريعة فعالة من بريد وقوافل ؛ وكانت التخوم منيعة وفيها الحاميات الكافية ، وكان الجيش مخلصا للخليفة وفيا ذا اقتدار وشجاعة ؛ وكان الحكام والوزراء شرفاء رحماء . وكانت الامبراطورية تمتد بقوة متعادلة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية[٢] إلى عدن ، ومن مصر إلى آسيا الوسطى . وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون فى خدمة الحكومة . وكأنما اختفى المغتصبون للعروش والقواد المتمردون والأنبياء الكذبة من الديار الاسلامية اختفاء تاما . وحلت حركة التبادل والثراء محل الثورة والمجاعة . . . وكانت الأوبئة والأمراض تواجه بالمستشفيات الامبراطورية وأطباء الحكومة . . فأما فى أعمال الحكومة ، فإن طرائق الادارة العربية الفجيجة الارتجالية أخلت مكانها لنظام معقد من الدواوين نقل عن الروم منه جزء ، ولكنه أخذ فى الغالب من النظام الحكومى الفارسى . فكان البريد والمال وديوان الخاتم وأراضى التاج ومرافق العدالة والشئون العسكرية تدار كل منها من دواوين منفصلة على أيدى وزراء وموظفين ، وكان جيش من الكتبة والناسخين والمنشئين والمحاسبين المحتشدين فى هذه الادارات يجمعون كل قوة للحكومة فى أيديهم هم رويداً رويداً ، وذلك بإبعادهم أمير المؤمنين عن أى اتصال مباشر برعاياه . كان القصر الامبراطورى ومن به من حاشية ، مؤسسين بالمثل

---

(١) كتاب آخر تراث الخلفاء **The Caliph's Last Heritage**

(٢) بوابة من قيليقية (جوليك بوغاز) ممر ضيق يخترق سلسلة جبال طوروس بآسيا الصغرى ، والطريق الرئيسى منه يمتد من الغرب ، فى منحدر طويل وعر يبدأ من الهضبة الوسطى ، إلى وادى أطنه (أدنه) وطرسوس . واتساع الطريق عند البوابة نفسها ٢٥ قدماً . (المترجم)

على سوابق وتقاليد رومية وفارسية . وكان الخصيان ودور الحريم المنعزلة والمفروض عليها الحجاب الشديد والحراس والجواسيس والوسطاء والمضحكون والشعراء والأقزام يتزاحمون حول شخص أمير المؤمنين ، كل فى مكانته يحاول أن يحظى بالعطف الملكى ويشغل العقل الملكى بطريقة غير مباشرة عن شئون العمل والدولة . وفى نفس الوقت كانت تجارة الشرق تصب الذهب فى بغداد صبا ، وتضيف إلى سيل النقود الهائل المأخوذ من فيئ الأسلاب والغنائم المرسل إلى العاصمة من لدن قواد القوات المغيرة المظفرة ، التى كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان . وثمة معين آخر للثراء كان يبدو كالفيض الذى لا نهاية له ، وهو المماليك والأتراك والنقود المعدنية البيزنطية ، وكان يزيد دخل العراق ثراء ، كما كان - بالإضافة إلى حركة التبادل التجارى الضخمة التى كانت بغداد مركزاً لها ، يخلق طبقة كبيرة قوية من ذوى اليسار : تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن إليهم ، ممن شجعوا الفنون والأدب والفلسفة والشعر بالقدر الذى تحملهم عليه أمزجتهم ، بانين القصور لأنفسهم ، متنافسين فيما بينهم فى بذخ ترفهم ، محرضين الشعراء على مديحهم والإشادة بذكرهم متلهين بالفلسفة ، معضدين مدارس للفكر متنوعة ، باذلين الصدقات وسالكين فى الحقيقة نفس الطريق الذى يسلكه الأثرياء فى كل العصور .

« ولقد قلت إن الإمبراطورية العباسية فى أيام هرون الرشيد كانت ضعيفة واهنة إلى درجة ما ولعل القارئ يعد هذا فكرة حمقاء عندما يضع فى اعتباره أنى وصفت الإمبراطورية بالنظام ، والإدارة بالدقة والاستقرار ، والجيش بالاقتدار ، والثروة بالوفرة . ويرجع ذهابى لهذا الرأى إلى أن الإمبراطورية العباسية قطعت صلتها بكل شىء أصيل وحيوى فى الاسلام ، وأنها أقيمت بكليتها على تجميع أشلاء الامبراطوريات التى حطمها الاسلام من قبل . ولم يكن فى الامبراطورية شىء يستثير فى قادة الشعب أسمى الغرائز ؛ إذ أن الجهاد أو الحرب المقدسة قد انحط وتحول إلى استيلاء منظم على الغنائم . وبات الخليفة إمبراطوراً أو ملكا للملوك مترفا فاخراً . على حين انتقلت الادارة من النظام « الأبوى » إلى نظام مركزى بيروقراطى . وأخذت الطبقات الكبيرة الغنى تفقد كل إيمان بديانة الدولة . بينما أخذ التأمل والنظر الفلسفى والمعيشة الراقية يحلان محل العقيدة القرآنية السلفية والبساطة العربية . وقد أهمل كل من الخليفة

ومستشاريه إهمالا تاما صرامة الاسلام وبساطته ، وهما الرابطة الوحيدة التى كان فى وسعها أن تربط بين أجزاء الامبراطورية . وكان هرون الرشيد نفسه من معاقرى النبيذ[١] وكان قصره مزينا بصور وتماثيل للطير[٢] والحيوان والانسان .

وإنا لنتوقف هنيهة ذاهلين أمام عظمة الممتلكات العباسية ؛ ثم لا نلبث أن ندرك فجاءة أنها لا تزيد عن غلالة براقة تستر رفات المدنيات الغابرة ورمادها » .

مات هرون الرشيد سنه ٨٠٩ . وما أن مات حتى هوت إمبراطوريته العظيمة فى حمأة الحرب الأهلية والاضطرابات . والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة فى هذا الجزء من العالم ، تأتى بعد ذلك بمئتى سنة عندما انثال الترك من التركستان جنوبا بقيادة رؤساء آل سلجوق العظام ، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد ، بل آسيا الصغرى كذلك . ونظراً لانحدارهم من الشمال الشرق ، فإنهم استطاعوا أن يتجنبوا الحاجز العظيم وهو جبال طوروس ، التى ظلت حتى ذاك الحين تصد المسلمين . وكانوا ما يزالون الكثير من شأنهم نفس أولئك الذين أعطانا عنهم يوآن تشوانج لمحة سريعة قبل ذلك بأربعمئة سنة ، ولكنهم كانوا الآن قد أسلموا ، وكانوا مسلمين من الطراز البدائى ، أى رجالا ممن كان أبو بكر يرحب باعتناقهم الاسلام . فأحدثوا فى قوة الاسلام انتعاشا عظيما ، وأداروا أذهان العالم الاسلامى من جديد صوب الجهاد (الحرب الدينية) ضد المسيحية . ذلك أنه حدث ضرب من الهدنة بين هاتين الديانتين العظيمتين بعد انقطاع التقدم الاسلامى واضمحلال شأن الأمويين . أما تلك الحروب التى دامت بين المسيحية والاسلام فكانت بالأحرى مناوشات فى منطقة التخوم أكثر منها حروبا متصلة الحلقات . ولم تصبح كفاحا مريراً تعصبيا من جديد إلا فى القرن الحادى عشر .

---

(١) ذكروا أن هرون الرشيد كان يحضر مجالس الشراب وأنه كان يشرب ولكنهم اختلفوا فى نوع شرابه من حيث الاختمار والتأثير على العقل فجعلوه النبيذ غير المحرم عند أبى حنيفة والظاهر أن هرون الرشيد كان ممعوداً وكان الشراب ضرورياً له لتيسير الهضم وبهذا لا يكون معاقراً النبيذ المحرم . (المترجم)

(٢) انظر « حضارة الإسلام » لجرونيباوم وترجمة المترجم ، (الألف كتاب ومكتبة مصر بالفجالة ص ٤٤ — ٤٥) فى اقتباس عن البغدادى فى وصف الشجرة الذهبية وطيورها المعدنية المغردة وأروقة قصر الخلافة وفخامته . (المترجم) .

٨ — الثقافة العربية

على أنا قبل أن ننتقل فنحدثك عن الأتراك والصليبيين ، وعن الحروب العظيمة التى ابتدأت بين المسيحية والاسلام ، والتى خلفت من ورائها حالة جنونية شديدة من عدم التسامح بين هذين النظامين العظيمين دامت حتى العصر الحاضر ، نرى من الضرورى أن نوجه مزيداً من عنايتنا للحياة الفكرية فى العالم الناطق بالعربية الذى كان آخذاً عند ذاك فى الانتشار انتشاراً يزداد سعة أكثر فأكثر فوق الأقاليم التى تسلطت عليها الثقافة الهلّينية يوما ما . فقــد كان الذهن العربى ، قبل محمد ﷺ ببضعة أجيال متقداً بنار تسرى تحت الرماد ، فكان ينتج الشعر والشىء الكثير من الجدل الدينى . وما لبث ذلك العقل — بتأثير ما أحرز من النجاح القومى والعنصرى — حتى تأجج فى تألق لا يفوقه إلا ما كان للاغريق فى أزهى عصورهم . فأحيا من جديد بحث الانسان وراء العلم . فلئن كان الاغريقى أبا للطريقة العلمية ، فلقد كان العربى أبا روحيا لها وشريكا له فى أبوتها . فمن العرب ، وليس عن طريق اللاتين ، تلقّى العالم العصرى تلك المنحة من النور والقوة .

على أنا عندما نكتب كلمة العرب هاهنا ، يجب أن نكتبها فى قدر معين من التحفظ . فإن ثقافة الإسلام العربية تتصل بالعربى القح بصلة تشابه إلى حد ما صلة الثقافة الهلّينستية[1] بعد أيام الإسكندر بالإغريقى الأوربى الأصلى . إذ لم تعد تلك الثقافة نقية من الناحية العنصرية . بل ضمت بين دفتيها مجموعة من الثقافات السابقة عليها ، هى ثقافة فارس فى عهد الأسرة الأرشكية[2] والثقافة القبطية لمصر المهلنة . إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمتا الحديث بالعربية فى سرعة عظيمة على أنهما ظلتا فى جوهرهما فارس ومصر .

(١) يفرق المؤرخون بين الثقافة الهلينية وهى الإغريقية بصفة عامة شاملة والثقافة الهلينستية أى اليونانية بعد عصر الإسكندر انظر للمترجم كتاب « الحضارة الهلينستية » (تارن) مكتبة الأنجلو والألف كتاب . (المترجم)

(٢) الأرشكيون Arsacide : هم أسرة حكمت إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر أو هى الأسرة الغالبة على أمر دول الطوائف جميعها ومنها أردوان الأصغر الذى نازعه السيادة أردشير بن بابك وقتله وتلقب بشاهنشاه ، وأردشير هذا هو مؤسس الدولة الساسانية فى فارس . (المترجم)

وكانت فتوح العرب الأولى قد أتاحت للثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية الاغريقية . حقا إن ذلك لم يحدث فى الاغريقية الأصلية ولكن عن طريق التراجمات السريانية المنقولة عن الكتاب الاغريق . ويلوح أن المسيحين النساطرة ، وهم المسيحيون المقيمون إلى الشرق من الأرثوذكسية ، كانوا أكثر ذكاء وأنشط ذهنا من علماء اللاهوت فى بيزنطة ، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أعلى كثيراً من مسيحي الغرب الناطقين باللاتينية . وحظوا بالتسامح فى الأيام الأخيرة للدولة الساسانية ، كذلك تسامح معهم الاسلام حتى يوم ارتفاع شأن الترك فى القرن الحادى عشر . كانوا العمود الفقرى لثقافة العالم الفارسى . وكانوا احتفظوا بكثير من علم الطب الهلينستى ، بل لعلهم أضافوا إليه أشياء . ففى عصر بنى أمية كانت غالبية الأطباء فى دولة الخلافة من النساطره ، ولا مراء أن الكثيرين من علماء النساطرة اعتنقوا الاسلام دون أن يلم بهم أى ندم خطير أو أى تغير عظيم فى مرتزقهم أو أفكارهم . ومن فضلهم على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو فى كل من الاغريقية والتراجمات السريانية . وكانت لديهم مؤلفات كثيرة فى الرياضيات . ولا شك أن عتادهم من العلم يجعل ما لدى كل من القديس بندكت أو كاسيودوراس من موارد معاصرة ، يبدو فى حالة إعواز تستحق الرثاء . وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وفد من الصحراء العقل العربى الغفل متوقدا مستطلعا ، فاستوعب كثيرا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرا وتحسينه نوعا . تعلم كثيرا واستوعب كثيرا . ومن قبل ذلك كانت فارس قرونا عدة ميدانا لنشاط لاهوتى وفكرى عميق دقيق . فعندئذ تدثر هذا النشاط بدثار الأساليب العربية وأصبح سبيلا للزندقة والانقسام فى الديانة الاسلامية . وكان الانقسام الشيعى فارسيا فى جوهره .

على أن الفرس ومعهم العلم الهلينى لم يكونوا المعلمين الوحيدين الذين أتيحوا للعرب . فقد كان ذوو قرباهم اليهود منتشرين فى كل مدن الشرق الغنية ومعهم أدبهم وتقاليدهم الخاصة المميزة لهم . وأثر العقل العربى والعقل اليهودى كل منهما فى صاحبه تأثيرا عاد بالمنفعة المشتركة عليهما جميعا : فاستفاد العربى من ذلك علما وأفاد اليهودى من ذلك مزيدا من الشحذ الفكرى . ولم يحدث قط أن كان اليهود متحذلقين فى أمر لغتهم . فلقد ذكرنا من قبل أنهم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة ، يتكلمون الاغريقية فى الاسكندرية المهلنة

وهاهم الآن فى كافة أنحاء هذا العالم الإسلامى الجديد يتكلمون العربية ويكتبونها . فكتبت فى العربية طائفة من أعظم الآداب : (المؤلفات) اليهودية ، منها على سبيل المثال ، كتابات ابن ميمون (Maimonides) الدينية[1] . والواقع أن من العسير أن نقول ، فى حالة هذه الثقافة العربية ، متى ينتهى المؤثر اليهودى ويبدأ العربى ، فإن عواملها اليهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حداً كبيراً .

وفضلا عن ذلك ، فثم مصدر ثالث للإلهام ، هو بلاد الهند — وقد تجلى على الأخص فى علم الرياضيات ، ويعسر علينا فى الوقت الحاضر أن نقدره حق قدره . وليس هناك إلا القليل من الشك فى أن الذهن العربى إبان فترة روعته كان على اتصال وثيق فعال بالأدب السنسكريتى وبعلم الفوزيقى « الهندى الفارسى » Indo-persian .

وقد تجلت نواحى النشاط الذهنية التى يمتاز بها العقل العربى منذ أيام بنى أمية وإن لم تظهر بأحسن مظاهرها إلا فى عهد العباسيين . والتاريخ هو بداية ولباب كل فلسفة سليمة وكل أدب عظيم ، وكان أول من برّز من الكتاب العرب الممتازين هم المؤرخون وكتاب التراجم والشعراء شبه المؤرخين . وتبع ذلك ظهور رواية المغامرة العاطفية (الرومانس) والقصة القصيرة عندما نشأ جمهور من القراء يريد أن يتسلى . حتى إذا كفت القراءة عن أن تكون امتيازاً خاصاً ، وأصبحت ضرورية لكل رجال الأعمال ولكل شاب مهذب ، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمى وأدب تعليمى . وعند حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين مؤلفات فى قواعد اللغة (أجروميات) فحسب بل معاجم عظيمة وكتلة ضخمة من الدراسات فى فقه اللغة .

وقد سبق العالم الإسلامى الغرب بقرن أو ما يقاربه ، إذ نمت به مجموعة من الجامعات العظيمة فى عدد من المراكز فى البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وفى قرطبة ، تطورت عما كان فى مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد على المساجد . فأضاء نور هاته الجامعات خارج العالم الإسلامى إلى مسافات بعيدة ، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب . وكانت قرطبة بصفة خاصة تحتوى أعداداً كبيرة من الطلاب المسيحيين ، وكان تأثير الفلسفة العربية الوافدة عن طريق أسبانيا على جامعات باريس وأكسفورد

---

(١) هو أبو عمران موسى بن ميمون (١١٣٥ — ١٢٠٤) فيلسوف وطبيب يهودى ومصنف قوانين . ولد بقرطبة ، وانتج فلسفة دينية لها وزنها وعمل طبيبا لصلاح الدين وأولاده بمصر ، وله مؤلفات منها « مشنة التوارة » و « دليل الحائرين » (المترجم)

وشمال إيطاليا وعلى الفكر الأوربى الغربى عامة ، — جسيا جداً ولا جرم . ويبرز اسم ابن رشد القرطبى (١١٢٦ — ١١٩٨) ممثلا لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة العربية من سـلطان على الفكر الأوربى . وهو الذى طور تعاليم أرسطو على أسس فصلت الصدق الدينى عن الصدق العلمى فصلا تاماً ، وبذا مهد الطريق لتحرير البحث العلمى من المذهب الاعتقادى (Dogmatism) اللاهوتى الذى كان يقيده فى ظلال كل من المسيحية والإسلام . وهناك اسم عظيم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧) الذى ولد فى الطرف الآخر من العالم العربى ببخارى ، وتنقـل فى خراسان[١] . . . وازدهرت صناعة نسخ الكتب فى الإسكندرية ودمشق والقاهرة وبغداد ، وقرابة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة مجانية فى قرطبة لتعليم الفقراء .

ويقول ثاتشر وشويل[٢] : « شاد العرب ما شادوه فى الرياضيات على الأسس التى أقامها الرياضيون الإغريق . وأصل ما يسمى بالأعداد العربية يغشاه الإبهام . وقد حدث فى عهد ثيودوريك الأعظم أن استعمل بويثيوس (Boëthius) علامات معينة ، كانت من ناحية جزئية شبيهة جداً بالأرقام التسعة التى نستعملها الآن » . وكذلك استخدم أحد تلاميذ جربرت علامات كانت أشد شبها بأرقامنا ؛ على أنه يقال إن الصفر ظل مجهولا حتى القرن الثانى عشر ، عندما اخترعه رياضى عربى اسمه محمد بن موسى[٣] ، الذى كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية ، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية فى خاناتها . على أن هذا ينازع فيه الكثيرون من الهنود الذين يدعون لأنفسهم الصفر والطريقة العشرية بوصف كونهما مساهمة فعالة وفضلا للهند على الثقافة .

« ولم يضف العرب إلى ما ابتكره إقليدس فى الهندسة إلا الشىء القليل ، ولكن الجبر يكاد يكون من خلقهم ؛ وكذلك أدخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائرى مخترعين جيب الزاوية (Sine) وظل الزاوية (tangent) وظل تمام الزاوية (contangent) ، واخترعوا فى « علم الفوزيقى » البندول وكتبوا فى علم البصريات (optics) بعض الكتب .

---

(١) خراسان : هى منطقة شمال شرق إيران المتاخمة لبلاد التركستان . (المترجم)

(٢) فى كتابهما : «A General History of Europe»

(٣) هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٨٥٠) رياضى وفلكى وجغرافى ، عربى عاصر المأمون (المترجم)

وتقدموا بعلم الفلك . فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيرا من الآلات الفلكية لا تزال تستعمل حتى اليوم . وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecliptic) والموضع الدقيق لنقطتى الاعتدالين . وكانت معرفتهم بالفلك جسيمة ولا مراء .

« وتقدموا فى الطب أشواطاً بعيدة على الإغريق . ودرسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة ، ويكاد علم الأقراباذين[1] (المادة الطبية materia medica) لديهم أن يكون هو نفس ما لدينا اليوم . ولا يبرح كثير من طرق العلاج عندهم مستعملا بين ظهرانينا إلى اليوم . وكان جراحوهم يفهمون استعمال التخدير ، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة . وفى نفس الوقت الذى كانت فيه الكنيسة تحرم ممارسة الطب انتظارا منها لإتمام الشفاء على يد المناسك الدينية التى يقوم بها القساوسة ، كان لدى العرب علم طبى حق .

« وابتدأوا فى الكيمياء بداية حسنة . واكتشفوا كثيراً من المواد الجديدة ، من أمثال البوتاس ونترات الفضـــة والسليمانى وحمض النتريك والكبريتيك . وكلمة « الكحول » عربية ؛ وإن كانت المادة معروفة باسم « أرواح الخمر » عند پلينى (١٠٠م) . فأما فى الصناعة فإنهم بزوا العالم فى تنوع الصنف وجمال التصميم وإتقان الصنعة . كانوا يشتغلون فى جميـــع أنواع المعادن : الذهب منها والفضة والنحاس والبرنز والحديد والصلب . ولم يفقهم أحد أبد الدهر فى صناعة المنسوجات . وصنعوا زجاجاً وخزفاً من أرق الأنواع وأشدها امتيازاً . وعرفوا أسرار الصباغة ، وصنعوا الورق . وكانت لديهم طرائق عديدة لتهيئة الجلود ، وكانت مصنوعاتهم الجلدية شهيرة فى كافة أرجاء أوربا . وأنتجوا الأصباغ والعطور والأشربة . وصـــنعوا السكر من القصب ، وأوجدوا أصنافاً كثيرة ممتازة من الخمور . ومارسوا الزراعة بطريقة علمية ، وكانت لديهم طرائق جيدة للرى . وعرفوا قيمة المخصبات ، وكيفوا محصولاتهم حسب نوع التربة . وتفوقوا فى فلاحة البساتين وعرفوا كيف يطعمون النباتات وكيف ينتجون أضرباً جديدة من الفواكه والأزهار . وأدخلوا إلى الغرب أشجاراً كثيرة ونباتات متعددة اجتلبوها من الشرق ، وكتبوا رسائل علمية فى الزراعة » .

---

(١) الأقرباذين : فرع الطب الذى يبحث فى مصادر الأدوية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها . (المترجم)

وثمة عنصر فى هـــذا البيان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته فى حياة البشرية الفكرية ، وهو صناعة الورق . ويلوح أن العرب تعلموا تلك الصناعة من الصينيين بطريق آسيا الوسطى ؛ وأخذها الأوربيون عن العرب . وكان لزاما حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرّق(١) أو البردى ، حتى إذا فتح العرب مصر ، انقطع عن أوربا مورد البردى . وما كان فن الطباعة بكبير الغناء ، ولا كانت الصحف والتعليم الشعبى العام بوساطة الكتب من الأمور الممكنة ، حتى أصبح الورق وفيراً . وربما كان هذا عاملا أعظم أثراً فى تأخر أوربا النسبى أثناء العصور المظلمة ، مما يبدو أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به . . .

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية فى العالم الإسلامى على الرغم مما شمله من فوضى سياسية ذريعة . ولم يحاول العرب من البداية إلى النهاية أن يعالجوا المشكلة التى لا تزال تنتظر الحل ، ألا وهى مسألة الدولة المستقرة التقدمية ؛ فقد كان نظام الحكم عندهم فى كل مكان مطلقاً وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والقتل ، وهى أمور كانت على الدوام ولا تزال من خصائص الملكيات الشديدة التطرف . ولكن روح الاسلام ظلت بضع قرون تحتفظ للناس عامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس من وراء آثام القصور والمعسكرات ومنافساتها ، وكانت الإمبراطورية البيزنطيـــة أعجز من أن تحطم هذه المدنية ، كما أن الخطر التركى فى الشمال الشرقى لم يفتأ يشتد قوة ولكن فى بطء كبير . واستمرت حياة الإسلام الذهنية نابضة بالحياة حتى أطبق الترك عليها . ولعلها كانت تمنى نفسها فى طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم مما كان يتبدى فى توجيهها السياسى من آيات العنف والمخالفة لكل معقول . وقد كان هذا . حتى ذلك الحين ، هو الخاصة المميزة للعلم والأدب فى كافة الأقطار . إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر المثقف نافراً من الاصطدام برجل العنف والقوة . وكان على الجملة رجلا ممن حذقوا خدمة البلاط والمداورة مع مقتضيات الزمان . ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه وإلى ذلك الحين ، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المتعصب الدينى (الفنطيق) وثقته بنفسه . ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك فى أنهم قد تجمعت لديهم

---

(١) الرق بفتح الراء جلد رقيق يكتب فيه — معجم الوسيط . (المترجم)

عقائد ثابتة ، واستجمعوا الثقة فى أنفسهم أثناء القرون القليلة الأخيرة ، فاهتدوا فى بطء إلى سبيلهم إلى القوة والسلطان بفضل تطور التعلم الشعبى العام والأدب الرائج بين الناس عامة ، وها هم اليوم أشد ميلا إلى التحدث عن الأشياء بصراحة ووضوح ، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق التسلط على تنظيم الشئون البشرية أكثر مما سبق لهم من قبل فى أى عصر من عصور تاريخ العالم .

الفن العربى

ترتبط الفتوح الإسلامية بطرز جديدة فى العمارة ، وهى تسمى بأسماء متنوعة هى: المشرقية أو الإسلامية والمحمدية والعربية . على أن العربى الحق فيما يقول « جايت Gayet » لم يك قط فنانا . وإنما شيد العربى المساجد والقصور والقبور والمدن ، لأنه اضطر أن يبتنيها بحكم الحاجة . على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعماريه بين المصريين والسوريين والفرس الذين أخضعهم . فلم يكن الفن العربى فى فارس إلامجرد استمرار للفن الفارسى ، ولكن حدث فى مصر وسوريا تكييف حقيقى يساير الظروف الجديدة ، وظهور طراز جديد وخصيصة جديدة فى المبانى والزخرفة . كان هذا هو الفن « العر » بأدق معانيه . وإلى الغرب فى شمال إفريقيا وأسبانيا نشأ تنويع خاص جديد يتميز بعقد حدوة الفرس . وكانت سوريا ومصر قبل مجىء العرب بزمن طويل ، قد انحرفتا عن الأشكال البيزنطية باستبدال العقد المستدير بالعقد المدبب ؛ وكانتا تقدمتا على الفن البيزنطى كثيراً بإهمال الأشكال المصنوعة نماذج مجسمة ذلك بأنهم كانوا يغفلون الروح الواقعية الهلينية ويستبدلون بها التزيين الزخرفى بالرسوم والنقوش . وكان المزاج العربى المفطور على التأمل والنشوة ميالا بكليته إلى تقوية هذه العملية . « ولا يرجع ذلك — كما يقول جايت — إلى الرغبة فى إطاعة ناموس دينى — لأن هناك كثيراً من التصاوير العربية المبكرة التى تمثل الأشكال الحية — بل إلى غريزة فطرية ركبت فيهم » . والعربى يبدى فى شئون الحياة العادية ، ويصرف النظر عن أية ثقافة ، كراهية شديدة لتعرية جسده أو النظر إلى جسد عار . وحدث تدريجياً فى ثنايا تطور الفن العربى أن انتقلت الزخرفة من صور الحيوان والنبات المتواضع عليها إلى المتشابكات الهندسية المسماة « بالنسق الزخرفى

العربى Arabesque » وتصبح السقوف والأقبية مغشاة بطبقة مشكلة لا يبرح تشكيلها يزداد عمقا ؛ فيتكاثر التلبيس بالأستار المثقّبة ، بل إن الشكل الخارجى نفسه يصير مجسما متعدد السطوح ، وتغدو الأقبية مغطاة بجمانات (studs) مستديرة ومتعددة الأضلاع (polygonal) تتدلى آخر الأمر تدلى المعلقات الكلسية[١] . ويتمخض هذا الخفض والرفع والبروز والتوهد عن جمـــال جديد سحرى شبيه بجمال البلورات والتموجات المائية والإيقاعات الساحرة الغامضة لغير الأحياء من الأشياء ، ولكنه جمال يضاد على خط مستقيم تلك الحريات المطلقة والسوقيات الفخمة والحيوية المتدفقة للفن الهلينى .

وتقترن هذه التطورات البنائية بخصائصها العربية فى أذهاننا بالمئذنة والقبة البصيلية واستعمال جميل للقراميد المزججة التى غالبا ما تكون جزلة الحليات . وثمة توسع هائل فى استعمال الزخرفة المكونة من آيات وفقرات قرآنية بالخط العربى الانسيابى الجميل .

---

(١) المعلقات الكلسية : (Stalactites) : تكوينات كلسية مدببة تنشأ فى الكهوف الطبيعية من رشح المياه الجيرية وتبدو مندلية كالثريات والشموع من سقوف الكهوف . (المترجم)

الفصل الحادى والثلاثون

عالم المسيحية والحروب الصليبية

العالم الغربى فى أشد دركات تدهوره

علينا الآن أن نحول التفاتنا مرة ثانية من هذه النهضة الفكرية التى قامت فى مهد المدنيات القديمة إلى شئون العالم الغربى .

ولقد وصفنا لك الانهيار التام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الذى ألمّ بالنظام الإمبراطورى الرومانى فى الغرب ، وبينا الارتباك والظلمة اللذين أعقبا ذلك إبان القرنين الخامس والسادس ، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس فى سبيل حفظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة . وتمر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام إذ لا دول هناك ولا حكام . وكل ما فى الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة أو ناحية من الريف ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكماً غير مستقر . فكانت الجزر البريطانية مثلا . مقسمة بين حشد كبير من الحكام ؛ وكان هناك زعماء كلتيون عديدون

فى إيرلندة واسكتلندة وويلز وكورنوال ، يتقاتلون ويتغلبون أحدهم على الآخر أو يخضعون بعضهم لبعض . وكان الغزاة الإنجليز مقسمين أيضاً إلى عدد من الممالك غير المستقرة ، وهى كنت ووسكس وساسكس وإسكس ومرسيا ونورثمبريا وأنجليا الشرقية ، وهى دول لا تنقطع الحرب بينها أبداً .

وكذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربى فأنت واجد هنا أسقفاً يتولى الملك ، كما كان جريجورى الكبير فى روما . وواجد ها هنا مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك . وكنت تجد بين الخرائب الهائلة بمدينة روما ، أسرات نصف مستقلة من مغامرين شبه نبلاء ، كل يذود عن حياضه ومعه أتباعه . وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك ، ولكن كان ينافسه فى تلك السيادة ويرجحه تماماً فى بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه « دوق روما » . وقد حُول المجتلد[1] العظيم فى الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد ، وكذلك حُوّل قبر الإمبراطور هادريان الهائل المستدير ؛ وكان المغامرون الذين استولوا على تلك المعاقل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض ، ويتقاتلون ويتناوشون فى الشوارع الخربة للمدينة التى كانت يوماً ما حاضرة الإمبراطورية . وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجورى الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أى حصن الملاك المقدس ، لأنه عندما كان البابا جريجورى يعبر الجسر من فوق التيبر فى طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلى لله طالباً رفع الوباء العظيم الذى كان يعيث فى المدينة دماراً ، أطافت به رؤيا ملَك عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفاً ، وعند ذلك عرف أن دعواته ستستجاب . وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو هذه دوراً عظيماً للغاية فى الشئون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب .

وكانت أسبانيا على نفس التمزق السياسى الشديد الذى كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ، وكان النزاع القديم بين القرطاجى والرومانى ما يزال مستمراً فى أسبانيا متمثلا فى العداء المرير بين أخلافهم وورثتهم من يهود ومسيحيين . حتى أنه

---

(١) المجتلد (Arena) هو كما سبق أن ذكرنا الجزء المتوسط من مدرجات الألعاب العنيفة ، وهو مفروش بالرمل للمصارعات . انظر المجلد الثانى ص ٥٦٣ [ط ٣] . (المترجم)

لما جرفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإفريقى الشمالى إلى مضيق جبل طارق ، وجدت فى يهود أسبانيا أعواناً متأهبين لمعاونتها فى غزوها لأوربا . فإن جيشاً عظيماً من العرب والبربر (وهم الشعوب الحامية المترحلة فى الصحراء الإفريقية والأراضى الجبلية الداخلية الذين اعتنقوا الإسلام) ، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين فى معركة عظيمة (٧١١) . وأصبحت البلاد بأجمعها فى قبضة أيديهم فى بضع سنين(١) .

وما حلت (٧٢٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس ، واندفع من حول نهايتها الشرقية إلى فرنسا ؛ وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الجديد موشك أن يخضع بلاد الغال (: فرنسا) بنفس السهولة التى أخضع بها شبه الجزيرة الأسبانية . على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشىء صلب ، هو مملكة جديدة للفرنجة ، أخذت أجزاؤها تتماسك طوال قرنين تقريباً فى أرض الراين وشمال فرنسا(٢) .

ولدينا الشىء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية ، المبشرة بظهور فرنسا وألمانيا ، والتى كانت الحصن الغربى لأوربا ضد دين محمد ، كما كانت الإمبراطورية البيزنطية خلف جبال طوروس حصنها الشرقى ؛ على أنا نرى لزاماً علينا أولا أن نقدم إليك بياناً عن النظام الجديد لتلك التجمعات الاجتماعية التى نشأت منها تلك المملكة .

---

(١) صحيح أن اليهود فى أسبانيا كانوا يسامون سوء الخسف ويعاملون معاملة سيئة أيام القوط الغربيين بأسبانيا . ولكنه صحيح كذلك أن لذريق ملك أسبانيا عند الفتح العربى لها كان مغتصباً للعرش وكان أولاد غيطشة وكثير من أمراء القوط ثائرين عليه نفسيا متحفزين للإيقاع به . ومع ذلك فهذه عوامل نتلمسها لهزيمة القوط فى شريش ويمكن أن يكون منها قوة جيش الخليفة المعنوية ومهارة قواده العسكرية واستماتة الجيش والقواد فى نصرة الدولة والدين . (المترجم)

(٢) يشير المؤلف هنا إلى موقعة تور أو بلاط الشهداء التى منى فيها جيش العرب بالهزيمة أمام جيش شارل مارتل وهو فى إشارته يعزو الهزيمة إلى قوة الفرنجة وصلابتها بدرجة تحطمت على صخرتها قوة الغافقى وجيشه ، ولكنه من العدل أيضاً أن نجلو أن جيش المسلمين كان قد توغل إلى مسافة بعيدة داخل حدود بلاد غالة وطالت خطوط تموينه ومدده وقلت عدته وعدده بسبب الحاميات التى اضطر إلى تركها خلفه كما أن كثرة يعتد بها من رجال الجيش كانوا أثقلتهم الغنائم وأهمهم أمرها حتى شغلهم عن لقاء عدوهم بنفس القوة والحماسة التى كانت لهم فى المشاهد والملاحم السابقة فكان ما كان من هزيمة وهى أمور أشار إليها المؤلف فى فصل سابق . (المترجم)

٢ ـ نظام الإقطاع

من الضرورى أن يكون لدى القارئ فكرة محددة عن أحوال أوربا الغربية فى القرن الثامن . فإنها لم تكن على همجية بربرية . أجل كانت أوربا الشرقية ما تزال متبربرة ومتوحشة ؛ ولم تتقدم الأمور هناك إلا قليلا عن حالها التى وصفها جيبون فى بيانه عن بعثة بريسكوس إلى أتيلا (راجع الفصل ٢٧ قسم ٦ ص٦٦٠) . على أن أوربا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة ، لا قانون فيها ولا إدارة ، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم ، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لهم فكرات وعادات وتقاليد ممدنة .

كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم . ومن الشائق الممتع أن نتتبع ذلك التفتت والعراك الشامل الصاخب ونتبين كيف تمخض عن ظهور بواكير نظام جديد . فلو أن انهياراً حدث فى عصرنا هذا لتم على الراجح تكوين جمعيات للإدارة والمراقبة المحلية ، تتحد فيما بينها وتقيم إدارة بوليسية وحكماً ديمقراطياً بدائياً خشناً . ولكن أفكار الناس فى عهد حطام الإمبراطورية الغربية المنهارة إبان القرون السادس والسابع والثامن ، كانت أكثر اتجاهاً صوب الزعماء والقادة منها إلى الجمعيات واللجان ، وكانت المراكز التى تبلورت حولها شئون الناس هى أحـــد رؤساء البرابرة هنا أو أسقفاً قوياً هناك أو مدعياً لوظيفة رومانية قديمة ، وهنا تجد مالك أرض قديم طال اعتراف الناس به أى رجلا من أسرة عريقة ، وتعثر هناك على قوى مغتصب للسلطان ، وهى حال لم تدع لرجل بمفرده مجالا للاطمئنان والأمن .

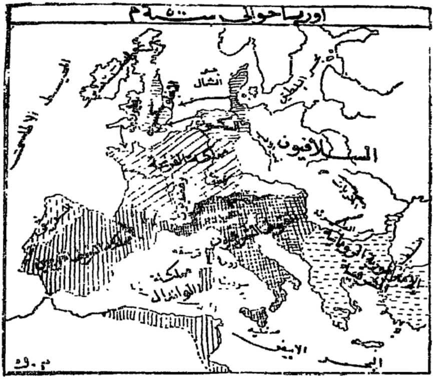
لذلك اضطر الرجال أن يربطوا أنفسهم بغيرهم ، مفضلين فى ذلك من كان أقوى منهم من الرجال . وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل فى إقليمه ويصبح رجله وتابعه . وكان الرجل الحر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربط نفسه بسيد أقوى منه . وكانت حماية ذلك السيد (أو خطر عداوته) تزداد جسامة كلما تكاثر المنضوون تحت جناحه . وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور سياسى ، فى خضم الارتباك وانعـــدام القانون الذى هوت إليه الإمبراطورية الغربية . وهذه

الارتباطات والمحالفات الطبيعية تماماً بين الحامى والأتباع سرعان ما تدرجت فى النمو فأصبحت نظاماً هو « نظام الإقطاع » ، الذى لا تزال آثاره باقية فى التركيب الاجتماعى لكل مجتمع أوربى غرب الروسيا . وكان يختلف اختلافاً بينا فى مظاهره الخارجية .

ولم تلبث هذه العملية أن اتخذت لنفسها صوراً فنيـــة وأصولاً وقوانين خاصة بها . فكانت فى قطر كبلاد الغال متقدمة تقدما حسنا أيام القلاقل وانعدام الأمان السابقة لانقضاض قبائل البرابرة على الإمبراطورية الغربية ، ولما أن هبط الفرنجة بلاد الغال جلبوا معهم نظاماً سبق أن لحظناه لدى المقدونيين ، وكان على الراجح واسع الانتشار إلى حد كبير بين الشعوب النوردية الشمالية ، وهو اجتماع هيئة من شبان الأسر العريقة حول الزعيم أو حول الملك المحارب ، وهم رفقاؤه أو لداته وبطانته من النبلاء (comitatus) (الكونتات) أو قواده . فكان من الطبيعى فى حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الضعيف بالسيد القوى شكل العلاقة بين الكونت ومليكه ، وأن يوزع الرئيس الفاتح على رفاقه المزارع والممتلكات المستولى عليها والمصادرة . وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإقطاع فكرة التجمع بغية الحماية المتبادلة للناس والممتلكات ؛ وجاءت من الجانب « التيوتونى » فكرات جمعيات الفرسان ، والإخلاص والخدمة الشخصية . وكانت الأولى هى الناحية الاقتصادية للنظام ، على حين كانت الثانية ناحية الفروسية فيه .

والمماثلة بين التجمع فى الإقطاع وبين عملية التبلور مماثلة وثيقة جداً . وبينا المؤرخ يراقب أثناء القرنين الرابع والخامس مراجل الارتباك ودواماته تدور وتهدر فى أوربا الغربية ، فإنه يبدأ فى ملاحظة ظهور هذه التكوينات الهرمية المكونة من رؤساء وأتباع ، وأتباع أتباع ، وهى تتدافع إحداها مع الأخرى أو تتفرع أو تنحل من جديد أو تلتحم . وإنا لنستعمل مصطلح « نظام الإقطاع » من أجل اليسر والسهولة ، ولكن فى شىء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى « الترتيب والنظامية » . فنظام الإقطاع فى أزهر عصوره أبعد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية . إذ لم يكن الأمر فيه إلا فوضى واضطراباً نظم على أخشن وجه ، وكان التغاير والاختلاف العظيم بين أشكاله منتشراً فى كل مكان . ومن ثم فلن يدهشـــنا

وجود تباين فى الوقائع والعرف والعادات المقررة بين إقطاعية وأخرى . وقد وصل نظام الإقطاع الأنجلو نورماندى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على شدة ما أوتى من اتساع الرقعة إلى اكتمال منطقى واتساق فى الممارسة والعرف كان منقطع النظير فى صميم العصر الإقطاعى نفسه .



(شكل ١٣٢) خريطة أوربا حوالى عام ٥٠٠ م

« والأصل فى العلاقة الإقطاعية الصحيحة هو الإقطاعة (Fief) التى كانت فى العادة أرضاً . ولكنها ربما كانت أى شيء مرغوب فيه كالوظائف ، أو الدخل نقداً كان أم عيناً ، أوحق جمع مكس أو (فرضة مالية) ، أو إدارة طاحون . وكان الرجل يصبح فى مقابل الإقطاعة تابعاً[1] (vassal) لمولاه ؛ فكان يجثو أمامه ، ويعده

---

(١) ويسمى أيضاً بالمُقْطَع [بضم الميم وفتح الطاء] أو القَصّل ، Vassal) . (المترجم)

— ويداه بين يديه — بالولاء والخدمة . . . . وكان الإخلاص فى تنفيذ كل الواجبات التى اضطلع بها التابع فى عهد الولاء قوام حقه فى التمتع بإقطاعته : فإذا أديت الواجبات ، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاعة ملكاً حلالا لهم من الناحية العملية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم الملاك . وفى حفلة الولاء والتخويل التى هى الركن الأساسى فى عقد الإقطاع ، كانت الالتزامات التى يضطلع بها الطرفان ، غير محددة فى العادة تحديداً دقيقاً . وكان العرف المحلى هو الذى يحددها . وكانت خدمات التابع تختلف اختلافاً بيناً فى كثير من دقائق التفاصيل بين أجزاء عالم الإقطاع المختلفة . على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقتين ، عامة وخاصة . فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء : من المحافظة على مصالح السيد ، وكتمان أسراره ، وإفشاء خطط أعدائه ، وحماية عائلته وهكذا ، والخدمات الخاصة يمكن أن تصاغ فى عبارات أشد تحديداً ، ويحددها عادة تعريفات مضبوطة يقررها العرف أحياناً والوثائق المكتوبة فى بعض الأحيان الأخرى . وكانت أبرز نواحيها هى الخدمة العسكرية ، التى كانت تتضمن الخروج إلى الميدان عند النفير بقوة معينة من الجند ، غالباً ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد . وتبقى فيه زمناً معلوماً . وكانت كثيراً ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد ، ووضع حصن التابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه فى الدفاع عن إقطاعه (Fief) . . . وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية ، ألفيناه يملأ أوربا بشبكة من هذه الإقطاعات التى تتدرج إحداها فوق الأخرى فى مراتب مدرجة بادئة من أقلها شأناً فى القاع ، وهى أجز الفارس ، حتى الملك فى القمة ، وهو مالك الأرض الأعلى ، أو هو الذى وهبه الله المملكة . . . . »[1] .

على أن هذه هى النظرية التى فرضت على الحقائق المقررة . ولكن الحقيقة الواقعية فى نظام الإقطاع كانت تقوم فيما هو عليه من تعاون اختيارى .

---

(١) الموسوعة البريطانية — الطبعة الثالثة عشرة — مادة « الاقطاع » للأستاذ د. آدامز .

« وقد قيل ، إن الدولة الإقطاعية دولة اغتصب فيها القانون الخاص مكان القانون العام » . ولكن أليس الأصح أن يقال : إن القانون العام قد فشل وتوارى وأن القانون الخاص جاء ليسد الفراغ الحاصل ؟ لقد صار الواجب العام إلزاماً خصوصياً .

٣ – مملكة الميروفنچيين الفرنجية

سبق أن ذكرنا من قبل ممالك متنوعة للقبائل البربرية الذين أقاموا لأنفسهم بين أنقاض الإمبراطورية سيادة هزيلة تتفاوت فى رثاثتها فوق هذه المنطقة أو تلك ، وهى ممالك السويڤى والقوط الغربيين بأسبانيا ومملكة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة اللومبارد الإيطالية التى عقبت القوط بعد أن طردهم چستنيان وبعد أن عاث الوباء العظيم فى إيطاليا تدميراً .



(شكل ١٣٣) خريطة حدود ممتلكات الفرنجة فى عهد شارل مارتل

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى نشأت فى أول الأمر فيا هو الآن بلچيكا ، ثم امتدت جنوباً حتى اللوار ، بيد أنها أظهرت من لقوة والتماسك ما يفوق كثيراً ما كان لدى الأخريات . وكانت أول دولة حقة تخرج من غمرة الدمار العام . ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسعة الرقعة . ومنها نبعت دولتان عظيمتان فى أوربا العصرية ، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية . وكان مؤسسها هو كلوڤيس (Clovis) (٤٨١ — ٥١٤) الذى بدأ أمره ملكاً صغيراً فى بلچيكا وانتهى وحدوده الجنوبية تكاد تتاخم البرانس . وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة . على أن الفرنجة احتفظوا بعرف من الوحدة بالرغم من هذا التقسيم ، وثارت بين الإخوة حيناً من الدهر حروب تستهدف الانفراد بالسيادة فوحدتهم أكثر مما فرقت بينهم . على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الغربيين بالصبغة اللاتينية ، بعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصبغة ، وتعلموا اللاتينية الشوهاء المحرفة ، لغة السكان المقهورين ، على حين احتفظ فرنجة إقليم الراين بلغتهم الألمانية الدنيا[1] . وتتولد عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض للمدنية ، توترات سياسة قوية للغاية . وأقام العالم الفرنجى مئة وخمسين سنة وهو منشق شطرين ، هما نوستريا (Neustria) ، وهى نواة فرنسا وتتكلم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التى نعرف الآن ، وأوستراسيا وهى أرض الراين التى ظلت ألمانية . وكان الفرنجة يختلفون عن السوابين وسكان جنوب ألمانيا ، ويقاربون الأنجلوسكسون كثيراً لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية عليا . وكانت لغتهم تشبه اللغة الألمانية[2] الدنيا (Plattdeutsch) والأنجلوسكسونية ، وهى الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية . والواقع أنه حيثما لم يصطبغ الفرنجة بالصبغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى فلمنك ويصبحون هولنديى جنوب هولندة (فأما هولندة الشمالية فلا تزال فريزية Friesisch أى أنجلوسكسونية) . « والفرنسية » التى كان يتكلمها الفرنجة والبرجنديون ذوو الصبغة اللاتينية فى القرن السابع إلى

---

(١) ، (٢) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألمانى (Plattdeutsch) : هى لغة سكان المنخفضات بشمال ألمانيا . والألمانية العليا هى لغة سكان المرتفعات الجنوبية بها . (المترجم)

العاشر ، كانت عجيبة الشبه بلغة سويسرا الرومانشية (Rumansch) ، — استنتاجاً منا من البقايا الباقية فى الوثائق القديمة[١] .

ولسنا بمحدثيك هاهنا عن انحلال الأسرة الميروفنجية التى أسسها كلوفيس ، ولا كيف حدث فى أوستراسيا أن موظفاً بعينه فى البلاط ، هو محافظ القصر (Mayor of the Palace) ، أصبح بالتدريج ملكاً فعلياً ، واتخذ من الملك الحقيقى ألعوبة طيّعة . ثم أصبح منصب محافظ القصر وراثياً أيضاً فى القرن السابع ، وفى (٦٨٧) كان من يدعى پيپن الهرستالى محافظ القصر فى استراســـيا قد غزا نوستريا ووحد كل الفرنجة تحت لوائه . وأعقبه فى (٧٢١) ابنه شارل مارتل ، الذى لم يكن يحمل كذلك إلا لقب محافظ القصر . (فأما سادته الملوك الميروفنجيون التافهون المساكين ، فلا يعنينا أمرهم هنا فى قليل ولا كثير) وشارل مارتل[٢] هـــذا هو الذى أوقف المسلمين العرب . وكانوا قد وصلوا إلى « تور » عنـــدما التقى بهم ، وهزمهم هزيمة كاملة فى معركة عظيمة بين ذلك المكان وبين پواتييه (٧٣٢) وفلّ من عزيمتهم . ومن ثم ظلت جبال البرانس أقصى حد لهم . فلم يتقدموا بعد ذلك فى أوربا الغربية .

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه ، ولكن أحدهما اعتزل الملك وترهب . تاركاً أخاه پيپن حاكما وحيداً على الدولة . وپيپن هذا هو الذى قضى نهائياً على أحفاد كلوفيس . إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق ، صاحب القوة والسلطان أو صاحب التاج ؟ وكان البابا فى حاجة إلى ناصر يعينه ، فقضى لصالح محافظ القصر . وبذلك انتخب پيپن ملكاً فى جمع من نبلاء الفرنجة فى العاصمة الميروفنجية ، سواسّون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج . وكان ذلك فى (٧٥١) . وقد قوّى ابنه شارلمان من أواصر التماسك بين البلاد الفرنجية والألمانية التى وحدها پيپن . وظلت الدولة موحدة متماسكة إلى عهد حفيده لويس (٨٤٠) ، ثم انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد — مما أنزل بالإنسانية أبلغ الضرر

---

(١) الرومانشية هى اللغة التى يتكلمها الناس ببعض المناطق الشرقية لسويسرا . (المترجم)

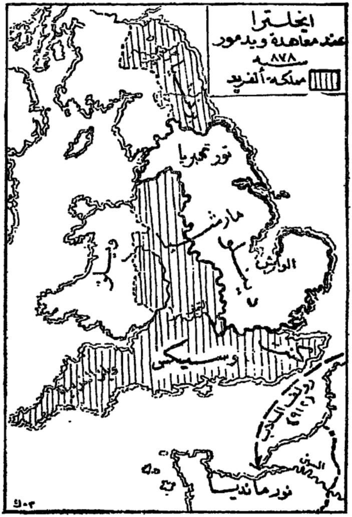
(٢) عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر المترجم « ميلاد العصور الوسطى » تأليف موص (الألف كتاب ، ومكتبة عالم الكتب) .



(شكل ١٣٤) خريطة انجلترة عام ٦٤٠ م

ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقاً فى الجنس ولا المزاج ، بل فارقاً فى اللغة والتقاليد .

ولا يزال ذلك الانفصال القديم بين نوستريا وأوستراسيا يثمر ثماراً مريرة إلى يومنا هذا . ففى ١٩١٦ كان لهيب ذلك النزاع التليد بين نوستريا وأوستراسيا قد تأجج من جديد حرباً ضروساً . وفى أغسطس من تلك السنة ، زار كاتب هذه السطور مدينة سواسون ، وعبر الكوبرى الخشبى المؤقت الذى بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Aisne)



(شكل ١٣٥) خريطة انجلترة عند معاهدة ويدمور عام ٨٧٨

مطردة . وكان الإله چوبيتر يتمثل عند الألمان فى الإله أودن (Oden) . والإله مارس (المريخ) يمثـــله ثُورْ (Thor) والربة الزُهرة تمثلها لديهم الربة فريبا (Freya) وهكذا . وتواصل إبان القرنين السابع والثامن تنصير هـــذه القبائل [illegible] والسلافونية (الصقلبية) .

وربما كان من الشائق القراء الناطقين بالإنجليزية أن ينتبهوا إلى أن أشد المبشرين حماسة ونجاحاً بين السكسون والفرزيين جاءوا من إنجلترة . وقد وضعت بذور المسيحية

مرتين فى الجزر البريطانية . فكانت موجودة بها فعلا حين كانت بريطانيا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . إذ يذكرون أن شهيداً اسمه القديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز ، ولا شك أن كل زائر لكانتربرى ، لن يفوته أن يزور كذلك كنيسة القديس مارتن الصغيرة القديمة التى كانت تستعمل إبان العهد الرومانى . وانتشرت المسيحية من بريطانيا — كما أسلفنا — خارج حدود الإمبراطورية إلى أيرلندة — وكان أهم المبشرين القديس باتريك — وحدثت حركة رهبنة قوية تتصل بها أسماء القديس كولمبا والمستوطنات الدينية بجزيرة أيونا (Iona)[١] . ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثنيون فى القرنين الخامس والسادس ، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عن جسم المسيحية الرئيسى . وفى القرن السابع أخذ المبشرون المسيحيون ينصِّرون الإنجليز فى كل من شمال انجلترة ، حيث أتوا من إرلندة ، وفى الجنوب وافدين من روما . وقد أوفد بعثة (إرسالية) روما البابا جريجورى الكبير عند نهاية القرن السادس بالضبط . وتقول الرواية إنه رأى غلماناً من الإنجليز يباعون فى سوق الرقيق بروما ، وإن كان من العسير علينا إلى حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك . كانوا شديدى الشقرة ووسامة الطلعة . فلما أن تحرى عنهم أبلغوه أنهم من الإنجــليز . فقال « إنهم ليسوا إنجليز (Angles) وإنما هم ملائكة (Angels)[٢] لو أن لديهم الإنجيل » .

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع . وقبل أن ينتهى ذلك القرن كان معظم الانجليز قد تنصروا ؛ وإن أبدت مرسيا (المملكة الانجليزية الوسطى) نحو القساوسة مقاومة شديدة ، دفاعاً عن العقيدة والطرائق القديمة . وأصاب أولئك المتنصرون الجدد تقدماً سريعاً فى العلوم . فأصبحت أديرة مملكة نورثمبريا فى شمال انجلترة مركزاً للنور والعرفان . وكان ثيودور الطرسوسى من أوائل رؤساء أساقفة كانتربرى (٦٦٨) — ٦٩٠) . وعلى حين كانت الإغريقية مجهولة جهلا تاماً فى غرب أوربا ، كان بعض تلاميذ ثيودور يجيدونها . وكانت الأديرة تضم كثيراً من الرهبان الذين بلغوا من العلم الذروة . وكان أشهرهم جميعاً بيد (Bede) ، المعروف باسم بيد الوقور (٦٧٣ — ٧٣٥) ، وهو

---

(١) هى جزيرة من جزر الهبريدس الداخلية باسكتلندة نصرها كولمبا فى ٥٠٣ م . (المترجم)

(٢) هنا يلعب الكاتب على الجناس بين لفظتى (Angles) أى الإنجليز و (Angels) أى الملائكة . (المترجم)

راهب من چارو (Jarrow) على نهر التاين (Tyne) . وتتلمذ عليه رهبان ذلك الدير الستمئة ، فضلا عن الأجانب الكثيرين الذين كانوا يفدون لسماعه . ولم يبرح بيد حتى أتقن بالتدريج كل علوم زمانه ، وترك عند وفاته خمسة وأربعين مجلداً من كتاباته ، أهمها « تاريخ الإنجليز الكنسى[1] » وترجمة إنجيل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية . وذاعت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس فى كافة أنحاء أوربا . ثم إنه جعل ميلاد المسيح بداية لكل تواريخه ، وبفضل مؤلفاته أصبح استخدام التواريخ الدقيقة للأحداث المسيحية شائعاً بكل أوربا . ونظراً لكثرة الأديرة والرهبان فى نورثمبريا ، تقدم ذلك الجزء من بريطانيا حيناً من الدهر تقدماً كبيراً على الجنوب فى المدنية[2] .

وإنا لنجـد المبشرين الإنجليز فى القرنين السابع والثامن يعملون ناشطين على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية . وأهم هؤلاء هو القديس بونيفاس (٦٨٠ — ٧٥٥) ، الذى ولد فى كريديتون بمقاطعة ديفونشير والذى نصّر الفريزين والثورنجيين والهيسيين (Hessians) ثم استشهد فى هولندة .

وفى كل من إنجلترة والقارة الأوربية ، كان الحكام الذين أخذ نجمهم يعلو يستمسكون بالمسيحية ويتخذونها قوة موحدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض . وبذلك أصبحت المسيحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان — شأنها فى أوغندة بأفريقية فى الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البريطانية .

وخلف پپين الذى توفى ٧٦٨ ولداه ، شارل وأخوه ، فاقتسما مملكته ، ولكن أخا شارل توفى (٧٧١) ، وعندئذ انفرد شارل بالحكم (٧٧١ — ٨١٤) فى مملكة الفرنجة النامية . ويعرف شارل هـذا فى التاريخ باسم شارل الكبير أو شارلمان ، وكما حدث فى حالة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ، فإن الخَلَفَ بالغوا الإشادة بذكراه . فإنه جعل من حروبه العدوانية حروباً دينية لا شك فيها ! ! وظل عالم شمال غربى أوربا بأجمعه الذى هو الآن بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا

(١) «The Ecclesiastical History of the English»
(٢) انظر : «A General History of Europe» تأليف ثاتشر وشويل .

والدانمارك والنرويج والسويد طوال القرن التاسع ، معتركاً لصراع مرير بين العقيدتين القديمة والجديدة . وأجبرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بحد الحسام ، كما فعل الإسلام قبل ذلك بنحو قرن حين اضطر شعوباً بأسرها فى بلاد العرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه .

فاستخدم شرلمان السيف والنار فى التبشير بإنجيل الصليب لدى السكسون والبوهيميين ، بل توغل حتى الدانوب فيما هو الآن بلاد المجر ؛ وحمل نفس التعاليم منحدراً بها حتى سواحل الأدرياتى ، خلال ما هو الآن دالماتيا[١] ؛ ودفع المسلمين خلف البرانس حتى برشلونة .

زد على ذلك أنه هو الذى آوى إجبرت (Egbert) ، يوم نفى من وسكس بإنجلترة ثم ساعده من فوره فى أن يقيم نفسه ملكاً فى وسكس (٨٠٢) . وأخضع إجبرت البريطون[٢] فى كورنوال ، مثلما أخضع شرلمان البريطون فى بريتانى (بفرنسا) ، ثم تهيأ له بقيامه بسلسلة من الحروب التى والاها بعد وفاة نصيره الفرنجى ، أن يجعل نفسه آخر الأمر أول ملك لإنجلترة بأسرها (٨٢٨) .

على أن هجمات شرلمان على آخر معاقل الوثنية أحدثت حركة مضادة قوية من جانب الذين لم يتنصروا . وكان الإنجليز المتنصرون لم يحتفظوا إلا بالنذر اليسير من فن الملاحة الذى جاء بهم من أرض القارة الأوروبية ، ولم يكن الفرنجة أصبحوا بعد من البحارة . وبينما كانت دعاية شارلمان تنساق نحو شواطئ بحر الشمال وبحر بلطق ، فقد دُفع الوثنيون دفعاً إلى البحر . وكان ردهم على اضطهادات المسيحية ، القيام بغارات سلب ونهب وحملات على سواحل فرنسا الشمالية وعلى إنجلترة المسيحية .

وهؤلاء السكسون والإنجليز الوثنيون فى أرض القارة الأصلية وذوو قرباهم من الدانيمركة والنرويج هم الدانيمركيون وأهل الشمال (Northmen) الذين تذكرهم

---

(١) دالماتيا : هى القسم المطل من يوغوسلافيا على شرق الأدرياتى . (المترجم)

(٢) البريطون : سكان بريطانيا القدماء الأصليون ، أو سكان إقليم بريتانى بفرنسا . (المترجم)

كتب تاريخنا القومى . وكانوا كذلك يسمون بالڤيك إنجز (Vik-ings) [١] ومعناها رجال الخلجان أو الفيوردات ، لأنهم جاءوا من الثنايا العميقــة فى الشاطئ الاسكندناوى . حضروا فى سفن طويلة سوداء تسمى القوادس[٢] ، مستعملين الشراع استعمالا طفيفا . ومعظم معلوماتنا عن حروب وغارات الڤيك إنجز الوثنيين مستقاة من مصادر مسيحية ، ولذا فإن لدينا معلومات مستفيضة عما كانوا يرتكبونه فى غاراتهم من المذابح والفظائع ، ونزراً يسيرا عما حلّ بإخوانهم الوثنيين السكسون من قساوات على يد شرلمان . وكان عداؤهم للصليب والرهبان والراهبات شديداً متطرفاً . ولشد ما كان يبهجهم إحراق أديرة الرهبان والراهبات وذبح من بها من الأحياء .

وظل هؤلاء الڤيك إنجز أو أهل الشمال طوال الفترة بين القرن الخامس والقرن التاسع يتعلمون فن البحرية ، ويزيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم . ثم اجترأوا على البحار الشمالية حتى أعدت شواطئ جرينلندة الثلجية مرتاداً مألوفاً لديهم ، وكانت لهم عند حلول القرن التاسع مستقرات فى أمريكا (لم تعرف أوربا عنها شيئاً ؛ ولم يكن لأهل الشمال أى مستقر دائم فى أمريكا ، وفى زمان ما يقارب (١٠٠٠ م) ؛ قاموا بمحاولة للاستقرار فى جزء ما من أمريكا اسمه ڤن لاند (Vinland) ، على أنهم لم يتملكوا الأرض سوى سنتين اثنتين ؛ فإن قارباً من الجلد ظهر فى أحد الأيام مليئاً بالهنود المنقوشى البَشرة ، فدار بخلد رجال الشمال أنهم ضيوف سوء شديدو القبح . ويلوح أن الطرفين تبادلا نظرات التفحص الصامت ، ولكن لم يحدث بينهما تجارة ولا نزاع ، لقد حماق العالم الجديد فى وجه القديم . وحدثت المتاعب فيما بعد ، وإذ أن رجال الشمال كانوا أقل عدداً وبعيدين عن أوطانهم ، فإنهم جمعوا متاعهم واعتلوا سفنهم عائدين إلى بلادهم . ولا يسجل التاريخ أى مستقر آخر لرجال الشمال على الأراضى الأمريكية . وفى القرن الثانى عشر ، بدئ بكتابة كثير من ملاحمهم (Saga) فى إيسلندة . ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العالم بوصفه مسرحاً للمغامرة الجريئة .

---

(١) تنبيه : تنطق هــذه الكلمة ڤيك إنجز وليس ڤى كنجز . ومعنى ڤيك : vik هو فيورد أو خليج . (المؤلف)

(٢) القادس Gally : سفينة قديمة طويلة ذات سطح واحد تسير بالمجاديف والشراع . (المترجم)

فلطالما هاجموا كلب البحر والدب والحوت . وقد انتسج فى خيالهم صورة ضخمة لمدينة عظيمة غنية فى الجنوب – وهى ضرب من الخليط بين روما وبيزنطة وسموها ميكلاجارد (Miklagard) أو ميكلاجارث (اى المدينة العظيمة) – (قارن هذه بكلمة ميكلابابر (Miklabaer) الإيسلندية ومعناها المزرعة العظيمة) . وبلغ من قوة جاذبية الميكلاجارث هـذه أن اجتذبت أحفاد رجال الشمال هؤلاء إلى البحر المتوسط بطريقين ، أولهما من جهـة الغرب ، وثانيهما عبر الروسيا من بحر البلطيق كما سنبين ذلك فيما بعد . وبالطريق الروسى ذهب كذلك أقرباؤهم السويديون .

ولم يكن الفيلك إنجز إلا مجرد مغيرين ما عاش شارلمان وإجبرت ؛ ولكن مع تقدم الأيام بالقرن التاسع ، تطورت هـذه الغارات فأصبحت غزوات منظمة . ففى كثير من نواحى إنجلترة ، لم يكن مركز المسيحية حتى آنذاك وطيـدا بأى حال . إذ كان رجال الشمال الوثنيون يلاقون فى مرسـيا على وجه الخصوص كل عطف ومعاونة . وما أن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجلترة فى قبضة الدانيمركيين ، وحتى كان الملك الإنجليزى الفريد الكبير ، قد اعترف بحكمهم لما فتحوه ، (وهو ما يسمى بالقانون الدانيمركى Dane-Law) فى الحلف الذى عقده مع جوثرام زعيمهم .

وبعد ذلك بقليل فى (٩١١) وطدت حملة أخرى بزعامة رولف العدّاء (Rolf the ganger) ، أقدامها على ساحل فرنسا فى الإقليم الذى عرف منـذ ذلك الحين باسم نورماندى (أى بلد رجال الشمال Northman-dy) .

على أننا لا نستطيع أن نحدثك بأى تطويل عن كيف حدث على الفور غزو جديد لإنجلترة على يد الدانيمركيين ، ولا كيف أصبح دوق نورماندى آخر الأمر ملكاً على إنجلترة . والفوارق العنصرية والاجتماعية بين الإنجليز (الأنجل) ، والسكسون والجوت والدانيمركيين أو النورمانديين ضئيلة لا تكاد تذكر ؛ ومع أن هذه التغيرات ترتسم ضخمة فى أخيلة الإنجليز ، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدا فى مجرى التاريخ عندما نقيسها بمعايير عالم أكبر .

وسرعان ما اختفت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية . إذ قبل

الدانيمركيون بمعاهدة ودمور (Wedmore) أن يعتنقوا النصرانية ، إذا ضمن لهم بقاء ما غزوا بأيديهم ، ولم يقف الأمر بأحفاد رولف فى نورمندى عند حد التنصير ، بل إنهم تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب المحيط بهم الأكثر منهم تمدناً ، ناسين لسانهم الشمالى (النورسى Norse) الخاص على أن هناك شيئاً . له شأن أعظم قدراً فى تاريخ البشرية ، هو علاقات شرلمان بجيرانه فى الجنوب والشرق ، وعلاقاته بالتقاليد الإمبراطورية .

٥ – شرلمان يصبح إمبراطورا على الغرب

أعيدت تقاليد القيصر الرومانى إلى الحياة فى أوربا على يد شرلمان . كانت الإمبراطورية الرومانية قد ماتت وأخذت تتعفن ؛ وكانت الإمبراطورية البيزنطية ممعنة فى الاضمحلال ؛ على أن تعليم أوربا وعقليتها كانا ترديا إلى درك كاد معه كل فكر سياسى جديد خلاق أن يكون ضرباً من المحال . ولعل أوربا بأكملها لم تكن لتحتوى مثقال ذرة من قوة النظر والتفكير التى نجـدها فى الأدب(١) الأثينى فى القرن الخامس ق . م . ولم تكن هناك قوة تتصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة أو تضع منهجاً سياسياً جديداً وتنظمه فكرياً .

تعمدت المسيحية الرسمية أن تسدل منذ أمد بعيد ستاراً كثيفاً على تلك التعاليم العجيبة الرائعة ، تعاليم يسوع الناصرى التى منها انبعثت – كما أنها روضت نفسها على تجاهلها . فأما الكنيسة الكاثوليكية فهى حين تشبثت ذلك التشبث الشديد بملكيتها للقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) ، قد تنكرت منذ ذلك الزمان البعيد لواجبها الذى خلقت من أجله ، وأعنى بذلك بلوغ مملكة السماء . ذلك بأنها كانت مشغولة بإحياء عزة الرومان على الأرض ، التى تصورت أنها تراثها التليد . لقد أصبحت هيئة سياسية ، تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم للمضى قدماً بمشروعاتها وخططها . وتشبثت بتقاليد الإمبراطورية الرومانية وبفكرة أنها هى الطريق الطبيعى لوحدة أوربا .

---

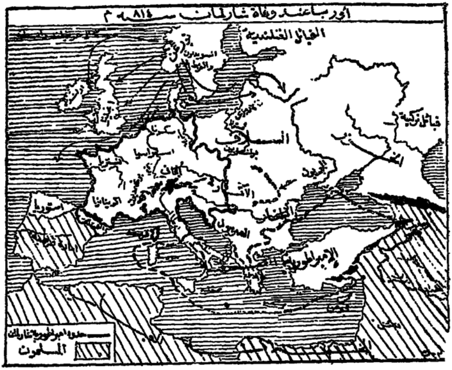
(١) المؤلف هنا كعادته يستخدم لفظة الأدب بمعناها العام الشامل ويقصد بها كل ما ظهر فى اللغة من أبحاث ومؤلفات أيا كان نوعها . (المترجم)

على أن أوربا فى ثنايا محاولاتها المتكررة إعادة تلك الإمبراطورية إلى الوجود ، قد انحرفت إلى تزييف مثال لها شائه ممسوخ : وإلى ابتعاث كبوات الماضى وسقطاته التى أساءت تصورها .

وانقضت أحد عشر قرناً من عهد شرلمان فما بعده ، و « الأباطرة » و « القياصر» من هذه الأسرة أو تلك يظهرون على مسرح التاريخ الأوربى ثم يتوارون كأنهم خيالات سقيمة تتراءى لذهن مضطرب . ونحن على أن نخبرك عن عملية عظيمة من النمو العقلى فى أوربا ، وعن اتساع الآفاق وتجمع القوى ، بيد أنها كانت عملية سارت فى طريقها مستقلة عن الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها ، حتى ترامت آخر الأمر إلى تحطيم تلك الأوضاع تحطيما مطلقاً . وكانت أوربا أثناء حقبة الأحد عشر قرنا من القياصر الزائفين التى افتتحت بشرلمان ، والتى لم تنته إلا بمجزرة (١٩١٤ — ١٩١٨) الرهيبة الوحشية ، — أشبه شىء بمصنع مزدحم يملكه رجل مصاب بالتجول أثناء النوم ؛ فهو فى بعض الأحيان تافه لا أهمية له مطلقا ، وهو فى أحيان أخرى معطل للأعمال تعطيلا ينذر بالشر المستطير . بل لعلنا نشبهها بما هو أقرب إليها من ذلك المتجول فى نومه : فنمثلها بجثة هامدة تتخذ بالسحر سيما الحياة . فأنت تشهد الإمبراطورية الرومانية تترنح ثم تنبطح على الأرض ، ثم يقذف بها خارج المسرح ثم تعود فتظهر ؛ كل هذا وكنيسة روما — إن جاز لنا أن نتقدم بهذه (الصورة الخيالية) خطوة أخرى إلى الأمام — هى التى تقوم بدور الساحر وتبث فى هذه الجثة سيما الحياة .

ويتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحلقات ، حول التحكم فى الجثة يظل ناشبا بين القوى الروحية ومختلف القوى الزمنية . وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى الروح التى ينطوى عليها كتاب « مدينة الله » للقديس أوغسطين . وهو كتاب نعرف أن شرلمان طالعه ، أو استمع لتلاوته — إذ أن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك . وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شىء يحكمه ويصون سلامته فى أمثل صورة وأسلمها ، قيصر عظيم مثله ، وأن له أن يحكم حتى البابا نفسه :

على أن وجهة نظر روما فى شأن الإمبراطورية المبتعثة ، كانت تختلف قليلا عن ذلك . إذ أن الرأى المتخذ هناك هو أن القيصر المسيحى يجب أن يمسحه البابا بالزيت



(شكل ١٣٦) خريطة أوربا عند وفاة شرلمان عام ٨١٤ م

المقدس ويهديه سواء السبيل – بل هو الذى تكون له حتّى سلطة حرمانه وعزله . وكان هذا التضارب فى وجهات النظر واضحا حتّى فى أيام شرلمان نفسه . على أنه ازداد حدة فى القرون التالية .

ولا شك أن فكرة الإمبراطورية المبتعثة لم تدر بخلد شرلمان فجأة ، بل بغاية البطء والتدرج . فإنه كان فى مبدأ الأمر مجرد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية ، وكان منهمكاً بكل قواه فى الكفاح مع السكسون والباڤاريين ومع الصقالبة فى شرقهم ، ومع المسلمين فى أسبانيا . وفيما شب فى ممتلكاته نفسها من ضروب العصيان . وحمله شقاق دب بينه وبين حميه ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشمال إيطاليا . وقد رأينا استقرار اللومبارد فى شمال إيطاليا قرابة (٥٧٠) بعد الوباء العظيم ، وبعد خلع جستنيان للملوك القوط الشرقيين . كان هؤلاء اللومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للباباوات ، وقد

أبرمت ضدهم محالفة بين البابا وملك الفرنجة فى زمن پپين. والآن أخضع شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤) ، وأرسل حماه إلى أحد الأديرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا : إلى دالماتيا (٧٧٦) . وفى (٧٨١) جعل ابنه پپين (الذى لم يعش بعده) ينصب ملكاً على إيطاليا ويتوج فى روما .

وجاء بابا جديد هو ليو الثالث فى (٧٩٥) ، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جعل شرلمان إمبراطوراً . وكان لبلاط بيزنطة حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا . وكان أقوياء الأباطرة من أمثال جستنيان يخيفون البابوات ويجبرونهم على المثول إلى القسطنطينية ؛ وكان الأباطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر . ولطالما خامرت قصر اللاتيران[١] فكرة الانفصال عن القسطنطينية انفصالا علمانياً ودينياً ، كما تمثل له فى الدولة الفرنجية السند الذى لابد منه إذا أريد تحدى القسطنطينية .

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليته البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ولواء ، رمزاً لسيادته فى روما بوصفه ملكاً لإيطاليا . وسرعان ما اضطر البابا إلى الالتجاء إلى الحامى الذى اختار . ذلك أنه كان مكروهاً فى روما ؛ فهوجم فى شوارعها وأسيئت معاملته أثناء مسيره فى أحد المواكب ، واضطر أن يهرب إلى ألمانيا (٧٩٩) . ويقول إجنهارد إن عينيه سملتا وأن لسانه قطع . ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان . فإن شرلمان أعاده إلى روما ورده إلى منصبه (٨٠٠) .

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية . ففى يوم عيد الميلاد (٨٠٠) ، وبينما كان شرلمان ينهض من الصلاة فى كنيسة القديس بطرس ، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء) ، تاجاً على رأسه وحياه قيصراً وأوغسطس . وعج الشعب بالاستحسان العظيم . ولكن إجنهارد صديق شرلمان والمترجم لسيرته ، يقول إن الإمبراطور الجديد لم تسره فعلة

---

(١) واللاتيران هو قصر البابوات الأول فى روما . ثم احتلوا الفاتيكان فيما بعد . (المؤلف)

البابا المفاجئة هذه بأية حال . فإنه قال : « لو أنه عرف أن هذا سيحدث لما دخل الكنيسة ، مهما بلغ العيد من الجلال ! » . ولا شك فى أنه كان يفكر ويتكلم عن جعل نفسه إمبراطورا ، ولكن من الواضح أنه لم يكن يريد أن يجعله البابا إمبراطورا . وكان يجول فى خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إرينى ، التى كانت تحكم فى القسطنطينية فى ذلك الزمان ، وبذا يصبح عاهلا لكل من الإمبراطوريتين الشرقية والغربية . ولكنه أصبح آنئذ مضطرا إلى قبول اللقب على الشاكلة التى رسمها ليو الثالث ، أى بوصفه هبة من البابا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية . وكانت بيزنطة فى بادئ الأمر غير راغبة فى الاعتراف بلقب شارلمان الإمبراطورى . ولكن حدث فى ٨١١ أن حلت بالإمبراطورية البيزنطية كارثة عظيمة . فإن البلغار الوثنيين بقيادة أميرهم كروم (Krum) (٨٠٢ — ٨١٥) ، دحروا وشتتوا جيوش الإمبراطور نقفور الذى أصبحت جمجمته كأساً لكروم . وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان . (وبذلك يكون الشعبان البلغارى والإنجليزى ظهرا كوحدتين سياسيتين فى وقت واحد تقريباً) . وبعد هذه الكارثة لم تبد بيزنطة أى اعتراض على هذا الابتعاث للإمبراطورية فى الغرب ، وفى (٨١٢) اعترف رسمياً بشرلمان إمبراطورا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين .

وبذلك تكون إمبراطورية روما التى ماتت على يدى أودواكر (Odoacer) فى ٤٧٦ ، قد بعثت من جديد فى ٨٠٠ م باسم « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . وعلى حين أن جسمها وقوتها الجثمانية كانت فى شمال جبال الألب ، فإن مركز فكرتها كان روما . فكانت من ثم ، منذ بدايتها شيئا موزعا له قوة غير محددة ، كانت دعوى وجدلا أكثر منها حقيقة لا يستغنى عنها . كيف كان صليل السيف الألمانى يسمع على الدوام فى مسيره من فوق جبال الألب إلى إيطاليا ، وكانت بعوث المبشرين والقاصدون الرسوليون يدلفون من فوقها فى الاتجاه المضاد . على أن الألمان لم يتهيأ لهم البتة أن يحتفظوا بإيطاليا باستمرار ، إذ لم يكن فى طوقهم تحمل الملاريا التى كانت تلك البلاد المخربة المهملة غير المصرفة المياه مباءة لها . وثمة تقليد قديم كانت جذوته تتقد خلل الرماد فى

روما وفى مدن إيطالية أخرى عديدة ، تقليد أعرق منبتا ، هو أحد التقاليد المتوارثة عن الجمهورية الأرستقراطية ، تلك التقاليد المعادية للإمبراطور والبابا على السواء .

٦ – شخصية شرلمان

من العسير علينا أن نتمثل خلق شرلمان وشخصيته ، وبالرغم من أن لدينا سيرة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد[١] . ذلك أن إجنهارد يعوزه الإشراق والنصاعة . نعم إنه يدلى إلينا بتفاصيل كثيرة ، ولكنها ليست التفاصيل التى تبعث الحياة فى صورة الرجل المسجلة . وهو يقول إن شرلمان كان رجلا طويل القامة ، له صوت ضعيف أو يكاد ، وكانت له عينان براقتان وأنف طويل . « وكانت قمة رأسه مستديرة » ، (وما ندرى لذلك القول معنى) . وكان أشيب الشعر . وكانت رقبته غليظة قصيرة نوعاً و « بطنه شديد البروز » . وكان يلبس إزارا Tunic[٢] مطرز الحواشى بالفضة وجوربا له أربطة للساق . وكانت له عباءة زرقاء ، وكان على الدوام متقلدا سيفه ، وكان مقبضه وحمائله من الذهب والفضة .

وواضح أنه كان رجلا جم النشاط – وإن الإنسان ليتصوره يتحرك بسرعة – ولم تحل غرامياته العديدة قط دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التى لم تنقطع . كانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات . وكان يكثر من مزاولة الرياضة ؛ وكان مغرماً بالأبهة والحفلات الدينية ، كريماً يجزل العطاء . كان رجلا متعدد نواحى النشاط عظيم الإقدام الذهنى ، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء بغليوم الثانى إمبراطور ألمانيا السابق الذى هو آخر – وربما كان ذلك إلى الأبد – هذه المجموعة من القياصرة الزائفين بأوربا الذين يقوم على رأس قائمتهم شرلمان .

والحياة العقلية التى يسجلها عنه إجنهارد شائقة لا تخلو من متعة ، لأنها لا تقف عند إعطائنا لمحات عن شخصه مستطلعة ، ولكنها تمثل لنا نموذجا من عقلية ذلك الزمان . كان له إلمام بالقراءة ؛ والراجح أنه كان أثناء تناوله الطعام « يصغى إلى

(١) انظر : «Life of Karl the Great» تأليف إجنهارد (جلايستر) .

(٢) هوورداء رومانى يشد بنطاق حول الخصر . (المترجم)

الموسيقى أو القراءة » ، ولكن يحدثنا مؤرخه بأنه لم يتعلم فن الكتابة ؛ « وكان من عادته أن يضع دفتره وألواحه تحت وسادته ، حتى يمرن يده على كتابة أشكال الحروف إذا تهيأت له فسحة من وقت الفراغ ، ولكن تقدمه كان طفيفاً فى ذلك الفن الذى ابتدأه فى وقت متأخر جداً من حياته » . ومع ذلك فقد كانت نفسه تنطوى على احترام حق للعلم ورغبة صادقة فى المعرفة ، وبذل قصارى جهده ليجتذب رجال العلم إلى بلاطه . ومن بين الكثيرين الذين وفدوا عليـــه الكوين (Alcuin) وهو عالم إنجليزى .

وكان كل هؤلاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس) ، إذ لم يكن هناك أى علماء آخرين ، وطبيعى أنهم كانوا يصبغون المعلومات التى يقدمونها لسيدهم بصبغة قوية من الدين . وكان مقر بلاطه فى العادة إكس لاشاپل أو مايانس ، فإذا حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة غريبة تسمى « مدرسته » ، وفيها كان يتظاهر هو وخلطاؤه اللوذعيون أنهم ينبذون جانباً كل تفكير فى المراكز الدنيوية ، ويتخذون لأنفسهم أسماء مستقاة من كتّاب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار المقدسة ، ويتناقشون فى اللاهوت والأدب . فأما شارلمان نفسه فكان يتسمى باسم « داود » . فأفاد علما غزيراً ومعرفة جسيمة باللاهوت ، وإليه ينبغى لنا أن ننسب اقتراح إضافة عبارة : « وعن الابن أيضاً Filio que » إلى قانون إيمان العقيدة النيقية[1] — وهى إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن الأخرى . ولكنا نشك كثيراً فى أنه كان يرمى إلى مثل هذه الفرقة . فإن كل ما أراده أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحى كلمة أوما إليها ، كما شاء الإمبراطور غليوم الثانى بالضبط أن يكتب المسرحيات الغنائية (الأوپرات) وأن يدبج الصور ، وكان بذلك يتخذ لنفسه ما كان فى الأصل بدعة أسپانية . فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل ؛ واقتضت حكمة البابا ليو معارضتها . وعندما تم قبولها آخر الأمر ، كان ذلك على الأرجح عمداً بقصد إحداث الانفصال عن الكنيسة اليونانية . والنقطة التى ينطوى عليها الموضوع ، نقطة دقيقة خفية ولكنها حيوية ، غير أن كاتب هذه السطور

---

(١) يشير كما أسلفنا إلى المجمع الذى عقده قسطنطين (٣٢٥ م) وأصدر قانون الإيمان (انظر ص ٧٤١) . (المترجم)

لا يستطيع أن يدلى فيها برأى . فالمسيحية اللاتينية تعتقد أن « الروح القدس» ينبثق من الآب « وعن » الإبن ، على حين يعتقد المسيحيون اليونان والشرقيون بأن «الروح القدس» إنما ينبثق من الآب دون أى ذكر للإبن . وهذا الاتجاه الثانى يبدو كأنما يميل هوناً ما نحو وجهة النظر الآريوسية . ولن نسوق إليك هنا إلا القليل من القول فى تنظيم شرلمان للإمبراطورية . فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثرة المشاغل بحيث لم يتهيأ له أن يدرس صفة خلفه أو يبحث فى شروط الاستقرار السياسى ، وأجدر الأمور بالذكر فى هذا الصدد هى أنه أوصى ابنه وخليفته ، لويس الورع (٨١٤ — ٨٤٠) ، بأن يأخذ التاج من المذبح « ويتوج نفسه بنفسه » . على أن لويس الورع كان أتقى من أن يتمسك بهذه التعليمات عند ما اعترض البابا .

وتأثر تشريع شرلمان أعظم التأثر بقراءته للكتاب المقدس ؛ فإنه أصبح مع تقدم الزمن ، جيد المعرفة بالكتاب المقدس ، ومن خصائصه المأثورة أنه بعد ما توج إمبراطوراً ، طلب إلى كل ذكر من أفراد رعيته تجاوز الثانية عشرة أن يجدد له قسم الولاء والطاعة ، وأن يتعهد بأن يكون لا مجرد فرد طيب من أفراد الرعية بل مسيحياً صالحاً . وكان رفض التعميد والارتداد بعد التعميد جرائم عقوبتها الإعدام .

فعل الشيء الكثير لتشجيع فن العمارة ، فاستحضر معماريين إيطاليين عديدين ، من رافنّا (Ravenna) بصفة خاصة ، ونحن مدينون لهم بكثير من المبانى الجميلة التى ما زالت تبهج السائحين فى ورمز وكولونيا (كولن) وغيرهما من بلدان أرض الراين . وبذل جهداً كبيراً للنهوض بفن العمارة « الرومانسكى »[1] الذى سنصفه فى القسم التالى . وأسس عدداً من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة ، وفعل الشيء الكثير لتشجيع دراسة اللاتينية (الكلاسيكية) القديمة ، وكان هاوياً ممتازاً شديد الولع بموسيقى الكنيسة . على أن احتمال تحدثه باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فيها جدال ونظر ؛ ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية . ومع ذلك فإن الفرنجية (Frankish) هى لغته العادية . وقام بجمع مجموعة من الأغانى والأقاصيص الألمانية القديمة . على أن خلفه لويس الورع دمر هذه لوثنيتها .

(١) الرومانسكى طراز من فن العمارة وسط بين الطرازين الرومانى والقوطى . انتشر بغرب أوربا بين القرن التاسع والثالث عشر . (المترجم)

وتبادل الرسائل وهرون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد ، الذى يحتمل أن مودته له لم تتأثر قط بما لقيه العرب الأمويون فى أسبانيا على يديه من شديد النكال ويرى جيبون أن هذه « المراسلات العلنية كانت تقوم على الغرور » ، وأن « مركزيهما المتباعدين لم يتركا أى مجال لاحتكاك المصالح » . ولكن لما كانت الإمبراطورية البيزنطية تقوم بينهما فى الشرق ، والخلافة المستقلة بأسبانيا فى الغرب ، والخطر المشترك من أتراك السهول العظيمة ، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل المودة القلبية . ويقول جيبون إن هرون الرشيد أرسل إلى شرلمان على يد سفرائه فسطاطاً فاخراً وساعة مائية وفيلا ومفاتيح الناووس المقدس . والهبة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربى كان يَعدّ شرلمان إلى حدٍ ما ، حامى المسيحيين والممتلكات المسيحية فى مملكته ، ويعلن بعض المؤرخين صراحة — أنه قد كانت هناك معاهدة بهذا الصدد .

٧ - الفن والعمارة الرومانسكيان

كان يحدث فى الشرق بدافع المؤثرات المسيحية ، أن فن عمارة الإمبراطورية الرومانية الفاخر الاتزان والجمود ، أى فن العمارة الذى يوجد فى تدمر وبعلبك . قد ألم به تحوير سريع عميق تحول به نحو جمود الجزالة الأثيرية التى للطراز البيزنطى ؛ أما فى الغرب فكانت تلم به تطورات مشابهة وإن لم تكن مناظرة لتلك تماماً . وقد شاع إطلاق اسم « الرومانسكى » على أضرب جمة من المبانى تتبدى فيها جميعاً صفة مشتركة ، لأنها مشتقة جميعاً من التقاليد الفنية الرومانية ، التى أوهن قوتها وكبحها انتشار الفقر بصفة عامة فى أرجاء العالم ، ولكنها تشهد أيضاً فى كل مكان بوجود تأثيرات عنصرية جديدة وضرورات اجتماعية جديدة . فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات عظيمة للماء ولا أى أقواس نصر ولا معابد تقام للآلهة . بل كانت هناك حصون وقلاع ضخمة مستديرة أو مربعة ، وكنائس وأبراج . ويصبح البرج آنذاك لأول مرة مهما فى أوربا ؛ ذلك أن فن العمارة أخذ يعلو صُعُداً . وقد كنا حتى الآن لا نشاهد



(شكل ١٢٧) رسم بارز من قبر شرلمان فى إيكس لاشابل يمثله وهو يكرس كنيسة العذراء

الأبراج إلا فى أرض الجزيرة بالعراق . ولم تحاول المبانى فى العالم المصرى ولا الهلّينى ولا الرومانى أن تشق عنان السموات . حقاً إنه توجد أبراج فى التحصينات الرومانية والهلّينية وفى سور الصين العظيم ، وهى أجزاء من الاستحكامات الدفاعية ، ولكن هذا يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحقبة المسيحية . ثم يصبح البرج ضرورة لا بد منها فى عالم يغير عليه الهون والعرب وقراصنة البحر من كل الأنواع — وسنحدثك فى قسم قابل عن أهل الشمال (Northmen) والعرب والمجريين . وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسبب صلاة الجماعة التى يدعو إليها الدين الجديد ، وطبيعى أن يظهر الاثنان جنبا إلى جنب .

وتشترك ديانتا « الكتاب والفكرة » الجديدتان : النصرانية والإسلام ، فى هذه الصفة ؛ فإنهما جهدتا أن تصلا إلى قلب كل إنسان . فكان لابد من حشد الناس فى مكان العبادة والقربان ؛ وكان لا بد من تذكيرهم بالصلاة والعقيدة . ولهذا أطلق فن العمارة الإسلامى أرق زهراته ، وهى المئذنة التى يمكن من فوقها دعوة الناس

وهدايتهم . ولم تعد المسيحية تستطيع الاكتفاء بالمعبد المظلم الصغير الخاص بالآلهة الأقدمين ؛ فكان لزاما أن تبنى الكنائس كبيرة متسعة الجنبات ، لتضم كل من فى الناحيــة من المؤمنين . وكان لا بد من دعوة الناس ببرج الجرس . فهجر طراز المعبد الإمبراطورى ، ودعت الحاجة إلى المبانى الفسيحة المعماريين المسيحيين للتحول بوجهتهم إلى نموذج دور القضاء الرومانية وأعنى بها الباسيليقا (Basilicas)[1].

ومن المستحيل علينا فى هذا المجال المتاح لنا أن نقفو الفن « الرومانسكى » بمختلف أنواعه وأشكاله الجمة ، فنراه وهو ينتقل متحولا إلى فن بيزنطى ناحية الشرق ثم وهو يُعدّل على يد النورمانديين والسكسون والفرنجة . على أن عهد الاستقرار الذى حل إبان حكم شرلمان جمع تحت رعايته كل ما فى أوربا الغربية من قوى فنية ، وإنما يصل الطراز الرومانسكى إلى أبرز مستويات تعبيره عن ذاته فى مبانى كاتدرائية إكس لاشابل (آخن) وأمثالها .

وكما حدث من اختفاء الأشكال المجسمة الممثلة للكائنات الحية الذى لاحظناه فى الفنين البيزنطى والعربى ، تواصل فى أوربا الغربية أثناء تلك العصور المضطربة ، اختفاء مناظر له وإن لم يكن تاماً . حتى أن المثّال الذى كان يسطيع أن يعالج بقوة أوضاع الإنسان أو الحيوان ، لم يعد له وجود على ظهر البسيطة فى أية منطقة غربى بلاد الهند . والتجأ فن النقش والتصوير إلى الأديرة . إذ أن تحلية الكتب بالصور ارتفعت إلى مستويات عالية من الإتقان فى الإمبراطوريتين الرومانية والهلّينية ، ولم تندثر قط اندثاراً تاماً . وإنما أبقاها على قيــد الحيـــاة غدوات الرهبان المسيحيين وروحاتهم ، كما كان يتجدد فيها النشاط بتبادل الأساليب والفكرات . وكانت الأديرة الإرلندية تخرج منذ عصر مبكر يتناهى إلى القرن السابع مخطوطات ذات جمال أخّاذ . ويرجع كتاب الرقائق[2](The Book of Kells

---

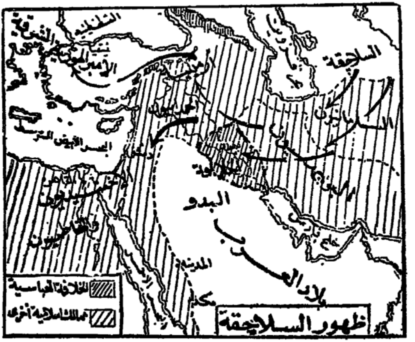
(١) الباسيلقا أو البازيليك أصلها عند الرومان قاعات مستطيلة ذات صفين من الأعمدة ولها محرب نصف دائرى فى نهايتها ، تستخدم فى الشئون القضائية والمالية — وتحول أكثرها فيما بعد إلى كنائس مسيحية . (المترجم)

(٢) كلمة معناها الجلد الرقيق أو الغشاء أو المشبكات (على نحو ما يراه الإنسان فى الشبكة من خيوط متقاطعة تاركة بينها ثقوباً أو منافذ) وعليه يمكن تسمية هذا الكتاب باسم «كتاب الرقائق أو المشبكات» (المترجم)

٩ – النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وشعوب فرنسا وإنجلترة تظهر كما ترى فى وسط التمزق السياسى البالغ الذى أصاب مدنية أوربا الغربية ، فإن كلا من هذه المدنية والإمبراطورية البيزنطية قد تعرضت لهجوم مثلث الجوانب : من دول العرب ، ومن أهل دول الشمال ، ثم من شيء ثالث هو أبطؤها جميعاً تطوراً وأشدها بأساً : من زحف جديد نحو الغرب قامت به الشعوب التركية خلال جنوب الروسيا ، ومن آسيا الوسطى كذلك بطريق أرمينية وإمبراطورية بغداد .

فبعد أن أسقط العباسيون خلافة الأمويين ، تناقصت قوة الدافع العربى ضد أوربا . لم يعد العالم الإسلامى متحداً : إذ كانت أسبانيا تحت حكم خليفة أموى منفصل ؛ على حين أن شمال أفريقية وإن كان خاضعاً بالاسم للعباسيين ، كان فى حقيقتـــه مستقلا ؛ وما لبثت مصر أن أصبحت فى (٩٦٩) دولة منفصلة لها خليفة شيعى خاص بها ، وهو رجل ادعى الانتساب إلى على وفاطمة « وأسس الخلافة الفاطمية » .



(شكل ١٤٠ خريطة ظهور السلاجقة

وكان هؤلاء الفاطميون المصريون . وهم المسلمون ذوو العلَم الأخضر ، متعصبين بالمقارنة إلى العباسيين ، وفعلوا الشيء الكثير لتشويه ما بين الإسلام والمسيحية[١] من صلات طيبة . فاستولوا على بيت المقدس ، وتدخلوا فى زيارة المسيحيين للقبر المقدس ؛ وكانت هناك كذلك فى الناحية الأخرى من الأملاك العباسية المتقلصة ، مملكة شيعية مقرها فارس . وكان أهم فتح قام به العرب فى القرن التاسع هو صقلية ؛ ولكن ذلك الفتح لم يتم اجتياحاً على الطراز الرائع القديم أى فى سنة أو ما يقاربها ، بل تم إخضاعها فى جهد جهيد خلال قرن كامل من الزمان ، ومع نكسات كثيرة فى كفة الحرب . وكان عرب أسبانيا يتنازعون فى صقلية مع عرب إفريقية . وكان العرب فى أسبانيا ينهزمون ويتخلون عن أرضها أمام نهضة جديدة بذلها المسيحيون . ومع ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية وعالم المسيحية الغربية كانا ما يزالان من الضعف فى البحر المتوسط بحيث استطاع المغيرون والقراصنة العرب من شمال إفريقية ، أن يغيروا على جنوب إيطاليا والجزر اليونانية دون أن يجرؤ أحد على تحديهم .

على أن قوة أخرى جديدة أخذت تظهر آنذاك فى البحر المتوسط . وقد سبق أن أشرنا أن الإمبراطورية الرومانية لم تبسط نفوذها مطلقاً على شواطىء البلطيق ، ولا كان لديها قط القوة لدفع سلطانها إلى بلاد الدانيمرك . وتعلمت الشعوب الآرية النوردية فى تلك الأقاليم المهملة الشيء الكثير من الإمبراطورية التى لم تستطع إخضاعهم ؛ وقد استطاعوا كما أسلفنا النهوض بفن بناء السفن وأصبحوا ملاحين ذوى إقدام ؛ فانتشروا عبر بحر الشمال غرباً ، وعبر بحر البلطيق وأعلى الأنهار الروسية إلى صميم ما هو الآن الروسيا . وكانت نوفجورود الكبرى من أقدم مستعمراتهم فيها .

وإن دارس التاريخ لا يفتأ يجد فى حالة هذه الشعوب الشمالية ما كان يثقله من المشقة والربكة لدى دراسته للإسكنديين فى الأزمان القديمة ، والشعوب التركية

---

(١) أطلق هنا المؤلف القول على عواهنه ، إذ المعروف حقيقة أن تسامح الفاطميين مع السنيين والكتابيين كان مضرب الأمثال ، فقد اتخذوا من المسيحيين واليهود على السواء وزراء وكاتمى أسرار وتزوجوا منهم ، وكان بعض خلفائهم من أمهات كتابيات . (المترجم)

الهونية فى آسيا الشرقية والوسطى . فإنها تظهر تحت عدد وفير من الأسماء ، كما أنها تتغير وتتخالط . ففى حالة بريطانيا مثلا ، ترى أن الإنجليز والسكسون والجوت قد غزوا معظم ما هو الآن بريطانيا فى القرنين الخامس والسادس ، وجاء فى أعقابهم فى القرنين الثامن والتاسع الدانيمركيون وهم موجة ثانية من نفس الشعب تقريباً ؛ وفى (١٠١٦) حكم فى إنجلترة ملك دانيمركى ، هو كانوت الكبير ، ولم يقتصر ملكه على إنجلترة بل تعداها إلى الدانيمرك والنرويج . وكان رعاياه يمخرون البحر بسفنهم إلى أيسلندة وجرينلندة وربما إلى القارة الأمريكية ، وجاء حين من الدهر تبدت فى الأفق فيـــه إبان حكم كانوت وأبنائه ، بوادر احتمال إنشاء اتحاد عظيم من أهل الشمال .

ثم انثالت فى (١٠٦٦) موجة ثالثة من نفس الشعب إلى إنجلترة ، من دولة « النورمان » فى فرنسا ، حيث كان أهل الشمال مستقرين منذ أيام رولف العدّاء (٩١١) ، وحيث تعلموا أن يتكلموا الفرنسية . وأصبح وليم دوق نورماندى وليم الفاتح (١٠٦٦) فى التاريخ الإنجليزى .

وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب من زاوية التاريخ العام ، وجدناها جميعاً تكاد تكون شعباً واحداً ، وألفيناها موجات من أرومة نوردية (شمالية) واحدة . ولم تكن هذه الموجات تتجه غرباً فحسب بل شرقاً كذلك . ولقد سبق لنا أن سجلنا حركة جد شائقة قبل هذه لنفس الشعوب تحت اسم القوط تتجه من البلطيق إلى البحر الأسود . وتتبعنا تفرع هؤلاء القوط إلى القوط الشرقية والقوط الغربية ، كما تأثرنا التجولات المليئة بالمغامرات التى انتهت آخر الأمر بتكوين مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا ودويلات القوط الغربيين فى أسبانيا . فى القرن التاسع ، كانت لأهل الشمال حركة ثانية عبر الروسيا فى نفس الوقت الذى كانت فيه مؤسساتهم فى إنجلترة ودوقيتهم فى نورماندى قد أخذت تظهر إلى عالم الوجود .

ولا شك ان بين سكان جنوب اسكتلنـــدة وإنجلترة وشرق إيرلندة وفلاندر ونورماندى والدول الروسية من العناصر المشتركة ما لا يكاد يخطر ببالنا بحكم الإلف

والعادة . فهم جميعاً من الناحية الأساسية شعوب قوطية ونوردية . وإن القرابة بين الروس والإنجليز لنلحظ حتى فى موازين الطرفين ومكاييلهم . فإن لدى كل منهما البوصة والقدم الشماليين (Norse) ، كما أن كثيراً من الكنائس النورماندية الأولى فى إنجلترة قد بنيت على مقياس يبين استعمال الساچينى (وهو يعادل ٧ أقدام) وربع الساچينى ، وهو مقياس نورسى (شمالى) لا يزال مستعملا فى الروسيا . وكان أهل الشمال « الروسيون » هؤلاء يسافرون زمن الصيف ، مستعملين الطرق النهرية الوفيرة فى الروسيا ؛ وكانوا يحملون سفنهم على الأراضى الفاصلة بين الأنهار المتجهة شمالا وتلك التى تنساب جنوباً . وقد ظهروا على صورة قرصان أو مغــيرين و تجار فى كل من بحرى قزوين والأسود . وذكر المؤرخون العــرب ظهورهم على بحر قزوين ، وتعلموا أن يسموهم الروسيين . وقد أغاروا على فارس ، وهددوا القسطنطينية بأسطول عظيم من الزوارق الصغيرة (فى ٨٦٥ ، ٩٠٤ ، ٩٤١ ، ١٠٤٣ م)[١] .

وفى عام ٨٥٠ م تقريباً نصب روريك أحد أهل الشمال هؤلاء ، نفسه حاكماً على نوفجورود ، واستولى خليفته الدوق أوليج (Oleg) على مدينة كييف وبذلك وضع أسس روسيا الحديثة . وسرعان ما قدرت القسطنطينية ما لدى الڤيلك إنجز الروس من صفات حربية ؛ وكان الروم (اليونان) يسمونهم الڤارانچيين (Varangians) ، وأنشئ من هؤلاء الڤارانچيين حرس إمبراطورى خاص . وبعد غزو النورمانديين لإنجلترة (١٠٦٦) دُفع بعدد من الدانيمركيين والإنجليز إلى المنفى فلحقوا بهؤلاء الڤارانچيين الروسيين ؛ وواضح أنهم لم يجدوا إلا شيئاً لا يكاد يذكر من الفوارق فى اللغة والعادات يحول دون اختلاطهم بعضهم ببعض .

وفى نفس الوقت كان النورمانديون النازحون من نورماندى كذلك يكتشفون طريقهم إلى البحر المتوسط من الغرب . فهبطوه بادئ ذى بدء مرتزقة ، ثم مغيرين

(١) هذه التواريخ منقولة عن جيبون بينما يحددها بيزلى ٨٦٥ ، ٩٠٤ - ٩٠٧ ، ٩٣٥ ، ٩٤٤ ، ٩٧١ - ٩٧٢ (History of Russia مطبعة كلارندن) . (المؤلف)

لحسابهم الخاص فيما بعد ؛ ويهمنا أن نسجل هنا أن انتقالهم الرئيسى لم يكن بطريق البحر ، بل فى شراذم متناثرة بطريق البر . جاءوا مخترقين أرض الراين وإيطاليا ، يبحثون من ناحية عن الخدمة الحربية والأسلاب ، ومن ناحية أخرى بوصفهم حجاجاً . ذلك أن القرنين التاسع والعاشر شهدا إقبالا عظيما على الحج :

وحين بلغ هؤلاء النورمانديون مبلغ القوة ، تنبهوا لأنفسهم وإذا بهم لصوص سلابون ذوو بأس ، حتى لقد أرغموا الإمبراطور الشرق والبابا أن يبرما ضدهم معاهـــدة ضعيفة غير فعالة (١٠٥٣) . فهزموا البابا وأسروه ثم عفا عنهم . وثبتوا أنفسهم فى كالابْريا وجنوب إيطاليا وانتزعوا صـقلية من العرب (١٠٦٠ — ١٠٩٠) ، ثم هددوا الإمبراطورية البيزنطية نفسها (١٠٨١) تحت إمرة روبرت جويسكارد ، الذى هبط إيطاليا حاجاً مغامراً وبدأ حياته قاطعاً للطرق فى كالابريا . كان جيشه يضم كتيبة من الصقليين المسلمين ، فعبر به البحر من برنديزى إلى إيبروس (Epirus) فى اتجاه مضاد لذلك الذى عبره الملك پيروس لمهاجمة الجمهورية الرومانية ، قبل ذلك بثلاثة عشر قرنا (٢٧٣ ق . م) . فألقى الحصار على مدينة دورازو البيزنطية المنيعة ؛

وفتح روبرت دورازو (١٠٨٢) . على أن حرج الحالة فى إيطاليا استدعى عودته إليها ، ووضع حداً نهائياً لهذا الهجوم النورماندى الأول على إمبراطورية بيزنطة ، مهيئاً بذلك فرصة لحكم أسرة آل كومنين[١] القوية نسبياً (١٠٨١ — ١٢٠٤) .

وحدث أن روبرت جويسكارد تمكن فى أثناء منازعات أشد تعقيداً من أن يتسع لها المقام هاهنا — من محاصرة روما ونهبها (١٠٨٤) ؛ ولهذه المناسبة ينبه جيبون المعادى للمسيحية فى غبطة واطمئنان — إلى وجود تلك الكتيبة من مسلمى صقلية بين الناهبين . ثم حدثت فى القرن الثانى عشر ثلاث هجمات نورماندية أخرى على الدولة الشرقية ، إحداها على يد ابن روبرت جويسكارد ؛ والأخريان من صقلية مباشرة بطريق البحر . . . .

ولكن لم يقيض للعرب ولا للنورمانديين أن يدقوا الإمبراطورية العجوز فى بيزنطة

---

(١) انظر المترجم فى مجموعة الألف كتاب ومكتبة النهضة كتاب «الحضارة البيزنطية» تأليف ستيفن رانسيمان .

أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة تلك الإمبراطورية الشيخة المتصابية فى الغرب ؛ يمثل تلك القوة التى جاءت بها الطعنة المزدوجة من المراكز الطورانية فى آسيا الوسطى ، التى يجب أن نتحدث عنها الآن .

لاحظنا فيما سلف حركة الآفار نحو الغرب والمجريين الأتراك الذين ترسموا خطاهم . فمنذ أيام پپين الأول فما بعدها ، كانت الدولة الفرنجية وما خلفها من دول فى ألمانيا ، فى نزاع مع هؤلاء المغيرين الشرقيين على امتداد أراضى الحدود الشرقية بأسرها . وقد صدمهم شرلمان وأنزل بهم النكال وأسس لنفسه ضرباً من السيادة العليا بمنطقة امتدت شرقاً حتى جبال الكربات ؛ ولكن هذه الشعوب عادت فى فترة الضعف الذى تلا وفاة شرلمان — وقد تخلطت عند ذاك تخلطاً يتراوح زيادة ونقصاناً وتسمت فى البيانات التاريخية باسم الهنغاريين — عادت فاستردت بقيادة المجريين حريتها كاملة غير منقوصة وأخذت تغير كل عام إغارات كانت تصل أحياناً إلى نهر الراين . ويذكر جيبون أنهم دمروا دير القديس جال (G) بسويسرا ومدينة بريمن بألمانيا . وكانت أعظم فترات غاراتهم بين ٩٠٠ ، ٩٥٠ . كما أن أقصى جهد بذلوه هو الذى توغلوا به خلال ألمانيا إلى فرنسا ، ثم ساروا من فوق جبال الألب ، عائدين إلى وطنهم ثانية بطريق شمال إيطاليا وذلك فى ٩٣٨ ، ٩٣٩ . ولما كان هذا الشعب من اللصوص فى خارج بلاده ، فقد كان يستمتع فى موطنه بحرية عظيمة جداً . إذ يقال إنهم كان لهم فى القرن العاشر دستور سياسى تقليدى موروث .

وإذ أن هذه الاضطرابات وأخرى سنلحظها من فورنا دفعت بالبلغار جنوباً — فإنهم وطدوا أقدامهم كما ذكرنا آنفاً بين الدانوب والقسطنطينية تحت إمرة كُرُوم (Krum) . والبلغار شعب تركى الأصل ولكنهم منذ ظهورهم لأول مرة فى شرق الروسيا ، كادوا يصبحون بالتخليط المتكرر صقالبة تماماً فى جنسهم ولغتهم . وأقاموا على الوثنية حينا بعد استقرارهم الأول فى بلغاريا . وقد أولم ملكهم بوريس (٨٥٢ — ٨٨٤) الولائم لمبعوثين من المسلمين ، ويلوح أنه فكر فى اعتناق الإسلام ، على أنه تزوج آخر الأمر أميرة بيزنطية ، وسلم نفسه وشعبه للعقيدة المسيحية .

وممن أدب الهنغاريين (المجر) حتى أخذوا يحترمون الحضارة الغربية بعض الشىء هنرى

الصياد ملك ألمانيا المنتخب وأوتو الأول أول إمبراطور سكسونى فى القرن العاشر . بيد أنهم لم يوطنوا النفس على اعتناق المسيحية حتى قرابة ١٠٠٠ م . وهم وإن تنصروا ، فإنهم احتفظوا بلغتهم التركوفنلندية (المجرية) ، ولا يزالون يحافظون عليها إلى يومنا هذا . واحتفظوا كذلك بقدر معين من الحرية تحت الملكية التى فرضت عليهم . ودستورهم المكتوب « الخاتم الذهبى Golden Seal » يرجع تاريخه إلى ١٢٢٢ ، وهو عديل « شرقى » (للماجناكارتا) أى العهد الأعظم الإنجليزى فى تقييده لسلطة الملك المطلقة . واشترط الملك استيفن أول ملوك المجر عند ما قبل المسيحية رسمياً ، أن المجر — على عكس بوهيميا وبولندة — يجب ألا تدخل فى نطاق الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ومع ذلك فإن البلغار والهنغاريين ليسوا آخر الشعوب الذين كانت تحركاتهم نحو الغرب قوام الزحف التركى عبر جنوب الروسيا . إذ اندفع الخزر من خلف الهنغاريين والبلغار ، والخزر شعب تركى اختلطت به نسبة عظيمة جداً من اليهود المطرودين من القسطنطينية ، فاختلطوا بهم واجتذبوا إلى دينهم عدداً كبيراً منهم تحولوا عن الوثنية . وإلى هؤلاء الخزر اليهود يجب أن تنسب مستوطنات اليهود العظيمه فى بولندة والروسيا . ثم جاء فى أعقاب الخزر أيضاً فغلبوا عليهم وعمروهم قوم هم البتشنج (أو الپاتشيناق) ، وهم شعب تركى متوحش نسمع عنهم لأول مرة فى القرن التاسع ، وقد كتب لهم أن ينحلوا ويختفوا كما فعل ذوو قرباهم الهون قبل ذلك بقرون خمسة .

وعلى حين كانت كل هذه الشعوب تسير غرباً ، فإن علينا عند ما نفكر فى سكان تلك الأقاليم الروسية الجنوبية ، أن نتذكر أيضاً غدو أهل الشمال ورواحهم بين البلطيق والبحر الأسود ، وتوثق صلاتهم بالمهاجرين الأتراك توثق السدى باللحمة ، وأن لا يغيب عنا أيضاً أنه كان هناك عدد ضخم من السكان الصقالية ، ورثة وخلفاء الإسكيذيين والسرماتيين[1] ومن شابههم ، الذين استوطنوا آنفاً تلك المناطق الخصبة

(١) Sarmatians سلالة تنتمى إلى فصيلة تكلمت نفس اللغة التى كان يتكلمها الإسكيذيون ، ويعتقد أنها انحدرت من أصل ميدى ، ولذلك فهى من الجنس الإيرانى ؛ ولو أن بعض الباحثين يظن أنها تنتمى إلى الجنس الآرال الطائى Ural-altaic : ويطلق الناس فى حديثهم أحياناً لفظة سرماتيو على البولنديين . انظر المعالم ص ٣٠٥ ط ٣ . (المترجم)

المضطربة المحرومة من كل قانون . اختلطت كل هذه الأجناس أحدها بالآخر وتفاعلت بعضها مع بعض . وبذلك انتشار اللغات الصقلبية (السلافونية) انتشاراً عاماً فى كل مكان عدا بلاد المجر ، على أن السكان ظلوا يغلب عليهم العنصر السلافى . فأما ما هو الآن ورومانيا ، فعلى الرغم من تكرار مرور الشعوب ومن الغزو تلو الغزو . ظلت تقاليد وتراث الولايتين الرومانيتين داكيا وموبسيا السفلى تحافظ على بقاء لغة وذكريات لاتينية .

على أن هذا التوغل المباشر للشعوب التركية ضد المسيحية فى شمال البحر الأسود لا يكاد فى النهاية يبلغ فى الأهمية درجة توغلهم غير المباشر فى جنوبيه خلال دولة الخلافة . وليس فى إمكاننا أن نتناول هنا قبائل الشعوب التركية التركستانية وانقساماتها ولا الأسباب الخاصة التى أبرزت إلى مكان الصدارة القبائل التى كانت تحت حكم العشيرة السلجوقية . ففى القرن الحادى عشر انطلق هؤلاء الأتراك السلجوقيون بقوة لا تقاوم لا فى جيش واحد ، بل فى مجموعة من الجيوش وتحت إمرة أخوين ، — وأطبقوا على الحطام المتداعى للإمبراطورية الإسلامية .

ذلك بأن الإسلام كف من زمن بعيد عن أن يكون إمبراطورية واحدة . فإن الحكم العباسى السنى انكمش حتى لم يعد يشغل إلا رقعة الأرض التى كانت تسمى « بابل » يوماً ما ، وحتى فى بغداد نفسها لم يكن الخليفة إلا كائناً يدين بمنصبه لحراس قصره الأتراك . فإن تركيا ذا سلطان كسلطان « محافظ القصر » كان الحاكم الحقيقى . وإلى الشرق من الخليفة فى فارس وإلى الغرب منه فى فلسطين وسوريا ومصر ، كان فى الحكم طوائف شيعية متزندقة[1] .

وكان هؤلاء الأتراك السلجوقيون سنيين يأخذون بالعقيدة السلفية ، فأطبقوا عند ذلك على الحكام الشيعيين ومغتصبى السلطان ، وغلبوهم ، وأقاموا أنفسهم حماة للخليفة البغدادى ونقلوا لأنفسهم سلطة « محافظ القصر » الزمنية . وانتزعوا أرمينية من يد الروم فى زمن مبكر جداً ، وإذ تهيأ لهم النفاذ من الحدود التى صدت قوة الإسلام أربعة قرون ، اندفعوا لغزو آسيا الصغرى إلى ما يدانى أبواب القسطنطينية . فقد نتج

(١) لا إخال السنيين يعدون الشيعة من الكفرة ، اللهم إلا عند بعض المتعصبين ، وذلك لأنهم فى الواقع مسلمون يؤمنون بالله ونبيه وكتبه . (المترجم)

عن غزو أرمينية أنهم داروا من الشمال الشرقي حول حاجز قيليقية الجبلي الذي طالما صد جيوش المسلمين . ثم ما لبث الترك تحت قيادة ألب أرسلان الذي وحّد في يده كل قوة السلجوق ، أن حطموا الجيش البيزنطي تحطيماً تاماً في موقعة ما نزيكرت (Manzikert) أو ملازجرد (Melasgird) (١٠٧١) . وكان تأثير هذه المعركة في أخيلة الناس عظيماً جداً . ذلك أن الإسلام الذي بدا عليه الانحلال البالغ والذي كان منقسماً على نفسه دينياً وسياسياً ، قد تنبه الناس إليه فجأة ، وإذا به قد نهض ثانية من كبوته ، وكانت الإمبراطورية البيزنطية العجوز الآمنة هي التي لاح أنها على شفا الانهيار .

كان فقدان آسيا الصغرى سريعاً جداً . واستقر السلاجقة في قونية (Iconium) ، فيما هو الآن بلاد الأناضول . ولم يمض طويل زمن حتى آلت إليهم قلعة نيقيا المقابلة للعاصمة .

١٠ – كيف استغاثت القسطنطينية بروما

سبق أن تكلمنا عن هجوم النورمانديين على الإمبراطورية البيزنطية من الغرب ، وعن معركة دورازو (١٠٨٢) ؛ كما ألمعنا إلى أن القسطنطينية كانت لا تزال تعي ذكريات قوية وحية عن الغارات الروسية البحرية (١٠٤٣) . لا جرم أن بلغاريا روّضت ونُصّرت . ولكن حرباً ضروساً غير فاصلة كانت تدور رحاها بينها وبين البتشنج (البشناق) . وكانت يدا الإمبراطور مليئتين بالمشاغل في الشمال والغرب . وها قد جاء من الشرق ذلك التهديد الخطير الذي زاد الطين بلة . ولا بد أن تقدم الأتراك السريع في تلك البلاد التي طال بها العهد بأيدي بيزنطة قد لاح لها في صورة النذير النهائي بكارثة قاضية . لذلك اتخذ الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع بدافع هذه الأخطار التي تناوشته من كل جانب ، خطوة يرجح أنها بدت له ولروما على السواء ذات أهمية سياسية قصوى . فإن العالم اليوناني تطلع إلى أخيه اللاتيني الذي دب فيه دبيب الحياة من جديد . والتمس المساعدة من البابا جريجوري السابع . وما لبث خلفه

ألكسيوس كومنينوس أن كرر ذلك الرجاء على البابا إربان الثانى فى مزيد من الإلحاح والاستحثاث .

ولا بد أن هذه الاستغاثة بدت فى أعين مستشارى روما نهزة نادرة لتأكيد رياسة البابا على العالم المسيحى بأسره .

ولقد تتبعنا فى هذا التاريخ نمو هاته الفكرة الذاهبة إلى إنشاء حكومة دينية لعالم المسيحية — وللبشر كافة من خلال عالم المسيحية ذاك — وأظهرنا كيف أنه كان من الأمور الطبيعية التى تقتضيها الضرورة أن تجد تلك الفكرة فى روما مركزاً لها بسبب ما اختصت به من متوارث التقاليد عن فكرة الإمبراطورية العالمية . كان بابا روما هو البطريرك الوحيد فى الغرب ؛ وكان رئيساً دينياً لمنطقة مترامية الأطراف ، لغتها السائدة هى اللاتينية ؛ فأما بطاركة الكنيسة الأرثوذكسية الآخرون فهم قوم يتكلمون اليونانية ، وبذا كان صوتهم غير مسموع فى كل أرجاء ممتلكاته ؛ هذا إلى أن إضافة عبارة « ومن الابن أيضاً Filio pue » إلى العقيدة اللاتينية أدت إلى فصل المسيحيين البيزنطيين بوساطة إحدى النقاط الدقيقة الخفية التى يتعذر معها كل توفيق . (وتم الانفصال النهائى فى ١٠٥٤) .

كانت حياة قصر اللاتيران دائمة التغير من كل نواحيها بتغير شاغل كرسى القديس بطرس ؛ فكانت روما البابوية فى بعض الأحيان مباءة فساد ودنس ، شأنها أيام يوحنا الثانى عشر ؛ وكان يظلها فى أحيان أخرى سلطان رجال يفكرون تفكيراً رحباً ونبيلا . على أنه كان من وراء البابا جمعية الكرادلة والقساوسة وعدد كبير من الموظفين ذوى التعليم الراقى ، الذين لم يغب عن أبصارهم قط حتى فى أحلك الأيام وأفظعها ، تلك الفكرة العظيمة الفاخرة القائلة بمملكة دنيوية مقدسة ، وبسلام من المسيح يعم أرجاء الأرض قاطبة ، وهى الفكرة التى ترجم عنها القديس أوغسطين . ظلت هذه الفكرة طوال العصور الوسطى هى القوة الهادية التى توجه روما . أجل إنه حدث أحياناً أن سادتها بعض العقول الخبيثة ، وعندئذ تلعب روما فى شئون العالم دور عجوز شرهه خؤون ماكرة مكراً جنونياً ؛ وربما جاء فى إثر ذلك دور رجولة

ودهاء دنيوى كامل أو دور رفعة وعظمه . ثم قد تأتى بين هذا وذاك فترة تعصب أو تقعر وادعاء للعلم ، يوم يغدو الاهتمام كله منصباً على الدقة المذهبية . أو ربما حدث انهيار خلقى ، يصبح معه اللاتيران عرشاً لأحد المستبدين بأمرهم المنغمسين فى الملذات أو المغرمين بالجمال المستعدين لبيع كل ما تستطيع الكنيسة أن تقدمه من أمل أو شرف مقابل نقود ينفقها على الملذات والمظاهر . ومع ذلك فإن سفينة البابوية كانت على الجملة تسير فى طريقها ، ولا تلبث حتى تبرز بعد ذلك أمام الريح ثانية .

وفى هذه الفترة التى وصلنا إليها الآن ، وهى مدة القرن الحادى عشر ، كانت وما تحت نفوذ شخصية سياسى عظيم نادر المثال ، هو هلدبراند (Hildbrand) ، الذى تولى مناصب متنوعة تحت رياسة مجموعة متعاقبة من البابوات ، ثم أصبح آخر الأمر بابا باسم جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) . وإنا لنجد أن الرذيلة والتوانى والفساد قد محيت بفضله من الكنيســـة تماماً ، وأن طريقة انتخاب البابوات قد أصلحت ، وأن كفاحاً عظيما قد استعر لهيبه مع الإمبراطور على مسألة ذات حيوية بارزة ، هى مسألة « التعيينات Investitures » . فهل كان البابا أو العاهل الزمنى هو صاحب القول الفصل فى تعيين الأساقفة على ابروشياتهم ؟ وإنا لندرك على وجه أحسن كم كانت تلك المسألة حيوية بالغة الأهمية إذا تذكرنا أن ما يزيد عن ربع الأراضى كان فى كثير من الممالك ملكاً لرجال الكنيسة . وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية يستطيعون حتى ذلك الحين أن يتزوجوا ؛ ولكن العزوبة فرضت آنذاك على جميع القسس رغبة فى فصلهم فصلا فعالا عن العالم وجعلهم أداة طيعة فى يد الكنيسة على وجه أكمل . . . . .

على أن النزاع على مسألة « التعيينات » حال بين جريجورى السابع وبين الاستجابة الفعالة لأول استصراخ جاءه من بيزنطة ؛ غير أنه ترك فى شخص إربان الثانى خليفة له ذا فضل وجدارة (١٠٨٨ — ١٠٩٩) ؛ فلما جاءته رسالة أليكسيوس ، استمسك إربان على الفور بالفرصة التى هيأتها له لضم كل الأفكار والقوة فى أوربا الغربية فى تيار واحد من الحمية والهدف . وكان يرجو من وراء ذلك أن يقضى على « الحروب الخاصة » السائدة فى أوربا ، ويجد المخرج المناسب الذى تنصرف إليه طاقة النورمانديين

الهائلة . ورأى فيها كذلك فرصة لتنحية الدولة والكنيسة البيزنطية عن مكانتهما ؛ وبسط سلطان الكنيسة اللاتينية على سوريا وفلسطين ومصر .

وسمعت أقوال مبعوثى أليكسيوس فى مجلس كنسى دُعى على عجل بمدينة پياتشنزا (بلاتشنتيا) . وفى السنة التالية عقد إربان فى كليرمونت (١٠٩٥) مجلساً عظيما ثانياً ، نظمت فيه كل قوى الكنيسة التى تجمعت فى بطء للقيام بدعاية لحرب عامة ضد المسلمين . وكان لزاماً أن تقف الحرب الخصوصية ويخمد كل ما بين المسيحيين من حروب ، حتى يطرد الكافرون . . . . [كذا ! ! . . .] وتصبح أرض القبر المقدس فى الأيدى المسيحية من جديد .

وإن حمية الاستجابة التى قوبلت بها تلك الدعوة لتمكننا من أن نفهم ذلك العمل العظيم من التنظيم البناء الذى تم فى أوربا الغربية فى القرون الخمسة السالفة . فإنا فى بداية القرن السابع ، رأينا أوربا الغربية خليطاً متناثراً من الحطام الاجتماعية والسياسية ، لاتجمعها فكرة مشتركة ولا أمل مشترك ، وألفيناها نظاما قد تحطم حتى كاد أن يصبح ذرّات من أفراد لا يبحثون إلا عن أنفسهم ومصلحتهم . فأما الآن ، ونحن فى ختام القرن الحادى عشر ، فيسرى بين الناس فى كل ناحية اعتقاد مشترك : أى فكرة جامعة ، قد يستطيع الناس أن يهبوها أنفسهم ، وبها يستطيعون أن يتعاونوا معاً فى مسعى جماعى عام . وإنا لنرى بأنفسنا هنا ما صنعته الكنيسة المسيحية بعملها وجدها ، بالرغم من وجود كثير من الضعف وعدم السلامة الذهنية والأخلاقية . وإنا لنستطيع أن نقدر الأدوار السيئة التى تردّت فيها روما أثناء القرن العاشر وما حوت من الفضائح والنجاسات والقتل والعنف ، — قدرها الحق إذا وزنّاها بميزان هذه الحقيقة الجديدة . ولا شك كذلك فى أنه كان يوجد فى كل أرجاء العالم المسيحى قساوسة كثيرون من الكسالى والشريرين الحمقى ، ولكن من البين أن عبء التعليم والتنسيق لم يتم إلا بواسطة عدد غفير من القسيسين والرهبان والراهبات الذين كانوا يعيشون عيش الصلاح . ذلك بأن حلفاً عظيما جديداً ، هو حلف العالم المسيحى قد ظهر فى هذ العالم ، وقام ببنائه آلاف من الأنفس المخلصة المجهولة .

ولم تقتصر هذه الاستجابة لدعوة إربان الثانى على من قد نسميهم بالمتعلمين . فلم يكن الأمر مجرد فرسان وأمراء يرغبون وحدهم فى الانخراط فى تلك الحروب الصليبية . وإلى جوار شخص إربان يجب أن نضع شخص بطرس الناسك ، وهو طراز من الرجال جديد فى أوربا ، وإن كان يذكرنا بعض الشىء بالأنبياء العبرانيين . قام هذا الرجل يدعو للحروب الصليبية بين عامة الناس . وكان يقص على الناس — إن صدقاً وإن كذباً ، إذ أن ذلك أمر لا يكاد يعنينا فى هذا المقام — قصة حجه إلى بيت المقدس ؛ ويحدثهم عن التدمير المنطوى على الاستهانة البالغة ، الذى أنزله بالقبر المقدس الأتراك السلجوقيون ، الذين أستولوا عليه فى زمان ما يقارب (١٠٧٥) (إذ ما يزال تاريخ هذه الفترة مبهماً جداً) ؛ ويحدثهم عن ضروب الغصب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعمدة التى ينزلونها بالحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة . طوّف هذا الرجل ، حافى القدمين وفى ثياب خشنة وممتطيا حماراً وحاملاً صليباً ضخماً ، أنحاء فرنسا وألمانيا ، وهو يخطب فى كل مكان جماهير حاشدة فى كنيسة أو شارع أو سوق .

وإنا لنتبين أوربا هنا وقد ألفت بينها لأول مرة فكرة واحدة وروح جامعة ! وإنا لنلمس هنا استجابة عامة من الغضب من قصة ظلم يقع فى مكان سحيق ، ونشهد تفهما سريعا لهدف مشترك يجمع بين الغنى والفقير على السواء . وليس فى طوقك أن تتصور حدوث ذلك الشىء فى إمبراطورية أوغسطس قيصر ، ولا فى أية دولة سابقة لها فى تاريخ العالم . وربما كان شىء من هذا القبيل ممكناً فى عالم « هيلاس » الأصغر حجماً بكثير ، أو فى بلاد العرب قبل الإسلام . فأما هذه الحركة فكانت تؤثر فى الأمم والممالك والألسن والشعوب . فمن الجلى إذن أننا نعالج هنا شيئاً جديداً ظهر فى العالم ، هو ارتباط جديد واضح بين المصلحة المشتركة وبين وعى الرجل العادىّ من العامة .

١١ ـ الحروب الصليبية

كانت هذه الحماسة المتأججة مختلطة منذ بدايتها بعناصر أكثر اتضاعاً . فقد كانت هناك الخطة الهادئة المضبوطة التقدير التى رسمتها الكنيسة اللاتينية الطموحة الحرة لإخضاع الكنيسة البيزنطية الخاضعة للإمبراطور والحلول محلها . وكانت هناك غريزة النهب الذى لا حد له لدى النورمانديين الذين كانوا يمزقون إيطاليا إرباً ويبعثرونها أشلاء . وسرعان ما حولت وجهتها آنذاك إلى عا مغانم جديد أوفر ثراء . وكان يخيم على الجموع التى ولّت عند ذاك وجهها شطر الشرق ، شيء أعمق فى التكوين البشرى من عاطفة الحب ، وأعنى به الكراهية الناجمة عن الخوف تلك الكراهية التى أججتها دعوات الدعاة الحانقة والمبالغة فى فظائع وقساوات الكفرة [كذا ! ! . . .] ناراً حامية .

وكانت هناك فضلا عن ذلك قوى أخرى تعمل عملها ؛ ذلك بأن السلاجقة والفاطميين غير المتسامحين كانوا آنذاك عقبة كأداء فى سبيل تجارة جنوا والبندقية صوب الشرق ، وكانت حتى ذلك الحين تنساب بطريق بغداد وحلب أو بطريق مصر . فلم يكن بد من فتح هذه المسالك المغلقة عنوة ، إلا إذا احتكر طريق القسطنطينية والبحر الأسود التجارة الشرقية احتكاراً تاماً . وفضلا عن ذلك فقد حدث فى (١٠٩٤ ، ١٠٩٥) وباء ومجاعة امتدا من نهر الشلت (Scheldt) إلى بوهيميا ، وترتب عليهما اختلال اجتماعى بليغ .

يقول المستر أرنست باركر « لا عجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة ، شأن ما يحدث فى الأزمنة الحديثة من انسياب الناس نحو منطقة للذهب حديثة الكشف ــ تيار يحمل فى أمواهه العكرة أدراناً كثيرة من المشردين والمفلسين ومتبعى المعسكرات والباعة المتجولين والرهبان اللاجئين والأشرار الفارين ، موسوم بنفس سمة الخليط المتعدد الألوان ، ونفس حمى الحياة ، ونفس التأرجحات بين الثراء والإدقاع التى تميز الاندفاع إلى منطقة الذهب اليوم » .



(شكل ١٤١) خريطة الحرب الصليبية الأولى

على أن هذه كانت أسبابا ثانوية مساعدة . فأما الحقيقة ذات الأهمية البالغة لدى مؤرخ البشرية فهى هذه « الإرادة النازعة إلى شن حرب صليبية » المتجلية فجأة على صورة إمكانية جماهيرية جديدة فى الشئون الإنسانية .

وقصة الحروب الصليبية مليئة بتفاصيل رومانسية رائعة الجمال يلتزم إزاءها كاتب معالم تاريخ أن يغفر لقلمه إذا هو انساب منه عند منعطف ذلك الميدان الجذاب . وكانت أول القوات التى سارت شرقا جماهير غفيرة من أناس غير منظمين أكثر منها جيوشا ، وقد حاولوا أن يتخذوا من وادى الدانوب طريقا لهم ، ثم ينحرفوا جنوبا إلى القسطنطينية . وكانت هذه هى « الحملة الصليبية الشعبية » . ولم يحدث البتة من قبل فى تاريخ العالم بأسره أن كان هناك مثل ذلك المشهد من الجماهير التى لا قائد لها أو تكاد والتى تحركها فكرة ؛ بيد أنها كانت فكرة بالغة الفجاجة .

فلما أن أصبحوا بين ظهرانى الأجانب ، لم يبد عليهم أنهم أدركوا أنهم لم يصلوا بعد إلى بلاد الكفرة[١] . وقد ارتكبت جماعتان عظيمتان من الغوغاء : هما مقدمة الحملة ، من ضروب الخروج عن الاعتدال فى بلاد المجر (حيث كانت اللغة – لا ريب – غير مفهومة لهم) ما استثار المجريين (الهنغاريين) إلى القضاء عليهم . فأعملوا فيهم السيف ذبحاً وتقتيلاً . وابتدأ حشد ثالث عمله بمذبحة كبيرة أعملها فى يهود أرض الراين – ذلك أن الدم المسيحى كان فائراً – ثم تمزق ذلك الجمع أيضاً فى هنغاريا . واخترق حشدان آخران أوربا بقيادة بطرس ووصلا إلى القسطنطينية ، وكم كانت دهشة الإمبراطور أليكسيوس وجزعه بالغين ! ! . . ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينهبون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر بالسفن عبر البسفور ، وهناك لم يهزمهم السلاجقة فقط بل ذبحوهم على بكرة أبيهم (١٠٩٦) .

ومما يؤسف له أن ظهور « الشعوب » لأول مرة كشعوب فى تاريخ أوربا الحديث ، كان ظهوراً تعساً غير موفق ، وقد أعقبه مجيء القوات المنظمة ١٠٩٧ المخصصة للحملة الصليبية الأولى . جاءوا من طرق شتى : – من فرنسا ونورماندى وفلاندر وإنجلترة وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكان النورمانديون عصب الحملة وعزيمتها ، فعبروا البسفور واستولوا على نيقيا التى اختطفها أليكسيوس منهم قبل أن ينهبوها .

ثم واصلوا مسيرهم على نفس الطريق الذى اتخذه الإسكندر الأكبر فى الغالب مخترقين البوابة القيليقية ، تاركين الأتراك فى قونية غير مهزومين ، ومجتازين ميدان معركة إيسوس ثم مواصلين السير إلى أنطاكية التى استولوا عليها بعد حصار قارب السنة . ثم هزموا جيشاً عظيماً جاء من الموصل لنجدتها .

وظل قسم كبير من الصليبيين فى أنطاكية ، وتقدمت قوة أصغر تحت قيادة جودفرى البويّونى (نسبة إلى بويّون Bouillon من أعمال بلجيكا) أماماً إلى بيت المقدس .

---

(١) غريب أن يشير الكاتب إلى المسلمين بالكفرة فإن كان ذلك منه متابعة لأهل العصر الذى يكتب فيه فما كان أحراه أن ينزه نفسه عن مثل هـذا الجهل بالإسلام وأهله ، وأنهم يعبدون الله وحده فلا شرك ولا كفران . (المترجم)

« وبعد حصار دام أكثر قليلا من شهر ، استولوا على المدينة نهائياً (١٥ يولية ١٠٩٩) . كانت المذبحة رهيبة ؛ وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع حتى لقد كان الرجال يصيبهم رشاش الدم وهم ركوب . وعند ما أرخى الليل سدوله ، جاء الصليبيون وهم « يبكون من فرط الفرح » إلى الناووس المقدس بعد حوضهم فيما أريق مس دم سال كالخمر من معصرة العنب . ورفعوا جميعاً أيديهم الملطخة بالدماء يصلون شكرا لله . وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى فى ذلك اليوم من شهر يولية »(١) .

وسرعان ما استحوذ رجال الدين اللاتينيون المرافقون للحملة على سلطة بطريرك بيت المقدس ، ووجد المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم تحت الحكم اللاتينى فى حال يكاد يكون أسوأ منه تحت حكم الأتراك . وكان أن تأسست إمارات لاتينية فى أنطاكية والرها Edessa ، وابتدأ النزاع على السلطان بين مختلف هؤلاء الملوك والقصور ، كما أخفقت محاولة كانت غايتها جعل بيت المقدس ملكاً للبابا . على أن هذه أمور معقدة تخرجنا عما بين أيدينا من مجال .

ومع ذلك فلنقتبس فقرة عامرة بما يتميز به جيبون من خصيصة : « وربما ملت فى أسلوب أقل وقاراً مما يليق بالتاريخ ، إلى تشبيه الإمبراطور أليكسيوس بابن آوى ، الذى يقال إنه يتعقب خطى الأسد ويلتهم ما يفضل منه . ومهما يكن مبلغ مخاوفه وعنائه أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى ، فإنه قد جوزى عليها أوفى جزاء بمـا اجتناه بعد ذلك من وراء مغامرات الفرنجة . فإن مهارته ويقظته أتاحت له احتياز نيقيا أولى فتوحهم ، ومن نقطة التهديد هذه اضطر الأتراك إلى إخلاء ما يجاور القسطنطينية من أرض .

« وعلى حين كان الصليبيون بشجاعتهم العمياء يتوغلون فى داخل أقطار آسيا ، انتهز اليونانى الماكر الفرصة المواتية وأفاد من استدعاء الترك أمراء ساحل البحر ليلتفوا حول لواء السلطان . فدُفع الأتراك من جزائر رودس وخيوس ؛ وأعيدت مدن

---

(١) باركر فى مادة « الحروب الصليبية » الموسوعة البريطانية .

إفيسوس وأزمير وسارديس وفيلادلفيا[١] واللاذقية إلى الإمبراطورية التى وسع أليكسيوس رقعتها من الهلس بونت (الدردنيل) إلى ضفتى نهر المياندر وإلى شواطئ پامفيليا[٢] الصخرية . وعادت الكنائس إلى سابق أبهتها ؛ وأعيد بناء المدن وتحصينها ؛ وعُمّر القطر القاحل بمستقرات من المسيحيين الذين نقلوا برفق من التخوم النائية الخطرة .



(شكل ١٤٢) قبر صلاح الدين

« وربما اغتفرنا كل أخطاء أليكسيوس من أجل هذه الرعايات الأبوية ، إذا نحن تناسينا خلاص الناووس المقدس ؛ ولكنه كان فى نظر اللاتين موصوما بتهمتى الخيانة والغدر القبيحتين ! ! وكانوا أقسموا يمين الولاء والطاعة لعرشه ؛ بيد أنه وعد

---

(١) فيلادلفيا : مدينة باقليم « ليديا » القديم بآسيا الصغرى واسمها الحديث « الأشهر » . (المترجم
(٢) پامفيليا : منطقة تقع بجنوب آسيا الصغرى . (المترجم)

بأن يساعدهم فى مغامرتهم بشخصه أو على الأقل بجنوده وأمواله ؛ فأحلهم نكوصه الدنىء من يمينهم ؛ وعندئذ صار السيف الذى أبلغهم ذرا النصر ، هو الكفيل بضمان استقلالهم العادل عنه . ولا يبدو أن الإمبراطور حاول أن يبعث من جديد مدعياته القديمة البالية على مملكة بيت المقدس ، على أن عهده بامتلاك حدود قيليقية وسوريا كان أحدث كما أنهما كانتا أقرب إلى ذراعيه منالا . وكان أن أبيد جيش الصليبيين العرمرم أو تشتت ؛ وكان أن شغرت إمارة أنطاكية وأصبحت بلا رئيس ، بمباغتة بوهمند وأخذه أسيراً ؛ وأبهظت الفدية كاهله بالدين ؛ ولم يكن لأتباعه النورمانديين كثرة فى العدد كافية لدفع عدوان الروم والترك .

« وقد أضمر بوهمند أثناء هذه المحنة عزماً كريماً على ترك الدفاع عن أنطاكية لقريبه المخلص تانكريد ؛ وعلى تسليح الغرب ضد الإمبراطورية البيزنطية ، وعلى تنفيذ الخطة التى ورثها درساً ومثالا عن أبيه جويسكارد . وأحيط نزوله إلى السفينة بالكتمان ؛ ولئن وثقنا بقصة ترويها الأميرة أنَّا ، فإنه مرَّ فى البحار المعادية مختبئاً اختباءً شديداً فى تابوت . (وتضيف أنَّا كومنينا[1] إلى ذلك أنه رغبة فى استكمال الخدعة ، أقفل عليه التابوت مع ديك ميت ؛ ثم تتنازل أنَّا فتعجب كيف استطاع الهمجى المتبربر أن يتحمل الحبس وريح التعفن الرمِّى . على أن هذه القصة السخيفة مجهولة لدى اللاتين) . واستقبل فى فرنسا بحفاوة لم يشبها أى مساس وذلك بفضل حسن استقبال الشعب له ، وزواجه من ابنة الملك ؛ وكانت عودته مجيـدة ، إذ أن أشجع رجال العصر قد انضووا تحت إمرته العسكرية الخبيرة ؛ وعاد فعبر الأدرياتى على رأس خمسة آلاف من الفرسان وأربعين ألفاً من المشاة ، اجتمعوا من أقصى أرجاء أوربا ومختلف أجوائها . غير أن مناعة دورازو ، وحصافة أليكسيوس واشتداد المجاعة واقتراب الشتاء فوتت عليه آماله الطموحة ؛ وقد أغرى الروم حلفاءه من المرتزقة على التخلى عن رايته . وعقدت محالفة سلام كانت حداً مؤقتاً لمخاوف الروم » .

عالجنا الحرب الصليبية الأولى على هذه الشاكلة من التطويل لأنها تبين تبياناً تاماً صفات هذه الحملات جميعاً . وأخذت حقيقة النضال بين النظامين اللاتينى

---

(١) أنا كومنينا : (و ١٠٨٣) هى ابنة الإمبراطور ألكسيوس ومؤرخة حياته ، ولعلها أول مؤرخة فى التاريخ . (المترجم)

والبيزنطى تتجلى للعيان شيئاً فشيئاً . وفى (١١٠١) وصلت الأمداد التى لعبت فيها أساطيل الجمهوريتين التجاريتين البندقية وجنوا دوراً بارزاً ، وامتد سلطان مملكة بيت المقدس .

وشهدت (١١٤٧) حملة صليبية أخرى ، اشترك فيها كل من الإمبراطور كونراد



(شكل ١٤٣) كنيسة القديس مارك بالبندقية ، وقد شادها فى القرنين ١١ و ١٢ فنيون معظمهم من اللومبارد والشرقيين

الثالث والملك لويس الفرنسى . كانت حملة أكثر فخامة وأقل نجاحاً وحماسة من سابقتها . وكان الدافع إلى إرسالها هو سقوط الرها فى يد المسلمين فى (١١٤٤) . وكان فيها فصيلة ضخمة من الألمان عمدت ، بدلا من أن تتجه إلى الأراضى المقدسة ، إلى مهاجمة وإخضاع شعب الوند (Wend) [1] شرقى نهر الإلب وكانوا لا يزالون وثنيين . فوافق البابا على ذلك واعتبره من الحروب الصليبية ، وكذلك كان شأن

---

(١) شعب الوند أو الفند : شعب من مجموعة الشعوب الصقلبية كالبولنديين . ولغتهم صقلبية وأبجديتهم لاتينية الأصل عددهم ١٥٠ ألفاً . ويحيط بهم الألمان ، ومع ذلك يحافظون للآن على تقاليدهم ولغتهم . (المترجم)

الاستيلاء على لشبونة ، وتأسيس الفصائل الإنجليزية والفلمنكية لمملكة البرتغال المسيحية .

وفى (١١٦٩) أصبح مغامر كردى اسمه صلاح الدين حاكماً على مصر ، ذلك القطر الذى قام فيه السنيون بثورة أسقطت الزندقة [كذا ! !] الشيعية التى أسسها الفاطميون بها . فوحد صلاح الدين هذا جهود مصر وبغداد ودعا إلى « الجهاد » ، أى الحرب المقدسة ، أو الحرب الصليبية المضادة ، مستنهضاً جميع المسلمين على المسيحيين . وقد أثار هذا « الجهاد » فى ديار الإسلام من المشاعر القوية ما يدانى ما أثارته الحرب الصليبية الأولى فى عالم المسيحية تقريباً . وتغير الحال آنئذ وإذا هو حال صليبى ينازل نظيراً له « صليبياً » (حسب تعبير المؤلف) ؛ واستعيدت بيت المقدس (١١٨٧) .

وأثار هذا الأمر الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٩) . وكانت هذه أيضاً حملة فاخرة وضع خطتها الإمبراطور فردريك الأول (الشهير باسم فردريك بربروسا[١] بالإشتراك مع ملك فرنسا وملك إنجلترة الذى كان يملك فى ذلك الوقت كثيراً من أجمل المقاطعات الفرنسية) . ولعبت البابوية دوراً ثانوياً فى هذه الحملة ؛ مذ كانت فى أحد أدوار الضعف ؛ وكانت هذه الحملة الصليبية أشد الحملات دماثة وفروسية ورومانسية . إذ خففت من حدة مرارة التعصب الدينى روح الشهامة الفروسية التى غمرت كلا من صلاح الدين وريتشارد الأول (قلب الأسد) (١١٨٩ – ١١٩٩) ملك إنجلترة . فما أجدر محبى الرومانس أن يتوجهوا إلى الروايات الرومانسية المدبجة عن هذه الفترة ليتذوقوا طعمها وشذاها . وقد أنقذت هذه الحملة إمارة أنطاكية إلى حين . ولكنها أخفقت دون استرداد بيت المقدس . ومع ذلك فإن المسيحيين ظلوا مسيطرين على سواحل فلسطين .

ولما وا زمان الحملة الثالثة ، كان عنصرا العجب والسحر قد زالا من هذه الحركات زوالا تاماً . فإن عامة الناس كانوا عرفوا خباياها . ذلك أن الرجال كانوا يذهبون ، فلا يعود إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين ؛ وغالباً ما يكون ذلك بعد فرض ضرائب باهظة على الناس لجمع الفدية اللازمة .

---

(١) معنى كلمة بربروسا هو ذو اللحية الحمراء . (المترجم)

لقد ابتذلت فكرة الحروب الصليبية لكثرة ما استعملت وتفاهة ما استخدمت فيه . فكلما تنازع البابا مع شخص من الناس ، أو إذا شاء هو أن يضعف من قوة الإمبراطور الخطرة بتوجيه مجهوداته وراء البحار ، راح يدعو إلى حرب صليبية ، حتى لقد كفت الكلمة عن أن يكون لها أى معنى إلا محاولة وضع شيء من النكهة فى حرب غير مستساغة الطعم . فهناك حرب صليبية أعلنت على الهراطقة فى جنوب فرنسا ، وثانية على جون (ملك إنجلترة) ، وأخرى على الإمبراطور فردريك الثانى . فلم يكن البابوات يفهمون أن الكرامة ضرورية للبابوية . أجل إنهم بلغوا فى صدارتهم لعالم المسيحية أوج الرفعة الخلقية . ثم أخذوا بعد ذلك يبددونها شيئاً فشيئاً . ولم يقتصروا على ابتذال فكرة الحرب الصليبية وتضييع قيمتها ، بل جعلوا ما فى يدهم من قدرة هائلة على الحرمان (أى طرد الناس من الرحمات القدسية ، والآمال والسعادات التى يكفلها لهم الدين) — مثار السخرية باستعمالها فى المنازعات السياسية البحتة. ولم يقتصر الأمر على إعلان الحرب الصليبية على فردريك الثانى بل إنه « حُرم » أيضاً — دون ان يعود عليه ذلك بأى ضرر ظاهر . ثم حرم مرة ثانية فى (١٢٣٩) ، وجدد ذلك الحكم إنوسنت الرابع فى (١٢٤٥) .

ولم تصل معظم الحملة الصليبية الرابعة إلى الأرض المقدسة بتاتاً . خرجت من البندقية (١٢٠٢) ، واستولت على زارا وعسكرت فى القسطنطينية (١٢٠٣) ، وأخيراً نهبت المدينة (١٢٠٤) . كانت الحملة هجوماً مشتركاً صريحاً على الإمبراطورية البيزنطية . فاستولت البندقية على شطر كبير من شواطىء الإمبراطورية وجزرها ، وأقيم أمير لاتينى هو بلدوين الفلاندرى إمبراطوراً بالقسطنطينية . وأعلنت عودة الوحدة بين الكنيستين اللاتينية واليونانية ، وحكم أباطرة لاتين بوصفهم غزاة فى القسطنطينية من (١٢٠٤ — ١٢٦١) .

ثم حدث فى (١٢١٢) حدث رهيب ، هو « حملة صليبية للأطفال » . فإن هياجاً لم يعد يستطيع أن يؤثر بعد فى البالغين السليمى العقل انتشر بين الأطفال فى جنوبى فرنسا وفى حوض نهر الرون . فسار جمهور مكون من آلاف كثيرة من الغلمان

الفرنسيين إلى مرسيليا ؛ فاستغواهم تجار الرقيق إلى النزول فى السفن ، وباعوهم فى فى مصر عبيداً . وسار أطفال أرض الراين على أقدامهم حتى انحدروا إلى إيطاليا ، وهناك تشتتوا بعد أن هلك منهم كثيرون فى الطريق .

واستغل البابا إنوسنت الثالث هذه الحادثة العجيبة لصالحه أيما استغلال . فقال : « حتى الأطفال أنفسهم يلبسوننا ثوب الخزى والعار » . ثم حاول أن يستثير الحماسة لحملة صليبية خامسة . وكان هدف هذه الحملة غزو مصر ، لأن بيت المقدس كانت عند ذاك فى قبضة السلطان المصرى ؛ وعادت البقية الباقية من هذه الحملة (١٢٢١) ، مجللة بالخزى بعد جلاء غير كريم عن مدينة دمياط ، الفتح الوحيد الذى فتحته ، ومعها آثار من الصليب الحق ببيت المقدس كمنحة جاد بها عليهم — على سبيل العزاء — عدوهم المنتصر ، ولقد سبق أن لحظنا ما مر بذلك الأثر الجليل قبل أيام محمد ﷺ عندما حمله كسرى (الثانى) أبرويز إلى المدائن (طيشفون) ، ثم استعاده الإمبراطور هرقل . ومع ذلك فإن أجزاء من الصليب الحق ، قد بقيت على الدوام فى روما بكنيسة (سانت كروتشى جيروساليمى S. Croce-Gerusalemme) منذ أيام الإمبراطورة هيلانة (أم قسطنطين الكبير ، التى تقول الأسطورة عنها ، إنها أطلعت على مخبئه فى رؤيا رأتها أثناء حجها إلى الأراضى المقدسة .

ويقول جيبون : « إن حراسة الصليب الحق الذى كان يعرض يوم أحد القيامة فى جلال ووقار أمام أعين الناس ، كانت موكولة إلى أسقف بيت المقدس ؛ وكان هو وحده الذى يرضى تقوى الحجيج المتشوقين بأن يهديهم قطعاً صغيرة منه ، كانوا يضعونها فى أوعية من الذهب أو الجواهر ، ويحملونها إلى بلادهم ظافرين . ولكن لما لم يكن بد لهذه السلعة المربحة من أن تنضب سريعاً ، فقد وجد من الملائم الزعم بأن ذلك الخشب العجيب كانت له قوة إنبات خفية ، وأن مادته وإن كانت تتناقص باستمرار إلا أنها تظل مع ذلك كاملة غير منقوصة » .

فأما الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) فهى حملة قاربت درجة السخف . ذلك أن الإمبراطور فردريك الثانى كان أقسم على القيام بحملة صليبية ثم نكث بنذره . أجل إنه

شرع فى الحملة شروعاً زائفاً ولكنه عاد أدراجه . والراجح أنه كان يتبرم من مجرد فكرة القيام بحملة صليبية . ولكن النذر كان جزءاً من الصفقة التى ضمن بها نصرة البابا إنوسنت الثالث له فى انتخابه إمبراطوراً . فتشاغل بإعادة تنظيم حكومة مملكته الصقلية ، وإن كان أوهم البابا أنه سيتخلى عن هذه الممتلكات لو أصبح إمبراطوراً ؛ وكان البابا تواقاً إلى الحيلولة دون ما يقوم به الإمبراطور من تنظيم ممتلكاته الصقلية وإحكام تماسكها ، — بإرساله إياه إلى الأراضى المقدسة . ذلك أن البابا لم يكن ليرغب فى وجود فردريك الثانى أو أى إمبراطور ألمانى بأى حال فى إيطاليا ، لأنه هو نفسه كان يرغب فى أن يحكم إيطاليا . فلما أن طال تملص فردريك الثانى ، أصدر جريجورى التاسع عليه قرار الحرمان وأعلن عليه حرباً صليبية ، وغزا ممتلكاته فى إيطاليا (١٢٢٨) . وعند ذلك أقلع الإمبراطور بجيش إلى الأراضى المقدسة . وهناك التقى بسلطان مصر (وكان الإمبراطور يتكلم بطلاقة ست لغات من بينها العربية) ؛ ولقد يبدو أن هذين السيدين ، ولكل منهما آراؤه المتشككة ، تبادلا وجهات نظر متماثلة متجانسة وتناقشا أمر البابا بروح علمانية ، وتباحثا فى اندفاع المغول غرباً ، وهو الأمر الذى كان يهددهما جميعاً على السواء ، واتفقا آخر الأمر على عقد معاهدة تجارية وتسليم جزء من مملكة بيت المقدس إلى فردريك .

فكان هذا لا جرم نوعاً جديداً من الحروب الصليبية ، فهو حرب صليبية بالمعاهدات الخاصة . ولما كان هذا الصليبى المدهش محروماً ، كان لزاماً عليه أن أن يستمتع بتتويج علمانى بحت فى بيت المقدس ، آخذاً التاج من المذبح بيديه ، فى كنيسة كان كل رجال الدين قد انصرفوا منها . والراجح أنه لم يجد هناك واحداً منهم يريه الأماكن المقدسة . والواقع أن هذه كلها حظرها عليه بطريرك القدس ، وأمر بإقفال أبوابها . وواضح أن الروح هنا تختلف تمام الاختلاف عن الروح التى أوحت تلك المذبحة الدامية الحمراء فى الحرب الصليبية الأولى . ولم يكن فيها حتى ذلك الإكرام للظريف الذى لقيته زيارة الخليفة عمر قبل ذلك بستمئة عام .

ورحل فردريك الثانى من بيت المقدس وهو وحيد تقريباً ، عائداً إلى إيطاليا من ذلك

النجاح غير الرومانسى ، وسارع إلى تنظيم شئونه هناك ، وطرد الجيوش البابوية من ممتلكاته ، وأجبر البابا على أن يحله من حرمانه (١٢٣٠) . وفى الحق إن هذه الحرب الصليبية السادسة لم تكن نقيضا للمقصود من الحروب الصليبية ودليلا غير مباشر على سخفها وحدها فحسب ، بل وسخف الحرمان البابوى أيضاً . وسنحدثك فى قسم تال عن فردريك الثانى هذا ، لأنه كان طرازاً نموذجياً فى تمثيله قوى جديدة بأعيانها ، أخذت تظهر فى الشئون الأوربية .

ثم فقد المسيحيون بيت المقدس مرة ثانية (١٢٤٤) ؛ إذ استرجعها منهم سلطان مصر بغاية السهولة عندما حاولوا أن يدبروا مؤامرة ضده . فتسبب عن ذلك الحرب الصليبية السابعة ، وهى حرب القديس لويس ملك فرنسا (لويس التاسع) الذى أخذ فى مصر أسيراً ثم افتدى (١٢٥٠) . ولم يحدث أن أفلتت بيت المقدس مرة ثانية من قبضة المسلمين حتى (١٩١٨) عندما سقطت فى يد قوة مختلطة من الجنود الفرنسية والإنجليزية والهندية .

وتبقى بعد ذلك حملة صليبية أخرى ؛ وهى حملة على تونس قام بها نفس لويس التاسع ذاك ، الذى مات هناك بالحمى .

١٢ — الحروب الصليبية اختبار للمسيحية

تنحصر الأهمية الجوهرية للحروب الصليبية لدى مؤرخ البشرية فى موجة العواطف وتوحيد الشعور اللذين أفعما الحملة الأولى بالحيوية الناشطة . ثم أخذت الحملات بعد ذلك تنحدر إلى منزلة العمليات الروتينية العادية ، وأخذت قيمتها تقل بالتدريج كأحداث لها أهمية حيوية . كانت الحرب الصليبية الأولى حدثاً ضخماً يماثل اكتشاف أمريكا ؛ على حين لم تزد الحملات التالية عن رحلة اجتياز عادية للمحيط الأطلسى ففى القرن الحادى عشر لا بد أن فكرة الحرب الصليبية كانت أشبه شىء بنور غريب رائع أضاء فى السماء ، فأما فى القرن الثالث عشر ، فإن الإنسان ليستطيع أن يتصور سكان المدن الأمناء وهم يقولون بصوت المحتج «ماذا ؟! أحرب صليبية أخرى ! ! » .

ولم يكن ما لقيه القديس لويس فى مصر ، شيئاً يعدّ من قبيل خبرة جديدة اكتسبتها البشرية ، بل هى أقرب شبها بجولة جولف على ملعب معروف . . . جولة لاحقها سوء الطالع وهى مجموعة من أحداث لا وزن لها . ذلك أن مناط اهتمام الحياة قد تحول إلى اتجاهات أخرى .

وتكشف بداية الحروب الصليبية عن أوربا بأجمعها وهى مشبعة بمسيحية ساذجة ، ومستعدة فى ثقة وبساطة لأن تتبع قيادة البابا . إذ كانت فضائح قصر اللاتيران أثناء أيامه الشريرة تلك ، التى نعرفها نحن جميعاً الآن ، مجهولة خارج روما أو تكاد . أجل أصلح جريجورى السابع وإربان الثانى كل ذلك وعوّضا الكنيسة عما أصابها . ولكن خلفاءهما فى اللاتيران والفاتيكان[1] لم يكونوا من الناحية العقلية والخلقية كُفُواً لما بين أيديهم من نهزات . وكانت قوة البابوية تقوم على الثقة التى أولاها الناس إياها ، وهى ثقة استغلّتها البابوية فى غير حرص أو عناية حتى أوهنتها . ذلك أن روما ظلت على الدوا تنطوى على قدر أكثر مما ينبغى من حصافة « الكاهن » ومكره ، وعلى النزر اليسير من قوة « النبى » وروحه . ولذا فبينما كان القرن الحادى عشر قرن أناس جهلة ذوى ثقة عمياء ، كان القرن الثالث عشر قرن رجال عارفين غير مخدوعين . كان عالما أكثر مدنية وأعمق تشككا .

وكان الأساقفة والقساوسة والمؤسسات الديرية فى عالم المسيحية اللاتينية قبل أيام جريجورى السابع على شىء من الارتباط المفكك العرى تقريباً ، كانوا من حيث الكيف والكنه غاية فى الاختلاف والتفاوت ؛ ولكن من الواضح أنهم كانوا فى العادة على أعظم درجة من المودة الخالصة مع الناس الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم ، كما كانوا ينطوون على نصيب وافر من روح يسوع التى ما برحت حية فى شخصهم ؛ كانوا موضع الثقة ، وكان لهم نفوذ هائل « على ضمائر أتباعهم » . وكانت الكنيسة بالمقارنة إلى

---

(١) سكن البابوات قصر اللاتيران حتى (١٣٠٩) ، عندما أقام بابا فرنسى البلاط البابوى فى أفنيون . فلما عاد البابا إلى روما فى (١٣٧٧) ، كان قصر اللاتيران قد تخرب أو كاد ، فأصبح قصر الفاتيكان مقر البلاط البابوى . وكان ذلك القصر ، بالإضافة لى ميزات أخرى ، أقرب كثيراً إلى قلعة. انت انجيلو حصن البابوية . (المؤلف) .

حالتها فيما بعد ، واقعة بدرجة أكبر فى قبضة العلمانيين المحليين والحاكم المحلى ؛ وكانت تنقصها الروح العالمية العامة التى صارت لها فيما بعد .

وقد أفضت جهود جريجورى السابع الفعالة فى تقوية الكنيسة وتنشيطها تنشيطاً يستهدف زيادة قوة روما المركزية ، إلى فصم كثير من الروابط الخفية بين القسيس والدير من ناحية ، وبين منطقة الريف التى من حولهما من الناحية الأخرى . فإن ذوى الإيمان والحكمة من الناس يؤمنون بأن النمو سنة الحياة كما يؤمنون بإخوانهم من الناس ؛ فأما القساوسة حتى من كان منهم من أضراب جريجورى السابع نفسه ، فيعتقدون فى « الكفاية » الزائفة التى ينطوى عليها نظام مفروض على الناس . وأفضى النزاع على مسألة « التعيينات » بكل أمير فى عالم المسيحية إلى الاسترابة من أمر الأساقفة واعتبارهم عمالا لدولة أجنبية . وتسربت هذه الاسترابة حتى وصلت إلى سكان الأبروشيات[١] . ولقد قضت مشروعات البابوية السياسية بأن يزداد البابوات طلباً للمال على الأيام . وشاع بين الناس فى كل مكان إبان القرن الثالث عشر القول بأن رجال الدين ليسوا بالرجال الطيبين ، وأنهم لا يفتأون يتصيدون الأموال .

وفى أيام الجهالة الأولى كان الناس دائماً على أتم استعداد للاعتقاد بأن طائفة الكهنوت الكاثوليكية طيبة حكيمة . وكانت بالفعل خيراً وأحكم نسبياً فى تلك الأيام . ذلك أنه وكلت إلى الكنيسة سلطات هائلة تتجاوز أعمالها الروحية — كما أبيحت لها حريات خارقة لكل معتاد . فاستغلت هذه الثقة أتم استغلال . وقد أصبحت الكنيسة فى القرون الوسطى دولة داخل الدولة فكانت لها محاكمها الخاصة ، التى لم تقتصر على النظر فى قضايا القساوسة (رجال الدين) بل تناولت كذلك قضايا الرهبان والطلاب والصليبيين والأرامل واليتامى ومن لا معين لهم ، إذ يحتفظ بقضاياهم للمحاكم الكنسية . وحيثما كان لطقوس الكنيسة أو قواعدها دخل فى أى موضوع ، ادعت أن لها الاختصاص وتدخلت فى مسائل من أمثال الوصية والزواج والأيمان[٢] ، وطبعا الهرطقة والسحر والتجديف . وكانت

---

(١) الأبروشية : هى منطقة اختصاص إحدى الأسقفيات (المترجم)
(٢) المقصود هنا من الأيمان جمع يمين وهو القسم (المترجم) .

هناك سجون كنسية عديدة ربما قضى المذنبون فيها كل حياتهم كاسفين . وكان البابا هو المشرّع الأعلى للمسيحية ، محكمته بروما هى محكمة الاستئناف النهائية الحاسمة . وكانت الكنيسة تجبى الضرائب ؛ ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل إنها فرضت ضريبة العشر (العشور) على رعاياها . وهى لم تدعُ إلى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والتقوى ؛ بل طالبت به كحق . وأخذ رجال الكنيسة من الناحية الأخرى يدّعون عند الك حق الإعفاء من الضرائب العلمانية .

ولا شك أن هذه المحاولة منهم للاتجار بنفوذهم الخاص فى بابه والتملص من نصيبهم فى الأعباء المالية ، كانت عاملا جسيما فى السخط المتزايد على رجال الدين . وبصرف النظر عن كل ما يتعلق بالعدالة فإنه كان أمراً لا ينطوى على الحنكة . كان أمراً يجعل الضرائب فى أعين من عليهم دفعها تبدو عشرة أضعافها ؛ ويجعل كل إنسان مرهف الحس إزاء ما تستمتع به الكنيسة من حصانات .

وثمة دعوى أخرى ادعتها الكنيسة كانت هى أيضاً أكثر سرفاً وبعدا عن الحكمة هى قولها بأن لها « حق التحلة » . ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع فى كثير من الأحيان أن يهمل قوانين الكنيسة فى حالات فردية خاصة ، فهو قد يأذن لأبناء العم وأبناء الخال أن يتزاوجوا ، وقد يسمح لرجل بأن تكون له زوجتان ، أو يحل أى إنسان من نذره ولكن إتيان مثل هذه الأمور ينطوى على اعتراف بأن القوانين التى تتصل بها ليست قائمة على أسس من الضرورة اللازبة والصلاح الفطرى ؛ وأنها فى الواقع إنما تنطوى على التضييق والمضايقة . فإن مشرّع القوانين للبشر قاطبة ملزم أكثر من كل إنسان بالولاء للقانون . وهو دون الناس كافة ملزم أن يتصرف كأنما القانون سيف مسلط عليه قبل كل الناس . ولكنه ضعف الإنسانية عامة ذلك الذى يوحى إلينا بأن نتخيل أن الوديعة التى تسلم إلينا لإدارتها إنما هى مما ملكت أيماننا .

١٣ — الامبراطور فردريك الثانى[1]

يعد الإمبراطور فردريك الثانى خير مثال لطراز المتشكك المتمرد الذى استطاع القرن الثالث عشر أن ينبته . وربما كان من الشائق أن نحدثك قليلا عن ذلك الرجل الذكى الساخر . وهو ابن الإمبراطور هنرى السادس الألمانى وحفيد فردريك بربروسا ، وأمه ابنة روجر الأول ملك صقلية النورمندى . فورث هذه المملكة (١١٩٨) وهو بعد فى الرابعة من عمره ؛ وظلت أمه وصية عليه ستة أشهر ، فلما أن ماتت أصبح البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) وصياً على العرش وقيما عليه .

ويبدو أنه حظى بتعليم استثنائى فى جودته عجيب فى تنوعه ، وأكسبته مزاياه لقباً ينطوى على الملق والإطراء هو « أعجوبة العالم Stubor. mundi » . وكان من نتيجة جمعه بين النظرة العربية إلى المسيحية ، والنظرة المسيحية إلى الإسلام ، أن أصبح يعتقد أن كل الديانات دجل ، وهو رأى ربما ذهب إليه كثير من ذوى الرأى المكبوتى الألسنة فى « عصر الإيمان » . بيد أنه تحدث دونهم معبراً عن آرائه ؛ ذلك بأن كثيراً من تجديفه وإلحاده مدون مسجل .

وإذ أنه ترعرع تحت حكم إنوسنت الثالث ذلك المتغطرس الشامخ بأنفه ، الذى لا يبدو عليه أبداً أنه أدرك أن القاصر قد رشد ، فقد نمت فيه روح تملص فكهة وكانت سياسة البابا أن يمنع قيام أى اتحاد جديد بين قوة ألمانيا وإيطاليا ؛ ويعادل هذا التصميم من جانب البابا عزم فردريك على أخذ كل ما يستطيع الحصول عليه . فلما أن هيأت له الفرص للساعة تاج ألمانيا الإمبراطورى ، استطاع أن يضمن عون البابا له بأن وافق إن هو انتخب — على ترك ممتلكاته فى صقلية وجنوب إيطاليا ، وأن يقضى على ما فى ألمانيا من إلحاد . ذلك أن إنوسنت الثالث كان من أعظم البابوات ولعاً بالاضطهاد ، كما كان رجلا مقتدراً طبع على الجشع والعدوان . (كان بحسبانه بابا ، صغير السن صغراً مفرطاً ، إذ ارتقى عرش البابوية وهو فى السابعة والثلاثين) . وإنوسنت

---

(١) أصدرت الهيئة المصرية العامة للتأليف ترجمة لهذا الإمبراطور العظيم تحت اسم « الزنديق الأعظم » ألفها جوزيف جاى ديس وترجمها الأستاذ أحمد نجيب هاشم . وهى سيرة رائعة تستحق لفتة من كل قارئ عربى . (المترجم)

هو الذى حض على شن حرب صليبية قاسية على المراطقة فى جنوبى فرنسا ، وهى حرب صليبية انقلبت من فورها إلى حملة نهب وسلب أفلت معهما الزمام من يده .

وما أن انتخب فردريك إمبراطوراً (١٢١٢) ، حتى ألح عليه إنوسنت بأن يبر بالأيمان والوعود التى انتزعها من « قاصره » (الإمبراطور) الفتى ! ! وقد تعهد أن يرفع عن رجال الدين التشريع العلمانى ويعفيهم من دفع الضرائب ، ووعد أن ينزل على الملاحدة (الهراطقة) من ألوان القساوات ما يجعلهم عبرة لمن عداهم . ولكن فردريك لم يقم بشىء من كل هاته الأمور . وكما قلنا قبلا ، لم يقبل حتى أن يتخلى عن صقلية . إذ كان يؤثر المقام فى صقلية ويفضلها على ألمانيا .

ومات إنوسنت الثالث وقد أعيته منه الحيل (١٢١٦) ، ولم يصل خلفه هونوريوس الثالث معه إلى أية نتيجة . ومات إنوسنت الثالث دون أن يتوج فردريك ، ولكن هونوريوس فعل ذلك (١٢٢٠) . وجاء جريجورى التاسع (١٢٢٧) بعد هونوريوس ، والظاهر أنه تولى عرش البابوية معتزماً عزماً أكيداً مغيظا الهيمنة على ذلك الإمبراطور الشاب المحير . فحرمه على الفور لنكوصه عن القيام بحملته الصليبية الموعودة ، التى تأخر موعدها اثنتى عشرة سنة ؛ ثم شهر برذائله وهرطقاته وذنوبه عامة فى رسالة علنية نشرها (١٢٢٧) . فرد فردريك على هذه بوثيقة على درجة أكبر من الاقتدار ، إما أن يكون هو كاتبها أو أنها كتبت له : موجهة إلى كل إمراء أوربا ، وثيقة ذات أهمية قصوى فى التاريخ ، لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا فى أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسره ، وبين مدعيات الحكام العلمانيين . وقد كان هذا النزاع يسرى على الدوام كالنار تحت الرماد . ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ، ويتأجج هناك على صورة أخرى ؛ ولكن فردريك وضع الأمر الآن فى عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخذوها أساساً لاتحادهم بعضهم ببعض .

حتى إذا كال هذه الضربة ، ارتحل فى حربه الصليبية السلمية التى تحدثنا عنها من قبل . وفى (١٢٣٩) كان جريجورى التاسع يحرمه للمرة الثانية ، ويجدد حرب الشتائم

العلنية التى قاست منها البابوية الويلات من قبل . وانبعثت الخصومة من جديد بعد وفاة جريجورى التاسع ، عند ما أصبح إنوسنت الرابع بابا ؛ وللمرة الثانية صدرت عن فردريك رسالة قاضية كتبها ضد الكنيسة ، صار لزاماً على الناس أن يتذكروها ؛ رسالة شهر فيها بكبرياء رجال الدين وانعدام التدين فيهم ، وعزى كل مفاسد الزمان إلى استكبارهم وثرائهم واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة مصادرة عامة – لخير الكنيسة نفسها . فكانت تلك منه إشارة لم تبارح بعد ذلك أبداً أخيلة الأمراء الأوربيين .

ولن نواصل الكلام عنه سنواته الأخيرة ولا عن الكوارث التى نشأت عن عدم اكتراثه ، فألقت على خاتمته ظلا من الإخفاق . وبديهى أن حوادث حياته الخاصة أقل قيمة من جوها العام : ومن الميسور أن يجمّع الإنسان شتات صورة لحياة بلاطه فى صقلية . فإنه ليوصف – وقد دنت آخرته – بأنه « أحمر الوجه أصلع الرأس ضعيف البصر » ؛ على أن قسماته كانت مليحة جذابة . وكان مترفاً فى معيشته ، مولعاً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بالإغراق فى الملذات . ولكن من الواضح أن ذهنه لم يشعر بالاقتناع لما ملأه من الشكوك الدينية ، وأنه كان رجلا أوتى قوتى استطلاع وبحث فعالتين للغاية . وكان بلاطه يجمع بين الفلاسفة اليهود والمسلمين والمسيحيين على السواء ، وبذل جهداً كبيراً فى سبيل إرواء الذهن الإيطالى بمؤثرات شرقية عربية . وعلى يديه أدخلت الأرقام العربية والجبر إلى الطلاب المسيحيين ، وكان من بين الفلاسفة الكثيرين فى بلاطه ميخائيل سكوت ، الذى ترجم أجزاء من أرسطو وتعليقات الفيلسوف العربى العظيم ابن رشد (القرطبى) عليها .

وفى (١٢٢٤) أسس فردريك جامعة نابولى ، ووسع مدرسة الطب الكبيرة بجامعة سالرنو أقدم الجامعات وأغدق عليها الأموال . كذلك أنشأ حديقة للحيوان . وترك كتاباً فى التصقر[١] يكشف فيه عن نفسه خبيراً بعادات الطير له ملاحظات دقيقة ، وكان من أوائل الإيطاليين الذين كتبوا الشعر بالإيطالية . والحق إن الشعر الإيطالى قد ولد فى بلاطه . وقد أطلق عليه كاتب مقتدر اسم « أول المحدثين » ، وهى

---

(١) التصقر : كما ورد فى معجم الوسيط ، الصيد بالصقور . (المترجم) .

عبارة تترجم فى براعة عما كانت عليـــه نواحيه الذهنية من استقلال وحياد فى الرأى برىء من كل تحيز . كان ذا أصالة تامة من جميع نواحيها ؛ وقد وفق فى إبان أزمة أحدثت بعض النقص فى الذهب إلى إدخال عملة مصنوعة من الجلد المختوم أو الرَّق ، تحمل وعداً منه بأن يدفع قيمتها ذهباً ، وهو ضرب من (البنكنوت) المصنوع من الجلد . وبذلك ابتعثت طريقة للنقد ، لم ير العالم منذ أيام قرطاجة لها نظيراً .

وبالرغم من سيل الشتائم والسباب الذى أغرق فيه فردريك ، فإنه ترك أعمق الأثر فى مخيلة الشعب . ولا يزال جنوب إيطاليا يذكره بشكل يكاد يضارع فى قوته ذكرى نابليون الأول لدى الفلاحين الفرنسيين ؛ وهو لديهم « فريدريجو العظيم » ويصرح العلماء الألمان أنه بالرغم من كراهية فردريك الظاهرة لألمانيا ، فإنه هو ، وليس فردريك الأول ، فردريك بربروسا ، الذى تنتسب إليه أصلا تلك الأسطورة الألمانية وهى الأسطورة التى تمثل ملكاً عظيما قد أخذه النعاس فى غار عميق ، وقد نمت لحيته حول منضدة حجرية ، انتظاراً ليوم يُنْتَشَل فيه العالم على يديه من وهدة فوضى بالغة إلى سلام شامل . ويبدو أن بطولة القصة نقلت فيما بعد إلى الصليبى بربروسا جد فردريك الثانى .

كان فردريك الثانى طفلا عسِر القياد على أمه الكنيسة ، على أنه لم يكن إلا موطئاً مهّد السبيل وطليعـــة للكثيرين من أمثاله من الأطفال العسرين . وكان الأمراء والمتعلمون فى أرجاء أوربا كافة يقرأونَ رسائله ويتباحثون فيها : فأما طلاب الجامعات الأشد إقداماً ، فراحوا يلتمسون ويشخصون بأبصارهم بل ويهضمون : — كتب أرسطو العربية الأصل التى جعلها فردريك فى متناول أيديهم باللاتينية . وألقت سالرنو على روما نوراً مهلكاً مؤذياً . ولا بد أن الناس على اختلاف أصنافهم قد راعهم قلة غناء ما انهال على رأس فردريك من ألوان الحرمان والعزلة عن الجماعة .

١٤ – معايب البابوية وتحديداتها

أسلفنا أن إنوسنت الثالث لم يبد عليه قط ما يدل على أنه أدرك أن القاصر فردريك الثانى كان ينمو ويرشد . ولا يقل عن هذا صدقاً أن البابوية لم يبد عليها أبداً أنها أدركت أن أوربا كانت آخذة بأسباب النضج والرشاد . ومن المستحيل على دارس ذكى عصرى للتاريخ ألا يعطف على ما كان يجول فى ضمير البلاط البابوى ، من فكرة تقول بوجوب قيام حكم عام للصلاح والبر يحفظ على الأرض السلام ، وألا يعز عناصر النبل العديدة التى دخلت فى سياسة اللاتيران . فلا بد للبشرية من أن تصل إن عاجلا وإن آجلا إلى سلام عام واحد ، اللهم إلا إذا قضت على جنسنا البشرى قوته المتزايدة التى تعود عليه من مخترعاته المهلكة ؛ ولا مناص لهذا السلام العام من أن يتخذ شكل حكومة ، أو بعبارة أخرى ، هيئة تدعم القانون بطريقة دينية بأحسن ما فى كلمة دينية من معان – حكومة تحكم الناس بواسطة التعليم الذى يخلق التناسق الذهنى بينهم ويسلكهم جميعاً فى تصور مشترك من التاريخ الإنسانى والمصير الإنسانى .

وعلينا الآن أن ننظر إلى البابوية على أنها أول محاولة واعية واضحة القصد ترمى إلى تزويد العالم بمثل هذه الحكومة . وما يجوز لنا أن نشتط فى الحماسة والجد ونحن نفحص عن نقائصها وضروب عجزها ، إذ أن كل درس نستطيع أن نستفيده منها ، إنما له بالضرورة أعظم القيمة لدينا فى تكوين فكراتنا عن علاقاتنا الدولية الحاضرة . ولقد حاولنا أن نشير إلى العوامل الرئيسية التى أفضت إلى انهيار الجمهورية الرومانية ، ومن المناسب لنا الآن أن نحاول تشخيص الأسباب التى أدت إلى إخفاق كنيسة روما الكاثوليكية دون تجميع وتنظيم حسن نية البشرية وطواياها الطيبة .

وأول ما يسترعى انتباه الدارس هو تقطع جهود الكنيسة فى تأسيس « مدينة الله » العالمية . فلم تكن سياسة الكنيسة متجهة بكل قواها وفؤادها وباستمرار إلى تلك الغاية . فلم يكن يحدث إلا بين الفينة والفينة أن شخصية ما ممتـــازة أو مجموعة ما من

الشخصيات الممتازة ، كانت تتسلط عليها وتوجهها فى ذلك الاتجاه . ذلك أنه منــذ البداية تقريباً احتجبت مملكة الرب التى دعا إليها يسوع الناصرى كما بينا آنفاً واستترت وراء المبادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقلية . وقد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريباً عن أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة . إذ أنها أوقعت نفسها فى شراك التقاليد العتيقة الخاصة بالتضحية الإنسانية ، وبالتطهير الدموى لدى « المثرائية »[1] ، وبالكهانة القديمة قدم الجماعة الإنسانية وبتفاصيل النواحى الدقيقة لطبيعة الإله . ومن عجب أن أصبح الحبر الإترورى (الإترسكى) الأعظم المخضبة بالدم أصبحت الداعية المتشددة التى تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصرى ! ! وكذلك أيضاً أوقعها عقل الإغريقى الإسكندرى فى أحبولته بما جبل عليه من تعقيد ذهنى . حتى إذا وقعت الكنيسة فى معمعان هذا التطاحن الذى لا مفر منه بين هــذه المتفارقات المتناقضة ، اضطرت أن تصبح إعتقادية (دوجماتية) تأخذ بالمذهب الاعتقادى الحتمى[2] . ذلك أنها حين يئست من بلوغ حلول أخرى لخلافاتها الفكرية ، التجأت إلى الاستبداد التعسفى .

فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالا مُكَيَّفين وفق مذاهب واعتقاديات حتمية وإجراءات مقررة وثابتة ؛ حتى إذا ما آن أوان توليهم منصب الكرادلة أو البابوات إذا بهم فى العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسى ذلك الضرب الذى يقصد إلى غاية قريبة مباشرة ، ولم يعودوا أهلا لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره . ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى قلوب الناس . فقد نسوا ذلك الأمر ؛ وأصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنيسة التى هى قوتهم هم ، متسلطة على شئون البشر . وكانوا فى سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أى شىء حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة فى قلوب البشر . ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا على الأرجح يُسِرّون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة ، لم يسمحوا بأية مناقشة فيه . كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون فى مخالفة ،

(١) انظر المعالم ج ٢ ، ص ٦٤٣ (المترجم)

(٢) الاعتقاد الحتمى أو القطعى (Dogma) : مجموعة المبادئ التى تعدها الكنيسة صحيحة تتجاوز كل ريب وتلزم كل إنسان باعتناقها ولا تقبل فيها نقاشا . (المترجم)



(شكل ١٤٤) الصليبى المثالى

لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها . وكانوا يريدون ممن حولهم موافقتهم على رأيهم لأسباب تتصل بالسياسة .

وقد تجلى فى الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التى تنخر بناء مدعياتها بأكمله وقد تجعله أثراً بعد عين . فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسى . وكانت تتصيد الهراطقة فى كل مكان ، كما تبحث العجائز الخائفات — فيما يقال — عن اللصوص تحت الأسرة وفى الدواليب قبل الهجوع فى فراشهن .

ولقد سبق أن أشرنا إلى مانى الفارسى الذى صلب وسلخ جلده فى (٢٧٧) . وكانت طريقته فى تمثيل الكفاح بين الخير والشر تتمثله كفاحاً بين قوة من نور ، كانت فى الواقع فى ثورة ضد قوة من ظلمة ملابسة للكون . وكل هذه المعميات العميقة تمثلها بالضرورة بعض الرموز والعبارات الشعرية ، ولا تزال فكرات مانى تجـد استجابة لدى كثير من الأمزجة العقلية اليوم . ولربما سمع الإنسان المبادئ المانوية من فوق كثير من المنابر المسيحية . على أن الرمز الكاثوليكى الصحيح كان رمزاً مغايراً .

انتشرت هذه الفكرات المانوية انتشاراً واسعاً جداً فى أوربا ، وبخاصة فى بلغاريا وجنوب فرنسا . وكان القوم الذين يعتنقونها فى جنوبى فرنسا يسمون الكاثاريين أو الألبيجنسيين (Albigenses) . وكان اختلاف فكراتهم عن الأصول الجوهرية المسيحية من الضآلة بحيث جعلهم يحسبون أنفسهم مسيحيين مخلصين . وكانوا كهيئة يعيشون عيشة فضيلة وطهر ظاهر فى عصر طافح بالعنف والفوضى والرذيلة . بيد أنهم أظهروا الشك فى صحة مبادئ روما وفى التفسير الصحيح للكتاب المقدس . وكانوا يرون فى يسوع ثائراً على قسوة رب « العهد القديم » ، وليس ابناً له [كذا ! ! . . .] متسقاً وإياه .

وممن يرتبطون ارتباطاً وثيقاً مع الألبيجنسيين طائفة أخرى تسمى الوالدونيون ، والوالدونيون هم أتباع رجل اسمه والدو ولكنه لم يكن يقل عن الآخرين مضايقة للكنيسة لأنه كان ينعى على رجال الدين ثراءهم وترفهم . ويخيل إلينا أن اللاهوت الذى كان يدعو إليه كان كاثوليكياً صحيحاً . وكان فى ذلك الكفاية لدى قصر اللاتيران ، ومن ثم نرى مشهداً يبدو فيه إنوسنت الثالث وهو يحرض على حرب صليبية ضد هاته الشيع التعيسة ، ويأذن لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيش وأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك فرنسا مسالمة . والقصص التى تروى عن هذه الحرب الصليبية تحكى لنا من أضرب القساوة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة أى استشهاد

للمسيحيين على أيدى الوثنيين ، وهى فوق هذا تسبب لنا رعباً مضاعفاً لما هى عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها .

كان هذا التعصب الأسود القاسى روحاً خبيثاً لا يجوز أن يخالط مشروع حكم الله فى الأرض . وإنه لروح يتعارض تماماً مع روح يسوع الناصرى . فما سمعنا قط أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له أو غير المستجيبين لدعوته ولكن البابوات كانوا طوال قرون سلطانهم فى حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل فى كفاية الكنيسة الذهنية .

ولم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها . فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأبهة السريعى الهياج الحقودين الذين من الجلى أنهم كانوا الأغلبية المتسلطة فى مجالس الكنيسة ، كانوا يضيقون ذرعاً بأية معرفة عدا معرفتهم لا يثقون بأى فكر لم يصححوه ويراقبوه . فنصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذى كانت غيرتهم منه بادية للعيان . وكان أى نشاط عقلى عدا نشاطهم يعد فى نظرهم نشاطاً وَقحاً . وقد خاضوا بعد ذلك بقليل معركة عظيمة مدارها مسألة موضع الأرض من الفضاء ، وهل هى تدور حول الشمس أم لا تدور . ولم يكن هذا فى الحقيقة من شئون الكنيسة بتاتاً . وربما كانت تحسن صنعاً لو أنها تركت للعقل ما للعقل من أمور ، ولكن يبدو أن ضرورة داخلية كانت تسوقها إلى تنفير ضمير الناس الفكرى منها .

ولو أن هذا التعصب نشأ عن عمق يقين حقيقى لكان فيه من السوء ما فيه ، ولكن كان يصحبه عنصر لا يكاد يستتر من الاحتقار للذكاء والكرامة العقلية عند الرجل العادى يجعله أقل استساغة بكثير فى عين تقديرنا العصرى ، ولا شك أنه جعله أقل قبولا لدى النفوس الحرة فى ذلك الزمان . ولقد سردنا بمنتهى الهدوء سياسة كنيسة روما نحو أختها المضطربة فى الشرق . ولا شك أن كثيرا مما استعملته من الآلات والوسائل كان بغيضاً مقيتاً . وإنك لتشهد فى معاملاتها لشعبها بالذات مسحة من السخرية الحقة . ولقد قضت على هيبتها بعدم مراعاتها لتعاليمها ذاتها الداعية إلى الصلاح والبر . وقد سبق أن تكلمنا عن نظام التحلة . وكانت خاتمة حماقاتها فى القرن السادس عشر بيع « صكوك الغفران »

التى بها يمكن افتداء الروح من عذاب المطهر بدفعة مالية . على أن الروح التى دفعتها آخر الأمر إلى هذه الفعلة المتبجحة التى كانت نكبة عليها ، كانت واضحة ملحوظة من قبل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وقبل أن تنبت بذرة النقد التى ازدرعها فردريك الثانى بزمن طويل فى أذهان الناس ، وتؤتى ما لا مناص منه من ثمار العصيان ، كان يخيم على عالم المسيحية شعور واضح القوة يوحى إلى الناس بأن حال الجو الروحانى ليست على ما يرام . فابتدأت داخل الكنيسة الحركات — التى قد نسميها نحن اليوم بالحركات « الانتعاشية » ، والتى تضمر فى نفسها النقد لكفاية طرائقها وتنظيماتها القائمة أكثر مما تنطق به . وعندئذ أخذ الناس يلتمسون أشكالا جديدة من حياة البر والهدى خارج الأديرة وصفوف الكهنوت .

وهناك شخص جدير بالذكر هو القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ — ١٢٢٦) . ولسنا بمستطيعين أن نخبرك ها هنا فى أى تفصيل كيف أن هذا الشاب المترف الظريف قد نزل عن كل ما وهبته الحياة من متعة ودعة وانطلق يطلب الله ؛ وليس استهلال قصته بعيد الشبه عن تجارب جوتاما بوذا الأولى . إذ أصابه تحول فجائى إلى الهداية وسط حياة ناعمة بالمسرة والملذات ، حتى إذا نذر عيشة الفاقة الشديدة ، وهب نفسه لحياة تشبه حياة المسيح ، ولدمة المرضى والبائسين وبوجه أخص لخدمة المصابين بالجذام ، الذين كانوا يكثرون عند ذاك فى إيطاليا .

وانضمت إليه جماهير غفيرة من الأتباع ، وبذا ظهر فى عالم الوجود أول الرهبان فى « عِقْد » الرهبنة الفرنسسكانية (أو الفرنسسكية) . وأقيم عقد من النساء المتبتلات المخلصات إلى جوار عِقد الأخوة الرهبان الأصلى ، وبالإضافة إلى هذا ، ضموا إليهم أعداداً غفيرة من الرجال والنساء ارتبطوا بهم كريدين ارتباطاً رسميا بدرجة أقل . فأخذ يعظ الناس فى مصر وفلسطين مبشرا بدعوته لا يعترض المسلمون عليه ، وهو أمر يجب ملاحظته هنا وتسجيله — وإن كان ذلك إبان الحملة الصليبية الخامسة . ولا تزال علاقاته بالكنيسة موضوع الأخذ والرد . وقد أقر البابا إنوسنت الثالث عمله ؛ غير أن عقد تشكيل الجماعة أعيد تكوينه وهو غائب ببلاد الشرق بصورة تقوى روح النظام ، وتجعل الرياسة ذات

السلطة الموجِّهة محل الدافع الاستجابى . فأفضت هذه التغييرات إلى تخليه عن رياستها. وقد ظل حتى نهاية أيامه متمسكاً أشد التمسك بالفقر كمثل أعلى ، ولكن لم يكد يمضى على وفاته أمد طويل ، حتى كان العِقد يحتاز الأملاك عن طريق القوامة على الأوقاف ويبنى كنيسة عظيمة ودیراً تخليداً لذكراه فى أسيسى . هذا إلى أن النظم التى طبقت بعد وفاته على خلطائه وأتباعه المباشرين لا تكاد تفترق عن الاضطهاد فى شىء ؛ فجلد كثير من أبرز المتحمسين للبساطة ، وسجن آخرون ، وقتل واحد أثناء محاولته الهرب ، وقضى الأخ برنار « أول تلاميذه » سنة فى الغابات والتلال ، وهو يطارَد مطاردة الوحش الضارى .

إن هذا النزاع الذى نشب داخل العِقْد الفرنسسكانى (الفرنسسكى) ، نزاع شائق جداً . لأنه ينذر بالمتاعب العظيمة التى كانت النصرانية ملة عليها ؛ وقد ظل فريق من الفرنسسكانيين يجاهد طوال القرن الثالث عشر ضد حكم الكنيسة ، وفى (١٣١٨) أحرق أربعة منهم وهم أحياء فى مرسيليا بوصفهم هراطقة لا يرجى لهم صلاح . ويبدو أن الفارق كان طفيفاً بين تعاليم القديس فرنسيس وروحه وبين تعاليم والدو وروحه فى القرن الثانى عشر ، وهو مؤسس طائفة الوالدنيين التى وئدت وقضى عليها . وكان كلاهما متوقداً حماسة لروح يسوع الناصرى . ولكن بينما خرج والدو على الكنيسة ، بذل القديس فرنسيس قصاراه لكى يكون ابناً بارًا بالكنيسة ، ولم تكن تعليقاته على روح المسيحية الرسمية إلا تلميحاً ضمنياً غير صريح . ولكن كلا منهما كان مثالا لثوران الضمير على السلطة المستبدة وعلى الإجراءات العادية التى تتبعها الكنيسة . ومن الجلى أن الكنيسة اشتمت ريح العصيان فى المثال الثانى كما أحست به فى الأول .

وكان القديس دومينيك الأسبانى (١١٧٠ — ١٢٢١) شخصية مغايرة جدا للقديس فرنسيس ، فقد كان قبل كل شىء تقليدى العقيدة . وكان ولوعاً بهداية الهراطقة عن طريق الجدال ، فندبه البابا إنوسنت الثالث للذهاب والتبشير بين الألبيجنسيين . وكان عمله يسير جنباً إلى جنب مع القتال والمذابح التى تمت أثناء

الحملة الصليبية عليهم : فمن لم يستطع دومينيك أن يهديهم إلى سبيل الدين ، أعمل فيهم صليبيو إنوسنت السيف والنار ؛ ومع هذا فإن مناشطه ذاتها واعتراف البابا بعقد رهبانيته وتشجيعه إياه لتشهد بتصاعد سيل المناقشة ، وباعتقاد الناس كافة بما فيهم البابوية نفسها بأن القوة ليست علاجا للموقف .

وتطور عقد الرهبان السود أى الدومينكيين (الدومينيكان) — (إذ كان الفرنسسكانيون هم الرهبان الشهب[1] يبين لنا من عدة أوجه أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وهى عند مفترق الطرق تتردى مستسلمة رويدا فى أعماق الاعتقادية الحتمية المنظمة (Dogma) ، وبذا تقع فى نزاع لا رجاء فيه مع ذكاء الإنسانية المتوقد وشجاعتها المشبوبة . وبذلك تخيرت الكنيسة طريق القسر والإجبار ، وهى التى واجبها الأوحد أن ترشد وتهدى . ولا يزال آخر حديث ألقاه القديس دومينيك إلى الهراطقة الذين جهد أن يهديهم إلى الطريق السوى باقيا لنا إلى اليوم . وهو من صوى[2] التاريخ الهامة . وإنه ليكشف لنا عن رجل تغلى مراجل غيظه القتال لأنه فقد إيمانه فى قوة الصدق نظراً لأن صدقه « الخاص » لم ينتصر .

قال : « قد نصحتكم سنين عديده بلا جدوى : باللطف والموعظة والرجاء والبكاء . ولكننا تبعاً للمثل القائل فى بلادى : « حيثما تفشل البركات عن إتمام أى شىء ، فمن الجائز أن تفيد اللكمات » — سنثير عليكم الأمراء والأحبار الذين سوف — ويا للأسف ! . . . يسلحون الأمم والممالك ضد هذه البلاد . . . . وبذا تفيد اللكمات حيث كانت البركات واللطف غير ذات جدوى[3] »

شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة ، هى محكمة التفتيش البابوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم فى بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد فى هذا الإقليم أو ذاك ، ولكن إنوسنت الثالث

---

(١) الشهب : جمع أشهب وهو الرمادى اللون . (المترجم)

(٢) الصوة : بالضم حجر يكون علامة فى الطريق ، وجمعه صوى . (المترجم)

(٣) الموسوعة البريطانية — مادة دومينيك .

وجد الآن فى عقد الرهبان الدومينيكيين الجديد أداة قوية للقمع ومن ثم نظمت محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم . وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنسانى بالنار والعذاب وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الوحيد فى السيادة على العالم . وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعـدام إلا نادراً بالملاحدة والكفار . فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون فى مئة ساحة من ساحات الأسواق فى أوربا ليراقبوا أجسام أعدائها – وهم فى غالبية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم – تحترق بالنار وتخمد أنفاسهم بحالة محزنة ، وتحترق وتخمد معهم فى نفس الحين الرسالة العظمى لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رماداً تذروه الرياح .

على أن بدايات الفرنسسكيين والدومينيكيين لم تكن إلا اثنتين من بين القوى الكثيرة الجديدة التى أخذت تنشأ فى عالم المسيحية ، إما لمساعدة الكنيسة أو لتحطيمها حسبما كانت تمليه عليها حكمتها الخاصة . وقد تمثلت الكنيسة بالفعل هذين « العقدين » (الهيئتين) واستخدمتهما ، وإن كان ذلك مع قليل من العنف فى حالة العقد الأول . على أن قوى أخرى كانت أصرح فى نقدها وخروجها على الطاعة . إذ ظهر بعد ذلك بقرن ونصف ويكليف (Wycliffe) (١٣٢٠ – ١٣٨٤) . وكان قسيساً ولاهوتياً عالماً فى أوكسفورد ؛ واشتغل بالتدريس بكلية باليول حيناً من الدهر ؛ وتولى مناصب متنوعة فى الكنيسة . ثم شرع وقد علت به السن يوجه سلسلة من النقد الصريح إلى ما عليه رجال الدين من مفاسد وما عليه الكنيسة من الحماقة .

ونظم عدداً من فقراء القساوسة ، هم الويكليفيون لنشر آرائه فى كل أرجاء إنجلترة . ولكى يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ، ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية .
كان رجلا أوسع علماً وأكثر اقتداراً من أى من القديسين فرنسيس أو دومينيك . كان له مؤيدون من ذوى المراكز العالية ، وأتباع كثيرو العدد من بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت حنقاً عليه وأمرت بسجنه ، فإنه مات رجلا حراً ، وهو ما يزال يقوم بالطقوس الدينية والأسرار المقدسة بوصفه قسيساً لأبروشية لوتروورث (Lutterworth) .

على أن الروح الخبيثة القديمة التى كانت تسوق الكنيسة الكاثوليكية إلى حتفها لم تكن لتسمح لعظامه بأن تستقر فى قبره . فبمقتضى قرار صادر من مجمع كونستانس فى (١٤١٥) انتبشت عظامه وأحرقت ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج فى (١٤٢٨) بأمر من البابا مارتن الخامس . ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة المقابر من عمل متعصب بمفرده ؛ بل كان عملا رسمياً أتته الكنيسة .

١٥ - قائمة بأسماء البابوات العظام

إن تاريخ البابوية مربك للقارئ العادى لكثرة البابوات ووفرتهم . كانوا فى الغالب يعتلون منصة الحكم شيوخاً قد تقدمت بهم السنون ، وكانت مدة حكمهم قصيرة تقل عن سنتين فى المتوسط .

على أن من البابوات من يبرزون ويهيئون لدارس التاريخ نقاطاً بارزة يستطيع أن يمسك بها ويحس أثرها . ومن أمثال هؤلاء جريجورى الأول العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) ، وهو أول بابا مترهب ، وصديق بندكت ، وصاحب الفضل فى إرسال بعثة التبشير الإنجليزية .

ومن البابوات الآخرين الجديرين بالذكر ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) ، الذى توج شرلمان ؛ واثنان من البابوات اشتهرا بالفضائح هما يوحنا الحادى عشر (٩٣١ — ٩٣٦) ويوحنا الثانى عشر (٩٥٥ — ٩٦٣) ، والأخير هو الذى خلعه الإمبراطور أوتو الأول ، ثم يجيء هلدبراند العظيم ، الذى ختم حياته تحت اسم جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) ، والذى فعل الشيء الكثير بتقريره العزوبة على رجال الدين ، وتشبثه بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء ، لكى يركز قوة الكنيسة فى روما .

وحدث نزاع عظيم بين هلدبراند والإمبراطور المنتخب هنرى الرابع على مسألة التعيينات . فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ؛ فحرم البابا الإمبراطور وأحل أتباعه الأمراء من ولائهم له . واضطر الإمبراطور أن يذهب تائباً إلى البابا فى كانوسا (١٠٧٧) ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش ، وهو حافى القدمين فى

الثلج فى فناء القلعة . على أن هنرى ما لبث أن عاد فيما بعد إلى فرض حقوقه وإبراز قوة شكيمته إذ أعانته أكبر العون هجمات قوية قام بها المغامر النورماندى روبرت جويسكارد على ممتلكات البابا .

وكان البابا التالى لخليفة جريجورى السابع هو إربان الثانى (١٠٨٧ — ١٠٩٩) ، وهو البابا الذى دعا إلى الحرب الصليبية الأولى .

وكانت الفترة من جريجورى السابع إلى ما بعده بقرن ونصف من الزمان هى الفترة العظمى للكنيسة : فترة اشتداد طموحها وجهودها . وفيها بذلت المحاولات الصادقة المتواصلة لتوحيد عالم المسيحية بأجمعه فى ظل كنيسة مطهرة مجددة التنظيم .

وإن فى إقامة الممالك اللاتينية بسوريا والأراضى المقدسة على مذهب روما بعد الحرب الصليبية الأولى ، لعلامة ملحوظة آذنت باستهلال مرحلة جديدة لغزو روما للمسيحية الشرقية ، مرحلة وصلت إلى ذروتها أثناء الحكم اللاتينى فى القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦١) .

وفى (١١٧٧) ركع الإمبراطور فردريك بربروسا (فردريك الأول) للبابا اسكندر الثالث فى مدينة البندقية واعترف بسيادته الروحية وأقسم يمين الإخلاص والولاء له . ولكن بعد موت اسكندر الثالث (١١٨١) ، تجلى ضعف البابوية الراجع إلى احتمال وقوعها فى أيدى كهول محطمين . فإن خمسة من البابوات دلفوا إلى اللاتيران مترنحين لكى يموتوا فى مدى عشر سنوات . ولم يتح للبابوية إلا فى شخص إنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) بابا قوى جديد يتناول بيديه السياسـة العظيمة « لمدينة الرب » .

وفى عهد إنوسنت الثالث — الوصى على الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى سبق أن درسنا ترجمته — والباباوات الخمسة الذين خلفوه ، أصبح بابا روما أقرب إلى ملك لعالم مسيحى متحد منه فى أى زمن سابق أو لاحق . ذلك بأن الإمبراطورية ضعفت لما نشب فيها من منازعات داخلية ، على حين صارت القسطنطينية فى أيدى اللاتين ، ومن ثم صار البابا هو السيد الأعلى فيما بين بلغاريا

وإرلندة وما بين النرويج وصقلية وبيت المقدس . ومع ذلك فإن سيادته هذه كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية . ذلك أنه على حين كانت العقيدة كما رأينا آنفاً ، قوية أيام إربان الثانى فى كل أوربا المسيحية ، كانت البابوية أيام إنوسنت الثالث قد فقدت سيطرتها على قلوب الأمراء ، كما أن إيمان الناس وضميرهم كانا آخذين فى التحول إلى العداء لكنيسة لا تنطوى إلا على السياسة والعدوان[١] .

وكانت الكنيسة فى القرن الثالث عشر تقوى وتبسط سلطتها القانونية فى العالم وتفقد سيطرتها على ضمائر الناس . وكانت تغـــدو أقل إقناعاً وأكثر عنفاً . ولا يستطيع أى إنسان ذكى أن يتحدث أو يقرأ عن هذه العملية الفاشلة دون أن تخالجه مشاعر بالغة التضارب . لقد آوت الكنيسة بين أحضانها أوربا جديدة كونتها بنفسها خلال العصور الطويلة من الظلمة والفوضى ؛ وكانت هى القالب الذى صبت فيه المدنية الجديدة . ولكن هذه المدنية الجديدة التكوين إنما دفعتها إلى النمو حيويتها الفطرية الكامنة ، فأما القالب (الكنيسة) فكان ينقصه القدر الكافى من قوة التنمية والتيسير . وكان الزمان الذى لا بد فيه من كسر هذا القالب يقترب حثيثاً .

وجاءت أول إشارة قوية لانحلال القوى الحية الداعمة للبابوية ، عندما حدث بعد ذلك نزاع بين البابوات وقوة الملك الفرنسى النامية . إذ حدث فى حياة الإمبراطور فردريك الثانى أن وقعت ألمانيا فريسة للفُرقة ، وأخذ الملك الفرنسى يقوم نحو البابا بدور الحارس والمساعد والمنافس ، وهو الدور الذى كان يؤديه إلى ذلك الحين أباطرة آل هوهنشتاوفن واتبعت مجموعة متتالية من البابوات سياسة مناصرة الملوك الفرنسيين ، فنصب أمراء فرنسيون فى ممالك صقلية ونابولى بمناصرة روما وموافقتها ، ورأى الملوك الفرنسيون أمامهم فرصة سانحة لاستعادة إمبراطورية شرلمان وحكمها . ومع ذلك فإنه لما انتهت فترة خلو العرش الألمانى التى نشأت بعد موت فردريك الثانى آخر أفراد آل هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرجى أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، أخذت سياسة اللاتيران تتذبذب بين فرنسا وألمانيا تبعاً لميول البابوات المتعاقبين .

(١) كانت الكنيسة فى ذلك الحين تعد نفسها مجاهدة فى سبيل العقيدة **(Church Militant)** أو منتصرة على شرور الدنيا ومستقرة فى ملكوت السموات **(Church Triumphant)** . انظر مقال عن چان دارك فى كتاب « أعلام وأفكار » تأليف يوهان هويزنجا ترجمة المترجم للبيئة المصرية للتأليف .

ففي (١٢٩٤) تبوأ بونيفاس الثامن دست البابوية . وكان رجلا إيطاليا معادياً للفرنسيين ، وافر الإيمان بتقاليد روما العظيمة ورسالتها الكبرى . فعالج الأمور حيناً من الدهر بقوة واستبداد . وفى (١٣٠٠) عقد مهرجاناً لليوبيل واجتمع له جمهور حاشد من الحجاج فى روما . « بلغ من عظم انثيال المال إلى خزائن البابوية ، أن ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الهبات التى وضعت عند قبر القديس بطرس »[1] . على أن هذا المهرجان كان نصراً خداعاً . فإن جمع جيش عظيم من الرحالة المتنزهين أيسر كثيراً من جمع ثلة من الصليبيين . وتنـازع بونيفاس مع الملك الفرنسى فى (١٣٠٢) ؛ وفى (١٣٠٣) ، بينما كان على وشك إصدار قرار الحرمان ضد ذلك الملك ، فاجأه غليوم دى نوجاريه فى قصر أجداده الموروث بأناجنى (Anagni) واعتقله . وقد دخل هذا المندوب عن الملك الفرنسى القصر عنوة وسار حتى وصل إلى مخدع البابا المرتاع — وكان راقداً فى فراشه وبيده صليب — وألقى عليه سيلا من الوعيد والإهانة . وأطلق أهل المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم ، وأعادوه إلى روما ؛ ولكن اعتقله هناك ثانية بعض أفراد عائلة أورسينى وسجنوه . ولم تنقض بضعة أسابيع حتى مات الرجل الشيخ الهرم مصعوقاً وقد رفعت عنه غشاوة الخداع ، فقط وهو لا يزال سجيناً فى أيديهم .

وقد غضب أهل أناجنى بالفعل للاعتداء الأول وثاروا ضد نوجاريه لتخليص بونيفاس ، ولكن أناجنى كانت مسقط رأس البابا . والنقطة الهامة التى علينا ملاحظتها هى أن الملك الفرنسى ، كان فى هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية الأكبر ، يتصرف بملء استحسان شعبه ؛ فإنه دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث (النبلاء والكنيسة والعامة) وفاز بموافقتهم قبل البدء فى الإجراءات المتطرفة . ولم تبد أى من إيطاليا أو ألمانيا أو إنجلترة أدنى مظهر عام ينم على عدم الموافقة عن هذا التصرف الجرىء مع الحبر الأعظم صاحب السيادة العليا . فقد انحلت الفكرة الداعية لتوحيد العالم المسيحى حتى انمحى سلطانها على عقول الناس .

(١) ج . ه . روبنسن .

وفى الشرق استرد اليونان مدينة القسطنطينية (١٢٦١) من الأباطرة اللاتين ، ولم يلبث مؤسس الأسرة اليونانية الجديدة ميخائيل پاليولوجوس أو ميخائيل الثامن ، بعد محاولات زائفة للصلح مع البابا ، أن انفصل عن مجتمع روما الكنسى انفصالا نهائياً ، وبهذا الانفصال وبسقوط الممالك اللاتينية فى آسيا ، زال ما كان للبابوات من سيادة فى الشرق .

ولم تعمل البابوية شيئاً طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيبتها المعنوية . وكان خليفة البابا التالى ، وهو كلمنت الخامس ، رجلا فرنسياً ، اختاره الملك فيليب الفرنسى . فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه فى مدينة أڤنيون ، ولم تكن عند ذاك تابعة لفرنسا ، بل كانت تابعة للكرسى البابوى وإن وقعت فى صميم الأراضى الفرنسية ؛ وهناك أقام خلفاؤه حتى (١٣٧٧) ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الڤاتيكان بروما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم يحمل معه عطف الكنيسة بأسرها . إذ كان كثير من الكرادلة فرنسيي الأصل وكانت عاداتهم ومشاربهم شديدة الارتباط بأڤنيون . فلما أن مات جريجورى الحادى عشر (١٣٧٨) ، وانتخب إيطالى هو إربان السادس ، أعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون أن الانتخاب باطل ، وانتخبوا بابا آخر هو البابا المضاد كلمنت السابع .

ويسمى هذا الانقسام « بالصدع الكبير » . وظل البابوات فى روما ، وبقيت كل الدول المعادية لفرنسا ، من الإمبراطور إلى ملك إنجلترة إلى هنغاريا وبولندة وشمالى أوربا ، موالين لهم . وذلك على حين استمر البابوات المضادون فى أڤنيون يناصرهم ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وأسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان متنوعون . وكان كل بابا فى الجانبين يحرم أنصار منافسه ويلعنهم ، حتى لقد غدت المسيحية بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعناً صحيحاً كاملا بهذا المعيار أو ذاك (١٣٧٨ — ١٤١٧) .

ومن المستحيل أن نبالغ فيما ترتب على هذا الانقسام من أثر محزن على قوة تماسك العالم المسيحى . فلا غرو إذن أن رجالا من أمثال ويكليف شرعوا يعلمون الناس أن يفكروا لحسابهم الخاص ، عند ما كان معين الصدق يتطاحن ويفرى بعضه بعضاً على النحو الذى نرى ! !

وفى (١٤١٧) التأم الصدع الكبير فى مجمع كونستانس ، وهو نفس المجلس الذى إنتبش عظام ويكليف وأحرقها ، والذى تسبب كما سنبين فيما بعد فى إحراق چون هس (Huss) . وفى هذا المجمع استقال البابا والبابا المضاد أو قذف بهما جانباً ، وأصبح مارتن الخامس البابا الوحيد على عالم مسيحية موحدة رسمياً ولكنها مضعضعة بادية الإعياء روحياً .

ولسنا بمستطيعين أن نقص هاهنا كيف أن مجمع بازل (١٤٣٩) أدى إلى صدع جديد وإلى بابوات مضادين آخرين .

هذه نبذة موجزة عن قصة القرون العظيمة لرفعة البابوية وتدهورها . وهى قصة الإخفاق فى الوصول إلى تلك الفكرة النبيلة الرائعة ، فكرة قيام عالم دينى موحد . ولقد أشرنا فى القسم السابق كيف أن ميراثاً من لاهوت معقد قائم على الاعتقاد الحتمى (Dogma) ، قد أثقل كاهل الكنيسة فى مغامرتها الطموحة هذه . كان لديها من اللاهوت ما تجاوز الغاية ومن الدين ما دون الكفاية . على أنه ربما لا يكون من اللغو الإشارة هنا إلى مدى ما ساهم به عدم الكفاية الشخصية للبابوات فى انهيار خطة الكنيسة وكرامتها ، لم يكن فى العـالم ذلك المستوى التعليمى اللازم لتزويد سلسلة متعاقبة من الكرادلة والبابوات بسعة المعرفة ورحابة الأفق اللازمين للواجب الذى أخذوا على عاتقهم النهوض به ؛ فهم لم يتلقوا التعليم الذى يكفى لقيامهم بواجبهم ، ولم يتهيأ إلا للقليل منهم ، أن يتساموا على هاته النقيصة بمحض قوة العبقرية . وكما سبق أن نوهنا ، كانوا عند ما يصلون آخر الأمر إلى النفوذ والسلطان ، أسَنّ وأضعف من أن يقدروا على استخدامه . وقبل أن يحكموا القبضة على الموقف الذى كان عليهم أن يهيمنوا عليه ، يكون معظمهم قد فارق الحياة .

ومن الشائق أن يتساءل الإنسان كم كان الميزان يجنح إلى جانب الكنيسة لو أن الكرادلة كانوا يتقاعدون فى سن الخمسين ، أو حرم انتخاب أى إنسان لمنصب البابوية بعد سن الخامسة والخمسين ؟ كان ذلك لا جرم يطيل متوسط مدة حكم كل بابا ، وكان يزيد زيادة هائلة فى استمرار سياسة الكنيسة . وربما كان من المحتمل

كذلك أن تُستَنبَط طريقة أكثر كمالا فى انتخاب الكرادلة ، وهم أصحاب القول الفصل فى انتخاب البابا وذوو الرأى والمشورة لديه . فإن القواعد والطرق التى بها يصل الرجال إلى مناصب السلطان لعلى درجة عظيمة جداً من الأهمية فى الشئون الإنسانية . وإن سيكولوچية الحاكم لَعِلْم لا يزال على العلماء أن يدرسوه دراسة صحيحة . لقد رأينا الجمهورية الرومانية تتحطم ، وها نحن نرى الكنيسة تخفق فى رسالتها العالمية لسبب يرجع على الأغلب إلى طرائق انتخابية عقيمة .

١٦ ــ العمارة والفن القوطيان

هناك تطورات معمارية وفنية خاصـــة تميز أدوار تاريخ المسيحية من العصر الرومانسكى إلى عصر الشك واضمحلال العقيدة الذى كان فردريك الثانى بشيره . ولقد حدث إقبال عظيم على بناء الكاتدرائيات فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وتطور سريع فى العمارة الرومانسكية الغربية ، تحول بهـــا إلى ما يسمى فى أدق معانيه باسم الطراز القوطى . فإن السقوف المنحدرة فى الأبراج الرومانسكية قد استطالت وأصبحت منائر مستدقة (Spires) ؛ وأدخل السقف المقبو المتقاطع الحنايا . وجرف العِقد المدبب ــ الذى انتشر من قبل فى الفن العربى طوال مئتى سنة أو تزيد ــ أمامه العقد المدور . وظهر مع هذه المظاهر تطور عظيم وتنميق كبير فى النوافذ وفى الزجاج الملون .

والراجح أن نمو هيئات الأديرة وازدياد ثرائها هو الذى أطلق سراح فيض الطاقة الفنية التى أعطت العالم كنيسة نوتردام بباريس مثلا وكاتدرائية شارتروكاتدرائية أميان والبداية الفاخرة التى تشهدها فى بوڤيه (Beauvais) . وظل الدافع الفنى القوطى متواصلا طوال قرون عديدة . ومنذ القرن الثالث عشر أخذت النافذة ذات الحلى الحجرية التشجيرية المنقورة من أعلى تصل إلى أقصى درجات تطورها . وفى القرن الرابع عشر أصبح الفن القوطى زاخراً بالحيوية فترة طويلة من الزمان ثم ارتد قاسياً جامداً . وانتهج الإنجليز طريقاً خاصاً بهم إذ اتخذوا لأنفسهم الطراز المرتفع الصارم المسمى

« بالعمودى » (Perpendicular)[1] . واتخذت الأشكال القوطية سمة وكيفاً جديداً باستعمال الطوب فى مناطق مترامية الأطراف من شرق ألمانيا وشمالها حيث حجر البناء نادر أو بعيد المنال . ولقد ذوى فن العمارة القوطى مع بداية القرن الخامس عشر . ذلك أن أيام عظمة الكنيســة فى أوربا قد ولّت ، وكان لا بد للظروف الاجتماعية الجديدة من أن تعبر عن نفسها بطرائق جديدة . وما زلنا نجد الكاتدرائيات ناقصة لم يستكمل بناؤها فى بعض مدن بلچيكا وهولندة ، وإلى جوارها بناء للبلدية عظيم سلب ما كان للكنيسة من موارد البناء ومواده . فى إيبر (Ypres) مثلا ، وقبل أن تمتد يد الحرب بالتخريب ، كانت قاعة « بورصة الأقمشة » العظمى تبز الكاتدرائية إتقاناً وتفوقها جمالا .

وفى أسبانيا كان الفن القوطى يقفو المسيحيين من مقاطعة إلى أخرى أثناء استردادهم شبه الجزيرة من العرب . فالفن العربى المغربى (Mauresque) والفن القوطى الأسبانى قد تطورا كل فى حدوده الخاصة . هذه أشبيلية تقوم فيها إلى جانب القصر المغربى الطراز المسمى بالكازار ، كاتدرائية قوطية عظيمة ، وكأن داخلها السامق يستشعر فرحاً تغشاه العتمة لما تم من فوز على الغزاة المقهورين .

ولم يتغلغل الفن القوطى فى إيطاليا بدرجة كبيرة . وأبرز مثال له هو كاتدرائية ميلانو . على أن إيطاليا كانت أثناء الفترة القوطية فى أوربا الغربية ، ساحة قتال بين التقاليد العتيقة والطرز المتنازعة . فإن كنيسة سانت مارك البيزنطية الطراز فى البندقية تضاهى بطرازها الطراز القوطى المتجلى فى كاتدرائية ميلانو ، وإن النورمانديين والعرب ليمزجان روحيهما بالروح الرومانية فى مثل مبانى كاتدرائية أمالفى . وتشكل الكاتدرائية ومكان التعميد وبرج الجرس الكبير فى پيزا مجموعة من أشد مجموعات المبانى الإيطالية تعبيراً ، وكلها ترجع إلى حوالى القرن الثانى عشر تقريباً .

---

(١) طراز العمارة العمودى : طراز إنجليزى متأخر من العمارة القوطية (أواخر القرن ١٤ إلى منتصف ١٦) ويمتاز بالحليات الحجرية المنقورة بأعلى النوافذ أو بالعقد المخفض ذى الزوايا الأربعة وبالتقبية ذات الحليات الحجرية المنقورة على شكل مروحة وبالجدران المرقشة بالصور . (المترجم)

وظل الميل إلى فن التشكيل التمثيلى[1] طوال العهد القوطى ، وهو الميل القوى المشبوب فى كل من الشعوب الآرية والحامية ، - يكافح كفاحاً ظاهراً ضد الميل الغريزى إلى كبته ، الذى ظهر فى العالم الغربى بعد الانتشار الأول للمسيحية والإسلام . وينبغى أن يكون من المفهوم أنه لم تكن هناك عداوة صريحة ضد الفن التشكيلى التمثيلى عند المسيحيين . وقد اختفى فن التصوير الرومانى القديم من سراديب الدفن والقبور المسيحية المزخرفة . وظل قدر معين من التصوير الجدارى المنمط النوع يكافح خلال القرون الوسطى ثم تكاثر فى القرنين العاشر والحادى عشر .

ومع زيادة أسباب الاطمئنان فى الحياة جاءت الرغبة المتزايدة فى تجميل الكنائس ومبانى الأديرة . وانتشر التصوير منتقلا من العمل الضيق المحدود لمن يحلى الكتب بالصور إلى الجدران واللوحات العصرية . فأصبح القديسون الجامدون أكثر مرونة ؛ وأضيفت الخلفيات الظاهرة من ورائهم ، فأتاحت للرسام المجال لإضافة التفاصيل المتمشية مع الطبيعة الحقة Naturalistic . فاما اللوحة المصورة[2] التى كانت تعمل فى مكان ثم تنقل إلى آخر وتثبت فيه ، فكانت بشيراً وسلفاً للصورة المستقلة . وانقضت فترة من الزمن فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت فرنسا وألمانيا سابقتين فيها لإيطاليا فى هذا الابتعاث للفن التصويرى . وفى نفس الوقت كان نحات أحجار البناء ينفث فى الحليات المضنية التى علبها المبانى القوطية حيوية وروحاً واقعية متزايدتين . فهو يحول الميزاب إلى رأس حيوان كاشر الوجه مضحك ، ويضع وجوهاً وأشكالا مصورة على تيجان العمد والأبراج المرتفعة الدقيقة للأبنية Pinnacle . وينقل القديس المنحوت من الحفر البارز Relief إلى التجسيد الصلب الماثل (أى يحوله من نقش بارز مسطح إلى تمثال مجسد) . وفى ذلك أيضاً كانت ألمانيا هى القائدة صاحبة السبق . وهذا الانسلال إلى المحاكاة للطبيعة أمتع حقيقة عامة فى تاريخ العصور الوسطى الفنى .

---

(١) فن التشكيل التمثيلى : (Representative Art) هو القائم على تمثيل أو تصوير الأشياء الطبيعية والكائنات الحية . (المترجم)

(٢) اللوحة المصورة (Panel) هى التى يسميها أهل الفن باسم پانوه (Panneau) (المترجم)

ولقد سبق لنا أن لحظنا من قبل اختفاء لمحاكاة الطبيعة مشابها لهذا ، ثم ظهوراً جديداً لتلك المحاكاة فى تاريخ الإنسانية . فالإنسان فى أواخر العصر الحجرى القديم كان يحفر الأشكال الواقعية ويرسمها بحرية وقوة ولكن إنسان العهد المبكر من العصر الحجرى الحديث لم يترك لنا رسوماً جيدة ولانحاتت جيدة تمثل الكائنات الحية . ثم لم يكد فن التشكيل يظهر مرة ثانية حتى جاء عصر البرونز . وقد حدث نفس هذا الأمر بالضبط وإن على مقياس أكبر بين الأيام العظيمة للإمبراطورية الرومانية وبين العصور الوسطى ، لا فى ظلال المسيحية فحسب بل فى رحاب الإسلام كذلك . ولم يقم أحد قط بتقديم أى تفسير كامل مقنع لظهور هذه البدائل المتناوبة . فإن الفن تراجع عن محاكاة الحقيقة والطبيعة وحبس نفسه على الإتقان والتنميق الشكلى . ومنذ ذلك التاريخ بدت موجة عظيمة أخرى من روح المحاكاة المشرقة للطبيعة ، لعلها بلغت ذروتها من أمد غير بعيد . ومنذ خمسين سنة كان كل من التصوير والنحت أكثر على الجملة امتلاءً بروح لمحاكاة للطبيعة والتمثيل لأشكالها ، وأقل رمزية وأدنى تلويحاً وإشارة مما هو عليه الآن[1] . ولسنا بمستطيعين أن نقدم هاهنا أى تفسير مرض لهذه الموحات التى تلم بالباعث الفنى العام ، وأعنى بها الترجحات المتناوبه بين الحقيقة الجذلة القوية النقل والأداء وبين الترفع والتزمت . وكأنما الروح الواقعية المفرطة والجذل المفرط بالجسم والحركة والانفعال والتفاصيل العرضية كانت تنتهى آخر الأمر إلى إحداث رد فعل يتجه إلى عملية التجريد والشكلية ويسبب التجاءً غريزياً إليهما .

١٧ ـ موسيقى العصور الوسطى

كانت تلم بالموسيقى تغيرات عظيمة فى أيام الحروب الصليبية . إذ أن أى نوع من أنواع الانسجام (الهرمونى Harmony) لم يكن معروفاً حتى ذلك الأوان ؛ بل كانت الموسيقى شأناً بسيطاً مكوناً من الإيقاع واللحن ؛ وقد ابتدأ آنذاك تطور جديد تمام الجدة — كان فى مبدأ الأمر غناءً موزعاً من نوع بدائى (Part-singing) ، ثم تطور فأصبح حبكة معقدة من ألحان يزداد تناسجها على مر الزمان إحكاماً وتفصيلا . إذ جُعلت الأصوات المختلفة

---

(١) انظر المترجم « التربية عن طريق الفن » تأليف هربرت ريد (هيئة الكتب والأجهزة العلمية) ، وفى هذه الفقرة يشير الكاتب إلى ما غلب على فن القرن العشرين من روح عصرية تتمثل فى التجريدية والسرياليه والتكعيبية والوحشيه والترقيطية وغير ذلك من أشكال الفن المعاصر . (للمترجم)

تغنى فى نفس الوقت أنغاماً مختلفة يجمعا الانسجام الهارمونى . وفى الحين نفسه تطور تدوين النوتة الموسيقية قادر على التعبير عن الموسيقى الجديدة المتعددة الأصوات البوليفونية (Polyphonic) وتسجيلها . وكان التدوين ضرورياً للتطور الموسيقى الحر، ضرورة الكتابة لظهور « أدب » نام متنوع .

ويبدو أن البدايات الأولى لهذا التجديد فى صوغ الموسيقى إنما ظهرت فى أوربا الغربية ، والراجح أن ذلك كان فى ويلز ووسط إنجلترة . إذ نحن إنما نجد هناك أول ما سجل لنا من حالات الغناء الموزع ، ولعله بدأ هنا فى زمن مبكر يرجع إلى القرن التاسع . ولكنه كان على التحقيق أمراً قائماً يمارسه الناس عند نهاية القرن الثانى عشر . وهناك قطعة ممتازة من التدوين الموسيقى الإنجليزى الموزع ترجع إلى حوالى (١٢٤٠) لا تزال موجودة حتى الآن . وهى الروتا (Rota) ومطلعها «Sumerisi - cumenim» . والراجح أن كاتبها هو چون الفورنسيتى وهو راهب محاضر ، ويقول السير و . هـ . هادو[١] « إن تدوين التوزيع فيها مدهش فى صحته وإرضائه للنفس ، ومن الممكن سماعه فى الوقت الحاضر بسرور عظيم . . . . وهى أول صوت فى تطور فننا الغربى ، ما يزال يستطيع أن يحدثنا فى نبرات صديقة مألوفة » .

وكانت تلك الأيام أيام المغامرين الجوالين ، كما كانت أيام الموسيقى الطوافة أيضاً . فإن جماعات التروبادور كانت تنتقل من قصر إلى قصر ؛ وكان ثمة كثير من المغنين المتسولين ، وانتشرت فكرة الانسجام الموسيقى (الهارمونى) بأرجاء فرنسا وإيطاليا وإلى أوربا الوسطى . وكانت معظم التلحينات غناءً متعدد الأصوات بوليفونيا غير مصحوب بموسيقى . على أن تطور التوزيع الموسيقى على الآلات جاء فيما بعد مع ظهور العود (Lute) والفرچينال[٢] والفيول[٣] وزيادة استخدام ومجال الأرغن بصورة متمشية مع الزيادة فى مهارة صانعيه . وكان لا يزال على القصر والبلاط أن يصلا إلى

---

(١) : هو السير وليم هنرى هادو : (١٨٥٩ — ١٩٣٩) من كبار رجال التربية ومن أعظم علماء علم الموسيقى وتحليلها وفلسفتها ومحرر « تاريخ اكسفورد للموسيقى » (المترجم)

(٢) آلة وترية قديمة ذات مفاتيح .

(٣) ضرب قديم من الكمان .

تلك الذرى العالية من الترف والتنميق التي لا بد منها لإنتاج موسيقى علمانية أرفع من هذه التي لا يتجاوز نطاقها هذه الموسيقى الصوتية والشعبية الصرفة وفي مبدأ الأمر ، كانت أهم مهاد لإنتاج الموسيقى الجديدة هي جوقات (كورس) المرتلين والعازفين بالكاتدرائيات والأديرة . فهناك كافح الرؤساء المجددون لجوقات المرتلين (الكورس) ضد النزعات الدينية الشديدة المحافظة والتمسك بالقديم ، بل لقد كافحوا كفاحاً طويلا بعيد المدى .

وكانت الصيغة الغالبة في أثناء طور الانسجام الهارموني الصوتي البحت هي المادريجال[1] . وكان الملحن الإيطالي بالسترينا (١٥٢٦ — ١٥٩٤) هو الأستاذ الذي بلغت به تلك الفترة من الموسيقى الكورالية الجماعية ذروتها . وفي القرن السادس عشر كان الصناع الإيطاليون قد ساروا فعــلا بالكمان (الفيولينا) في سبيل الكمال ، وكان الأرغن الحديث في دور التطور النهائي ، فقد أخذت ظروف اجتماعية جديدة في الظهور ، وثمة مشاعر جديدة أخذت تبحث عمن يترجم عنها ، وثم طرائق ومناهج جديدة أخذت في التطور فتيسر بها ظهور طراز من التلحينات الموسيقية أرحب أفقاً وجب فيه على فن التوزيع الموسيقى على الآلات أن يلعب الدور الأعظم .

(١) لحن موضوع لقصيدة غزلية .

الكتاب السابع

الامبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية
والامبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

الفصل الثانى والثلاثون

چنكيز خان وخلفاؤه وإمبراطوريتهم العظيمة

(عصر الطرق البرية)

١ – آسيا عند نهاية القرن الثانى عشر .
٢ – قيام المغول وانتصاراتهم .
٣ – رحلات ماركو پولو .
٤ – الأتراك العثمانيون والقسطنطينية .
٥ – لماذا لم يعتنق المغول المسيحية .
٦ – أسرتا يوان ومنج فى الصين .
٧ – المغول يرتدون إلى الروح القبلية .
٨ – إمبراطورية القپچاق وقيصر موسكوڤيا (الروسيا).
٩ – تيمورلنك .
١٠ – إمبراطورية الهند المغولية .
١١ - الفجر (النور) .

---

١ – آسيا عند نهاية القرن الثانى عشر

الآن نحدثك عن آخر وأعظم غارات نظام « البداوة » والترحل على مدنيات الشرق والغرب . ولقد تتبعنا فى هذا التاريخ تطور طريقة العيش هاتين جنباً إلى جنب ، وأشرنا إلى أنه كلما اتسعت رقعة المدنيات وتحسن تنظيمها ، كانت تتحسن كذلك أسلحة المترحلين وتزداد سرعة حركتهم ويرتفع مستوى ذكائهم . ولم يكن المترحل

أو البدوى بمجرد رجل غير ممدن ، بل كان إنساناً متخصصاً فى طريقة عيشه لايبرح تخصصه يعمق ويزداد . ومنذ بداية التاريخ ذاتها ، كان المترحلون والمستقرون فى تفاعل دائم . وقد سبقت الإشارة إلى غارات الساميين والعيلاميين على سومر . ورأينا الإمبرطورية الغربية وكيف حطمها مترحلو السهول العظيمة ، ورأينا فارس تسقط فى أيدى مترحلى بلاد العرب الذين يهزون بيزنطة هزا . والعدوان المغولى الذى ابتدأ مع ابتداء القرن الثالث عشر ، يعد حتى الآن آخر غارة أعيد فيها حرث الجماعة الإنسانية حرثاً مدمراً .

ظهر المغول على مسرح التاريخ فجأة هابطين من غياهب المجهول قرب نهاية القرن الثانى عشر . وكان ظهورهم فى القطر الواقع شمالى الصين بأرض الأرومة الأصلية للهون والترك ، وواضح أنهم ينحدرون من نفس سلالة هذين الشعبين . تجمعوا بعضهم مع بعض تحت لواء رئيس ما نحن بمثقلين ذاكرة القارئ باسمه ، وما لبثت قوتهم أن نمت تحت قيادة ابنه جنكيز خان بسرعة خارقة للعادة .

ولعل القارئ لايزال يذكر التفكك التدريجى الذى ألم بوحدة الإسلام الأصلية ، فقد كان هناك عند بداية القرن الثالث عشر ، عدد من الدول الإسلامية المتفرقة المتنازعة فى غرب آسيا . كانت هناك مصر (ومعها فلسطين وجزء كبير من سوريا) تحت حكم خلفاء صلاح الدين ، وكانت هناك الدولة السلجوقية فى آسيا الصغرى ، وكان ما يزال هناك خلافة عباسية فى بغداد ، وثمة إمبراطورية ضخمة نمت إلى الشرق من هذه أيضاً هى الإمبراطورية الخوارزمية ، وهى إمبراطورية الأمراء الأتراك فى خيوة الذين غزوا عددا من الإمارات السلجوقية الصغيرة المتناثرة ، وحكموا الشقة الممتدة من وادى الجانج (الكنج) إلى الدجلة . ولكن سلطانهم على السكان الفرس والهنود كان غير وطيد .

وكانت الحضارة الصينية كقرينتها العربية على حال من الوهن تغرى بها أى فاتح مقدام مغامر . ولعل القراء يذكرون لمحة ألقيناها على الصين فى هذا التاريخ وأنها كانت فى القرن السابع إبان السنوات الأولى من حكم أسرة تانج ، يوم كان ذلك الإمبراطور الأريب المقتدر « تاى تسونج Tai Tsung » يوازن بين مزايا كل من المسيحية

النسطورية والإسلام والبوذية وتعاليم « لاوتزى Lao Tse » ويميل فى جملة الأمر إلى الأخذ بأن لاوتزى معلم يضارع فى الفضل أى واحد من الآخرين . وقد وصفنا استقباله للرحالة يوان تشوانج . وتسامح تاى تسنج مع جميع الديانات . ولكن كثيرين من خلفائه أنزلوا بالعقيدة البوذية اضطهادات ، لا تداخلها رحمة ، على أنها ازدهرت بالرغم من هذه الاضطهادات . ولعبت أديرتها دوراً مشابها بعض الشبه للدور الذى لعبته المنظمات الديرية المسيحية فى الغرب فى أخذها بناصر العلوم بادئ الرأى ثم فى اعتياقها سبيل العلم بعد ذلك .

حتى إذا وافى القرن العاشر ، كانت أسرة تانج القوية بلغت من الانحلال أقصى المدى . إذ استمرت عملية الاضمحلال المألوفة المتسببة عن تعاقب مجموعة من الفساق والعاجزين على عرش الإمبراطورية ، وانقسمت الصين مرة ثانية من الناحية السياسية إلى عدد متغير من الولايات المتطاحنة فى أثناء ما يسمى « عصر الولايات العشر » ، وهو عصر من فوضى استمرت طوال النصف الأول من القرن العاشر ، ثم نشأت أسرة جديدة هى أسرة صنج (Sung) الشمالية (٩٦٠ - ١١٢٧) التى نشرت فى البلاد ضرباً من الوحدة ، ولكنها ظلت مع ذلك فى حالة كفاح مستمر مع عدد من الشعوب الهونية الزاحفة من الشمال ، والضاغطة جنوباً على امتداد الساحل الشرقى ؛ وجاء زمن تغلب فيه شعب من هؤلاء هم شعب الخيتان (Khitan). ولم يلبث هذا الشعب أن أخضع فى القرن الثانى عشر وأخلى مكانه لإمبراطورية هونية أخرى ، هى إمبراطورية الكن (Kin) التى جعلت عاصمتها بيكين وحدها الجنوبى المناطق الواقعة جنوب نهر هوانج هو .

وتقلصت ظلال إمبراطورية صنج أمام إمبراطورية الكن هذه . وفى (١١٣٨) نقلت العاصمة من نانكين التى أصبحت عند ذاك شديدة القرب من التخوم الشمالية ، إلى مدينة هان تشاو على الساحل . وتعرف أسرة صنج منذ (١١٢٧) إلى (١٢٩٥) باسم صنج الجنوبية . وإلى الشمال الغربى من أراضيها ، كان هناك عند ذاك إمبراطورية الهسيا (Hisia) التتارية ، وإلى الشمال إمبراطورية الكن ، وكان السكان الصينيون



(شكل ١٤٥) خريطة أوربا وآسيا حوالى ١٢٠٠ م

فى كلتا الدولتين تحت حكام ما تزال تقاليد المترحلين قوية الأثر فيهم . ومن ثم ترى أنه هاهنا فى الشرق كذلك ، كانت الجمهرة الرئيسية الغفيرة للبشرية الآسيوية تحت حكام من غير بنى جلدتهم ، كما كانوا على استعداد لقبول أى فاتح إن لم يبلغ بهم الأمر حد الترحيب به .

فأما شمال الهند فكان كما سبق أن لاحظنا أرضاً يحتلها الفاتحون عند مستهل القرن الثالث عشر . وكانت فى مبدأ الأمر جزءاً من إمبراطورية خيوة ، ولكن حدث فى (١٢٠٦) أن حاكماً مغامراً اسمه قطب (Kutub) — كان عبداً مملوكاً وارتقى حتى أصبح والياً على الولاية الهندية — أنشأ فى دلهى دولة إسلامية منفصلة هى الهندوستان . وكانت البرهمانية كما سبق أن ذكرنا ، قد طردت البوذية من الهند منذ أمد بعيد ، على أن المعتنقين للإسلام كانوا ما يزالون أقلية حاكمة فى البلاد .

تلك عجالة وجيزة عن حالة آسيا السياسية ، عند ما شرع جنكيز خان يوطد

دولته بين المترحلين فى القطر المحصور بين بحيرتى بلكاش وبايكال عند مفتتح القرن الثالث عشر .

٢ — قيـــام المغول وانتصاراتهم

كانت سيرة فتوح چنكيز خان وخلفائه المباشرين مثار دهشة العالم ، ولعلها لم تدهش أحداً أكثر مما أدهشت هؤلاء الخانات المغول أنفسهم .

كان المغول فى القرن الثانى عشر قبيلة خاضعة لهؤلاء « الكن » الذين فتحوا شمال شرقى الصين . وكانوا قبيلة من الفرسان المترحلين يعيشون فى خيام ، ويعتمدون فى طعامهم بوجه رئيسى على منتجات لبن الأفراس ولحومها . وكان الرعى والصيد عملهم الذى تدخل الحرب عليه شيئاً من التنويع . وكانوا عندما تذوب الثلوج ينتقلون شمالا انتجاعاً للمراعى الصيفية ، كما ينتقلون مع الشتاء جنوباً إلى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل السهوب . وابتدأ تدربهم على الشئون العسكرية بعصيان ناجح قاموا به على « الكن » . كانت موارد نصف الصين فى قبضة إمبراطورية الكن ، وتعلم المغول أثناء الكفاح شيئاً كثيراً جداً مما لدى الصينيين من العلوم العسكرية . وما وافت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا قبيلة مقاتلة من طراز ممتاز .

وقد أنفق چنكيز الأعوام الأولى من حياته العملية فى النهوض بعدته الحربية وفى تمثل المغول والقبائل المخالطة لهم والمحيطة بهم وإدماجهم جميعاً فى جيش واحد منظم . وقد وجه أول امتداد عظيم لسلطانه نحو الغروب ، وهناك استطاع الخان أن يضم قبيلتى القرغيز واليويغور (Uighurs)(١) التتاريتين (وهما تؤلفان الشعب التتارى فى حوض التاريم) —

---

(١) يظهر اليويغور لأول مرة فى القرن السادس ، حين كانوا يعرفون باسم الكاوكو (Kao-Ku) أى العربات العالية وهم أحد فرعى الترك الرئيسيين فى منغوليا الشمالية وما حولها . وتغطى مدة عظمتهم واستقلالهم ما بين ٧٥٠ — ٨٥٠ م وهو زمان يقابل رفعة ومجد أسرة تانج الشهيرة .

وبلغ اليويغور مستوى ثقافياً عالياً جداً ، وأظهرت البحوث الأركيولوجية الحديثة مقداراً ضخماً من الأدب والفن اليويغورى ، ومنها نعلم أن المسيحية والبوذية والمانوية كانت تمارس كلها فى مملكتهم ، إذ كانوا يراعون أقصى غاية التسامح الدينى على حين كانت المانوية هى دين الدولة . وكان اليويغور على التحقيق هم أشد —

إلى جيشه عن رغبة واقتناع لا عن قهر وغلبة . وعندئذ هاجم إمبراطورية الكن واستولى على پيكين (١٢١٤) . فانضم إليه شعب خيتان الذين أخضعهم الكن منذ قريب وبذلك ضموا مقدّراتهم إلى مقدّراته ، فأسدوا إليه بذلك معاونة عظيمة جداً . فأما السكان الصينيون المستقرون فقد استمروا فيما هم فيه من بذر البذور وحصد الحصاد والتبادل التجارى أثناء تغير السادة هذا دون الانضمام بثقلهم لأى من الطرفين .

ولقد سبق أن ذكرنا الإمبراطورية الخوارزمية القريبة العهد التى شملت التركستان وفارس وشمالى الهند . كانت هذه الإمبراطورية تمتد شرقاً حتى قشغر ، ولا بد أنها كانت تبدو من أكثر إمبراطوريات زمانها تقدماً وأملا فى المستقبل . وقد أرسل چنكيز خان رسله إلى خوارزم وهو ما يزال مشتغلا بالحرب مع إمبراطورية الكن . وأقدمت خوارزم على قتل الرسل — وهى غباوة لا يكاد يصدقها عقل . ذلك أن

= جيران الصين الشماليين حضارة ، ومع أن مملكتهم دمرتها (٥٨٠) قبيلة تركية شمالية هى قبيلة القرغيز ، فإن اليويغور لم يختفوا من التاريخ بأى حال ، إذ أننا لا نبرح نجد حتى القرن الخامس عشر إمارات ودويلات يويغورية صغيرة تنشأ ، على حين أنه أثناء المدة كلها كان اليويغور يستخدمون بكثرة فى القضاء الإسلامى — ويقومون فى مصالح الحكومة بالتركستان بنفس الدور الذى لعبه الهندوس تحت حكم المغول فى دلهى والبنغاليون أثناء الحكم البريطانى بالهند .

وتحدثنا فترة تاريخ الشرق التى تبدأ بظهور جنكيز خان فى القرن الثالث عشر وتنتهى بفتح القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين ، عن قيام وسقوط عدد كبير من الأسرات التركية الحاكمة فى آسيا الوسطى والهند وفارس . ومن العجيب أن هذه الأسرات كان يؤسسها فى معظم الحالات رجال بدأوا حياتهم مماليك . وقد ورد هذا البيان الغريب التالى عن الأتراك فى مخطوط فارسى لم ينشر بعد ، يرجع إلى القرن الثالث عشر :

« من المعلوم الشائع أن جميع الأجناس والطبقات ، تكون مكرمة محترمة وهى مقيمة بين ظهرانى شعبها وفى بلادها ، ولكنهم عندما يغادرون بلادهم ، يصبحون تعساء أذلاء . والترك على نقيض ذلك ، فإنهم عندما يكونون بين بنى جلدتهم ، يكونون مجرد قبيلة بين قبائل كثيرة ، ولا يستمتعون بأى قوة أو منزلة خاصة . ولكنهم عندما يغادرون موطنهم إلى دولة إسلامية — (وكلما ابتعدوا عن بلادهم وأقاربهم ، زادت قيمتهم رفعة وتقديرهم سموا) — يصبحون أمراء وقادة الجيوش . ولم يحدث منذ أيام آدم حتى العصر الحاضر أن أصبح مملوك مشترى بالمال ملكا قط إلا بين الأتراك ؛ ومن الأقوال المأثورة عن أفراسياب (**Afrasyab**) الذى كان ملكاً على الترك وكان خارقا للعادة فى حكمته وعلمه قوله : « التركى أشبه شىء بلؤلؤة فى صدفتها تحت أطباق الدباب ، لا تصبح ثمينة القدر حتى تغادر البحر وتزين تيجان الملوك وآذان الغوانى » .

الحكومة الخوارزمية — إن جاز أن نستعمل لغة اليوم السياسية — رأت ألا تعرف بجنكيز خان وسلكت حياله ذلك المسلك الجرىء ؛ وعنـــد ذلك (١٢١٨) اجتاح جيش الفرسان العظيم الذى وطد أركانه جنكيز خان ونظمه ، هضبة البامير وهبط إلى التركستان . كان جيشاً حسن العدة والسلاح ، والراجح أنه كانت معه بعض المدافع والبارود يستعملها فى الحصار . ذلك أن الصينيين كانوا على التحقيق يستعملون البارود فى ذلك الزمان ، وأن المغول تعلموا استعماله منهم . فسقطت قشغر وخوقند وبخارى ثم سمرقند عاصمة الإمبراطورية الخوارزميـــة . ومن بعدها لم يعد شىء بالإمبراطورية الخوارزمية يستطيع صد المغول ، فاندفعوا غرباً نحو بحر قزوين ثم جنوباً حتى لاهور . وإلى الشمال من بحر قزوين التقى جيش مغولى بقوة روسية آتية من كييف . ونشبت بين الفريقين سلسلة من المعارك ، كسرت فيها الجيوش الروسية كسراً نهائياً ، وأخذ غرندوق كييف أسيراً . وهكذا ظهر المغول على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود . وتولى الذعر القسطنطيلية ، التى وجهت كل جهدها إلى إعادة بنـــاء تحصيناتها . وفى نفس الوقت كانت جيوش أخرى تشتغل بفتح إمبراطورية هسيا فى الصين فألحقت هذه بمُلك المغول . ولم يبق من إمبراطورية الكن سليما غير مقهور إلا الجزء الجنوبى . وفى (١٢٢٧) مات جنكيز خان فى أوج حياة حافلة بالنصر بعد أن أصبحت إمبراطوريته تمتد من المحيط الهادى إلى نهر الدنيبر . وفوق ذلك فإنها كانت إمبراطورية لا تبرح رقعتها تتسع بقوة .

على أنها ،شأن كل الإمبراطوريات التى أسسها المترحلون ، كانت قبل كل شىء إمبراطورية عسكرية وإدارية بحتة ، وكانت هيكلا وإطاراً أكثر منها نظام حكم ، وكانت تتمركز حول شخصية العاهل ، وكانت علاقتها بكتلة الشعوب الذين تحكمهم مجرد علاقة ضرائب تجبى للإنفاق على القبيلة . على أن جنكيز خان كان قد دعا لمعاونته سياسياً عظيم الكفاية من مدبرى إمبراطورية الكن واسع الخبرة عليما بكل تقاليد الصينيين ملماً بعلومهم . وقد استطاع هـــذا السياسى المحنك يليوتشوتزاى (Yeliuchutsai) أن يواصل إدارة شئون المغول مدة طويلة بعد وفاة جنكيز خان ، وليس هناك أدنى ريب فى أنه من أعظم أبطال السياسة فى التاريخ . فكم روض من شراسة

سادته وهمجيتهم ، وأنقذ من يد التدمير مدناً لا تحصى ومنتجات فنية قيمة لا حصر لها . ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش ، ولما اتهم بالرشوة ، ظهر أن كل ما فى حوزته من ثروة يتكون من الوثائق ومن بعض آلات موسيقية . وربما جاز أن ينسب إليه ، بقدر ما يعزى إلى چنكيزخان ، ما استمتعت به الأداة الحربية المغولية من كفاية . وربما جاز لنا أن ننبه الأذهان أيضاً أن آفاق آسيا بأكملها كان يسودها إبان حكم چنكيزخان أتم وأكمل أنواع التسامح الدينى .

كانت عاصمة الإمبراطورية الجديدة عند وفاة چنكيز ما تزال هى مدينة قره فورم المتبربرة العظيمة فى منغوليا . وهناك انتخبت جمعية من زعماء المغول أوجداى خان ابن چنكيز خليفة له . فواصل المغول فى عهده الحرب على بقايا إمبراطورية الكن ، حتى أخضعت إخضاعاً تاماً (١٢٣٤) . وكانت الإمبراطورية الصينية التى تحت حكم أسرة صنج فى الجنوب عوناً للمغول فى هذا العمل ، وبذا دمروا حصنهم الواقى الذى يمنعهم من الغزاة الفاتحين أعداء الطرفين . ومن ثم سارت الجيوش المغولية عبر آسيا إلى الروسيا لا تلوى على شىء (١٢٣٥) وهو زحف عسكرى رائع يأخذ بالألباب . فدمرت كييف (١٢٤٠) وأصبحت كل الروسيا تقريباً تابعة للمغول ونهبت بولندة وخربت وأبيد جيش مختلط من البولنديين والألمان بمعركة ليجنتز (Liegnitz) فى سيلزيا السفلى (١٢٤١) . ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثانى لم يقم بأى مجهود عظيم ليوقف ذلك السيل المنهمر .

يقول بيورى فى ملحوظاته على كتاب « اضمحلال الإمبراطوريه الرومانية وسقوطها لجيبون » : « لم يحدث إلا فى العصر الحديث إن أخذ العالم الأوربى يفهم أن نجاح الجيش المغولى الذى اجتاح بولندة واحتل هنغاريا فى ربيع (١٢٤١) قد تم بفضل خطط استراتيجية بالغة غاية الكمال وأنه لم يكن راجعاً إلى مجرد تفوق عددى جارف . ولكن هذه الحقيقة لم تصبح بعد من المعلومات الشائعة المعروفة للناس أجمعين . إذ لا يزال من الأفكار الشائعة بين الناس تلك الفكرة السوقية التى تتمثل التتار فى

صورة قبيلة ضارية متوحشة تجترف كل شيء أمامها بمحض كثرة العدد ليس غير ، وتركض بخيولها خلال أوربا الشرقية دون خطة استراتيجية مرسومة ، وتندفع من فوق كل عائق يعترض سبيلها وتتغلب عليه بمجرد الثقل العددى . . . . .



(شكل ١٤٦') خريطة إمبراطورية چنكيزخان عند وفاته سنة (١٢٢٧)

« وكم كان من المدهش أن تنفذ فى الوقت المحدد وفى قوة تأثير فعالة — ترتيبات القائد فى عمليات حربية تمتد من افســتولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . فمثل هذه الحملة كانت فوق طاقة أى جيش أوربى فى ذلك الزمان ، وكانت وراء أحلام أى قائد أوربى . ولم يكن بأوربا ، ابتداء من فردريك الثانى فما دونه قائد لا يعد من المبتدئين الأغمار فى فن القيادة الاستراتيجية بالقياس إلى سوبوتاى (Subutai) . كذلك يجب أن يلاحظ أن المغول قد أقدموا على هذا الأمر وهم على معرفة تامة بموقف المجر (هنغاريا) السياسى وظروف بولندة — وذلك لأنهم عنوا مقدماً بتعرف الأخبار بواسطة هيئة من الجواسيس حسنة التنظيم . على حين أن المجريين والدول المسيحية ، كانوا شأن المتبربرين الأشبه بالأطفال ، لا يكادون يعرفون عن أعدائهم شيئاً » .

ومع أن المغول انتصروا قرب ليجنتز ، فإنهم لم يواصلوا تقدمهم غرباً . وذلك لأنهم أخذوا يدخلون إلى أراضى غابات ومناطق تلال لم تكن لتوافق ما لديهم من تكتيك[1] حربى . ولذا عرجوا جنوباً وأعدوا عدة الاستقرار فى بلاد المجر ، وهم يذبحون المجريين ذوى قرباهم أو يتمثلونهم ، على طريقة تدانى ما أعمله هؤلاء من الذبح والتمثل من قبلهم فى الإسيكذيين والآفار والهون المختلطين . والراجح أنهم كانوا يبغون أن يقوموا من السهل الهنغارى بالغارات غرباً وجنوباً كما فعل الهنغاريون فى القرن التاسع والآفار فى القرنين السابع والثامن والهون فى الخامس . غير أن المغول كانوا فى آسيا يحاربون أسرة صنج حرب غزو عنيفة ، وكانوا كذلك يغيرون على فارس وآسيا الصغرى ؛ ومات أوجداى موت الفجاءة ، وحدث فى (١٢٤٢) نزاع حول ولاية العرش من بعده ، ودعاهم هذا الأمر إلى العودة إلى بلادهم . ولذا فإن الجيوش المغولية غير المقهورة أخذت تنساب راجعة عبر بلاد المجر ورومانيا نحو الشرق .

ومن حسن طالع أوربا أن الخلافات على العرش فى قره قورم دامت بضع سنين ، وبدت على هـــذه الإمبراطورية الهائلة الجديدة بوادر التصدع . وأخيراً أصبح « مانكوخان » خانا أعظم فى (١٢٥١) ، فعين أخاه قوبلاى خان حاكماً عاماً على الصين . وأخضعت إمبراطورية صنج بأجمعها فى بطء ولكن فى غير تراخ ، وبينما هى بسبيل الإخضاع ، كان المغول الشرقيون يتحولون أكثر فأكثر إلى صينيين فى ثقافتهم وطرائق عيشهم ، وغزا مانجو بلاد التبت وأعمل فيها تدميراً ، وغزيت فارس وسوريا بمنتهى الجد والهمة . وكان على إمرة هذه الحرب الأخيرة أخ آخر لمانكو هو هولاكو . فوجه جيوشه على الخلافة واستولى على بغداد ، وفى هذه المدينة تلوثت يداه بإعماله الذبح فى سكانها برمتهم . وكانت بغداد ما تزال عاصمة الإسلام الدينية . وكان المغول قد أصبحوا معادين للمسلمين عداوة مريرة . وزادت هذه العداوة من أوار الخلاف الطبيعى بين المترحلين وأهل المدن . وفى (١٢٥٩) مات مانكوخان وانتخب قوبلاى خاناً أعظم فى (١٢٦٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه

---

(١) التكتيك : فن أو علم تحريك القوات والمداورة بها فى المعركة وفق مبادىء مقررة .
(المترجم)

الإمبراطورية الهائلة من المجر وسوريا والسند والصين قد استغرق شطراً كبيراً من سنة كاملة . ولما كان قوبلاى من قبل عميق الاهتمام بالشئون الصينية ، فإنه اتخذ بيكين عاصمة له بدلا من قره قورم ، وأصبحت فارس وسوريا وآسيا الصغرى مستقلة فعلا تحت حكم أخيه هولاكو . على حين أن قبائل المغول فى الروسيا والمناطق الآسيوية المجاورة للروسيا وجماعات صغيرة مغولية متنوعة فى التركستان ، قد أصبحت أيضاً منفصلة تقريباً . ومات قوبلاى (١٢٩٤) ، وبموته زالت كل سيادة للخان الأكبر حتى الإسمية منها .

وعند موت قوبلاى كانت هناك إمبراطورية مغولية رئيسية عاصمتها بيكين ، تضم كل الصين ومنغوليا ؛ وثمة إمبراطورية مغولية عظيمة ثانية هى إمبراطورية القبچاق (Kipchak) فى الروسيا ؛ وثم إمبراطورية ثالثة فى فارس ، وهى تلك التى أسسها هولاكو ، وهى الإمبراطورية الإيلخانية (Ilkhan) التى كان الأتراك السلجوقيون فى آسيا الصغرى تابعين لها : وكانت هناك دولة سيبيرية تقع بين القبچاق ومنغوليا ؛ ودولة أخرى منفصلة « تركيا الكبيرة » فى التركستان . ومما هو جدير بالملاحظة بوجه خاص أن الهند فيما وراء البنچاب لم يغزها المغول أبداً أثناء تلك المدة ، وأن جيشاً بقيادة سلطان مصر دحر قطبغا قائد هولاكو فى فلسطين دحراً تاماً (١٢٦٠) ، وحال دون دخولهم إلى إفريقية . وذلك أنه عند (١٢٦٠) كان دافع الغزو المغولى قد انحط عن ذروته . ثم يقع المغول من بعدها فى غمرات الفرقة والاضمحلال .

ودامت أيام الأسرة المغولية التى أسسها قوبلاى خان فى الصين ، وهى أسرة يوان من (١٢٨٠) إلى (١٣٦٨) . ثم تجدد من بعد ذلك نشاط المغول فى غرب آسيا تجددا قدر له أن يؤسس ملكية أرسخ قدماً وأطول عمراً فى بلاد الهند . ولكن كان الأفغان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر هم سادة شمالى الهند وليس المغول ، وامتدت لهم إمبراطورية أفغانية حتى صميم منطقة الدكّن .

٣ — رحلات ماركو پولو

لا جرم أن قصة الفتوح المغولية من أعجب القصص وأجدرها بالتنويه فى موكب التاريخ بأكمله . وما تستطيع فتوح الإسكندر الأكبر أن تدانيها فى العظم واتساع

المدى . كما أن أثرها فى نشر الأفكار بين الناس وتوسيع آفاقها وفى استثارة أخيلتهم كان هائلا ضخماً . ذلك أن آسيا وأوربا الغربية جميعا أقامتا زمانا وهما تستمتعان بالاتصال الحر والاختلاط المباشر ، وفتحت كل الطرق الموصلة بينهما فتحا موقوتا ، كما ظهر ممثلون لجميع الأمم فى بلاط قره قورم .

وأزيلت الحواجز الفاصلة بين أوربا وآسيا وهى التى نشأت عن الخلافات الدينية بين المسيحية والإسلام . وأخذت الآمال الكبار تداعب البابوات فى تحويل المغول إلى المسيحية . وكانت ديانتهم الوحيدة حتى ذلك الحين هى الشامانية(1) وهى ضرب بدائى من الوثنية . وكان البلاط المغولى مسرحا اختلط فيه مبعوثون من لدن البابا وكهنة بوذيون من الهند ، وحذاق صناع باريسيين وإيطاليين وصينيين ، وتجار بيزنطيون وأرمن ، بموظفين من العرب وفلكيين ورياضيين من الفرس والهنود . وإنا لنسمع فى التاريخ الشىء الكثير المستفيض عن حملات المغول ومذابحهم ، ولكنا لا نسمع القدر الكافى عن استطلاعهم ورغبتهم فى العلم . ولعل تأثيرهم فى تاريخ العالم لم يكن بالغاً جـداً بوصفهم شعباً مبتكراً خلاقاً بل بوصفهم نقلة للعرفان وحملة للمناهج والأساليب . فكل ما قد يستطيع المرء أن يحصل عليه من العلم بشخصيتى چنكيز وقوبلاى الغامضتين الرومانسيتين يحدو بنا إلى أن نوقر فى أذهاننا الإنطباعة التى تقول بأن هذين الرجلين كانا عاهلين فهيمين خلاقين بدرجة لا تقل عن الإسكندر الأكبر تلك الشخصية الوهاجة الأنانية ، ولا عن شرلمان ذلك المبتعث للأشباح السياسية الدفينة واللاهوتى الناشط والأمى فى نفس الوقت .

باءت جهود البعثات التبشيرية التابعة للبابوية فى منغوليا بالفشل والإخفاق . ذلك أن المسيحية كانت تفقد قدرتها على الإقناع . وما كان المغول يضمرون للمسيحية أى تحامل ، بل الواضح أنهم كانوا فى بداية الأمر يفضلونها على الإسلام . على أنه كان من الجلى أن البعثات التبشيرية التى حلت ببلادهم كانت تستعمل ما استقر فى

(١) الشامانية : هى المعتقدات والممارسات الدينية التى كان عليها سكان آسيا الشمالية القدماء وتقوم على فكرة أن الخير والشر يمكن التصرف فيهما بوساطة السحر . (المترجم)

تعاليم يسوع من قوة ضخمة فى تزكية مدعيات البابا الجسام فى السيادة الدنيوية . لذا فإن المسيحية — وقد أتلفت على تلك الشاكلة — لم تكن تحوى من عناصر الجودة ما يجعلها مقبولة لدى الذهن المغولى . وربما جاز أن تروقهم فكرة جعل الإمبراطورية المغولية جزءاً من ملكوت الرب ، لا جعلها إقطاعاً تابعـاً لجماعة من القساوسة الفرنسيين والإيطاليين ، الذين كانت مدعياتهم ضخمة ، بمقدار ما كانت قدراتهم وآفاقهم ضعيفة هزيلة ، والذين كانوا آناً من صنائع إمبراطور ألمانيا ، وآناً ممن ينصبهم ملك فرنسا ، وآونة من ضحايا أحقادهم الصغيرة وغرورهم التافه .

ففى (١٢٦٩) أرسل قوبلاى خان إلى البابا بعثة كان من الواضح أن الهدف منها هو الوصول إلى وسيلة ما للتعامل المشترك مع المسيحية الغربية . فطلب أن يرسل البابا إلى بلاطه مئة من رجال ذوى علم ومقدرة ليضعوا أسس التفاهم بين الطرفين . ولكن بعثته وجدت عرش البابوية فى العـالم الغربى شاغراً وألفته منهمكاً فى إحدى تلك المنازعات، التى يكثر اشتجارها فى تاريخ البابوية حول وراثة الكرسى البابوى . وظل منصب البابوية شاغراً سنتين كاملتين لا يشغله أى بابا . فلما آن تقلد المنصب أحد البابوات آخر الأمر ، أرسل راهبين من الدومينيك لينقلا إلى حكمه ودينه أقوى دولة فى آسيا ! ! ! . وقد هال هذين السيدين الفاضلين ما كان ينتظرهما من بعد الشقة ومتاعب السفر ، والتمسا منذ البداية المعاذير للتملص من المهمة .

على أن هذه البعثة العقيمة لم تكن إلا واحدة من بين عدة محاولات للاتصال ، ولكنها كانت على الدوام محاولات ضعيفة واهنة الروح ويعوزها ذلك المضاء النارى القاهر الذى كانت تتسم به البعثات المسيحية الأولى . وقد أرسل إنوسنت الرابع بالفعل بعض رهبان الدومينيك إلى قره قورم ، كذلك أرسل القديس لويس الفرنسى البعوث والمخلفات المقدسة بطريق فارس . وكان لدى مانكوخان عدد جم من النصارى النساطرة يقيمون فى بلاطه ، كما أن مرسلين للبابا وصلوا إلى بيكين بعد ذلك فعلا ؛ فإنا نســمع عن تعيين بعض القاصدين الرسوليين وأساقفة متنوعين فى بلاد الشرق ، على أنه يلوح أن الكثيرين من هؤلاء كانوا يفقدون شجاعتهم أو يفقدون

حياتهم قبل وصولهم إلى الصين . فكان هناك قاصد رسولى بابوي فى بيكين فى (١٣٤٦) ، ولكن ياوح أنه كان مجرد دبلوماسى بابوى . ولما أن سقطت أسرة يوان المغولية (Yuan) ١٣٦٨ ، ذهب بسقوطها كل ما كان للبعثات التبشيرية من فرص ضئيلة مضمحلة ذهاباً لا رجعة له . وخلف بيت منج (Ming) بيت يوان ، وكان بيت منج أسرة شديدة التمسك بالقومية الصينية ، فأظهر فى بادئ الأمر عظيم العداوة للأجانب كافة . ولعلهم أحدثوا مذبحة أوقعوا فيهـــا بالبعثات التبشيرية النصرانية . فإنا لا نعود نسمع بعد ذلك حتى العهد المتأخر لأسرة منج (١٦٤٤) إلا النزر القليل عن المسيحية فى الصين سواء منها الكاثوليكية أو النسطورية . ثم بذلت محاولة جديدة تكاد تكون أكثر توفيقاً من سابقتها لنشر المسيحية الكاثوليكية فى الصين قام بها اليسوعيون (الجزويت) ، على أن هذه الموجة الثانية من البعثات التبشيرية وصلت إلى الصين بحراً .

حدث فى (١٢٩٨) أن شبت معركة بحرية بين الجنويين والبنادقة ، انهزم فيها الأخيرون . وكان بين الأسرى السبعة الآلاف الذين أسرهم الجنويون سيد من البندقية اسمه ماركو پولو . كان رحالة كبيراً معروفا بين أصدقائه عموما بشدة الميل إلى المبالغة . وقد اشترك فى تلك البعثة الأولى التى أرسلت إلى قوبلاى خان ، غير أنه واصل السير على حين عاد الراهبان الدومينيكيان أدراجهما . وكان ماركو پولو هذا يقتل السأم وهو سجين فى جنوة ، بأن يقص قصة رحلاته على مسامع كاتب بعينه اسمه رستتشانو (Rustic ano) ، فدونها هذا الرجل . وما نحن بخائضين هاهنا تلك اللجة الكدرة المتعلقة بمدى ما فى قصة رستتشانو من صدق المطابقة للواقع . ولسنا نعرف على وجه التحقيق بأى لغة كتبت . ولكن لا يتطرق أى شك إلى الصدق العام الذى يكتنف هذه القصة العجيبة ، التى أقبل الناس عليها أيما إقبال فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا سيما كل من أوتى الذكاء المتوقد من الرجال . وكتاب « رحلات ماركو پولو » من أعظم كتب التاريخ . فهو يفتح أمام عين خيالنا رتاج عالم القرن الثالث عشر — ذلك القرن الذى شهد حكم فردريك الثانى وبدايات محاكم التفتيش — يفتحها بصورة

لا يبلغها أى تدوين تاريخى سطره مؤرخ . فإنه أدى بصفة مباشرة إلى اكتشاف أمريكا ؟



(شكل ١٤٧) خريطة الولايات المغولية حوالى (١٢٨٠) م ورحلات ماركو پولو

يبدأ الكتاب بالحديث عن رحلة نقولوپولو والد ماركو وعمه مافيو پولو إلى الصين وكان هذان الرجلان تاجرين من البنادقة من ذوى المكانة يعيشان فى القسطنطينية ، وحدث فى زمن ما يقارب (١٢٦٠) أنهما رحلا إلى بلاد القرم ومنها إلى قازان ، ومن ذلك المكان ارتحلا إلى بخارى ، حيث صادفا جماعه من رسل قوبلاى خان فى الصين موفدين إلى أخيه هولاكو فى فارس . وألح عليهما هؤلاء المندوبون أن يصحباهم لمقابلة الخان العظيم ، الذى لم ير قبل ذلك الزمان أى رجل من الشعوب اللاتينية . فواصلا سيرهما ، وواضح أنهما أحدثا وقعا حسنا جداً لدى قوبلاى ، وملأ صدره بالاهتمام بحضارة النصرانية . فحملهما الخان تلك الرغبـــة المتعلقة بطلب مئة من المعلمين والعلماء ، « يكونون رجالا أذكياء ملمين بالفنون السبعة وقادرين أن يخوضوا حومات الجدل والنقاش ، ويستطيعون أن يثبتوا بشكل بيّن لعبدة الأصنام ومن إليهم من أقوام ، أن شريعة المسيح خير الشرائع » ، وهو الأمر الذى أشرنا إليه من فورنا .

على أنهما عندما عادا كانت المسيحية فى دور من الفوضى لم يستطيعا معه إلا بعد سنتين أن يحصلا على التفويض بالرحيل إلى الصين ثانية فى صحبة هذين الراهبين الدومينيكيين الجبانين . وأخذا معهما ماركو الصغير ، وإلى وجوده وإلى ما حل به من السأم فيما عقب ذلك من أسره فى جنوة ، يرجع الفضل فى حفظ هذه الذكريات والخبرات الممتعة وبقائها لنا .

ارتحل أفراد أسرة پولو الثلاثة بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، فِعلَتهم فى الرحلة السابقة . وكانت معهم لوحة ذهبية وأمارات أخرى من الخان العظيم ، لا بد أن وجودها سهل عليهم رحلتهم أيّما تسهيل . وكان الخان العظيم قد سألهم أن يجلبوا معهم شيئاً من الزيت الذى يوقد فى مصباح الناووس المقدس ببيت المقدس ؛ ومن ثم ذهب الجماعة إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق قيليقية إلى أرمينية . وقد أوغلوا شمالا إلى هـذا الحد لأن سلطان مصر كان يغير فى ذلك الزمان على الممتلكات الإيلخانية[1] . ومن أرمينية انحدروا فى أرض الجزيرة حتى هرمز (Ormuz) على الخليج الفارسى ، كأنما كانوا يفكرون فى القيام برحلتهم بحراً . والتقوا فى هرمز بتجار من الهند . على أنهم لسبب ما لم يسافروا بالسفين ، بل اتجهوا بدل ذلك شمالا مخترقين الصحارى الفارسية ، ومن ثم بطريق بَلْخ إلى قشغر من فوق الپامير ، ثم بطريق قوطان ولُب نور[2] (مترسمين بذلك خطى يوان تشوانج) حتى وادى نهر هوانج هو ومنـه إلى پيكين . ويسمى پولو مدينة پيكين باسم (كامبالوك) ؛ كما يسمى الصين الشمالية باسم كاثاى (خيتان) ، والصين الجنوبية صين أسرة منج السابقة باسم « مانزى » .

وكان الخان العظيم فى پيكين ، فأقيمت لهم وليمة تجلى فيها كرم الضيافة . وسر قوبلاى من ماركو خاصة ، إذ أنه كان صغير السن ذكياً لبقاً ، وواضح أنه أتقن اللسان التترى إتقاناً تاماً . فأسند إليه منصب فى الحكومة وأرسل فى مهام عديدة ، وخاصة فى الجنوب الغربى للصين . والقصـة التى رواها تتحدث عن مساحات

---

(١) الإيلخانية : أسرة مغولية حكمت فارس بين السند والعراق وآسيا الصغرى فى القرنين ١٣ ، ١٤ م . (المترجم)

(٢) لب نور (Lobnor) مجموعة من البحيرات الضحلة فى صحراء تكلامكان بالتركستان الشرقية . (المترجم)

منبسطة فسيحة من الأرض البسامة البادية الرخاء « حيث توجد على طول الطريق دور الضيافة للمسافرين » ، « وكرمات الأعناب البديعة والحقول والبساتين المونقة » « وعن أديرة كثيرة » ، « وعن رهبانٍ بوذيين ، وعن صناعات للقماش المصنوع من الحرير والذهب ، وكثير من الديباج (التافتا) البديع ، وعن مجموعة لا آخر لها من المدن والبلدان الكبيرة وهلم جرا » ، فأثارت فى أوربا لأول وهلة رنة من عدم التصديق ، ثم ما لبثت أن ألهبت خيالها على بكرة أبيها

ثم إنه تحدث عن بورما ، وعن جيوشها العظيمة الحاوية مئات من الفيلة ، وكيف هزم ناشبة[1] المغول هاته الحيوانات ، وكذلك حدثنا عن فتح المغول لبيجو (Pegu) . وتحدث عن اليابان مبالغاً مبالغة عظيمة فى كمية الذهب فى ذلك القطر . وأدعى من هذا إلى العجب ، حديثه عن المسيحيين وعن الحكام المسيحيين فى بلاد الصين ، وعن شخص بعينه هو القسيس يوحنا (Prester John) الذى كان « ملكاً » على شعب نصرانى . فأما ذلك الشعب فإنه لم يره . والظاهر أنهم كانوا قبيلة من التتر النسطوريين يسكنون منغوليا . والراجح أن عاطفة يمكن إدراكها وفهمها غلبت على رستتشانو فجعلته يبالغ فى توكيد ما لا بد أنه لاح فى عينيه أعظم أعاجيب القصة جمعاء ، ومن ثم أصبحت قصة بريستر چون (القسيس يوحنا) من أعظم الأساطير إثارة للأذهان أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكان مما شجع روح الإقدام الأوربية تشجيعاً هائلا زعمهم أنه يوجد فى الصين تلك البلاد السحيقة البعد، مجتمع من إخوانهم فى الدين ، مفروض أنهم مستعدون للترحيب بهم وبذل العون لهم وظل ماركو متولياً حكم مدينة



(شكل ١٤٨) ماركو پولو
(تصوير تيتيان)

(١) الناشبة رماة النشاب وهو النبل . (المترجم)

بانج تشو (Yang Chow) ثلاث سنوات ، والراجح أنه لم يختلف كثيراً كأجنبى فى نظر السكان الصيليين عن أى تتارى آخر . ولعله أوفد أيضاً فى بعثة إلى الهند . إذ تذكر السجلات الصينية اسم شخص معين هو پولو تصفه بأنه ملحق بالمجلس الإمبراطورى فى (١٢٧٧) ، وهو مصداق ثمين جداً يثبت صحة قصة پولو بوجه عام .

استغرقت رحلة آل پولو إلى الصين زهاء ثلاث سنوات ونصف . وظلوا هناك قرابة ستة عشر عاماً . ثم أخذ الحنين إلى الوطن يداخلهم . ذلك أنهم كانوا صنائع قوبلاى وموضع حمايته ، ولعلهم أحسوا أن إيثاره إياهم بالرعاية ربما جر عليهم غيرة وخيمة العاقبة بعد مماته . فالتمسوا منه الإذن بالرحيل إلى بلادهم فأبى عليهم ذلك ردحا من الزمان ، ثم سنحت لهم بعد ذلك فرصة . ذلك أن أرجون ملك فارس الإيلخانى وحفيد هولاكو شقيق قوبلاى ، كان أرمل من زوجته المغولية ، ووعدها وهى على فراش موتها ألا يتزوج إلا مغولية من نفس قبيلتها . فأرسل السفراء إلى پيكين واختيرت له هناك أميرة موائمة ، وهى فتاة فى السابعة عشرة . ولكى يجنبوها عناء السفر بالقوافل ، تقرر أن ترسل بطريق البحر مع الحاشية اللائقة . وطلب النبلاء المكلفون بمرافقتها أن يستصحبوا معهم آل پولو لأنهم رحالة مجربون وحكماء حصيفون ، واغتنم آل پولو هذه النهزة التى تتيح لهم ركوب الطريق المتجه إلى وطنهم .

أقلعت البعثة من مرفأ ما فى شرق الصين الجنوبية ؛ وأطالت المقام فى سومطرة وجنوب الهند ، ووصلوا إلى أرض فارس بعد رحلة دامت حولين . فسلموا الأميرة الشابة فى سلام الله إلى خليفة أرجون — لوفاة أرجون قبل وصولهم — وتزوجت الأميرة ابنه . وعند ذاك سار آل پولو بطريق تبريز إلى طرابيزون ، ثم أبحروا إلى القسطنطينية وعادوا إلى البندقية قرابة (١٢٩٥) .

ويروى أن الرحالة العائدين وهم فى ثيابهم التترية حيل بينهم وبين الدخول إلى منزلهم . وانقضى بعض الزمان قبل أن استطاعوا أن يثبتوا شخصيتهم . وكان الكثيرون ممن سلموا بأشخاصهم ، ما يزالون يميلون إلى أن ينظروا إليهم شزراً بوصفهم جوالين

حقراء ، ولكى يبددوا عن أذهان الناس مثل تلك الشكوك أقاموا وليمة عظيمة ، وعندما كانت الوليمة قائمة على ساق أمروا فأحضرت لهم بدلاتهم القديمة ذات البطائن ثم صرفوا الخدم ، ثم شقوا تلك الثياب ، وإذا بمجموعة لا يصدقها عقل من الياقوت العادى والياقوت الأزرق (Sapphires) والعقيق الأحمر (البهرمان) والزمرد والماس » ، تنهال أمام أعين الضيفان المنبهرين . وحدث حتى بعد هذا كله أن قوبلت بيانات ماركو عن حجم الصين وسكانها بشيء من السخرية الخفية . وأطلق عليه أهل النكتة اسم « المليونى (IL Milione) » لأنه كان دائم الكلام عن الملايين من الناس والملايين من الجنيهات الدوقية .

تلك هى القصة جعلت الناس يحملقون بعيونهم دهشا ، فى البندقية بادئ بدء ثم فى أقطار العـــالم الغربى كافة بعد ذلك . ويردد الأدب الأوربى وخاصة قصص الرومانس الأوربى فى القرن الخامس عشر ، صدى الأسماء المذكورة فى قصة ماركو پولو أمثال كاثاى وكامبالوك .

٤ ـــ الأتراك العثمانيون والقسطنطينية

لم تكن رحلات ماركو پولو هذه إلا مقدمة لاختلاط جسيم جداً بين الشعوب . ومع ذلك ، فإنا قبل أن نواصل وصفنا للاتساع العظيم الذى ألم بآفاق أوربا الفكرية والذى أخذت تباشيره تبدو ، والذى كان لكتاب رحلاته عليه فضل جوهرى ملموس جداً ، ـــ نرى من المناسب أن نسجل هنا أولا نتيجة جانبية غريبة تمخضت عنها الفتوح المغولية العظيمة : تلك هى ظهور الأتراك العثمانيين على ضفاف الدردنيل ، ثم نردف ذلك بأن نذكر فى عبارة مجملة تقسيم إمبراطورية چنكيزخان إلى أجزائها العديدة وتطورات كل جزء منها .

كان الأتراك العثمانيون فئة صغيرة من اللاجئين فروا نحو الجنوب الغربى أمام غزوة چنكيز الأولى لبلاد التركستان الغربية . قطعوا ذلك الطريق المديد من آسيا الوسطى ، مخترقين الفيافى والجبال ومارين بأقوام أجانب عنهم لعلهم يعثرون على

أرض جديدة يستطيعون أن يستقروا فيها . يقول السير مارك سايكس : « ثلة صغيرة من رعاة أغراب يهيمون على وجوههم لا يردهم أحد ، ماضين بين الحملة الصليبية من ناحية والصليبية المضادة من ناحية أخرى ، وبين الإمارات والإمبراطوريات والدول . فأين كانوا يخيمون ؟ ، وكيف كانوا يتحركون ويحافظون على قطعانهم ورعلانهم ؟ وأين كانوا يجدون الكلأ ؟ وكيف كانوا يحافظون على السلم مع الرؤساء المتنوعين الذين كانوا يخترقون أراضيهم ؟ تلك أسـئلة يجوز للإنسان أن يتساءلها متحيراً » .

وأخيراً عثروا على مستقر لهم وعلى جيران من ذوى قرباهم وممن يشاكلونهم فى الطبيعة والمشرب على هضاب آسيا الصغرى بين ظهرانى الأتراك السلجوقيين . وكان غالب هذا القطر الذى هو بلاد الأناضول العصرية قد أصبح آنذاك تركيا لغة مسلما ديناً ، فيما عدا وجود نسبة كبيرة من الروم واليهود والأرمنيين بين سكان المدن ، ولا مرية فى أن النبعات[1] المتنوعة الموروثة عن الحثيين والفريجيين والطروادين والليديين والإغريق الأيونيين والسمريين والغلاطيين والإيطاليين (من أزمان برجامة) كانت ما تزال تسرى فى دماء الناس ، بيد أنهم نسوا من أمد بعيد تلك العناصر السلفية القديمة . على أنهم كانوا فى واقع الأمر نفس الخليط المكون من بيض البحر المتوسط الداكنين[2] القدماء ، والآريين النورديين والساميين والمغول ، وهو الخليط الذى كان عليه سكان شبه جزيرة البلقان ، بيد أنهم كانوا يظنون أنفسهم شعباً طورانياً خالصاً متفوقاً تفوقاً تاماً على المسيحيين فى الضفة المقابلة من البسفور . .

وازداد الأتراك العثمانيون أهمية شيئاً فشيئاً ، حتى آلت إليهم آخر الأمر السيادة على الإمارات الصغيرة التى تمزقت إليها الإمبراطورية السلجوقية أى إمبراطورية « الروم » . وظلت علاقاتهم مع إمبراطورية القسطنطينية المتقلصة علاقات عداء يشوبها شىء من التسامح . فلم يقوموا بأى هجوم على البسفور ، ولكنهم اتخذوا لأقدامهم فى أوربا على الدردنيل موطئاً ، فاستخدموا هذا الطريق — وهو طريق إجزرسيس وليس

---

(١) النبعة : هى الأصل والنسل والعترة . (المترجم)

(٢) الداكنين : وردت لفظة الأبيض الداكن فى مواضع كثيرة بهذا الكتاب ومعناها الفنى لأبيض الضارب إلى السمرة قليلا ، الأسود الشعر والعينين . (المترجم)

طريق دارا — ثم دأبوا يشقون طريقهم متوغلين فى مقدونيا وإبيروس وإلليريا ويوغوسلافيا وبلغاريا .

ووجد الأتراك فى الصربيين (اليوغوسلاف) والبلغار أقواماً شديدى الشبه بهم فى الثقافة ، كما وجدوهم فيما يرجح شديدى الشبه بهم فى جنسهم المخلط عنصرياً — وإن لم يدرك أى من الطرفين ذلك ، مع فارق بسيط هو أن دماءهم كان يخالطها من نبعة البحر المتوسط الداكنة والنبعة المغولية قدر أقل مما لدى الترك كما يخالطها قدر أكبر قليلا من العنصر النوردى. بيد أن هؤلاء الشعوب البلقانية كانوا مسيحيين تفرق بينهم الانقسامات تفريقاً مريراً . وكان الترك على النقيض من ذلك يتكلمون بلسان واحد ، وكان لديهم شعور أعظم بالوحدة وفيهم عادات المسلمين من عدم تناول المسكرات والقصد فى الطعام . كما كانوا فى مجملهم جنوداً أفضل . فأدخلوا فى دينهم الإسلامى كل من استطاعوا إدخاله من أفراد الشعوب التى غزوا ، ونزعوا سلاح المسيحيين واختصوهم دون غيرهم بدفع الضرائب. وما لبث الأمراء العثمانيون أن وطدوا شيئاً فشيئاً أركان إمبراطورية امتدت من جبال ظوروس شرقاً حتى حدود هنغاريا ورومانيا فى الغرب . وأصبحت أدرنة كبرى مدائنهم . وأحاطوا من كل صوب بإمبراطورية القسطنطينية المتقلصة . ولم تكن القسطنطينية فى ذلك الزمان هى حصن أوربا الواقى ودعامتها ، وإنما كانت الدعامة هى المجر ؛ فقد استوطنها شعب تركى مسيحى دافع عن أوربا ضد الأتراك المسلمين .

ونظم الأتراك قوة عسكرية مستديمة ، هى الانكشارية (Janissaries) على أساس أشبه ما يكون بسلك المماليك الذين سيطروا على مصر .

« كانت هذه الجيوش تتكون من مجندة من الفتيان المسيحيين لا يرتفع عددهم عن ألف فى كل عام ، وكانوا يُضمون إلى طائفة الدراويش البكتاشية ، ومع أنهم كانوا فى البداية لا يجبرون على اعتناق الإسلام ، فإنهم كانوا بأجمعهم يصبغون صبغاً قوياً بالفكرات الصوفية ومبادئ الأخوة التى تعتنقها الجماعة الدينية التى كانوا يلحقون بها . هؤلاء الانكشارية الذين كانوا يتقاضون أجوراً عالية وينظمون تنظيما جيداً

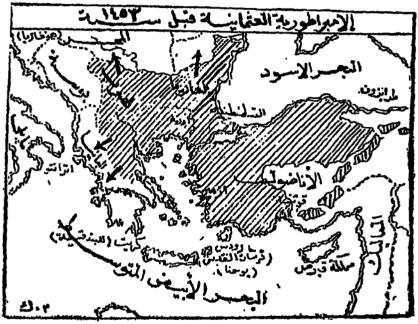
ويشكلون جماعة سرية متماسكة غيورة ، أمدوا الدولة العثمانية الحديثة التكوين بقوة وطنية النزعة من الجنود المشاة المدربين ، كانت تعد ثروة لا تُقوّم بمال فى عصر سادت فيه الراكبة (الخيّالة) الخفيفة وفرق المرتزقة المأجورة . . .

« وكانت العلاقات بين السلاطين العثمانيين والأباطرة فريدة فى نوعها فى تاريخ الدولة الإسلامية والمسيحة . فإن الترك قد أقحموا فى المنازعات العائلية وخلافات الأسرة المالكة فى المدينة الامبراطورية ، كما كانت تربطهم بالعائلات الحاكمة وشائج رحم وقربى . وكثيراً ما كانوا يقدمون الجنود للدفاع عن القسطنطينية ، وكانوا يستأجرون أحيانا فريقاً من جنود حاميتها ليساعدوهم فى حملاتهم المتنوعة ، بل لقد بلغ الأمر أن رافق أبناء الأباطرة ورجال السياسة البيزنطيون الجيوش التركية فى ميادين القتال ، ومع ذلك فإن العثمانيين لم يكفوا قط عن أن يلحقوا بممتلكاتهم الأراضى والمدن الإمبراطورية فى كل من آسيا وتراقيا. وكان لهذا الاختلاط العجيب بين بيت آل عثمان والحكومة الإمبراطورية أثره العميق فى كل من النظامين : فإن الروم ازدادوا ضعة على ضعة وانحلالا خلقياً على انحلال بسبب التقلبات والحيل التى اضطرهم إلى اللجوء إليها ضعفهم العسكرى حيال جيرانهم ، ودب الفساد إلى الترك مما حولهم من جو أجنبى مشبع بالمؤامرات والخيانات التى تسللت إلى داخلية حياتهم . وكانت عاقبة ذلك أن قتل الأخ لأخيه والإبن لأبيه وهما الجريمتان اللتان غالباً ما لطختا تاريخ القصر الإمبراطورى ، ما لبثتا أن صارتا جزءاً من سياسة الأسرة المالكة العثمانية . فإن أحد أبناء مراد الأول ينخرط فى مؤامرة أندرونيكوس ابن الإمبراطور الرومى ليقتل كل منهما أباه .

« وكان البيزنطى يجد التفاوض مع الباشا العثمانى أيسر من التفاوض مع البابا . وظل الترك والبيزنطيون أعواماً طوالا يتزاوجون ويتآخون معاً فى تصيدهم فى مياه التيارات الملتوية للديبلوماسية والمؤامرات . وكان العثمانيون قد حرشوا البلغار والصرب فى أوربا بالإمبراطور ، على نفس النسق الذى أثار به الإمبراطور الأمراء الآسيويين على السلطان ، وكان الأمراء الملكيون (: أولياء العهد) من الأروام والأتراك يتعاهدون فيما بينهم على أن يحتفظ كل منهم بمنافسى الآخر أسرى ورهائن ؛ والواقع أن

السياسة التركية والبيزنطية بلغت من التشابك والالتفاف بعضها ببعض حداً يعسر علينا إزاءه أن نقول هل كان الترك يعدون الروم حلفاء لهم أو أعداء أو رعايا . وهل كان الروم ينظرون إلى الأتراك بوصفهم الطغاة المستبدين بهم أو المدمرين لهم أو الحماة(١) ؟ . . » .

وسقطت القسطنطينية آخر الأمر بيد المسلمين فى ١٤٥٣ إبان حكم السلطان محمد الثانى . فإنه هاجمها من الجانب الأوربى ، وبقوة عظيمة من المدفعية . فقتل الإمبراطور الرومى وعظم النهب وكثر الذبح ، ونهبت كنوز الكنيسة العظيمة كنيسة القديسة صوفيا التى بناها چستنيان الكبير (٥٣٢ م) ، وحولت على الفور إلى مسجد . فبعث هذا الحادث موجة هياج شديدة تردد صداها فى كل أرجاء أوربا ، وبذلت بعض الجهود لتنظيم حرب صليبية ، ولكن أيام الحرب الصليبية كانت ولت .

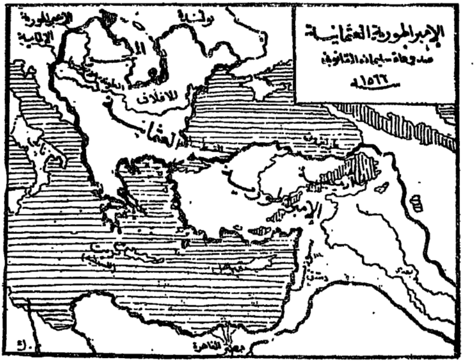


(شكل ١٤٩) خريطة الإمبراطورية العثمانية قبل سنة ١٤٥٣

يقول السير مارك سايكس : «كان فتح القسطنطينية لدى الترك نعمة توجت مفرقهم ولكنه كان إلى ذلك ضربة قاضية . فإن القسطنطينية كانت معلم الترك

(١) Sir Mark Sykes, "The Caliphs' Last Heritage"

ومهذبيهم . فطالما كان العثمانيون يستطيعون أن يستقوا العلوم والمعارف والفلسفة والفن والتسامح من نبع للمدنية جياش زاخر بالحياة فى صميم ممتلكاتهم ، لم يكن لهم (أعنى العثمانيين) القوة الوحشية فحسب بل القوة الذهنية أيضاً . وطالما كان الإمبراطورية العثمانية فى القسطنطينية مرفأ حر ، وسوق ، ومركز للمالية العالمية ومتجمع مركزى للذهب ومتبادل للتجارة (بورصة) لم يعوز العثمانيين قط المال والعون المالى . وكان محمد الثانى من عظماء رجال السياسة . فما أن دخل القسطنطينية حتى شرع يحاول إيقاف الأضرار التى سببتها مطامعه ، فناصر البطريرك وأرضى الروم ، وبذل كل ما فى وسعه لتظل القسطنطينية كما كانت لعهد الأباطرة . . . . ولكن الخطوة القاتلة كانت تمت ؛ فإن القسطنطينية بوصفها مدينة السلاطين لم تعد هى القسطنطينية بأية حال ، إذ ماتت الأسواق وفرت الثقافة والمدنية وذوت المالية ذات العمليات المعقدة وتوارت عن الأبصار ، وفقد الترك حكامهم وعضدهم القوى . ومن الناحية الأخرى استمرت مفاسد بيزنطة ، فأما البيروقراطية والخصيان وحراس القصر والجواسيس



(شكل ١٥٠) خريطة الإمبراطورية العثمانية عند وفاة سليمان القانونى سنة ١٥٦٦

والرشاة والوسطاء ، فإن العثمانيين اتخذوا هؤلاء جميعاً لأنفسهم ، وظل هؤلاء جميعاً أقوياء زاخرين بالحياة . لقد أضاع الأتراك باستيلائهم على اسطنبول كنزاً ثميناً وأخذوا فى مقابله وباء وبيلا . . . . » .

وما كانت أطماع محمد لتقنع بفتح القسطنطينية . فإنه شخص ببصره كذلك إلى روما . فاستولى على مدينة أوترنتو الإيطالية وتبها . وكان شبه الجزيرة منقسما على نفسه . والراجح أن ما أعده من عدة قوية لفتحها كان سيكلل بالنجاح ، لولا أن وافته منيته فى ١٤٨١ . اشتبك أبناؤه من بعده بنزاع يقتل فيه الأخ أخاه . وفى عهد خلفه بايزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) حملت رحى الحرب إلى بولندة ، وفتحت معظم بلاد اليونان . فأما سليم (١٥١٢ — ١٥٢٠) ابن بايزيد ، فإنه وسع الدولة



(شكل ١٥١) داخل كنيسة سانت صوفيا وقد غطت النقوش العربية الفسيفساء الأصلية

العثمانية بضم أرمينية وفتح مصر . وكان آخر الخلفاء العباسيين يعيش فى مصر فى رعاية سلطان المماليك ، ذلك أن الخلافة الفاطمية كانت شيئاً أصبح فى ذمة التاريخ . فاشترى سليم لقب الخلافة من هذا العباسى الأخير المنتكس ، واستولى على الراية المقدسة وغيرها من المخلفات النبوية . وبذا أصبح السلطان العثمانى أيضاً خليفة الإسلام كله . وخلف سليما ابنه سليمان القانونى (١٥٢٠ — ١٥٦٦) ، الذى فتح فى الشرق بغداد وفتح فى الغرب معظم بلاد المجر ، وكاد أن يستولى على ڤيينا ، وكانت المجر قد صمدت أمام السلاطين ثلاثة قرون كاملة ، ولكن الكارثة التى أحاقت بهم فى موهاكس (١٥٢٦) وقتل فيها ملك المجر ، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدمى فاتحها . كذلك استولت عماراته البحرية على بلاد الجزائر ، وأوقعت بالبنـادقة هزائم كثيرة . وكان فى أثناء معظم حروبه مع الإمبراطورية متحالفاً مع الفرنسيين . وبلغت الدولة العثمانية فى عهده أوج عظمتها

٥ — لماذا لم يعتنق المغول المسيحية

لننظر الآن نظرة موجزة عجلى إلى التطورات التى ألمت بعد ذلك بالأجزاء لكبرى لإمبراطورية الخان الأعظم . ولم تفلح المسيحية قط فى الاستيلاء على أخيلة هاته الدول المغولية لأن المسيحية كانت فى دور إفلاس خلقى وذهنى ، لا يجمع أشتاتها البتة أى رابط من إيمان أو همة أو شرف ، وقد سبق أن أخبرناك حديث هذين الراهبين الدومينيكيين التعسين الرعديدين اللذين بعث بهما البابا جواباً على طلب قوبلاى خان ، كما لاحظنا الإخفاق العام الذى ظل يصيب البعثات التى أرسلت براً فى أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فإن تلك الروح الرسولية الحارة التى كانت تستطيع أن تضم إلى ملكوت السموات شعوباً بأكملها قد ولت من الكنيسة .

وفى (١٣٠٥) — كما سبق أن ذكرنا — أصبح البابا وهو الحبر الأعظم رهينة فى قبضة الملك الفرنسى . فكأن كل ما لجأ إليه البابوات من مخاتلات وما دبروا من سياسة فى القرن الثالث عشر لاستبعاد الإمبراطور من إيطاليا ، لم تتمخض إلا عن حلال ملك فرنسا محله . واستمر البابوات فى أڤنيون من (١٣٠٩) إلى (١٣٧٧) ؛

وعندئذ لم يكن الجهد الضئيل الذى بذلوه فى إرسال البعوث التبشيرية ، إلا مجرد جزء من الخطط الاستراتيجية التى رسمها السياسة الأوروبية الغربية . وفى (١٣٧٧) استطاع البابا جريجورى الحادى عشر أن يعود فعلا إلى روما وأن يبقى بها حتى آخر حياته ، ولكن الكرادلة الفرنسيين انشقوا عن إخوانهم عند انتخاب خلفه ، وكانت نتيجة ذلك أن انتخب اثنان من البابوات ، أحدهما فى أفنيون والثانى فى روما . واستدام هذا الانقسام المسمى بالصدع العظيم[1] من (١٣٧٨) إلى (١٤١٨) . وكان كل بابا يلعن الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره . تلك هى حال المسيحية يومئذ . . وهؤلاء هم حملة تعاليم يسوع الناصرى ! ! كانت آسيا كلها ناضجة دانية القطوف ولكن يدا لم تمتد إليها لتجنى ثمارها .

حتى إذا عادت إلى الكنيسة وحدتها آخر الأمر وتجددت فيها طاقتها على إرسال البعثات الدينية بإنشاء جماعة الجزويت ، كان أوان النهزة قد فات . وولى معه كذلك كل احتمال لتوحيد الشرق والغرب بوساطة المسيحية . فتحول المغول فى الصين وآسيا الوسطى صوب البوذية ، واعتنقوا الإسلام فى جنوب الروسيا والتركستان الغربية والإمبراطورية الإيلخانية .

٦ – أسرتا يوان ومينج فى الصين

كان المغول فى الصين متشبعين آنفا بالحضارة الصينية يوم اعتلى قوبلاى عرشه . فبعد (١٢٨٠) تعالج كتب التاريخ الصينية « قوبلاى » بوصفه عاهلا صينيا ، ومؤسسا لأسرة يوان (١٢٨٠ – ١٣٦٨) . ثم شبت حركة قومية صينية خلعت هذه الأسرة المغولية آخر الأمر وأقامت أسرة منج (١٣٦٨ – ١٦٤٤) ، وهى سلالة من أباطرة مثقفين ذوى نزعة فنية ، حكموا البلاد حتى فتحها شعب شمالى ، هو شعب المانشو – وهم نفس شعب الكن الذين هزمهم جنكيز – وأسسوا أسرة مالكة لم تتخل عن السلطان إلا لحكومة أهلية جمهورية فى ١٩١٢ .

وأسرة المانشو هى التى أجبرت الصينيين على إرخاء ضفائر المانشو إشارة إلى

---

(١) الصدع العظيم أو الانشقاق العظيم Great Schism . (المترجم)

الخضوع . وعلى ذلك يكون الصينى ذو الضفيرة شخصاً حديثاً تمام الحداثة فى التاريخ. ثم لم تعد الضفائر إجبارية منذ عهد الجمهورية ، كما أنها اليوم مجهولة معدومة أو تكاد .

إن هذه التغيرات السياسية التى حدثت بالشرق الأقصى والتى نرى لزاماً علينا أن نلحظها بمثل هذا الإيجاز هاهنا سارت فى طريقها فوق سطح حياة تمدن زاخرة بالوفرة . وكان من دأب الفن الصينى على الدوام أن يختار أوساطاً (Media) هشة قابلة للفناء ، ولذا فليس فى حوزتنا من المادة التى تشهد بالتقدم الفنى الذى كان فى زمن أسرتى صنج ويوان ، ثروة ضخمة مثل تلك الباقية عن فن أوربا المعاصرة لها الذى كان أدنى فى التطور كعباً . ولكن القدر الذى فى أيدينا كاف لإقناعنا بالصفة الفنية الممتازة لذلك العصر . ومع أن أسرة صنج تسجل عصر تراجع سياسى حدث نتيجة لضغط قوى الخيتان والكن والهسيا ، فإنها لفترة نشاط فنى عظيم . والناس يتحدثون بأن فن التصوير الصينى وصل إلى أعلى مستوياته فى عهد أسرة صنج الجنوبية . كتب المستر لورنس بنيون يقول : « إنها لفاخرة فى الفنون فاخرة فى الفلسفة ، تلك المدة التى تقف من آسيا فى التاريخ موقف عصر بريكليس من أوربا . . فنى هيام كلِف بالطبيعة لا يضارعه قط فى أوربا أى كلف حتى أيام وردس ورث[١] ، صور فنانو أسرة صنج جذلهم بالجبال والضباب والسيول الغامرة وطيران الأوز البرى عن أحراش القصب ، وأحلام الحكماء سابحين فى نجواهم تحت ضياء القمر فى الغابات وصائد السمك جالساً فى زورقه على أمواه البحيرة أو الجدول » .

وظل دافع أسرة صنج فى التصوير مستمراً بلاانقطاع ولا تغيير جوهرى حتى نهاية أسرة يوان ، حتى إذا ابتدأ حكم أسرة منج ظهر معه قدر معين من الضعف والتنميق . ونحن إنما نصل بظهور أسرة منج إلى فترة خلفت لنا آثاراً وفيرة . إذ يتبقى عنها كثير من الحفر على الخشب والعاج ، وسلاطين حفر فى الكهرباء الأسود

---

(١) وليم وردس ورث (Wordsworth) : (١٧٧٠ — ١٨٥٠) شاعر إنجليزى عشق الطبيعة حتى بلغ هيامه بها حد العبادة . (المترجم)

حجر اليشم) والبلور الصخرى وعدد وفير من مصنوعات البرونز الممتازة . وإن الشوارع المحفوفة بالتماثيل الحجرية الهائلة والمؤدية إلى قبور أسرة منج ، لمعروفة ذائعة الصيت وإن لم تمثل بأى حال خير النحائت الصينية . وما لبث فن الحفر الصينى أن غزته على التدريج نوبة من المبالغة فى التنميق حتى اختنق آخر الأمر تحت وابل من الأفاعين[1] والأزاهير والأشكال الرمزية .

يقول وليم برتون : « ومع أن خزفاً ممتازاً جديراً باسم البورسلان ، كان يصنع فى زمن يرجع فى تقدمه إلى عصر أسرة تانج . فإن أقدم ما لدينا من خزف البورسلان الصينى يرجع إلى عهد أسرة صنج » . وقد شرع البورسلان أن يتخذ طريقه غرباً مع الحرير ، ويسجل التاريخ أن صلاح الدين أرسل هدية من أربعين قطعة منه إلى سلطان دمشق . وبمجىء أسرة منج تلقت صناعة الخزف دافعاً منبهاً هو الرعاية الإمبراطورية المباشرة وتطورت فى نشاط ونجاح خارقين للمعتاد . وأخذ الصناع فى استخدام الحليات المصبغة . وكان أن وصل الصينيون فى القرن الخامس عشر إلى أبدع أنواع البورسلان الأزرق والأبيض . وثمة البورسلان البديع إبداعاً لا يصدق ، وهو البورسلان المخرم ، والبورسلان الرائع ذو اللون الأحمر المغطى بالصقال (under glaze red) وهما من بين مفاخر هذا العصر ، الذى هو العصر الذهبى للخزف الصينى .

٧ – المغول يرتدّون الى الروح القبلية

حدث فى هضبة البامير ، وفى قسم كبير من التركستان الشرقية والغربية ، وإلى الشمال من ذلك ، ان المغول انحدروا ثانية إلى حال البداوة القبلية التى رفعهم عنها چنكيز . ومن اليسير علينا أن نتعقب إلى ما يكاد يدانى زماننا هذا تضاؤل شأن كثير من الخانات الصغار أثناء تعاقبهم على الملك ، منذ استقلوا فى غضون تلك الفترة ، وأسس القلموق إمبراطورية ضخمة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكن

(١) الأفاعين جمع أفعوان . (المترجم)

المنازعات بين أفراد الأسرة المالكة حطمت تلك الإمبراطورية قبل أن تتجاوز رقعتها آسيا الوسطى . واسترد الصينيون منهم التركستان الشرقية قرابة (١٧٥٧) .

وزادت التبت ارتباطاً بالصين ، وأصبحت المثابة العظيمة للعقيدة البوذية والرهبانية البوذية . وما يزال التميز القديم بين الرحّل والمستقرّين مستمرا إلى اليوم فى معظم آسيا الوسطى الغربية وفارس وأرض الجزيرة . فإن سكان المدن يستعلون على المترحلين ويغشّونهم ، كما أن الرحّل يسيئون إلى أهل الحضر ويحتقرونهم .

٨ – إمبراطورية القبچاق و قيصر موسكوڤيا (الروسيا)

ظل مغول مملكة القبچاق العظيمة رحلا يرعون ماشيتهم عبر السهول الفسيحة فى جنوبى الروسيا وغرب آسيا الغربية المتاخم للروسيا ؛ وأصبحوا مسلمين غير تامى الإخلاص للإسلام محتفظين ببقايا كثيرة لشامانيتهم الهمجية القديمة . وكان خان « الحشد الذهبى » هو الخان الأعظم بينهم . وإلى الغرب وفوق أجزاء عظيمة من الأرض البراح ، وعلى الأخص فيما يعرف الآن باسم أوكرانيا ، ارتد السكان القدامى الإسكيذيون ، وهم من الصقالبة الذين يخالطهم شىء من الدم المغولى ، إلى حياة ترحل مشابهة لهذه . فهؤلاء الرحل المسيحيون ، أى هؤلاء القوزاق ، كونوا على الحدود ضد التتر ضرباً من الستار الواقى وبلغ من جاذبية حياتهم الحرة الطليقة المليئة بالمخاطرة واستهوائها لأفئدة فلاحى بولندة وليتوانيا ، أن اضطرت الحكومات إلى إصدار القوانين الصارمة لمنع حدوث هجرة واسعة النطاق من أرض الحراث إلى أرض السهوب ؛ ولهذا السبب صار ملاك الأراضى أصحاب موالى الأرض (Serfs) فى بولندة ينظرون إلى القوزاق بعين ملؤها العداوة والحقد ، وكثرت الحروب بين الفروسية البولندية والقوزاق ، كثرتها بين هؤلاء الأخيرين وبين التتر ؛

وبينما كان الرحّل فى إمبراطورية القبچاق كما بلاد التركستان إلى مايكاد يدانى العصر الحاضر ، يضربون فى الأرض فوق متسعات فسيحة ، كان هناك عدد من

المدن والأقاليم الزراعية التي يعيش عليها سكان مستقرون ويدفعون في العادة الجزية للخان المترحلين . ففي مدن من أمثال كييف وموسكو وما إليهما كانت حياة السكان المسيحيين المدنيين الموجودة قبل المغول لا تزال مستمرة تحت حكم دوقات من الروس أو ولاة من التتار ، ممن كانوا يجمعون الجزية للخان « الحشد الذهبي » . واكتسب غراندوق موسكو ثقة الخان ، وارتفع شأنه شيئاً فشيئاً تحت سلطان الخان حتى ساد كثيراً من زملائه الأتباع . وفي القرن الخامس عشر نبذت موسكو تحت حكم غراندوقها إيڤان الثالث وهو إيڤان الكبير (١٤٦٢ — ١٥٠٥) ولاءها للمغول وأبت أن تدفع الجزية بعد ذلك (١٤٨٠) . ولم يعد خلفاء قسطنطين يحكمون في القسطنطينية في ذلك الزمان ، فاستولى إيڤان على النسر البيزنطي ذي الرأسين واتخذه شارة له . وادعى أنه وارث بيزنطة بسبب زواجه (١٤٧٢) من الأميرة زوية پاليولوجوس (Zoe Palaeologus) وهي من السلالة الإمبراطورية . وهاجمت هذه الغراندوقية المسكوفية الطموحة جمهورية أهـــل الشمال التجارية بنوڤجورود إلى الشمال منها وأخضعتها ، وبذا أرسيت أسس الإمبراطورية الروسية العصرية ، وأنشئت حلقة اتصال تربطها بالحياة التجارية في بحر البلطيق . على أن إيڤان الثالث لم يدفع ادعاءه بوراثة حكام القسطنطينية المسيحيين إلى حد اتخاذ اللقب الإمبراطوري بل خطا هذه الخطوة من بعده حفيده ، إيڤان الرابع (وهو إيڤان الملقب بالرهيب لقساوته الجنونية (١٥٣٣ — ١٥٨٤) . ومع أن حاكم موسكو وصل بذلك إلى التلقب بلقب القيصر (Tsar) ، فإن تقاليده كانت في كثير من الأوجه تتارية أكثر منها أوربية . كان مستبداً على النسق الأسيوي المطلق السلطان ، وكانت المسيحية التي اتخذها هي الشرقية الأرثوذكسية التي يسيطر عليها البلاط ، والتي وصلت إلى الروسيا قبل الفتح المغولي بزمن مديد على يد مبشرين من البلغار جاءوا من القسطنطينية .

وإلى الغرب من ممتلكات القپچاق خارج مجال الحكم المغولي قام في بولندة مركز ثان لتماسك الصقالبة أثناء القرنين العاشر والحادي عشر . أجل اكتسحت الموجة المغولية بولندة ، ولكنها لم تخضعها قط . ولم تكن بولندة أرثوذكسية بل كانت عقيدتها هي الكاثوليكية ، وكانت تستعمل أحرف الهجاء اللاتينية بدل الأحرف الروسية الغريبة ،

ولم يتخذ عاهلها قط سمة الاستقلال المطلق عن الإمبراطور . والواقع أن بولندة كانت من حيث أصولها قسما أمامياً ناتئاً من عالم المسيحية ومن الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تكن الروسيا فى أى يوم من الأيام شيئاً من هذا القبيل .

٩ — تيمورلنك

ربما كانت طبيعة وتطور إمبراطورية أسرة إيلخان فى فارس وأرض الجزيرة وسوريا وما ألم بتلك الإمبراطورية من تطورات ، أشوق قصص هذه الدول المغولية كافة ، لأن نظام الترحل فى هذه المنطقة حاول بالفعل — ووفق فى الحقيقة أيما توفيق — أن يقضى قضاء مبرماً على نظام ممدّن مستقر . فعند ما غزا جنكيز خان الصين فى بداية الأمر ، حدثت — كما يخبروننا — مناقشة خطيرة بين الرؤساء المغول حول ضرورة أو عدم ضرورة تدمير كل المدن وإبادة السكان المستقرين . فإن هؤلاء البسطاء الممارسين لحياة الهواء الطلق ، كانوا يرون أن السكان المستقرين فاسدون متزاحمون تنتشر بينهم الرذيلة ويغلبهم التخنث وأنهم خطرون لا يمكن فهمهم ، وأنهم طفح جلدى إنسانى جدير بالزراية يعيش على سطح بلاد لولا وجودهم لكانت أرض رعى طيبة . فأما المدن فلم يكن من ورائها أى نفع لهم . ويلوح أن قدامى الفرنجة والأنجلوسكسون غزاة جنوبى بريطانيا ، كان يجول بخاطرهم نفس الشعور حيال سكان المدن . ولكن تلك الفكرات لم تجسد فى صورة سياسة متعمدة إلا تحت ظل هولاكو فى أرض الجزيرة . فإن المغول هاهنا لم يقتصروا على إعمال النار والسيف إحراقاً وتذبيحاً ، بل دمروا نظام الرى الذى استدام ما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة ، وبذلك قضى على المدنية الأم التى ولدت المدنيات الغربية جميعاً . ولقد ظلت هذه الأقاليم الخصبة منذ أيام الملوك الكهنة فى سومر تزرع زراعة مستمرة لا تنقطع ، وتواصل تجميع التقاليد ، وحشد عدد عظيم من السكان وإنشاء مجموعة متعاقبة من المدن النشيطة العاملة : — منها إريدو ونيبور وبابل ونينوى وطيشفون (المدائن) وبغداد ، والآن زال الخصب ، وأصبحت أرض الجزيرة أرض خرائب موحشة وقفار خاوية ، تجرى فيها مياه عظيمة بددا ، أو تفيض على ضفافها

مكونة بركاً تمرح فيها الملاريا . ثم حدث فيما بعد ذلك من الزمان أن انتعشت بغداد والموصل انتعاشاً ضعيفاً وصارتا مدينتين من الدرجة الثانية . . . . .



(شكل ١٥٢) خريطة إمبراطورية تيمورلنك

ولولا هزيمة قطبغا قائد هولاكو ومقتله فى فلسطين (١٢٦٠) لحل بمصر نفس المصير . ولكن مصر كانت عنـــد ذاك سلطنة تركية ، تسودها هيئة عسكرية هى المماليك كان يؤخذ أفرادها (شأن مقلديها الانكشارية بالدولة العثمانية) ، وتجدد قوتها ، بمشترى الغلمان الأرقاء وتدريبهم . فإن كان السلطان مقتدراً ذا كفاية أطاعه هذا النوع من الرجال ، وإذا كان ضعيفاً أو شريراً عزلوه وتبدلوا به غيره . وظلت مصر تحت حكمهم دولة مستقلة حتى (١٥١٧) ، عندما آلت إلى الأتراك العثمانيين .

وسرعان ما ضعفت القوة المدمرة الأولى لدى مغول هولاكو ، ولكن قامت للمترحلين فى القرن الخامس عشر نهضة أخيرة أشبه ما تكون بعاصفة هوجاء انبعثت فى التركستان الغربية تحت قيادة تيمور الأعرج أو تيمورلنك . كان نسبه من الناحية النسائية (أمه) يتصل بجنكيزخان . فجعل قصبة ملكه فى سمرقند ، ومد سلطانه على القبچاق (التركستان حتى جنوب الروسيا) وعلى سيبريا وبسطه جنوباً حتى حوض نهر

السند . واتخذ لنفسه لقب الخان الأعظم فى (١٣٦٩) . كان مترحلا يمت إلى المدرسة الوحشية بسبب . فأنشأ إمبراطورية تقوم على الخراب من شمال الهند إلى سوريا ، وكانت أشهى تسلية معمارية لديه إقامة أهرامات من الجماجم ، فبعد أن فتح أصفهان أقام على هذه الشاكلة هرماً مكوناً من سبعين ألف جمجمة .

وكان يطمع فى أن يستعيد إمبراطورية چنكيز خان كما يتصورها هو ، وهو مشروع فشل فيه فشلا تاماً . على أنه بث الخراب والدمار فى طول البلاد وعرضها ، وأدى إليه الجزية الأتراك العثمانيون — وكان ذلك قبل فتح القسطنطينية وقبل أيامهم العظيمة — كما أدتها إليه مصر ، ثم أعمل فى البنجاب تخريباً وعاث فيها فساداً ، واستسلمت له دلهى . وبعد أن سلمت المدينة أعمل السيف فى أهاليها قتلا وتذبيحاً رهيباً . وعندما حانت وفاته (١٤٠٥) لم يبق له إلا القليل مما يشهد له بالقوة اللهم إلا اسم يقترن بالرعب وإلا الخرائب والأقطار الموحشة المقفرة ومملكة متقلصة الظلال قد عضها الإمحال والعوز فى بلاد فارس .

وبعد خمسين سنة قضى فوج آخر من المترحلين التركمان على الأسرة المالكة التى أسسها تيمور الأعرج فى فارس .

١٠ — امبراطورية الهند المغولية

وفى (١٥٠٥) اضطر رئيس تركمانى صغير ، اسمه بابر وهو سليل تيمور وبالتبعية چنكيز أيضاً ، أن يفر عابراً جبال الهندوكوش إلى بلاد الأفغان مع ثلة من الأتباع بعد بضع سنين قضاها فى حرب ناله فيها بعض النجاح الموقوت — إذ وقعت فى قبضته سمرقند ردحاً من الزمان . وهناك تزايد أنصاره ، ونصب نفسه سيداً على كابول . فحشد جيشاً وأكثر من جمع المدافع ، ثم ادعى لنفسه ملك البنجاب ، لأن تيمور كان غزاها قبل ذلك بمائة وسبعة من السنين . وتقدم ظافراً إلى ما وراء البنجاب . وكانت الهند فى حالة انقسام وهى مستعدة تمام الاستعداد للترحيب بأى فاتح يعدها السلام والنظام . والتقى بابر بعد تقلبات عديدة فى حظه بسلطان دلهى قرب پانيپات (١٥٢٥)



(شكل ١٥٢) تاج محل بآجرا

إن تاج محل المثوى الأخير لشاه جيهان وزوجته المحبوبة يعترف الناس جميعاً بأنه أكثر أبنية العالم استيفاء الكمال . وهو مبنى من الرخام الأبيض ، ويقال إن عشرين ألفاً من الرجال ظلوا يعملون فيه بلا انقطاع سبعة عشر عاماً

على مبعدة عشرة أميال شمالى المدينة ، فانتصر نصراً كاملا مبيناً مع أنه لم يكن معه سوى خمسة وعشرين ألف رجل ولكنهم مع ذلك مزودون بالمدافع مقابل ألف فيل عند أعدائه وعـــدد من الرجال يضارع أربعة أمثال عدده ، والأعداد – لهذه المناسبة – كانت من تقديره هو . فكفّ عن تلقيب نفسه بملك كابول ، واتخـــذ لقب إمبراطور الهندوستان . كتب يقول : « إن هذا العالم يختلف اختلافاً بيناً عن بلادنا » ، إذ أنه وجده عالماً أجمل وأخصب وأغنى غنى مطلقاً . ثم واصل الفتح حتى البنغال ، ولكن وفاته قبل الأوان (١٥٣٠) أوقفت موجة الفتح المغولى زهاء ربع قرن ، ولم يأخذ مد الفتوح يفيض من جديد إلا عند تولى حفيده « أكبر » العرش . وأخضع أكبر كل بلاد الهند حتى برار ، وأصبح ابن حفيده أورانغزيب (١٦٥٨ – ١٧٠٧) سيداً لشبه الجزيرة الهندية بأكلها تقريباً . فهذه الأسرة العظيمة ، المكونة من بابر (١٥٢٦ – ١٥٣٠) وهومايون (١٥٣٠ – ١٥٥٦) وأكبر (١٥٥٦ – ١٦٠٥) وجيهان جير (١٦٠٥ – ١٦٢٧) وشاه جيهان (١٦٢٨ – ١٦٥٨) و « أورانغزيب » (١٦٥٨ – ١٧٠٧) ، التى ظل فيها الابن يخلف أباه أمد ستة أجيال متعاقبات ، هذه الأسرة المغولية تسجل أزهى عصر بزغ فجره على الهند حتى ذلك الحين . وكان « أكبر » – ولعله الملك الوحيد الجدير بأن يردف

بأسوكا — من أعظم عياهل الهند ، وأحد القليلين من الشخصيات الملكية الذين يرتفعون إلى قريب من مرتبة العظماء بين الرجال .

ويجب أن نولى « أكبر » نفس الاهتمام الخاص الذى أظهرناه نحو شرلمان أو قسطنطين الكبير . فإنه أحد الأقطاب التى يدور حولها التاريخ . ولا يزال الشىء الكثير من عمله فى سبيل توثيق الترابط وتوطيد النظام فى الهند باقياً إلى يومنا هذا . إذ تناوله البريطانيون وواصلوا العمل به عندما صارت إليهم وراثة مُلك الأباطرة المغول . والواقع أن العاهل البريطانى كان يتخذ لنفسه لقبا هندياً هو لقب الأباطرة المغول ، وهولقب « قيصر الهند » (Kaisar - i - Hind) . ولقد تبـددت جميع النظم الإدارية الكبرى التى أقامها حفدة چنكيزخان فى الروسـيا وفى أرجاء آسيا الوسطى والغربية كافة وفى بلاد الصين ، حيث بادت منذ زمن بعيد وحلت محلها أشكال حكومية أخرى . والحق إن حكوماتهم لم تزد كثيراً عن كونها حكومات تفرض الضرائب ، وأنها نظام لجمع الإيرادات لتكون طعمة لمؤسسة الحاكم المركزية ، شأن « الحشد الذهبى » فى جنوب الروسيا ، أو المدينة الإمبراطورية بقره قورم أو پيكين . فأما حياة الشعب وفكراته فشىء كانوا يهملونه ويدعونه جانباً ، فلا يعنون بطريقة معيشته ما دام يدفع . فليس عجيباً إذن أن يحدث بعد خضوع دام قروناً طويلة ، أن يعود كل جزء من أجزاء إمبراطوريتهم إلى سابق عهده ، فتقوم من جديد موسكو وكييف مسيحيتان وتبعث فارس شيعية وصين تامة الصبغة الصينية بعد أن زال عنهن كابوس المغول وانجلت غمرتهم . بيد أن « أكبر » أقام صرح هند جديدة . ومنح أمراء الهند وطبقاتها الحاكمة بادرات أو على الأقل تلميحات تشير ولو من بعيد ، إلى أن هناك مصلحة مشتركة تجمعهم . فلئن أصبحت الهند اليوم مكونة من شىء أفضل ولو قليلا من مجموعة متنافرة غير مترابطة من الدولات والأجناس أشبه ما تكون بكيس ممتلىء بالخرق البالية ، وأمنع من أن تكون فريسة لكل مغير عرضى من الشمال ، فإن أعظم الفضل ذلك يرجع إليه .

وكانت سمته المميزة هى انفتاح ذهنه . فإنه نصب نفسه لجعل جميع أنواع الرجال المقتدرين فى الهند ، مهما يكن جنسهم أو دينهم ، صالحين لأداء الخدمة

العامة للحياة الهندية . وكان يتصف بسجية رجل الدولة الحق من حيث قدرته على جمع الشمل والتأليف بين مختلف العناصر . وما كان يرضى لدولته أن تكون إمبراطورية مسلمة ولا مغولية ، وما كان يرضى لها أن تكون راچپوتية ولا آرية ، ولا دراڤيدية ولا هندوسية ولا منتسبة إلى الطائفة العليا أو الطائفة الدنيا ، بل كان يريدها « هندية » .
« وأتيحت له أثناء سنى تدريبه فرص كثيرة أدرك فيها الصفات الطيبـــة والوفاء والإخلاص — وفى كثير من الأحيان — نبل النفس التى يتصف بها أولئك الأمراء الهندوك ، الذين كان رجال حاشيته المسلمون يرون فى قرارة أذهانهم أن مصيرهم هو العذاب الأبدى لأنهم من أتباع براهما . ثم إنه لحظ أن هؤلاء الرجال والرجال الذين يفكرون على شاكلتهم ويؤمنون بعقيدتهم ، كانوا هم الأغلبية الساحقة من رعاياه . ولحظ فضلا عن ذلك أن الكثير منهم — وكانوا أشدهم اكتسابا لثقته — ظلوا مستمسكين بدينهم الخاص ، وإن تجلى أمامهم ما يعود عليهم من المغانم الدنيوية إن هم اعتنقوا دين البلاط . من أجل ذلك كان ذهنه المتفتح ، يرفض منذ البداية قبول النظرية القائلة بأن الإسلام يجب أن يعتنقه الناس جميعاً لمجرد الصدفة التى جعلته وهو الحاكم والفاتح ولد مسلماً يؤمن بمحمد . وأخذت أفكاره تتبلور شيئاً فشيئاً فى هذه الكلمات : « متى كان لى أن أدعى إرشاد الناس قبل أن أجد من يرشدنى؟ » . ثم إنه كلما أصغى إلى التعاليم الدينية الأخرى وإلى العقائد الأخرى ، توقر فى نفسه ما كان يجول بها من شكوك شريفة ، وإذ ظل يلحظ فى كل يوم ذلك الضيق المرير الذى عليه روح التشيع الطائفى ، مهما يكن شكل الديانة الذى ينتسب إليه ، تزايد تعلقه بمبدأ التسامح مع الجميع » .

يقول الدكتور إميل شميت : « كان ابناً لإمبراطور مخلوع وقد ولد فى الصحراء ، وتربى فى حبس اسمى ؛ فعرف الناحية المريرة من الحياة منذ شبابه فما تلاه من سنين وحباه الحظ بجسم قوى ، دربه على احتمال أبعد غايات الإجهاد . فكان التدريب الجثمانى لديه غراماً وكلفاً ؛ وكان مولعاً بالطراد ، وبخاصة بالانفعال العنيف المصاحب

لصيد الحصان الوحشى أو الفيل أو ذبح النمر الخطر . وقد حدث ذات مرة عندما كان من الضرورى إقناع راجاجودهپور بالتخلى عن اتجاهه إلى إجبار أرملة ابنه المتوفى أن تعتلى كومة النار الجنازية ، أن قطع أكبر مئتين وعشرين ميلا فى يومين على ظهر الخيل وكان يظهر فى معترك القتال أقصى غاية الشجاعة . فكان يقود جيوشه بشخصه فى أخطر أوقات الحملات ، تاركاً لقواده ما دون ذلك من واجبات إنهاء الحرب . وكان يبدى فى كل ظفر يناله إنسانية نحو المغلوب ، ويعارض معارضة حاسمة فى كل مظهر من مظاهر القساوة . ولما كان بريئاً من كل أثر لذلك التحامل الذى يفرق المجتمع ويخلق الخلافات ، متسامحاً مع ذوى المعتقدات الأخرى ، غير متحزب إزاء من هم من أجناس أخرى ، ســواء أكانوا من الهندوس أم من الدراڤيديين ، فإنه كان الرجل الذى خصصته الظروف تخصيصاً واضحاً لإيجاد التلاحم بين عناصر مملكته المتنازعة بعضها مع بعض وجعلها كُلا قوياً متماســكاً يرفرف عليه الرخاء .

« حبس نفسه بكل ما أوتى من جد وقوة على خدمة السلام . وإذ كان معتدلا فى كل مسراته ، غير محتاج إلا إلى القليل من النوم ومعتاداً أن يقسم وقته بأقصى دقة ، فإنه كان يجد فسحة من الوقت يكرس فيها نفسه للعلم والفن بعد فراغه من مهام دولته . فكانت الشخصيات النابهة الصيت والعلماء المشهورون الذين تزدان بهم العاصمة التى ابتناها لنفسه فى فاتيپور سيكرى أصدقاء له فى نفس الوقت ؛ فكانت تجتمع من هؤلاء حلقة فى مساء كل خميس لتبادل المحادثات الفكرية والمناقشات الفلسفية . وكان ألصق أصدقائه به أخوين أوتيا مواهب عالية هما فيضى وأبو الفضل ، وهما ابنا عالم حر الفكر[1] (Free-Thinker) . وكان أسن هذين الأخوين عالماً ذائع الشهرة فى الأدب الهندوكى ، وبمساعدته وتوجيه أمر أكبر فترجمت أهم المؤلفات السنسكريتية إلى الفارسية . فأما أبو الفضل ، وكان صديقاً حميماً بوجه خاص لأكبر ، فكان قائداً

---

(١) المفكر الحر الفكر : الشخص الذى لا يقيد تفكيره فى المسائل الدينية وغيرها عما تواضع الناس عليه من تقاليد أو آراء متواترة . (المترجم)

ورجل دولة ومنظماً صاحب تدبر ، وإلى نشاطه تدين مملكة أكبر بترابطها وبتنظيمها الداخلي بوجه خاص[1] .

وكان أكبر شأن شرلمان وشأن تاى تسنج يوجه إلى الأمور الدينية بعض عنايته ويقيم حلبات جدل مسهبة مع المبشرين اليسوعيين ما تزال تفاصيلها مدونة في السجلات .

(على تلك الشاكلة كانت الحلقة التي اعتادت أن تلتم في قصور فاتيپور سيكرى التي لا تفتأ مبانيها تسبح في ضياء شمس الهند المشرقة ، والتي أصبحت الآن خاوية موحشة ، ذلك أن مدينة فاتيپور سيكرى شأن مدينة أمبار ، أصبحت اليوم مدينة ميتة . وحدث منذ سنوات قلائل أن قتلت أفعى في أحد شوارعها الساكنة ابنا لأحد الموظفين الإنجليز) .

وكان أكبر ، شأن كل الرجال جميعاً مهما عظم خطرهم أو هان أمرهم — يعيش في حدود زمانه وفي دائرة فكرات عصره . وكان بوصفه تركمانياً يحكم الهند ، يجهل بالضرورة الشيء الكثير مما ظلت أوربا تتعلمه في ألف سنة بالألم والعناء . كان يجهل كل شيء عن نمو « الوعي الشعبي » في أوربا ، كما كان يعلم الشيء الذي لا يكاد يذكر عن تلك الإمكانات « التعليمية » الرحيبة التي كانت تنتجها الكنيسة في الغرب . إذ كان مثل هذا الأمر يتطلب شيئاً أعظم من جدل عارض مع مبشر مسيحي . وجعلته تربيته على الإسلام وعبقريته الفطرية يعتقد اعتقاداً بيناً أن ليس في الإمكان ربط الهند في شعب واحد عظيم إلا على فكرات عامة تقوم على أساس ديني ، ولكن أنى له المعرفة التي يمكن بها خلق مثل هذا التماسك والإبقاء عليه حياً بإنشاء المدارس العامة والكتب الرخيصة وإقامة نظام جامعي يجمع بين خلتي التنظيم وحرية الفكر ؟ وهي أمور ما تزال الدولة العصرية تتحسس طريقها إليها حتى اليوم . لقد كان ذلك كله مستحيلا عليه استحالة المعرفة بالزوارق البخارية والطائرات . وكان شكل الإسلام الذي يجيد معرفته هو ذلك الشكل الضيق الأفق العنيف في عدم تسامحه ، إسلام الأتراك السنيين. ولم يكن المسلمون إلا أقلية بين السكان . وكانت المشكلة التي تواجهه في الواقع شديدة المماثلة للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبير . ولكنها كانت تنطوي على صعوبات فريدة

---

(١) Dr. Schmit: Helmolt's History of the World

خاصة بها . ولهذا فإن كل ما فعله أنه حاول أن يكيف الإسلام تكييفاً يكفل له عند الناس قبولا أوسع وأشمل بأن يتبدل بعبارتى « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله » عبارة « لا إله إلا الله وأن الإمبراطور رافد[1] الله » إذ زعم أن ذلك سيكون دعامة عامة لكل ما حوت الهند من ضروب العقائد والنحل . وربط بهذه العقيدة طقساً بسيطاً استلفه من الزرادشتيين الفرس (وهم الفارسيس (The Parsees) ، الذين كانوا – ولا يزالون إلى اليوم – موجودين بالهند . ومع هـــذا فإن هذه الديانة الرسمية الجديدة ماتت بوفاته ، إذ لم يكن لها جذور مستقرة فى أذهان من حوله من الناس .

والعامل الجوهرى فى تنظيم الدولة النابضة بالحياة ذلك العامل الذى أخذ العالم فى إدراكه ، هو إنشاء نظام تعليمى . وذلك أمر لم يفهمه أكبر البتة . ثم إنه لم يتوافر له طبقة من الرجال يوحون إليه بهاته الفكرة أو يعينونه على تنفيذها . فلم يكن المعلمون المسلمون فى الهند بمعلمين قدر ما كانوا حرّاساً لعقيدتهم محافظين على تعصب دينى حاد ، فكانوا لا يرغبون فى وجود عقلية مشتركة فى الهند بل مجرد تعصب عام للعقيدة الإسلامية وعدم تسامح مشترك فى الإسلام . وكان البراهمة الذين كان بيدهم احتكار التعليم بين الهندوك يتصفون بكل ما للهيئة ذات الامتياز الوراثى من غرور وتقاعس . ومع ذلك فعلى الرغم من أن أكبر لم ينشئ للهند أية خطة تعليمية عامة ، فإنه أنشأ عدداً من المدارس الإسلامية والهندوكية .

ولا تبرح البقايا الفنية والمعمارية المتخلفة عن المغول وفيرة جداً . وعندما يتكلم الناس عن « الفن الهندى » بدون تحديد ، فإنهم يعنون بذلك تلك الفترة العظيمة . وفن تصوير ذلك الزمن ممتاز جميل ، وهو فى طرازه وصنفه وثيق القربى بالإنتاج الفارسى المعاصر له .

فأما فى المبانى فقد كان من نصيب الهند دواماً أن تستورد بذرة الأساليب العالية التطور وأن تفرض عليها تعديلات وتنميقات من عندياتها . ولم يتم لفن العمارة الحجرى الانتشار إلا بعد الفتح الهلينى ، وإن انتشار الإستوپا[2] والعمد التذكارية والنصب

(١) الرافد (Regent) هو النائب . (المترجم)

(٢) الإستوپا (Stupa) أثر أو مقصورة مقدسة بوذية على هيئة رابية ذات قبة . (المترجم)

الأخرى فى حكم أسوكا ليشهـــد فى كل مكان يوجود الفنانين الفرس والهلينيين . وفضلا عن ذلك فإن الفن البوذى الذى خلف لنا مثل تلك البقايا العظيمة فى منطقة جندهارا على الحدود الشمالية الغربية ، والراجع إلى القرون الأربعة الميلادية الأولى ، تبدو فيه كذلك الروح الهلينية قوية واضحة . فيرى الإنسان واجهات بها العمود الكورنثى العادى .

ولم يصبح فنا العمارة والنحت هندوكيين بشكل ظاهر مميز له صفة وكرامة تخصه إلا فى حكم أسرة چويتا وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وحالت المؤثرات الدراڤيدية الجنوبية دون انتشار الخطوط الرأسية ، كما أنها أوقرت البناء بكرانيش[١] (Mouldings)أفقية مع نزوع إلى طراز الأهرام المدرجة . والهرم الأسود فى كانارالك من أبدع المعابد الهندوكية وأشدها تمثيلا لطراز تلك المعابد قبل الإسلام .

واستقدم الغزو الإسلامى الأشكال الرئيسية للطراز العربى (Saracenic)وهى المئذنة والعقد المدبب ، وعلى هذا الأساس الجديد اشتغلت الهند فى حفر بديع الإتقان وأنتجت التفريغات التشجيرية الزخرفية للنوافذ (Window-tracery) والأستار المخرمة . والمسجد الجامع بأحمد آباد (فى القرن الخامس عشر) من أبدع المساجد الهندية ، ولكن لعل أبدع مثال لكل فن العمارة المغولى هذا وأشدها تمثيلا لطرازه هو « تاج محل » ، وهو القبر الذى ابتناه شاه چهان (١٦٢٧ — ١٦٥٨) لزوجته . ويتعاون المعماريون الإيطاليون والهنود فى هذا البناء الرشيق .

١١ — الغجر (النوَر)

وهناك نتيجة جانبية عجيبة نشأت عن هذه الإضطرابات التى أحدثها مغول القرن الرابع عشر ، الذين كان تيمورلنك رأسهم وقطب رحاهم — هى ظهور شراذم متنقلة فى أوربا تتكون من شعب غريب شرقى لاجئ هو الغجر . ظهروا ببلاد اليونان فى زمان ما قريب من نهاية القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ، حيث زعمهم الناس مصريين (Egyptians) ، (ومنها اشتقت كلمة Gipsy) التى يطلقونها عليهم فى أوربا ، وهو اعتقاد عم الناس جميعاً وقبلوه هم أنفسهم وبثوه فى كل مكان . ومهما يكن من شىء فإن زعماءهم كانوا يلقبون أنفسهم بلقب « كونتات آسيا الصغرى » .

---

(١) الكرانيش : هى صبات (جمع صبة بتشديد الباء) فى قوالب . (المترجم)

والراجح أنهم ظلوا يتنقلون فى أرجاء آسيا الغربية قروناً عدة قبل أن دفعتهم مذابح تيمورلنك إلى عبور (الهلسپونت) الدردنيل . وربما دفعهم عن أرض أرومتهم الأصلية – شأن الأتراك العثمانيين – ذلك الطوفان العظيم الذى أحدثه چنكيز أو حتى قبله . تنقلوا فى البلاد كما تنقل من قبلهم الأتراك العثمانيون ، وإن كانوا أقل حظاً حسناً منهم . فانتشروا على مهـــل متجهين غرباً عبر أوربا : حطاماً غريبة من نظام الترحل فى عالم قوامه المحراث والمدينة ، مطرودين من وطنهم القديم بسهوب (بلخ) نازلين فى أراضى الشيوع الأوربية ، وبجوار السياجات المضروبة حول المزارع وفى أراضى الغابات البرية والبقاع المهملة . سماهم الألمان باسم « الهنغاريين» و « التتار » وسماهم الفرنسيون « البوهيميين » .

ولا يبدو أنهم حافظوا على تقاليد منبتهم الحقة ، غير أن لهم لغة مميزة تشير إلى تاريخهم الضائع ؛ فإنها تحتوى على كثير من كلمات شمال الهنـــد ، ويرجح أن نكون فى أصولها هندية شمالية أو باكترية . ويحتوى لسانهم على عناصر ضخمة فارسية وأرمنية .

وإنك لتجدهم الآن فى كل أقطار أوربا ، منهم السمكرى والبياع المتجول وتاجر الخيل ومنهم أصحاب دور الملاهى والعرافون والمتسولون . ولقد يلتذ كثير من ذوى الأذهان الخيالية التذاذاً قوياً بمخيماتهم القائمة على جانب الطريق ، ونيرانهم الداخنة ، وخيامهم المدورة ، وخيولهم المقيدة وعجيج أطفالهم الصاخبين الذين لوحت الشمس وجوههم .

والمدنية شىء يبلغ من حداثته فى التاريخ ، كما أنها ظلت معظم عهدها ذات صورة محلية بالغة ، بحيث لا يزال لزاماً عليها أن تقهر غالب غرائزنا وتتمثلها فى نطاق احتياجاتها . فإن عرق الهداوة والترحل المندس فى معظمنا يتحرك فى سويدائنا كلما مسنا السأم مما عليه المدنية من أوضاع ومعتقدات . وما نحن إلا أصحاب بيوت فاترو الحماسة ، غير مخلصين لمعيشتنا المنزلية . والدم الذى يسرى فى عروقنا قد تكون فى بلاد السهوب كما تكون فى أراضى المحراث .

ومن بين الأنواع الأخرى من العدوى التى حملها الغجر من قطر إلى قطر ، ذلك اللون

من الموسيقى الشعبية الذى أشاعوه فى الأقطار التى مروا بها ، فإنهم كانوا على الدوام موسيقيين متحمسين لفنهم وإن لم يكونوا مبتكرين خلاقين ؛ ذلك بأنهم حملوا إلى كل مكان حلوا به ضرباً من فن الإنشاد الشعبي ، يضفون عليه نكهة وحيوية صادرة من ذات أنفسهم . ولطالما سرقوا ألحان الشعوب كما سرقوا فى بعض الأحيان أطفالهم وجعلوا منهم أغجاراً . وهم لم يستعملوا البتة أى تدوين موسيقى « نوتة » ، ولكن تقاليدهم الموسيقية كانت على الدوام قوية ، وللأغنية الغجرية اليوم أحفاد كثيرة هى موسيقى هنغاريا وأسبانيا والروسيا .

الفصل الثالث والثلاثون

نهضة المدنية الغربية

الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

١ – المسيحية والتعليم الشعبى

إن نظرة إلى الخرائط تحدثنا أن القرون الثلاثة منذ بداية الثالث عشر حتى نهاية الخامس عشر كانت عصر تراجع للمسيحية . وكانت هذه القرون عصر الشعوب المغولية . ففى إبانها كانت البداوة : (الترحل) القادمة من آسيا الوسطى تسود العالم المعروف . وكان على مفرق الدنيا ، وهذه الفترة فى ذروتها ، حكام من الجنس المغولى أو ذى قرباه التركى ، ينهضون بالحكم ومعهم تقاليدهم فى كل من الصين والهند وفارس ومصر وإفريقيا الشمالية وشبه جزيرة البلقان وهنغاريا والروسيا .

ولقد بلغ الأمر بالتركى العثمانى أن جنح إلى البحر ، وقاتل البنادقة على سطح بحرهم المتوسط نفسه . وحاصر الترك فى (١٥٢٩) مدينة ڤيينا ، ولكنهم هزموا إذ ردهم الجو على أعقابهم أكثر مما ردهم الذائدون عنها . ودفعت إمبرطورية شارل

الخامس الهابسبرجية الجزية للسلطان . ولم يحدث حتى معركة ليبانتو (١٥٧١) ، وهى المعركة التى فقد فيها سرفانتيز مؤلف دون كيشوت ذراعه اليسرى — « أن كسرت المسيحية (على حد قوله) أنفة العثمانيين وكبرياءهم ورفعت الغشاوة عن عيون العالم الذى كان يعد الأسطول التركى شيئاً لا سبيل إلى قهره » .

وكانت البلاد الوحيدة التى تهيأ فيها للمسيحية التقدم هى أسبانيا . ولو تهيأ لرجل ذى بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم فى مفتتح القرن السادس عشر فلعله كان يستنتج أنه لن تمضى إلا بضع أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغولياً — وربما أصبح إسلاميا ، على نفس الشاكلة التى يلوح بها أن معظم الناس يسلّمون اليوم بأن الحكم الأوربى ونوعاً من المسيحية المتحررة مقدر لهما أن ينشرا ظلالهما فوق العالم أجمع . ويبدو أنه قل من الناس من يدرك مبلغ حداثة هذه العظمة الأوربية ، وربما فاته أيضاً أن يدرك كم هى وقتية عارضة . ولم تبد أى دلائل واضحة تدل على مبلغ الحيوية الحقيقية لأوربا الغربية إلا عندما أخذ القرن الخامس عشر يدلف نحو نهايته .

ويقترب تاريخنا الآن من زماننا هذا ، ومن ثم تتحول دراستنا أكثر فأكثر إلى دراسة للأحوال القائمة بيننا . فالنظام الأوربى أو المصبوغ بالصباغ الأوربى الذى نعيش تحت ظلاله اليوم هو نفس النظام الذى نراه يتطور فى أوائل القرن الخامس عشر بأوربا الذاوية المنهارة التى يتهددها المغـــول . وما كانت مشاكلها آنذاك إلا « الجنين » لمشاكل اليوم ومن المستحيل علينا البحث فى شئون ذلك الزمان دون البحث فى شئون زماننا هذا . فترانا نخوض فى السياسة بالرغم من أنفسنا . قال السير ج . ر . سيلى[1] : « إن السياسة بلا تاريخ شجر لا جذور له والتاريخ بلا سياسة شىء لا ثمار له » .

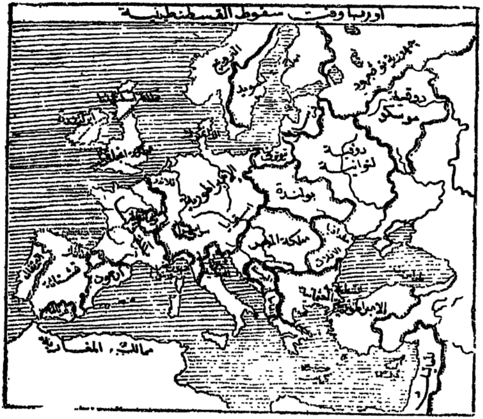
فلنحاول الآن مستمسكين بجهد طاقتنا بالبعد عن التحيز ، أن نستكشف تلك القوى التى كانت تفرق طاقات نشاط أوربا بددا وتعرقلها أثناء تلك الموجة العظيمة التى قامت بها الشعوب المغولية ، وأن نرى كيف يتيسر لنا أن نفسر تجمع الطاقة العقلية والجثمانية التى لا شك أنها مضت فى طريقها قدماً أثناء فترة التقهقر الظاهرة هذه ، والتى انفجرت عند نهايتها على تلك الشاكلة الضخمة .

---

(١) هو السير جون روبرت سيلى ، المؤرخ الإنجليزى (١٨٣٤ — ٩٥) . (المترجم)

فالموقف الآن كمثيله فى العصر الميزوزوى : فبينما كانت الزواحف الكبرى تسوده على ظهر البسيطة ، كانت هناك زوايا متوارية منعزلة تتطور فيها تلك الثدييات ذات الشعر وتلك الطيور ذات الريش التى تمكنت فى نهاية الأمر أن تحل تماماً محل تلك المجموعة الحيوانية الهائلة متبدلة بها أخرى أكثر مزايا ومقدرة ، وكذلك نرى فى المناطق المحدودة مناطق أوربا الغربية ، أنه بينما كانت الممالك المغولية تسود العالم من الدانوب إلى المحيط الهادى ومن البحار المتجمدة الشمالية إلى مدراس ومراكش والنيل ، كانت توضع أسس القواعد الجوهرية فى طراز للمجتمع الإنسانى جديد أشد صلابة وأكثر كفاية ؛ فهذا الطراز من المجتمع ، الذى ما يزال فى دور التكوين لم يتجاوزه بعد ، والذى ما يزال آخذاً بأسباب النمو ولا يزال بمرحلة التجارب ، قد نستطيع أن نطلق عليه اسم « الدولة العصرية » . ونحن ندرك دون أدنى ريب أن تلك العبارة مبهمة : على أننا جاهدون أن نبث فيها شيئاً من المعنىَ مع تقدمنا بحثنا هذا .

وقد سبق أن سجلنا ظهور نواة الفكرات الأساسية لتلك الدولة العصرية فى الجمهوريات الإغريقية وبخاصة فى أثينا وفى الجمهورية الرومانية العظيمة وفى دين اليهودية والإسلام ، وفى قصة الكاثوليكية الغربية . وهـذه الدولة العصرية ، كما نراها اليوم وهى تنمو تحت أسماعنا وأبصارنا ، إنما هى بالضرورة مزج تجريبى بين فكرتين تلوحان متناقضتين فى الظاهر ، وهما فكرة « مجتمع من العقيدة والطاعة » ، على غرار تلك المجتمعات التى كانت عليها ولا ريب المدنيات القديمة ، وفكرة « مجتمع من العزيمة والإرادة » مثل التجمعات السياسية البدائية عند الشعوب النوردية والهونية . ذلك أن الشعوب الممدنة المستقرة ، وهم الذين ينتسبون فى الغالب إلى الجنس القوقازى الأبيض الداكن ، أو إلى الدرافيديين السمر أو المغوليين الجنوبيين ، يبدو أنها ظلت آلاف السنين تطوّر فكراتها وعاداتها على أساس العبادة والخضوع الشخصى ، كما يلوح أن المترحلين طوروا فكراتهم وعاداتهم على أساس الاعتماد الشخصى على النفس فضلا عن الاعتداد بالذات . وكان من الطبيعى جداً فى هذه الظروف أن تدأب الشعوب المترحلة على إمداد المدنيات بحكام جدد وأرستقراطيات جديدة . فذلك هو « الإيقاع » الذى لبث يدق منتظماً فى كل أحقاب التاريخ المبكر . وبعد آلاف من السنين انقضت



(شكل ١٥٤) خريطة أوربا عند سقوط القسطنطينية

فى تغيرات دورانية يتعاور فيها الانتعاش بفتح المترحلين فالمدنية فالاضمحلال ثم الفتح الجديد ، ابتدأت العملية الحالية ، عملية المزج المتبادل بين النزعات المتحضرة ، أى العاملة الكادحة الطيعة ، وبين النزعات الحرة أى الأرستقراطية والمغامرة ، مزجاً أنتج طرازاً جديداً من المجتمع ؛ يتطلب منا الآن توجيه انتباهنا إليه كما أنه قوام التاريخ المعاصر لنا .

وقفونا فى هذا « التاريخ » التطور البطىء لمجتمعات بشرية « ممدنة » أكبر فأكبر ، منذ أيام قبيلة العائلة البدائية بالعصر الحجرى القديم . ورأينا كيف أن مزايا الزراعة وضروراتها والخوف من آلهة القبيلة والفكرات القائلة بالملك الكاهن والملك الرب ، لعبت دورها فى توثيق عرى التماسك داخـــل جماعات إنسانية متزايدة الحجم والقوة فى مناطق بلغت أقصى غاية الخصب . وراقبنا التفاعل بين الكاهن (وكان فى العادة

من الأهالى) وبين العامل (وكان فى العادة فاتحاً) فى تلك المدنيات القديمة الباكرة ، كما رأينا تطور الكتابة والتقاليد المكتوبة وإفلاتها من السيطرة الكهنوتية ، وظهور قوى جديدة تبدو أول أمرها عارضة طارئة ثانوية فى ظاهرها ، وقد سميناها « الفطنة الحرة » و « الضمير الحر » للبشرية : وشهدنا حكام المدنيات البدائية فى وديان الأنهار يوسعون ممتلكاتهم ويمدون سلطانهم ، وشهدنا فى نفس الوقت فى الأراضى الأقل خصباً ما كان مجرد « همجية » قبلية يتطور إلى « حالة ترحل » تزداد فى كل آن اتحاداً وكفاية سياسية .

ودأبت البشرية على مسيرها فى أحد هذين النهجين أو فى الآخر . وظلت المدنيات جمعاء عصوراً طويلة وهى تنمو وتتطور على أساس الملكية : أعنى فوق أساس من الملكية المستبدة المطلقة ، وشهدنا كيف حدث فى كل ملكية وأسرة مالكة أن الكفاية والهمة كانتا تخليان مكانهما للترف الباذخ والتراخى والانحلال ، كأنما كان ذلك أمراً إيقاعياً محتوماً لا مفر منه ، ثم رأيناها وقد خضعت آخر الأمر إلى أسرة أحدث منها قادمة من الصحراء أو السهوب .

وتتجسم قصة المدنيات الأولى الزارعة ومعابدها وبلاطاتها الملكية ، ضخمة فى التاريخ الإنسانى ؛ على أنه من الخير أن نتذكر أن مشهد هذه القصة لم يتجاوز قط رقعة صغيرة جداً من سطح اليابس فى الكرة الأرضية . ففى القسم الأكبر من الأرض وإلى زمن قريب جداً لا يتجاوز الألفين الأخيرين من السنين ، كانت الشعوب القبلية الأصلب عوداً والأقل عددا النازلة فى أراضى الغابات والأحراش الخفيفة ، والشعوب المترحلة ساكنة أراضى الكلأ الموسمية تلزم طرائقها الخاصة بها فى الحياة وتطورها .

ربما جاز لنا أن نقول إن المدنيات البدائية كانت « مجتمعات طاعة » . فكانت الطاعة للملوك الأرباب والملوك الذين فى رعاية الأرباب هى القوة التى تشدهم بعضهم إلى بعض ، فأما نزعة المترحلين فكانت من الناحية الأخرى تتجه على الدوام شطر طراز مخالف من الترابط سوف نسميه هاهنا باسم « مجتمع الإرادة » . إذ يجب فى مجتمع جوال مقاتل أن يكون الفرد جامعاً بين الاعتماد على الذات وبين التزام النظام فى الوقت نفسه . ويجب أن يكون رؤساء مثل هذه المجتمعات رؤساء يُتَّبعون لا سادة يجبرون .

ومن اليسير تتبع أثر « مجتمع الإرادة » ، هــذا فى تاريخ الإنسانية بأجمعه ، فنحن نجد فى كل مكان أن النزعة الأصلية للمترحلين كافة : النورديين منهم والساميين والمغول سواء ، كانت من الناحيــة الفردية أكثر نزوعاً وإرادة وأشد ترفعاً وشهامة من نزعة الأقوام المستقرين . هبطت الشعوب النوردية إيطاليا وبلاد الإغريق تحت ملوك قادة ، ولم يستجلبوا معهم أية نحلة معبد نظامية ، بل وجدوا تلك الأشياء فى الأراضى المغزوة ثم كيفوها حين استعملوها . ثم تحول الإغريق واللاتين ثانية إلى تكوين الجمهوريات بغاية السهولة ، وكذلك فعل الآريون فى بلاد الهند . وكان هناك أيضاً تقاليد للانتخاب فى ممالك الفرنجة والجرمان الأولى ، وإن كان القرار يؤخذ فى العادة على عضو أو آخر من أعضاء طائفة أو عائلة ملكية . وكان الخلفاء الأولون ينتخبون ، وكان قضاة بنى إسرائيل وملوك قرطاجة وصور ينتخبون ، وكذلك كان شأن الخان الأعظم المغولى حتى أصبح قوبلاى ملكاً صينياً .

وعلى نفس هذه الشاكلة من الاطراد والاستمرار نجد الفكرة المضادة فى أراضى الاستقرار المسكونة ، فكرة ربوبية الملك غير الانتخابية وفكرة حقه الطبيعى الفطرى فى الحكم .

ولاحظنا فى ثنايا تطور تاريخنا ظهور عناصر جديدة أدخلت التعقيد فى قصة الجماعات البشرية ؛ ورأينا أن المترحلين انقلبوا إلى وسطاء ، وبذلك ظهر التاجر ، ولاحظنا أهمية السفن وهى تنمو فى العالم . ويلوح أنه لا مندوحة للرحلات والأسفار من أن تجعل الرجال أحراراً فى عقولهم وأفكارهم كما أن الاستقرار فى داخل أفق ضيق يجعل الناس جبناء خانعين . . . . على أنه بالرغم من كل هذه الأمور المعقدة تجرى الخصومة الإجمالية بين طريقة « الطاعة » وطريقة « الإرادة » ، مخترقة حقب التاريخ حتى تصل إلى زماننا هذا . ولا يزال التوفيق بينهما ناقصاً غير كامل إلى يومنا هذا .

وقد جرت المدنية على الدوام — حتى ما كان منها فى أحط الصور — على سُنة بذل كثير من الأمور الجذابة المريحة للبشرية والموافقة لطبيعتها . على أن بجنسنا ناحية قلقة غير مروّضة تحاول على الدوام أن تنقل المدنية من اعتمادها الأصلى على « الطلعة التى

لا مشاركة فيها » إلى مجتمع من « إرادات متشاركة » . وإن سمة الترحل الكامنة فى دمائنا ، وبخاصة فى دماء الملوك والطبقات الأرستقراطية ، تلك السمة التى يرجع إليها ولا مراء قسط كبير من فضل إنتاج الأجيال التالية ، لشيئاً يجب أن ينسب إليه كذلك تلك الرغبة الملحاح المستديمة التى تنزع بنا نحو توسعة المجال وتضطر كل دولة أن توسع حدودها إن استطاعت ، وأن تمد مصالحها إلى أقصى الأرض . ويظهر أن دوافع القلق الترحلى ، التى تنزع إلى جذب كل الأرض تحت سلطان حكم واحد ، هى بذاتها الروح التى تجعل مراجل معظمنا تغلى فى ظل التوجيه والتضييق ، وتدفعنا إلى أن نحاول « المشاركة » فى أية حكومة نسمح بوجودها .

ظل هذا الكفاح الطبيعى ، هذا الكفاح المتمشى مع مزاج البشرية الهادف إلى التوفيق بين المدنية والحرية ، — (ظل) حياً عصراً بعد عصر بسبب العجز العسكرى والسياسى فى كل « مجتمع طاعة » وجد على ظهر البسيطة حتى اليوم . ومتى أُضرع الناس مرة للطاعة ، أمكن القبض عليها بغاية السهولة ونقلها إلى الغير ؛ وما عليك إلا أن تلقى البصر إلى الدور السلبى الذى لعبته مصر وأرض الجزيرة والهند : أرض الخضوع الأصلية النموذجية و « مهاد المدنية » — وهى تنتقل من سيد إلى آخر . وما المدنية الخانعة إلا دعوة مستديمة موجهة إلى الرجال الأحرار السلابين .

ولكن « مجتمع الإرادة » يحتم صهر مواد عسيرة بعضها فى بعض ؛ وهو مجتمع إيجاده أصعب كثيراً ، وأصعب من إيجاده الإبقاء عليه . ولعلنا لا نزال نذكر أن قصة الإسكندر الأكبر تظهر مجتمع الارادة للقواد المقدونيين وهو يذوب شيئاً فشيئاً تلقاء طلبه إليهم أن يعبدوه . وما حادث مقتل كليتوس إلا دلالة طرازية على الكفاح بين التقاليد الحرة والتقاليد الذليلة الذى كان يجرى كلما وجد فاتح جديد قادم من الأرض البراح والهواء الطلق نفسه متربعاً فى قصر ملكية من الطراز القديم .

ويحدثنا التاريخ فى حال الجمهورية الرومانية عن أول « مجتمع إرادة » كبير فى التاريخ أى أول مجتمع حر حجمه أكبر كثيراً من حجم مدينة ، ويخبرنا كيف دب الوهن إليه مع نموه وتبددت قواه مع النجاح الذى أصابه ، حتى استسلم آخر الأمر للملكية من

الطراز القديم ، ثم انحل سريعاً إلى مجتمع من أشد مجتمعات المذلة ضعفاً ، منهاراً أمام حفنة صغيرة من الغزاة . ولقد أولينا فى هذا الكتاب بعض انتباهنا إلى عوامل ذلك الانحلال ، لأن لها أهمية جوهرية فى التاريخ الانسانى ، ومن أوضح تلك العوامل الافتقار إلى منظمة واسعة النطاق للتعليم لتؤسس وتبنى عقول المواطنين العاديين على فكرة خدمة الجمهورية والارتباط بها ، أعنى على الابقاء عليهم راغبين بـ« ذوى إرادة » ؛ وثمة عامل آخر هو غياب كل وسيلة للإعلام العام تكفل دوام الانسجام بين أوجه نشاطهم ، وتمكنهم من أن « يصدروا إرادتهم » كهيئة واحدة وشخص واحد . ذلك أن القيود التى تفرض على إمكانيات « مجتمع للمعرفة » هى التى تحدد حجم « مجتمع الإرادة » . ولم يصبح تركيز الملكية والأملاك فى أيد قليلة وإحلال الرقيق محل العمال الأحرار ، فى الإمكان إلا بسبب انحلال الروح الغيرية العامة[1] (Public Spirit) وتبلبل الذكاء العام نتيجة لتلك القيود .

وفضلا عن ذلك لم يكن هناك أية فكرة دينية ذات كفاية تستند إليها الدولة الرومانية ؛ فإن عقيدة روما الإترورية (الإترسكية) الغامضة الباحثة عن الكبد المختلج[2] كانت لا تقل فى سوء تكيفها والاحتياجات السياسية فى مجتمع ضخم ، عن الشامانية الشديدة الشبه بها لدى المغول . والواقع أن السر فيما بلغته المسيحية والإسلام من الأهمية التاريخية الهائلة إنما يكمن فى أن كلا من العقيدتين على طريقتها المميزة قد وعدت على الأقل أن تملأ لأول مرة فى الخبرة الإنسانية تلك الثغرة الواضحة فى نظام الجمهورية الرومانية وفى تاريخ المترحلين ، وذلك بتقديم تعليم أخلاقى مشترك لجمهرة من الناس وبتزويدهم تاريخ مشترك للماضى وفكرة مشتركة لهدف إنسانى ومصير إنسانى . وقد حدد كل من أفلاطون وأرسطو كما لحظنا آنفا عدد المجتمع المثالى فى حدود بضعة آلاف من المواطنين ، إذ أنهما لم يستطيعا أن يتصورا أن فى الامكان أن يترابط جمهور أكبر من هذا بفكرة مشتركة . إذ لم تكن لديهما أية خبرة بأى نوع من التعليم يتجاوز طرائق التعلم بواسطة العرفاء والمؤدبين الخصوصيين المتبعة فى زمانهما . ذلك أن التعليم عند الإغريق أوشك أن يكون تلقيناً شفوياً (Viva Voce) محضاً ، ومن ثم فمجاله لا يتسع إلا لأرستقراطية محدودة العدد . على حين أظهر كل من الكنيسة المسيحية

---

(١) الروح الغيرية العامة : هى تلك الروح التى تدفع الأفراد إلى خدمة المجتمع والمحافظة عليه عن طواعيه ورضا . (المترجم)

(٢) أنظر فى ذلك المجلد الثانى من المعالم . (المترجم)

والإسلام عدم سلامة ذلك التحديد وخطأه . وربما جال بخاطرنا أنهما قاما بواجبهما فى التعليم داخل ميادين فرصهما الفسيحة قياماً فجاً أو سيئاً ، ولكن محور الاهتمام عندنا الذى يعنينا فى هذا الشأن إنما هو مجرد قيامهما بهذا العمل . فقد قام كل منهما بدعايات تكاد تملأ العالم حول الفكرة والإلهام . واعتمد كل منهما بنجاح على قوة « الكلمة المكتوبة » فى ربط جماهير عظيمة من أناس متنوعين مختلفى المشارب ربطاً يضمهم فى مساعٍ وجهود مشتركة .

ولما وافى القرن الحادى عشر ، كانت فكرة المسيحية قد فُرِضت كما سبق أن رأينا ، على ذلك الخليط المتقاتل فى الإمبراطورية الغربية المهشمة المتناثرة وعلى أوربا وراء حدود الإمبراطورية بكثير ، بوصفها فكرة موحِّدة ملهمة . فكونت « مجتمع إرادة » ضحلا رقراقاً ولكنه فعال ، فوق منطقة لم يسبق لها مثيل فى الاتساع ، وبين جمهور من الكائنات الإنسانية لم يسبق له ضريب فى العظم . وكان اليهود يربطون بالفعل شتات مجتمعهم بالتعليم النسقى المنتظم فى بداية الحقبة المسيحية على الأقل . ولم يحدث شىء كهذا لأى شطر عظيم من البشرية فى أى عصر من عصور التاريخ إلا مرة واحدة ، وكان ذلك هو فكرة « مجتمع السلوك الحسن » التى نشرها الأدباء (Literati) فى كافة أرجاء الصين .

وقدست الكنيسة الكاثوليكية ما كان يُعوِزُ الجمهورية الرومانية : وهو نظام من التعليم الشعبى العام ، وعدد من الجامعات وبعض طرائق التواصل الذهنى . وبهذا العمل الجليل مهدت السبيل أمام الاحتمالات الجديدة للحكم البشرى التى أصبحت الآن واضحة جلية فى هذه « المعالم » ، وهى احتمالات ما تزال موضع الخشية من الناس كما أنها لا تزال فى دور التكوين فى العالم الذى نحيا بين ظهرانيه . وكانت حكومة أية دولة حتى آن ذاك ، إما أن تكون استبدادية يتولاها اتحاد يجمع بين الكاهن والعاهل لا ينتقده منتقد ولا يتحداه متحد ؛ أو ديمقراطية لا تتلقى تعليما ولا إعلاماً ، وتنحل وتنتكس حين تبلغ أى قسط جسيم من زيادة سعة الرقعة ، منحطة إلى مجرد حكم للرعاع ورجال السياسة كما فعلت روما وأثينا . ولكن عند ما حل القرن الثالث عشر كانت قد بزغت أول إشارة تلوح بمثل أعلى للحكومات لا يزال إلى الآن يشق طريقه

نحو التحقيق ، وهو المثل الأعلى العصرى : المثل الأعلى القاضى بإنشاء « حكومة تعليمية » للعالم أجمع ، لا يكون فيها الرجل العادى عبداً لملك مطلق ولا لدولة يحكمها ديماجوج ، بل يكون عضواً فى المجتمع يتلقى الإعلام ويوحى إليه ويستشار . ويجب أن يوجه التشديد والعناية إلى كلمة « التعليمية » هذه ، وإلى الفكرة القائلة بأن « الإعلام » ينبغى أن يسبق الاستشارة .

وتحقيق هذه الفكرة تحقيقاً عملياً ، وأعنى بذلك أن التعليم وظيفة جماعية وليس عملا خاصاً — نقطة أساسية يكمن فيها أحد الفوارق الجوهرية التى تميز « الدولة العصرية » من أية دولة أخرى سبقتها . وقد شرع الناس أن يدركوا أن المواطن العصرى يجب أن يتلقى الإعلام أولا ثم يستشار بعد ذلك ، فلا بد له قبل إعطاء صوته من سماع الأدلة والبينات . ولا بد له أن يعرف قبل أن يمكنه أن يفصل . وليس يكفى أن تقام غرفات الانتخابات وصناديقها ، بل أن تؤسس المدارس وأن تجعل الكتب والمعرفة والأخبار فى متناول الناس جميعاً ، حتى ينفتح الطريق الذى ينقل الناس من العبودية والارتباك إلى تلك الدولة التعاونية بالإرادة والرضا التى هى المثل العصرى الأعلى . فالأصوات الانتخابية فى حد ذاتها أشياء لا قيمة لها ولا وزن . فقديماً كان للناس فى إيطاليا أصوات فى زمن أسرة جر اكوس (Gracchi) . ولكن أصواتهم لم تنفعهم بشىء . ذلك أن حيازة الرجل للصوت الانتخابى تكون أمراً خطراً أو شيئاً لا فائدة تجنى من ورائه حتى يحصل الرجل على تعليمه . وليس المجتمع المثالى الذى نتجه صوبه « مجتمعاً للإرادة » وكفى ، بل هو « مجتمع معرفة وإرادة » يحل محل « مجتمع عقيدة وطاعة » . والتعليم هو المكيف الذى يجعل روح الحرية والاعتماد على الذات عند البدوى المترحل يستقيم مع ألوان التعاون ومع الثروة والأمن التى تستظل بها الحضارة .

٢ ـ أوربا تشرع فى التفكير لنفسها

لا جدال فى أن الكنيسة الكاثوليكية بما اعتمدت عليه من دعايات واحتكامات إلى الرأى العام ومن مدارس وجامعات — قد هيأت السبيل لاحتمال قيام الدولة التعليمية العصرية فى أوربا ، غير أن من المحقق كذلك أن الكنيسة الكاثوليكية لم تتعمد قط

فعل ذلك قصداً . فهي لم ترسل المعرفة في صحبة بركاتها ، بل هي أطلقت سراحها عفواً وعن غفلة وتهاون ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية ترى نفسها وريثة للجمهورية الرومانية ، بل للإمبراطور الروماني . ولم يكن تصورها عن التعليم هو إطلاق السراح له ، ولا الدعوة للمشاركة فيه ، وإنما هو إخضاع العقول . وهناك اثنان من كبار المعلمين في القرون الوسطى لم يكونا في الواقع من رجال الكنيسة بتاتاً ، بل كانا ملكين ومدبّرى دولة هما : شرلمان ، وألفريد الكبير ملك انجلترة ، اللذان استخدما هيئة الكنيسة ومنظماتها . ولكن الحق أن الكنيسة هي التي أمدتهما بالمنظمات . وكان كل من الكنيسة والملك في صراعهما المتبادل على القوة والسلطان يستنجد بأفكار الرجل العادى . ومن ثم يظهر الرجل العادى استجابة لاحتكام هذين الخصمين إليه ، وهو الرجل الخارجي المستقل غير الموظف الذى يفكر لنفسه .

ولقد رأينا فعلا في القرن الثالث عشر البابا جريجورى التاسع والإمبراطور فردريك الثانى مشتبكين في خصومة علنية عامة عنيفة . فكأنه كان هناك بالفعل إذن إحساس بأن قد ظهر في العالم حكم جديد أعظم من البابا والملكية جميعاً ، أى أن هناك قراءاً ورأياً عاماً . وأفضى خروج البابوات إلى أفينيون وانقسامات البابوية واضطرابها أثناء القرن الرابع عشر إلى تنبيه ذلك « الحكم الحر » على السلطة في كل أرجاء أوربا تنبيهاً هائلا .

وابتدأ الأمر بأن اقتصر النقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية ومادية ليس غير . فإن ثراء كبار رجال الإكليروس وترفهم والضرائب البابوية الفادحة . كانت رأس أسباب الشكوى . كما أن المحاولات الأولى التى بذلت لاستعادة البساطة المسيحية الأولى ، كتأسيس جماعة الرهبان الفرنسسكيين مثلا ، لم تكن حركات فرقة وانفصال ، بل حركات نهضة وانتعاش . ولم يتطور النقد فيغدو أكثر عمقاً وأشد تدميراً إلا بعد ذلك بفترة من الزمان يوم أخذ يوجه سهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكنيسة ، ومبررات أهمية القسوس وأعنى بها تقديم القرابين في الصلاة .

وقد سبق لنا أن رسمنا لك في صورة إجمالية البدايات الباكرة للمسيحية ، كما

بينا كيف أنه سرعان ما حدث لتلك الخاطرة العسيرة المتزمتة ، خاطرة ملكوت الرب التي كانت الفكرة المركزية في تعاليم يسوع الناصرى ، أن غطى عليها ابتعاث الفكرة القربانية العتيقة . وهي في واقع الأمر مبدأ أصعب فهماً ، ولكن التوفيق بينه وبين عادات وميول وخنوع الحياة اليومية في الشرق الأدنى أيسر وأسهل . ولحظنا كيف أن ضرباً من تمازُج العقائد (الثيوقرازيا) حدث بين المسيحية واليهودية ونحلة السرابيوم والمثراثية والنحل الأخرى المتنافسة ، وتم به تطعيم الديانة الناشئة — وهي بعد في مراحل التطور — بيوم الأحد المثرائى ، وفكرة اليهود عن الدم بوصفه ضرورة دينية ، والأهمية التي ناطتها الإسكندرية بأم الرب ، والقسيس الحليق الصوّام ، والزاهد المعذب لنفسه ، وأمور أخرى كثيرة من الإيمان والطقوس والممارسة . فهذه التكيفات قد جعلت ولا شك التعاليم أدنى كثيراً إلى الأفهام وأكثر قبولا في مصر وسوريا وما أشبههما من بلاد . كانت أموراً تتمشى مع طريقة تفكير الجنس الأبيض الداكن في البحر المتوسط ؛ كانت موائمة لفطرة ذلك الطراز من الناس . ولكن هـذه الأمور لم تجعل المسيحية ديناً أقرب إلى قلوب المترحلين العرب — كما سبق أن أظهرناك على ذلك في قصة محمد (ص) — بل كانت تلك المظـاهر تجعلها في رأيهم منفّرة كريهة . وكذلك أيضاً يلوح أن الراهب الحليق والراهبة والقسيس أثاروا شيئاً يقارب العداوة الغريزية عند الهمج (البرابرة) النورديين في الشمال والغرب . ولحظنا العداء الغريب الذى أبداه الأنجلوسكسون وأهل الشمال نحو الرهبان والراهبات . ويخيل إلينا أنهم شعروا أن حياة هؤلاء المتبتلين القانتين وعاداتهم كانت شاذة غير طبيعية .

ومما زاد كثيراً في أوار الصدام بين ما نسميه العوامل « البيضاء الداكنة » والعناصر الأحدث منها في المسيحية ، أن البابا جريجورى السابع فرض العزوبة على القسوس الكاثوليك في القرن الحادى عشر . وقديما عرف الشرق رجال الدين العزّاب منذ آلاف السنين ولكن الغرب كان ينظر إليهم نظرة التشكك والريبة .

وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وبينما عقل الشعوب النوردية ذو النزعة الدنيوية آخذ بأسباب تحصيل العلم وشرع يتعلم القراءة والكتابة والتعبير عن النفس ،

وبينما هو يتصل بما اجتمع للذهن العربى من مناشط منبهة ، نجد الكاثوليكية تتلقى بداية نقد أعظم قوة بكثير ، ونلحظ هجوماً عقلياً على القسيس بوصفه قسيساً ، وعلى مراسم القداس بوصفه الحقيقة المركزية فى الحياة الدينية ، هجوماً مصحوباً بطلب العودة إلى تعاليم يسوع الشخصية كما هى مسجلة فى الأناجيل .

أسلفنا إليك ترجمة ويكليف الإنجليزى قرابة (١٣٢٠ — ١٣٨٤) وبينا كيف ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية لكى يقيم سلطة مناهضة لسلطة البابا . وقد شهّر ويكليف بمبادئ الكنيسة المتعلقة بالقداس ناعتاً إياها بأنها خطأ ذريع ، وبخاصة تلك التعليمة القائلة بأن الخبز المقدس الذى يتناول فى ذلك الطقس يصبح بطريقة ما سحرية هو الجسم الفعلى للمسيح . ولن نحاول أن نتتبع موضوع « استحالة المادة »[١] كما تسمى عملية التغيير السرى للعناصر فى « القربان المقدس » — تتبعاً يتغلغل بنا إلى دقائق معقداتها . فإن هذه أمور تترك للإخصائى فى علم اللاهوت . ولكن من الواضح أن ذلك المبدأ الكاثوليكى الذى يجعل تقديس العناصر « القربان المقـــدس » عملية إعجازية يقوم بها القسيس ، ولا يجوز لأحد القيام بها إلا القسيس وحده ، والذى يجعل « القربان المقدس » هو الضرورة المركزية فى النظام الدينى ، إنما يزيد أهمية هيئة القساوسة زيادة هائلة .

على أن وجهة النظر الأخرى — وهى وجهة النظر « البروتستانتية » الأساسية القائلة بأن هذا « القربان المقدس » إنما هو مجرد تناول للخبز وشرب للنبيذ يتخذان على سبيل الذكرى الشخصية ليسوع الناصرى — لا بد أن تقضى آخر الأمر على كل احتياج خاص إلى قسيس متكرس .

ولم يذهب ويكليف نفسه إلى هذا الحد المتطرف ، إذ أنه كان قسيساً كما أنه بقى كذلك حتى نهاية حياته ، وكان يرى أن الله حاضر روحياً إن لم يكن حضوره مادياً فى الخبز المقدس ؛ ولكن مبدأه أثار مسألة دفعت الناس بقوة حتى أبعدتهم عن

---

(١) استحالة المادة **Transubstantiation** : تحول الخبز والنبيذ أثناء طقس « التناول » إلى جسد المسيح ودمه . (المترجم)

وجهات نظره . وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر المؤرخ رأينا الكفاح مع روما الذى بدأه ويكليف سرعان ما أصبح كفاحاً ناشباً بين ما قد نسميه الديانة العقلانية أو ديانة الرجل العلمانى ، التى أخذت تحتكم إلى ما للبشرية من ذكاء حُر وضمير حر — وبين الديانة المستبدة التقليدية الطقوسية الكهنوتية . وكان الاتجاه النهائى فى هذا الكفاح المعقد هو تجريد المسيحية حتى تصبح كالإسلام عارية تماماً من كل أثر من آثار الكهانة العتيقة ، والانقلاب إلى وثائق الكتاب المقدس بوصفها حجة يستند إليها وإلى استرجاع تعاليم يسوع الأصلية إن كان ذلك فى الإمكان . ولا يزال غالب ما أثير فى ذلك الكفاح من خصومات قائماً لم يفصل فيه بين المسيحيين حتى يومنا هذا .

ولم تكن كتابات ويكليف أعظم أثراً فى أى مكان منها فى بوهيميا . ففى قريب من (١٣٩٦) ألقى عالم تشيكى اسمه جون هَس ؛ سلسلة من المحاضرات فى جامعة براج تقوم على مبادىء المعلم الأكسفوردى العظيم . وعين هس عميداً للجامعة ، وأثارت تعاليمه الكنيسة حتى أصدرت عليه قرار الحرمان (١٤١٢) .

كان هـــذا فى إبان « الصدع الكبير » ، قبيل انعقاد مجلس كونستانس (١٤١٤ — ١٤١٨) للبحث فيما تردت فيه الكنيسة من فوضى شائنة . وقد حدثناك آنفاً كيف انتهى الصدع بانتخاب مارتن الخامس . وكان المجلس يطمح أن يعيد إلى المسيحية وحدتها إعادة كاملة . ولكن الوسائل التى حاول بها إعادة تلك الوحدة لا تتفق وضميرنا العصرى . فإنه قضى بإحراق عظام ويكليف . واســـتدرج هَس حتى ذهب إلى كونستانس منخدعاً بوعد منهم بضمان سلامته ، وعند ذلك قُدم للمحاكمة بتهمة الزندقة (الهرطقة) . وأمر أن يسحب بعض آرائه . فأجاب بأنه لا يستطيع أن يسحب شيئاً حتى يقنعوه بخطئه . فأبلغوه أن من واجبه أن يسحب أقواله إذا طلب ذلك إليه رؤساؤه ، اقتنع أم لم يقتنع . فأبى أن يقبل هذا الرأى . وبالرغم من ضمان الإمبراطور لسلامته ، فإنه أحرق حياً (١٤١٥) ، فذهب شهيداً من أجل مبدأ معين ، بل من أجل ذكاء البشرية الحر وضميرها الحر .

ومن المستحيل أن يعرض الإنسان النزاع بين القسيس وعدو القسيس على صورة أوضح مما تجلى فى محاكمة چون هس هذه ، أو أن يوضح شىء أكثر منها الروح الشريرة المنبثة فى أساليب رجال الكهنوت . وفى السنة التالية أحرق زميل لهس هو جيروم البراجى .

وتمخضت هذه الاعتداءات عن عصيان قام به أتباع هس فى بوهيميا (١٤١٩) ؛ وهو أول حلقة فى سلسلة من حروب دينية تسجل انقسام المسيحية . وفى (١٤٢٠) أصدر البابا مارتن الخامس مرسوماً يُعلن حرباً صليبية « للقضاء على جميع أتباع ويكليف وهس وكل من عداهم من الهراطقة فى بوهيميا » ، واستهوت هذه الدعوة الجنود المرتزقة العاطلين وكل وغد عاطل من أعوان السوء المتجولين فى أوربا فأطبقوا على القطر الشجاع من كل صوب . فوجدوا فى بوهيميا تحت قيادة زعيمها العظيم زيسكا ، متاعب أكثر وغنائم أقل مما يطمع الصليبيون أن يلقوه . وكان أتباع هس يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية متطرفة ، وانبعثت الحماسة متأججة ضراماً فى فى البلاد جمعاء . وحاصر الصليبيون مدينة پراج ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها : ولقوا سلسلة من الهزائم انتهت بتراجعهم عن بوهيميا . وجرت حرب صليبية ثانية (١٤٢١) لم تكن أكثر توفيقاً من سابقتها . وكذلك أخفقت حربان صليبيتان أخريان ، ثم حدث لسوء الحظ أن دب بين الهسيين دبيب الخلافات الداخلية . وتشجع الصليبيون بهذا النزاع فعبرت الحدود قوة خامسة (١٤٣١) بقيادة فردريك مارجريف[1] براندنبرج .

وكان جيش هؤلاء الصليبيين يتكون — حسب أقل التقديرات — من ٩٠ ألفاً من المشاة ، و٤٠ ألفاً من الفرسان . ولما كانوا يهاجمون بوهيميا من الغرب فإنهم ألقوا الحصار أولا على تاخوف (Tachov) ، ولكنهم وقد فشلوا فى الاستيلاء على تلك المدينة المنيعة التحصين ، فتحوا عنوة مدينة موست الصغيرة ، وفيها وفى الريف المحيط بها ، اقترفوا من الفظائع أنكرها ، مع سكان كان قسم كبير منهم بريئاً تمام البراءة من التشيع لأى لاهوت .

---

(١) مارجريف (Margrave) لقب لأمراء بأعيانهم فى الدولة الرومانية المقدسة . (المترجم)

وواصل الصليبيون توغلهم فى بوهيميا وهم يسيرون سيراً بطيئاً ، حتى أصبحوا على مقربة من مدينة دومازليك (تاوس) . « وكان أن حدث فى الساعة الثالثة من اليوم الرابع عشر من أغسطس (١٤٣١) ، أن تلقى الصليبيون وقد عسكروا فى السهل الواقع بين دومازليك وهورسوف تاين — الأخبار بأن أتباع هس يقتربون تحت قيادة پركوپ الكبير . ومع أن البوهيميين كانوا ما يزالون على مبعدة أربعة أميال ، فإن جلجلة عرباتهم الحربية وأغنيتهم : أيها المحاربون فى سبيل الله — التى كان جيشهم العرمرم ينشـــدها بأجمعه — كانت مسموعة واضحة للآذان » . عند ذلك تبخرت حماسة الصليبيين بسرعة مدهشة . ويصف لوتزو[1] كيف اعتلى مندوب البابا ودوق سكسونيا تلا يستطيعان منه الاطلاع على الميدان . فعرفا من بوادره أنه لن يكون معترك قتال . ذلك أن المعسكر الألمانى كان فى اضطراب تام . فكان الخيالة ينثالون منصرفين عنه فى كل صوب ، وكانت جلجلة المركبات الخالية وهى تساق خارج الميدان ، تكاد تطغى على ذلك الغنـــاء الرهيب . وكان الصليبيون يتخلون عن كل شىء حتى غنائمهم . وجاءت رسالة من ماوجريف براندنبرج ينصح فيها بالهرب ؛ فلم يعد هناك من سبيل إلى السيطرة على أى فريق من جنودهم . فكأنهم لم يعودوا الآن خطرين إلا على جانبهم هم دون غيرهم . وقضى مندوب البابا ليلة غير سعيدة مختبئاً منهم فى الغابة . . . وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية البوهيمية .

وفى (١٤٣٤) نشبت الحرب الأهلية مرة ثانية بين أتباع هس وانتهت بهزيمة القسم المتطرف الأشد شجاعة ، وعقد اتفاق فى (١٤٣٦) بين مجلس بال وبين الهسيين المعتدلين ، سمح فيه للكنيسة البوهيمية بأن تحتفظ بفروق معينة تميزها عما يمارسه الكاثوليك عامة ، وهى تسوية ظلت سارية حتى أوان الإصلاح الدينى الألمانى فى القرن السادس عشر .

(١) كتاب بوهيميا تأليف لوتزو .

٣ – الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية

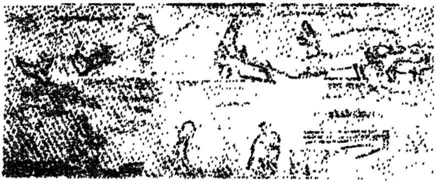
كان الانقسام بين أتباع هس راجعاً فى معظم أمره إلى اتجاه القسم المتطرف منهم إلى اعتناق نوع بدائى من الشيوعية أزعج طبقة النبلاء التشيكيين الأوفر ثروة ونفوذاً. ومن قبل ذلك ظهرت نزعات مشابهة لهذه بين أتباع ويكليف من الإنجليز. ويلوح أن تلك النزعات تجىء كنتيجة جد طبيعية لمبادئ المساواة والأخوة الإنسانية التى تنبعث حينما حدثت محاولة للعودة إلى القواعد الأساسية للمسيحية.

ومما ساعد على زيادة التطور فى هاته الفكرات زيادة عظيمة كارثة هائلة اجتاحت العالم وكشفت عن أسس الجماعة الإنسانية كشفاً ذريعاً جردها تماماً للعيان. وهى وباء لم يسمع الناس بمثل ذراعته وفتكه. أطلق عليه الناس اسم الموت الأسود ، وقد أوشك أن يقضى على البشرية أكثر من أى شر أصابها قبل ذلك. كان أشد فتكاً بكثير من طاعون بريكليس ، أو طاعون ماركوس أوريليوس ، أو موجات الطاعون فى أيام جستنيان وجريجورى العظيم التى مهدت السبيل أمام اللومبارد فى إيطاليا. نشأ ذلك الوباء فى جنوب الروسيا أو آسيا الوسطى ، وانتقل بطريق بلاد القرم وبوساطة سفينة جنوية إلى جنوة وأوروبا الغربية. ومرَّ من أرمينية إلى آسيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا. ووصل إلى إنجلترة فى (١٣٤٨). فمات به كما يحدثوننا ثلثا الطلاب بأوكسفورد ، ويقدر عدد من هلك به فى ذلك الأوان بما يتراوح بين ربع ونصف سكان انجلترة. وكان عدد الوفيات فى كل أرجاء أوروبا كافة يقارب هذا المقدار فى العظم. ويقدر هيكر مجموع الموتى بخمسة وعشرين مليوناً. وانتشر الوباء شرقاً إلى الصين حيث تقول السجلات الصينية إن ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس هلكوا. ويقول الدكتور ك. ستاليبراس : إن هذا الطاعون وصل الصين بعد ظهوره لأول مرة فى أوروبا بثلاثين أو أربعين سـنة. ولقيه ابن بطوطة الرحالة العربى الذى أقام فى الصين من (١٣٤٢ إلى ١٣٤٦) – لأول مرة وهو فى طريق عودته إلى دمشق. والموت الأسود هو الصورة البشرية لمرض متوطن بين اليرابيع(١) والقوارض الصغيرة

(١) اليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ورجلاه أطول من يديه. (المترجم)

الأخرى فى المناطق المحيطة برأس بحر قزوين . وبلغ من شدة الاضطراب الاجتماعى المترتب عليه فى الصين أن أهملت جسور الأنهار: فغمرت الفيضانات العظيمة — نتيجة لهذا — الأراضى الزراعية المزدحمة بالسكان .

ولم يسبق للإنسانية أن تلقت قبل ذلك تحذيراً على مثل هذه الدرجة من الوضوح يحدوها على طلب المعرفة والكف عن المنازعات وإلى الاتحاد ضد قوى الشر فى الطبيعة . وما كانت جميع مذابح هولاكو وتيمورلنك تعد شيئاً بالقياس إلى هذا . ويقول ج . ر . جرين « إن فتكاته كانت أشد ما تكون عنفاً فى المدن الكبرى حيث كانت الشوارع القذرة التى لا تصريف لمياهها تهيئ للجزام والحمى مباءة لا ينضب معينها . ويقال إنه دفن أكثر من خمسين ألف جثة فى الجبانة التى اشتراها السير والتر مانى بدافع التقوى لسكان مدينة لندن ، وهى التى يحدد موضعها فيما بعد بموضع الشارتر هاوس[1] (Charter House) . وهلك آلاف من الناس فى نورويتش (Norwich) على حين لم يستطع الأحياء بمدينـــة بريستول أن يدفنوا الموتى إلا بشق الأنفس .



(شكل ١٥٥) مشاهد من حياة الفلاحين منقولة عن أحد كتب الأدعية

« على أن الموت الأسود قد انقض على القرى بقوة تقارب فى عنفها حالته فى المدن . والمعروف أن أكثر من نصف قسوس يوركشير لقوا حتفهم ؛ وخلت

(١) ملجأ بلندن للمسنين المتقاعدين . (المترجم)

مناصب ثلثى الأبروشيات فى أسقفية نورويتش فشغلها آخرون : وفسد نظام العمل بأكمله . وصار من العسير على صغار المستأجرين أن يقوموا بالخدمات اللازمة لأراضيهم لقلة اليد العاملة ، ولم يحمل الفلاحين على الامتناع عن هجر مزارعهم إلا تنازل أصحاب الأراضى تنازلا مؤقتاً عن نصف الإيجار . وأصبحت الزراعة مستحيلة ردحاً من الزمان . ويقول معاصر : إن الأغنام والماشية كانت تهيم على وجوهها فى الحقول والقمح لا تجد من يتصدى لدفعها » .

ومن هذه النوازل نشأت حروب الفلاحين فى القرن الرابع عشر . إذ حدث هناك نقص كبير فى اليد العاملة ونقص كبير فى السلع ، وكان الرهبان الأغنياء والأديرة الثرية الذين كانوا يملكون قدراً عظيما من الأراضى ، والنبلاء والتجار الموسرون ، من الجهل بالقوانين الاقتصادية بحيث لم يدركوا أنه لا يحسن بهم أن يضغطوا على العمال الكادحين فى زمان المحنة العامة ذاك . فرأوا أملاكهم تتداعى ورأوا أراضيهم تبور ولا تزرع ، وأصدروا اللوائح القاسية لإجبار الرجال على العمل دون أى زيادة فى الأجور ولمنع فرارهم بحثاً عن عمل أفضل . وطبيعى جداً أن يستثير هذا « تمرداً جديداً على نظام عدم المساواة الاجتماعى بأكمله وهو الذى ظل حتى ذلك اليوم معمولا به لا يناقشه أحد حساباً بوصفه النظام الذى قضت به الإرادة الإلهية للعالم . ووجدت صيحة الفقراء ترجماناً فظيعاً هو قسيس « قسيس مجنون من كنت » - كما يسميه فرواسار(١) (Froissart) المؤرخ (١٣٦٠-١٣٨١) - فإن هذا القسيس ظل عشرين سنة يلتقى بالفلاحين الأشداء الذين كانوا يجتمعون فى أفنية كنائس كنت ويجد فيهم جمهوراً يستمع لمواعظه التى تحدى بها الحرمان الدينى والسجن . ومهما يكن مجنوناً ، كما كان أصحاب الأراضى يسمونه ، فلقد أصغت إنجلترة لأول مرة فى مواعظ چون بول (John Ball) إلى إعلان بالمساواة الطبيعية وحقوق الإنسان وكان ذلك الواعظ يصيح : « أيها الناس الطيبون ، لن تستقيم الأمور فى إنجلترة ما ظلت السلع فى غير متناول الجميع ، وطالما كان هناك سوقة وسادة (چنتلمانية) . فبأى حق يكون من نسميهم لوردة(٢) أناساً أعظم منا ؟ وعلى أى أساس استحقوا ذلك ؟ ولماذا يتخذون منا موالى للأرض ؟ وما دمنا

---

(١) هو چان فرواسار (١٣٣٨ - ١٤١٠ ؟) المؤرخ الفرنسى ، الذى عاش بفرنسا وانجلترة ومات قسيسا لشيماى . (المترجم)

(٢) اللوردة : جمع لورد ، كما أن الجنتلمانية جمع چنتلمان . (المترجم)

جميعاً ننحدر من أب واحد وأم واحدة ، من آدم وحواء ، فأنّى كان لهم أن يقولوا أو يقيموا البرهان على أنهم خير منا ؟ إن لم يكن لأنهم يجعلوننا نكسب لهم بكدحنا ما ينفقونه فى كبريائهم ؟ فهم يرتدون القطيفة ويستدفئون بفرائهم وقاقمهم(١) الثمين ، على حين لا يستر أبداننا إلا الأسمال ؟ لهم الخمر والأفاويه والخبز الأبيض ، فأما نحن فأقراص الشوفان مطعماً والوقش مرقداً والماء شراباً . ولديهم أوقات الفراغ والمنازل الجميلة . ولدينا الألم والنصب والعمل ، والريح والمطر فى الحقول . ومع ذلك فمنا وعلى أكتاف كدحنا يحتفظ هؤلاء الناس بما هم عليه من أبهة » . وثمة نغم قتّال لنظام العصور الوسطى بأكمله انطلق فى أغنية شعبية فبلور مبدأ التسوية الذى قال به چون بول وهو « عندما كان آدم يعزق الغيطان وتغزل حواء الخيطان من ذا كان الجنتلمان ؟ » .

واغتيل ، وات تيلر (Wat Tyler) زعيم العصاة الإنجليز على يد عمدة لندن بحضرة الملك الشاب ريتشارد الثانى (١٣٨١) فانهارت حركته .

وكانت الناحية الشيوعية فى حركة أتباع هس فرعاً من تلك المجموعة من الإضطرابات . وحدث قبيل شبوب الثورة الإنجليزية ، أن شبت نار « الچاكرى الفرنسية Jacquerie (١٣٥٨) وهى ثورة الفلاحين الفرنسيين التى قاموا فيها بإحراق القصور والعيث فساداً فى نواحى الريف المحيطة بهم . وقدر لنفس ذلك الدافع الملح أن يجتاح ألمانيا بعـــد ذلك بقرن من الزمان جارفا إياها فى سلسلة من حروب الفلاحين الدامية . وابتدأت هذه الحروب متأخرة فى القرن الخامس عشر . وكانت الاضطرابات الاقتصادية والدينيـــة مختلطة بعضها ببعض حالة ألمانيا على صورة أوضح منها فى حالة إنجلترة .

وهناك دور بارز لهذه الاضطرابات الألمانية هو ثورة التعميديين(٢) . ظهرت شيعة التعميديين فى وتنبرج (١٥٢١) برياسة ثلاثة « أنبياء » وانقلبت إلى عصيان

---

(١) القاقم : فراء حيوان من فصيلة بنات عرس . (المترجم)

(٢) التعميديون **Anabaptists** : طائفة دينية كانت تعتقد بوجوب التعميد بالغمر الكامل فى الماء المقدس ، ووجوب إعادة التعميد عند سن الشباب . (المترجم)

(١٥٢٥) . وظل العصاة بين (١٥٣٢ — ١٥٣٥) قابضين على مدينة مونستر (Munster) بمقاطعة وستفاليا ، وبذلوا قصاراهم لتحقيق فكراتهم الخاصة بشيوعية دينية . فحاصرهم أسقف مونستر ، ودب فى المدينة تحت ضغط ويلات الحصار ضرب من الجنون ، فيقال إنهم أكلوا لحوم البشر ، وقبض على السلطة شخص معين يدعى چون الليدنى (Leydén) ، وأعلن نفسه خليفة للملك داود ، واقتدى بقدوة ذلك العاهل السيئة بممارسته تعدد الزوجات . وبعد تسليم المدينة أمر الأسقف المظفر بزعماء التعميديين فعذبوا تعذيباً مرعباً جداً ، ثم أعدموا فى ساحة السوق ، وعلقت جثثهم بعد التمثيل بها فى أقفاص مدلاة من برج إحدى الكنائس لتشهد أمام العالم أجمع أن الوقار والنظام قد أعيدا إلى مونستر . . . . !!

هذه الثورات التى قام بها العمال العاديون فى الأقطار الأوربية الغربية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كانت أكثر خطورة وأطول أمداً من كل ما سبقها من أحداث التاريخ . وأقرب الأحداث السابقة شبهاً بها ، حركات إسلامية شيوعية حدثت فى فارس . وقد حدثت ثورة للفلاحين فى نورماندى قرابة (١٠٠٠ م) ، كما حدثت ثورات للفلاحين (باجوداى Bagoudae)[١] فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن هذه لم تقارب تلك فى ضخامتها وشناعتها ، وهى كلها تظهر روحاً جديدة تنمو فى الشئون الإنسانية ، وهى روح مخالفة تمام المخالفة لبلادة الإحساس المستسلمة التى طبع عليها موالى الأرض والفلاحون فى الأراضى الأصلية للمدنية ، أو لحالة اليأس الفوضوية لدى موالى الأرض والأرقاء العمال عند الرأسماليين الرومان .

كانت كل هذه من عصيانات العمال المبكرة التى ذكرنا تقمع بقساوة بالغة ، بيد أن الحركة نفسها لم تخمد قط إخماداً تاماً . فمنذ ذلك الحين إلى هذا الزمان وروح التمرد موجود فى المستويات الدنيا من هرم المدنية . نعم كانت هناك أدوار عصيان ، وأدوار كبح ، وأدوار تفاهم ومسالمة نسبية ، ولكن الكفاح لم ينقطع قط انقطاعاً تاماً منذ ذلك الأوان إلى وقتنا هذا فلسوف نراه مندلعاً أثناء الثورة الفرنسية فى نهاية القرن

---

(١) الباجوداى هم جماعات الفلاحين الذين ثاروا على دولة الروم الشرقية بين القرن الثالث والخامس الميلادى . (المترجم)

الثامن عشر ، وسشتعلا مرة ثانية فى منتصف القرن التاسع عشر وعند مفتتح الربع الأخير منه ، ونراه يصل إلى تسب ضخمة فى عالم اليوم . ولم تكن الحركة الاشتراكية فى القرن التاسع عشر إلا صورة من ذلك التمرد المتواصل .

وقد حدث فى بعض الأحيان أن حركة العمال هذه اتخذت فى كثير من الأقطار ، كفرنسا وألمانيا والروسيا مثلا خطة العداء للمسيحية ، ولكن لا مجال للشك أن هذا الضغط المستمر المتزايد إجمالا الذى يظهره الرجل العادى فى الغرب ضد حياة المشقة والنصب والتبعية للغير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتعاليم المسيحية . وربما لم تقصد الكنيسة ولا المبشرون المسيحيون أن ينشروا مبادئ المساواة ، ولكن كان من وراء الكنيسة شخصية يسوع الناصرى التى لا يمكن إخماد نارها ولا إخفاء ضيائها ، فالواعظ المسيحى كان يجتلب معه وإن بالرغم منه ، بذور الحرية والمسئولية ، ولا بد لها إن عاجلا أو آجلا من أن تنبت وتربو حيثما بشر .

ولا شك أن هذا الجيشان المتواصل المطرد الزيادة فى نفوس « العمال » ، وإنماءه فيهم وعياً بأنفسهم كطبقة خاصة وبثه فكرة مطالبة العالم فى جملته بمطالب محددة ، فضلا عن كثرة وجود المدارس والجامعات وعن كثرة وجود الكتب المطبوعة ووفرتها ، وفضلا عن قيام عمليات للبحث العلمى متطورة متوسعة ، هذه كلها أمور تفرق بين طراز مدنيتنا الحاضرة « المدنية العصرية » وبين أية حالة سابقة مرت بها الجماعة الإنسانية ، كما أنها تسجل عليها أنها شيء موقوت غير متقن بالرغم من كل ما نالته من نجاح عارض جاء وليد الصدفة . فهى جنين لم يتخلق بعد صورة سوية أو لعلها شيء محتوم عليه الموت . ذلك بأنها ربما استطاعت أن تحل هذه المسألة المعقدة . مسألة التوفيق بين الكدح والسعادة ، وبذلك توفق بين نفسها واحتياجات الروح الإنسانية ، أو هى ربما فشلت وانتهت بكارثة شأن النظام الرومانى . وربما كانت دور افتتاح لنظام للجماعة البشرية أكثر اتزاناً وأوجب للرضى ، وربما كانت طريقة مقدراً لها أن تتمزق ، وأن تحل محلها طريقة ما من الترابط الإنسانى مدبَّرةَ بشكل مخالف لهذا .

وربما لم تزد مدنيتنا الراهنة شأن سابقتها ، عن واحد من تلك المحصولات التى يزرعها الفلاحون لتحسين تربة أراضيهم بواسطة تثبيت الأزوت (النتروجين) المستخلص من

الهواء . وربما لم تنمُ ــ مُجَمَّعَةً تقاليد بأعيانها إلا لكى تحرث فى الأرض ثانية طلباً يتلو ذلك من نبت أفضل منها . إن هذه المسائل إنما هى حقائق التاريخ العملية . وسنجدها فى كل ما يتلو هذا فى صورة أكثر وضوحاً وأعظم أهمية حتى تنهى فى فصلنا الأخير ، كما تنتهى أيامنا وأعوامنا ، باستعراض لآمالنا ومخاوفنا ــ وبعلامة استفهام .

٤ ــ كيف حرر الورق عقل الإنسان

كان ظهور الكتب المطبوعة عوناً هائلا لتطور البحث الحر فى أوربا أثناء هذا العصر المترع بالقلق والتخمر وكان استقدام الورق من الشرق هو الذى جعل فى الإمكان الوصول إلى طريقة الطباعة التى كمنت كموناً طال أمده . وما يزال من العسير علينا تعيين صاحب شرف السبق إلى استعمال الوسيلة البسيطة ، وسيلة الطباعة لتكثير الكتب . وإنه لأمر تافه جرى حوله جدل طويل وعقيم . على أن ظواهر الأمور تومئ إلى أن ذلك المجد أيًّا ما كان أمره من نصيب هولندة إذ كان فى هارلم شخص يدعى كوستر يطبع بحروف متحركة فى زمان ما يسبق (١٤٤٦) . على أن جوتنبرج كان يقوم بأعمال الطباعة فى ماينز (Mainz) فى نفس ذلك الوقت تقريباً . وكان هناك طابعون فى إيطاليا فى (١٤٦٥) ، كما أن كاكستُن أقام مطبعته فى وستمنستر (١٤٧٧) . وتاريخ أول كتاب طبع فى هنغاريا هو (١٤٧٣) . على أنه كان يجرى قبل ذلك الزمان بأمد مديد استعمال جزئى للطباعة . فإن مخطوطات ترجع إلى القرن الثانى عشر تظهر بها حروف فى بداية الفقرات ربما كانت مطبوعة عن أختام خشبية .

وأهم من هذا كثيراً موضوع صناعة الورق . ولا يكاد يكون من المبالغة ، القول بأن الورق جعل إحياء أوربا أمراً فى حيز الإمكان . اخترع الورق فى الصين ، حيث يرجع استعماله فى الراجح إلى القرن الثانى ق . م . وفى (٧٥١) قام الصينيون بهجوم على العرب المسلمين فى سمرقند ؛ فصدهم العرب وأسروا بعضهم ، وكان بين الأسرى جماعة من مهرة صناع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال هناك مخطوطات على ورق عربى يرجع إلى القرن التاسع فما تلاه . ودخلت الصناعة فى البلاد المسيحية إما بطريق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصانع الورق العربية (المغربية) إبان استعادة المسيحيين

أرض أسبانيا . ولكن الإنتاج انحط ظلال الأسبان المسيحيين انحطاطاً محزناً . ولم يصنع الجيد من الورق فى أوربا المسيحية حتى قريب من نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا زعيمة العالم فى صناعته . ولم تصل تلك الصناعة إلى ألمانيا إلا عند القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تصل إلا فى نهاية ذلك القرن إلى الحد الكافى من الوفرة والرخص الذى يجعل من ممارسة طباعة الكتب حرفة تجارية ناجحة . وسارت الطباعة منذ ذلك الحين سيرها الطبيعى الضرورى ، ودخلت الحياة الفكرية للعالم فى دور جديد أكثر قوة بكثير ، وكفت عن أن تكون رشحاً طفيفاً تنتقل قطراته من عقل إلى عقل ، وأصبحت فيضاناً عميا ، تساهم فيه آلاف من العقول ما لبثت أن صارت — على الفور — عشرات آلاف ثم مئات آلاف .

وكانت هناك نتيجة مباشرة لهذا النجاح فى مضمار الطباعة هى ظهور عدد موفور من نسخ الكتاب المقدس فى العالم . وثمة أخرى هى جعل ثمن الكتب المدرسية زهيداً . وانتشرت المعرفة بالقراءة انتشاراً سريعاً . إذ لم يقتصر الأمر على زيادة عظيمة فى عدد الكتب فى العالم ، بل إن الكتب التى أصبحت تصنع عند ذاك ، أضحت أوضح قراءة وبذلك كانت أيسر فهماً . وبدلا من العناء والكدح فوق نص عويص (معقرب) الخط ثم التفكير فى معناه ، أصبح القراء عند ذاك يستطيعون أن يفكروا وهم يقرأون — دون أن يعوقهم عائق عن التفكير . وبهذه الزيادة فى سهولة القراءه ويسرها ، نما عدد الجمهور القارئ . وكف الكتاب عن أن يكون لعبة شديدة الزخرفة أو أحد الخفايا التى يخفيها عالم من العلماء . وشرع الناس يكتبون الكتب ليقرأها الناس العاديون مثلما يستمتعون بالنظر إليها .

ويؤذن القرن الرابع عشر بفاتحة التاريخ الحقيقى للأدب الأوربى . إذ سرعان ما نجد أن اللهجات المحلية تحل محلها الإيطالية المثلى والإنجليزية الفصحى والفرنسية المثلى والأسبانية الفصحى ثم تتبعهن الألمانية المثلى فيما بعد . وأصبحت تلك اللغات لغات أدبية كل فى موطنها ، فعولجت وجُربت وصقلها الاستعمال وجعلها دقيقة قوية .

وأصبحت آخر الأمر على درجة من الكفاية للنهوض بعبء النقاش الفلسفى تعادل ما للإغريقية أو اللاتينية من كفاية .

٥ ـ بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب

هنا نورد كلمة موجزة عن الحركة التى حدثت فى فكرات الناس الدينية أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهى مقدمة لا بد منها للتاريخ السياسى الذى يعقب ذلك فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

غير أنه لا بد لنا أن نميز تمييزاً واضحاً بين طريقتين مختلفتين كل الاختلاف لمعارضة الكنيسة الكاثوليكية . وهما تتشابكان على مر الأيام تشابكاً يورث التبلبل والحيرة كانت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمائر الأمراء وذوى اليسار والاقتدار من الناس ، كذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وثقتهم فيها . وكان من نتيجة انحطاط سلطانها الروحى على الطبقة الأولى أن جعلتهم يتكرون تدخلها فى شئونهم وقيودها الخلقية عليهم ومدعياتها بالسيادة العليا فوقهم وادعاءها الحق فى فرض الضرائب وفى حل ارتباطات الولاء . لذلك كفوا عن احترام ما لها من سلطان وممتلكات . ولقد ظل هذا الخروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال العصور الوسطى بأكملها ، بيد أن الأمراء لم يشرعوا فى التفكير جدياً فى الانفصال عن المذهب الكاثوليكى وإقامة كنائس جزئية منفصلة ، إلا عند ما أخذت الكنيسة فى القرن السادس عشر تنضم علناً لخصمها القديم : الإمبراطور ، عند ما قدمت إليه التأييد وقبلت منه المساعدة لها فى حملتها على الهرطقة . وما كانوا ليقدموا على ذلك أبداً لولا أنهم أيقنوا أن سيطرة الكنيسة على أذهان الجماهير قد ضعفت .

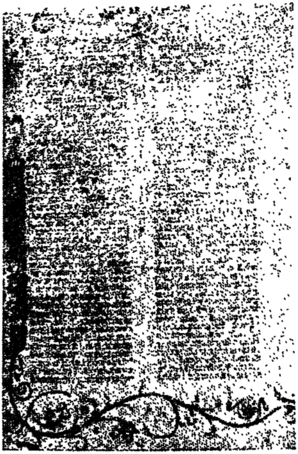
وكان تمرد الأمراء بالضرورة تمرداً لا دينياً على حكم الكنيسة الشامل للعالم أجمع . وكان الإمبراطور فردريك الثانى هو الطليعة السباق إلى ذلك برسالاته إلى نظرائه الأمراء . وكانت ثورة الشعب على الكنيسة من الناحية الأخرى ، دينية بالضرورة كذلك . فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساويها ونواحى الضعف فيها .

وكانوا يريدون كنيسة شديدة الصلاح والشجاعة لكى تعينهم وتنظمهم ضد شرور الأقوياء . وكانت حركات تمردهم على الكنيسة سواء أكانت فى داخلها أو خارجها حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب رقابة دينية أتم وأوف . لم يطلبوا رقابة دينية أقل بل طالبوا بالمزيد منها — ولكنهم أرادوا أن يتحققوا من أنها دينية وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الدينى للعالم بل لأنه لم يكن كذلك ، أى لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحى .

من أجل ذلك كان النزاع فى أوربا منذ القرن الرابع عشر نزاعاً ذا ثلاثة أركان ، فالأمراء يريدون أن يستعملوا القوى الشعبية ضد البابا ، على ألا يسمحوا لتلك القوى أن تقوى وتطغى على قوتهم ومجدهم وظلت الكنيسة زمناً مديداً تنتقل من أمير إلى أمير طلباً لحليف يحالفها دون أن تدرك أن الحليف المفقود الذى عليها أن تسترده إنما هو توقير الشعب لها .

ومن أجل هذا الوضع الثلاثى للمنازعات الفكرية والخلقية التى تواصلت إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، فإن سلسلة التغييرات المترتبة عليها ، تلك التغييرات التى يعرف مجموعها فى التاريخ باسم الإصــلاح الدينى (Reformation) اتخذت وضعاً مثلث الأشكال . فكان هناك الإصلاح الدينى كما يراة الأمراء ، الذين كانوا يريدون أن يقفوا انثيال النقود إلى روما ، وأن يستولوا على السلطة الخلقية ، والنفوذ التعليمى ، وما للكنيسة من ممتلكات مادية داخل إماراتهم . وكان هناك الإصلاح الدينى كما يراه الشعب الذى كان يبتغى أن يجعل المسيحية قوة تناهض الفسوق وعدم التقوى ، وتناهض بخاصة فسوق أهل الثراء والقوة . وأخيراً كان هناك الإصلاح الذى كان القديس فرنسيس الأسيسى بشيراً به ورائداً ، والذى جهد فى استرجاع صلاح الكنيسة وفى استرجاع قوتها بوساطة ذلك الصلاح .

واتخذ الإصلاح الدينى حسبما يراه الأمراء صورة إحلال الأمير ، بوصفه رأس الديانة والرقيب على ضمائر شعبه ، محل البابا ولم يكن يخالج الأمراء أية نية ولا فكرة عن إطلاق سراح عقول رعاياهم كى تتولى الحكم على الأشياء ، وبخاصة وقد مثل أمام أعينهم



(شكل ١٥٦) صفحة من طبعة جوتنبرج للكتاب المقدس

نموذج المسيّين والتعميديين مجسماً قوياً ، فحاولوا أن يؤسسوا كنائس قومية تعتمد على صاحب التاج . ولما أن انفصلت إنجلترة واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا عن الارتباط بروما ، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزراء أقصى بوادر القلق والاهتمام بحفظ زمام الحركة فى قبضة أيديهم . ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الإصلاح إلا بالقدر الذى يمكنهم من فصم العلاقة مع روما . فأما ما تجاوز ذلك ، وأما أى انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعاليم يسوع البدائية ، أو التفسير الفج المباشر للكتاب المقدس ، فأمور كانوا يقاومونها . والكنيسة الإنجليزية

الرسمية مثال لواحد من أبرز وأنجح ما ترتب على ذلك من تسويات . وهى ما تزال كهنوتية قطب رحاها قسيس متكرس وتدين بالقربان المقـــدس(١) . ولكن هيئتها التنظيمية تتركز فى البلاط وفى قاضى القضاة . ومع أنه ربما صدرت عن الصفوف الدنيا لرجال الكهنوت فيها الأقل ثراء آراء هدامة — بل الواقع أن ذلك كان يحدث فعلا — فإن من المستحيل عليهم أن يرتفعوا كفاحاً حتى يصلوا إلى مناصب النفوذ والسلطان .

على أن الإصلاح الدينى حسبما يراه الرجل العادى شىء ، والإصلاح لدى الأمراء شىء آخر مختلف جداً فى روحه . وقد أسلفنا القول فى المحاولات الشعبية فى سبيل الإصلاح الدينى بكل من بوهيميا وألمانيا . وكانت الفورات الروحية الفسيحة النطاق (أعنى الشعبية) فى ذلك الزمان أشرف نفساً وأشد اضطراباً وأثبت أثراً وأطول عمراً وأقل نجاحاً مباشراً عاجلا من إصلاحات الأمراء . فقد ندر بين ذوى الأرواح المتدينة من الرجال ، من بلغ من الجرأة أن يخرج على كل تعاليم استبدادية أو بلغ من القحة أن يعترف بأنه خرج على ذلك النوع من التعاليم ، وأنه أصبح عندئذ يعتمد اعتماداً كلياً على عقله وضميره . فإن ذلك كان يحتاج إلى شجاعة فكرية عالية جداً . وكان الاتجاه العام للرجل العادى فى تلك الفترة فى أوربا هو أن يتخذ من ذلك الشىء الذى أحرزه حديثاً ، وأعنى به الكتاب المقدس ، حجة وقوة مضادة للكنيسة . وكان هذا بصفة خاصة ، حال زعيم البروتستانتية الألمانية العظيم مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) . فإن الذى كان يجرى آنذاك فى كل أرجاء ألمانيا ، بل فى الواقع فى كل أنحاء أوربا الغربية ؛ أن الناس قد أكبوا على صفحات الحروف السوداء للكتاب المقدس المترجم حديثاً والمطبوع حديثاً ، وعلى سفر اللاويين ونشيد الإنشاد لسليمان ورؤيا القديس يوحنا الرسول — وهى كتب غريبة محيرة — يكبون عليها قدر ما يكبون على سيرة يسوع البسيطة الملهمة فى الأناجيل ؛ وطبيعى أنهم كانوا يستنتجون آراء عجيبة وتفسيرات مضحكة

(١) ومعنى ذلك أنه ليس هناك فارق تقريباً بين الكنيسة الإنجليزية والكاثوليكية فى العقيدة والمذهب والطقوس وإن اختلف الاسم والرئاسة . (المترجم)

غريبة ، بل إن مما يدهش له الإنسان أنها لم تكن عجيبة أكثر وأشد إضحاكاً وغرابة . ولكن العقل البشرى شيء عنيد ولا بد له من أن ينتقد وينتقى بالرغم من كل ما يعقد عليه العزم من تصميم . وقد أخذت جمهرة دارسى الكتاب المقدس هؤلاء ما تستحسنه ضمائرهم من الكتاب وتجاهلوا ألغازه ومتناقضاته .

وفى كل أرجاء أوربا ، وحيثما أقيمت كنائس الأمراء البروتستانتية : كانت تبقى للبروتستانت الأقحاح بقية حية ناشطة تأبى أن تصاغ لها ديانتها على تلك الشاكلة . وكان هؤلاء هم « المخالفون أو المنشقون Nonconformists » وهم خليط من الشيع ، لا يجمعهم جامع إلا مقاومتهم لديانة أصحاب السلطان الاستبدادية سواء أكان مصدرها البابا أم الدولة . فأما فى ألمانيا فقد قضى الأمراء على الانشقاق والمنشقين قضاء تاماً فى معظم الحالات . فأما بريطانيا فإن حركتهم فيها ظلت قوية ومتنوعة الأشكال . ويلوح أن الكثير من الفوارق بين سلوك الشعبين الألمانى والبريطانى يمكن تتبعها وإرجاعها إلى ما تلقاه حرية الرأى وحرية إصدار الأحكام على الأشياء من كبت بألمانيا .

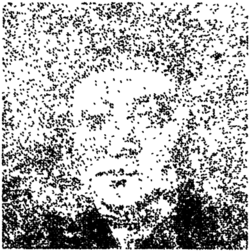
وكان جل هؤلاء المنشقين ، ولكن ليس كلهم ، يستمسكون بالكتاب المقدس بوصفه مرشداً حافلا بالإلهام القدسى جديراً بالاعتماد عليه بوجه قاطع . وكان موقفهم هذا موقفاً استراتيجياً لا موقفاً ثابتاً . والاتجاه العصرى للمنشقين يبتعد يوماً بعد يوم عن تلك النزعة الأصلية إلى المغالاة فى إجلال الكتاب المقدس ، ويتجه نحو التركيز على تعاليم يسوع الناصرى المجردة تركيزاً معتدلا مخففاً ملوناً باللون العاطفى . وتوجد فى الحضارات العصرية فى هذه الأيام أيضاً وراء مجال الانشقاق والمنشقين ووراء مجال المسيحية المعترف بها ، كتلة عظيمة ونامية من أقوام يؤمنون بالمساواة والتكافؤ بين البشر وتمتلىء نفوسهم بالدوافع الغيرية ، كتلة لا شك أنها تدين للمسيحية بروحها كما سبق أن أكدنا .

ولننقل الآن كلمة عن الدور الثالث لعملية الإصلاح الدينى ، وهو الإصلاح الدينى داخل الكنيسة[1] . فقد بدأ ذلك الإصلاح فعلا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بظهور جماعتى الرهبان السود والشهب (الفصل ٣١ القسم ١٤) . وظهر فى القرن

(١) ويسمى أيضاً بحركة الإصلاح الدينى المضاد Anti-Reformation (المترجم)

السادس عشر دافع جديد من نفس النوع ، جاء والحاجة إليه أشد ما تكون . وكان ذلك الدافع الجديد هو جمعية يسوع التى أسسها إينيجولوپيزدى ريكالدى الشهير فى عالم اليوم باسم القديس أغناطيوس لويولا .

استهل إغناطيوس حياته العملية شابا أسبانيا مجتمع القوة عظيم الشجاعة ؛ كان ذكياً حاذقاً تملؤه الحمية همة وصبراً على المكاره ؛ وحباً للمجد فى شىء من التفاخر ؛ وكانت مغامراته الغرامية كثيرة خلابة . وفى ١٥٢١ انتزع الفرنسيون من الإمبراطور شارل الخامس مدينة پامپيلونا فى أسبانيا ، وكان إغناطيوس أحد الذادة عنها . فهشمت إحدى قذائف المدافع ساقيه ، أخذ أسيرا . ورُمت عظام إحدى ساقيه على خطأ ، وكان لزاماً أن تكسر من جديد : وأوشكت هذه العمليات المعقدة الأليمة أن تقضى على حياته ؛ حتى لقد تلقى السر المقدس الأخير . ولكنه حين امتد به الليل بعد ذلك أخذ يتحسن وما لبث حتى أصبح فى دور النقه ، وأخذ يواجه مقدماً حياة ربما عاش فيها مقعداً على الدوام . فاتجهت أفكاره إلى خوض تجربة دينية . وتطيف بخاطره فى بعض الأحايين صورة سيدة ما عظيمة ؛ ويخيل إليه أنه سيفوز بإعجابها بالرغم مما به من سوء حال ، بعمل رائع عظيم ؛ ويطيف به فى أحايين أخرى أن يكون فارس المسيح بطريقة ما خاصة شخصية . وهو يحدثنا أنه بينما هو يضرب فى أسداس هذه الخيالات والحيرات ؛ إذ استرعت انتباهه فى إحدى الليالى وهو راقد فى يقظة تامة سيدة عظيمة جديدة ، وتمثلت أمامه فى الرؤيا العذراء المباركة مريم وهى تحمل المسيح الطفل بين ذراعيها . « وتملكته على الفور كراهية عظيمة لما قدمت يداه



(شكل ١٥٧) مارتن لوثر
نقلا عن صورة من عمل هولبين)

فى حياته » . فعقد النية على أن يهجر كل فكرة عن نساء الدنيا ، وأن يحيا حياة عفة مطلقة وإخلاص تام لأم الرب . وقرر الإكثار من الحج إلى مختلف الأماكن المقدسة وأن ينذر نفسه لحياة الرهبنة .

والطريقة التى حلف بها يمين الترهب تظهر أنه كان بحق أخاً ومواطناً صميماً للدون كيشوت ! ! فبعد أن استرد عافيته ، خرج هائماً على وجهه فى أرجاء العالم لا يكاد يكون له هدف معين ، جندياً مرتزقاً مفلساً لا يملك من حطام الدنيا إلا سلاحه والبغل الذى يركب ، فألقته المقادير فى صحبة أحد المغاربة (من عرب أسبانيا) . وسارا معاً يتجاذبان الحديث ، ثم تنازعا للفور على الدين . وكان المغربى أحسن الرجلين تعليماً ، فأفحم صاحبه فى الجدل ، وتفوه بعبارات جارحة عن العذراء مريم وجد من العسير أن يرد عليها ، ثم افترق عن أغناطيوس فرحاً بفوزه عليه . وكانت نفس الشاب فارس « مولاتنا مريم » تغلى خجلا وسخطاً . فتردد بين أن يقفو المغربى ويقتله ، وبين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج . ولكنه ترك الأمور لبغله عند منشعب الطريق فكان فى ذلك نجاة المغربى .

ووصل إلى الدير البندكتينى فى مونتى سيرات بالقرب من مانريسا ، وهناك قلد البطل الذى لا نظير له ، أماديس دى جول[1] بطل قصة المغامرة الرمانسية فى القرون الوسطى ، وظل طول ليله ساهراً أمام مذبح العذراء المباركة . ثم أهدى بغله للدير ، وأعطى ثيابه الدنيوية لأحد المتسولين ، ووضع سيفه وخنجره على المذبح وارتدى ثياباً خشنة من قماش الجوالق وحذاء من الخيش . ثم حمل نفسه إلى إحدى التكايا حيث استسلم لضروب جمة من التعذيب والتقشف . واستمر أسبوعاً كاملا وهو صائم صوماً مطلقاً ، ثم نهض ليحج إلى الأراضى المقدسة .

وظل بضع سنوات يتجول على غير هدى ، وهو مستغرق اللب بفكرة تأسيس عقد جديد من الفروسية الدينية ، دون أن يدرى كيف يبدأ هذا المشروع . وأخذ يزداد إحساسا بأميته وجهله . وحظرت عليه محاكم التفتيش (Inquisition) — وقد أخذت تهتم بتصرفاته — أن يحاول تعليم الآخرين حتى يقضى ما لا يقل عن أربع

(١) أماديس ديجول أو (أماديس الغال) : قصة رومانسية تصور الفارس المثال ألفت فى القرن ١٣ ، ١٤ فى أسبانيا أو البرتغال . (المترجم)

سنوات فى الدراسة . وإن التاريخ ليلقى على كاهل محاكم التفتيش من موفور القساوات وعدم التسامح ما يلذ لنا معه أن نسجل أنها فى معالجتها أمر ذلك المتحمس الشاب العنيد الواسع الخيال ، أظهرت نفسها بمظهر العاطف عليه المتزن التصرف . ذلك أنها أدركت قوته وما يرجى منه من نفع ، ورأت أخطار جهالته . فجدّ فى الدرس والتحصيل فى سلامنكا وباريس وغيرهما . ونصب قسيسا (١٥٣٨) ، وبعد ذلك بسنة تأسست جمعيته التى طالما حلم بها تحت اسم « جمعية يسوع » . وقد رأت ــ شأن جيش الخلاص فى انجلترة العصرية ــ انتهاج أقرب السبل لوضع التقاليد الكريمة لطريقة تنسيق الجيوش ونظامها فى خدمة الدين .

كان عمر هــذا الرجل إغناطيوس لويولا مؤسس جمعية الجزويت (اليسوعيين) ؛ سبعا وأربعين سنة ، وكان أبعد ما يكون وأشد حكمة وأثبت روية من ذلك الشاب الأحمق الذى قلد أماديس دى جول تقليد القردة وقام الليل كله فى دير مانريسا ، وكانت الهيئة التبشيرية والتعليمية التى أنشأها آنذاك ووضعها تحت تصرف البابا من أقوى الوسائل التى تهيأت للكنيسة .

كان هؤلاء الرجال يقدمون أنفسهم بكليتها مختارين لتستخدمهم الكنيسة . وكانت جماعة اليسوعيين (الجزويت) هى التى حملت المسيحية إلى الصين للمرة الثانية بعد سقوط أسرة منج ، وكان اليسوعيون أهم إرساليات المبشرين المسيحيين فى الهند وأمريكا الشمالية . ولسوف نشير من فورنا إلى ما بذلوه من جهود لنشر الحضارة بين ظهرانى الهنود فى أمريكا الجنوبية ، ولكن أجلّ ما قاموا به من عمل ينحصرْ رفعهم مستوى التعليم عند الكاثوليك . فأصبحت مدارسهم ــ وظلت زماناً طويلا ــ خير المدارس فى العالم المسيحى . يقول اللورد ڤيريولام (السير فرانسيس باكون) : « فأما عن الناحية البيداجوجية (التربوية) فارْجِعْ إلى مدارس اليسوعيين ، إذ لم يمارس فى التعليم شىء أحسن منها » . رفعوا مستوى الذكاء ، وأثاروا ضمير أوربا الكاثوليكية بأجمعها ، واستثاروا أوربا البرتستانتية إلى بذل الجهود لمنافستهم فى مضمار التعليم .

ولعلنا نشهد فى أحد الأيام جمعية جديدة لليسوعيين ، ممن ينذرون أنفسهم لا لخدمة البابا ، بل لخدمة البشرية .



(شكل ١٥٨) لويولا

وفى نفس الوقت وبإزاء تلك الموجة العظيمة موجة المجهود التعليمى ، تنصلح نغمة الكنيسة وسمتها انصلاحاً عظيما بفضل ما قام به مجلس ترنت من تنقية المبادئ وما أدخله من إصلاحات فى هيئتها ونظامها . كان هذا المجلس يجتمع بين الفينة والفينة إما فى ترنت وإما فى بولونيا بين سنتى (١٥٤٥) و (١٥٦٣) ، وكان عمله يضارع فى الأهمية عمل الجزويت فى إيقاف الجرائم والأخطاء التى كانت تحمل الدولة تلو الدولة على الانفصال عن مجتمع الكنيسة الكاثوليكية . والتغيير الذى أحدثه الإصلاح الدينى داخل كنيسة روما يضارع فى عظمه التغيير الذى حدث فى الكنائس البروتستانتية التى انفصلت عن الكنيسة الأم . فليس هناك منذ ذلك التاريخ أية فضائح علنية ولا أى صدع ولا انقسامات يسجلها التاريخ . ولكن مهما يكن من شىء فإن ضيق الأفق فى مبادئ الدين قد اشتد ولم تعد أدوار الخيال القوى الناشط التى يمثلها جريجورى الكبير ولا تلك المجموعة من البابوات المرتبطة بجريجورى السابع وإربان الثانى، أو المجموعة التى ابتدأت بإنوسنت الثالث ، تنعش قصة التاريخ الهادئ العادى . واستقرت الكنيسة إلى ما هى عليه اليوم بوصفها هيئة دينيـــة منفصلة عن السياسة ، وهيئة دينية بحتة كغيرها من الهيئات الدينية ؛ لقد رحل الصولجان من روما .

٦ ـ العلم يستيقظ من سباته

ينبغى ألا يظن القارئ أن النقد المدمر الذى وجه إلى الكنيسة الكاثوليكية والمسيحية الكاثوليكية ، وأن طبع الكتاب المقدس ودراسته ، كانت المناشط الفكرية الوحيدة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ولا هى كانت أهم عمليات النشاط الفكرى .

فإن ذلك كله لم يكن إلا الناحية الشعبية البارزة بقوة فى الانتعاش الفكرى فى ذلك الزمان . إذ كانت تجرى هناك خلف ذلك التيقظ البارز الشعبى الذى ألمّ بالفكر والبحث تطورات عقلية أخرى أقل استرعاء مباشراً للأنظار ولكن أهميتها النهائية أعظم . وسندلى إليك الآن بإشارة موجزة عن اتجاه تلك التطورات . فإنها ابتدأت قبل طبع الكتب بزمن طويل ، ولكن الطباعة هى التى نفضت عنها غاشية الظلمات وكشفتها للأنظار .

ولقد أسلفنا لك كلمة عن ابتداء ظهور الذكاء الطليق أو الفطنة الحرة : روح التحرى والاستعلام ، والإدلاء الواضح الصريح بالرأى — فى الشئون الإنسانية . وهناك اسم يعد أساسياً فى سجل تلك المحاولة الأولى الرامية إلى جمع المعرفة المنظمة ، وهو اسم الفيلسوف أرسطو . وهناك أيضاً كما لحظنا آنفاً ذلك الدور الوجيز للإنتاج العلمى الإسكندرية . ومنذ ذلك الحين عاقت المنازعات الاقتصادية والسياسية والدينية المعقدة فى أوروبا وآسيا الغربية ، كل تقدم فكرى آخر . فإن تلك المناطق كما رأينا ، وقعت أمد عصور طويلة تحت سلطان الملكيات ذات الطراز الشرقى وسلطان التقاليد الدينية الشرقية . وقديماً جربت روما فى الصناعة نظاماً عماده الرقيق ثم عادت فنبذته وفيها تطور أول الأنظمة الرأسمالية ، ثم مزقته الفوضى بسبب ما جبل عليه من عيوب متأصلة . وارتدت أوربا إلى حالة عامة من عدم الاستقرار . وثار السامى على الآرى ، وأحلّ ثقافة عربية محل المدنية الهللينية فى كل أرجاء آسيا الغربية ومصر . ثم وقعت آسيا الغربية كلها ونصف أوربا فى قبضة الحكم المغولى ، ولم يحدث إلا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن الذكاء الآرى شرع يكافح من جديد التماساً للتعبير الواضح الصحيح عن ذات نفسه .

وإنا لنجد عند ذلك فى جامعات باريس واكسفورد وبولونيا النامية قدراً متزايداً من البحث الفلسفى . ومن حيث الشكل كان الطابع الغالب على ذلك البحث هو الموضوعات المنطقية . والأساس الذى قامت عليه هذه الأبحاث إنما هو جزء واحد من تعاليم أرسطو ، وهو «منطقه» فحسب وليس مجموع ما خلف من كتابات . ثم زادت معرفة الناس فيما بعد بتواليفه بواسطة الترجمات اللاتينية المنقولة عن النسخة العربية التى علق عليها ابن رشد . وفيما عدا هذه الترجمات لأرسطو — وكانت كلها رديئة الترجمة إلى

أبشع حد – لم يكن الناس يقرأون فى أوربا الغربية حتّى القرن الخامس عشر إلا النزر الطفيف من الأدب الفلسفى الإغريقى .

ولم يكد الناس يعرفون شيئاً عن أفلاطون ذى العقلية المبتكرة الخلاقة المختلفة تماماً عن أرسطو ذى النزعة العلمية . فكأن أوربا كانت تملك النقد الإغريقى دون الروح والدافع الإغريقى . أجل إن بعض كتاب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كانوا معروفين بها ، ولكن شتان بين الأفلاطونية الحديثة وبين أفلاطون ، إذ أن شقة الخلاف بينهما كشقة الخلاف بين العلم فى البلاد المسيحية وبين العقيدة المسيحية نفسها .

لد جرت عادة الكتاب المحدثين بالتشهير بالأبحاث الفلسفية لعلماء القرون الوسطى المدرسانيين برميها بالإملال وعدم الغناء . ولكنها لم تكن كذلك بأى حال . وإنما كان لزاماً عليها أن تحتفظ بقالب فى شديد الجمود ، لأن كبار رجال الكنيسة ، وهم على ما هم من الجهالة وعدم التسمح ، كانوا على أهبة الترقب لأية بادرة للزندقة . لهذا ، كان يعوزها ذلك الصفاء الحلو الناشئ عن الفكر الذى لا يعوقه خوف . وكثيراً ما كانت تلك الأبحاث تلمح إلى ما لم تكن تجرؤ أن تقوله صراحاً . على أنها كانت تعالج موضوعات جوهرية الأهمية ، وكانت كفاحاً طويلا ضرورياً لا بد منه لتصفية وإصلاح عيوب معينة متأصلة فى العقل البشرى ، وإن الكثير من الناس اليوم ليخطئون أفحش الأخطاء بسبب إهمالهم للمسائل التى كان علماء القرون الوسطى المدرسانيون يتناقشون فيها .

وهناك ميل طبيعى فى العقل البشرى إلى المبالغة فى الفروق وأوجه الشبه التى تنبنى عليها عملية الترتيب والتصنيف ، وإلى الظن بأن الأشياء ذوات الأسماء المختلفة متباينة مختلفة . وأن الأشياء المسماة بنفس الاسم ، تكاد تكون متطابقة . وغنى عن البيان أن هذا الميل إلى المبالغة فى التصنيف ينتج ألف شر وظلم . فى مجال العنصر (Race) أو القومية (Nationality) مثلا ، كثيراً ما يعامل « الأوربى » أخاه « الأسيوى » كأنما هو حيوان مختلف ، على حين تراه يميل إلى اعتبار « أوربى » آخر كأنما هو بحكم الضرورة معادل له فى الفضيلة والروعة . وإنه لينضم تبعاً لهذا إلى الأوربيين ضد الأسيويين . ولكن الواقع – كما يجب أن يدرك ذلك قارئ هذا الكتاب –

هذه الفوارق التى يدل عليها التضاد بين تلك الأسماء أمر لا وجود له . وإنما هو طيف فارق خيالى خلقه وجود الاسمين .

وكانت الخصومة الكبرى فى القرون الوسطى قائمة بين الواقعيين (Realists) والاسميين (Nominalists) . ومن الضرورى أن ننبه القارئ أن كلمة « الواقعى » فى أبحاث العصور الوسطى لها معنى يكاد يكون مضادا على خط مستقيم للفظة « الواقعى » فى استعمالها فى اللغة العادية للنقد العصرى . فإن « الواقعى » العصرى إنما هو من يصر على



(شكل ١٥٩) كاتدرائية ريمس (رانس)
مثال رائع للكنائس القوطية الكبرى التى بنيت فى القرنين ١٣ ، ١٤

التفاصيل المادية ، بينما كان « الواقعى » فى القرون الوسطى أقرب كثيراً إلى ما قد نسميه اليوم « بالمثالى » ، وكان احتقاره للتفاصيل العارضة شديداً وعميقاً . وكان الواقعيون أشد

الناس تمسكاً بذلك الميل البشرى الشائع إلى المبالغة فى أهمية « الصنف class » أو الطبقة . وكانوا يعتقدون بأن هناك شيئاً فى الاسم (أى فى التسمية العامة) له بالضرورة ظل من الحقيقة . مثال ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك « أوربيا » نموذجياً ، أوربياً مثالياً ، وجوده حقيقى أكثر بكثير من أى أوربى فرد . ومن ثم يكون كل أوربى عينة معيبة ونكوساً ظاهراً ، وابتعاداً عن تلك الحقيقة الأكثر عمقاً إن صح هذا التعبير . ومن الناحية الأخرى ، كان الاسميون أصحاب المذهب الاسمى يرون أن الحقائق الوحيدة فى الأمر إنما هى الأوربيون الأفراد ، وأن الاسم « أوربى » إنما هو مجرد اسم ، ولا يتجاوز أن يكون اسما ، يطبق على كل هاته الأفراد .

وليس هناك شىء أصعب من ضغط واختصار المجادلات الفلسفية التى هى بطبيعتها ضخمة الحجم منوعة ، كما أنها مصطبغة بالصباغ العقلى لمجموعة منوعة من العقول . والقارئ العصرى غير الملم بالأبحاث الفلسفية ربما جنح – وقد قدمنا له الفارق بين الواقعيين والأسميين على هذه الشاكلة الساذجة الجرداء – إلى الوثوب من فوره إلى تأييد رأى الإسميين . ولكن ليس الأمر من البساطة بحيث يكفى مثال واحد للحكم عليه ، وقد تعمدنا هنا اختيار مثال متطرف . وتختلف الأسماء والتصنيفات فى قيمتها وحقيقتها . فبينا ترى أنه من السخف أن يظن الناس أن هناك عمقاً كبيراً فى الفارق الصنفى بين رجال اسمهم توماس وآخرين اسمهم وليم ، أو أن هناك مثلا أعلى أو خلاصة نقية لتوماس أو لوليم ، إلا أنه قد تكون هناك من الناحية الأخرى فوارق أعمق بكثير بين رجل أبيض وبين زنجى من الهوتنتوت ، فضلا عن أخرى عميقة بين الإنسان العادى (Homo Sapiens) وبين الإنسان النياندرتالى . وكذلك بينما التمييز بين صنف الحيوان المدلل وصنف الحيوان النافع يعتمد على فوارق طفيفة فى العادات والتطبيق ، فإن الفارق بين القط والكلب من العمق بحيث يستطيع المجهر الميكروسكوب) أن يقفوه ويكتشفه ولو فى قطرة دم أو شعرة مفردة . وبينا تكون بعض التصنيفات تافهة ، إذا بالبعض الآخر جوهرى حقيقى . فإذا نحن تأملنا هذه الناحية من المسألة أمكننا أن نفهم كيف أن الاسمية و« الأسميين » اضطروا فى النهاية إلى التخلى عن الفكرة القائلة بأن الأسماء تعادل فى قلة أهميتها بطاقات الزجاجات ، وكيف أن تنقيح المذهب الاسمى وتصحيحه تمخض عن المحاولة المنظمة للعثور على التصنيف « الحق » – أشد التصانيف أهمية وأعظمها فائدة – للأشياء والمواد وهو الذى يسمى بالبحث العلمى .

ولسوف يقارب هذا فى الوضوح أنه بينما ميل الواقعيين والمذهب الواقعى الذى هو الميل الطبيعى لكل عقل غير مثقف ، كان متجهاً إلى الاعتقاد الحتمى (Dogma) والتقسيمات الخشنة الفجة والأحكام الخشنة الساذجة والمواقف والاتجاهات الخالية من كل تساهل ، فإن ميل المذهب الاسمى والاسميين القدامى والمتأخرين كان متجهاً نحو الأقوال المحددة بالأوصاف ، ونازعاً نحو اختبار الأمثلة الفردية ونحو البحث والاستعلام والتجربة والتشكك .

وعلى ذلك فإنه بينما من فى الأسواق والحياة العامة من الناس يتشككون فى أخلاق رجال الدين وصلاحهم ومدى إخلاصهم فى عزوبتهم وصدق يقينهم فيها ونقاء سيرتهم بها ، ومبلغ العدالة فيما يفرضه البابا من ضرائب ، وبينما تنشغل أذهان من فى الدوائر اللاهوتية بمسألة الاستحالة ومسألة قدسية أو عدم قدسية الخبز والنبيذ فى القداس ، كان يصدر عن دور الدراسة وقاعات المحاضرات نقد أوسع مدى لطرائق التعليم الكاثوليكية العادية .

وليس فى استطاعتنا أن نقدر فى هذا المقام مبلغ الأهمية التى اجتمعت أثناء تلك العملية لأشخاص من أمثال بطرس أبيلارد[١] (١٠٧٩ — ١١٤٢) ، وألبرتوس ماجنوس (١١٩٣ — ١٢٨٠) ، وتوماس أكويناس (١٢٢٥ — ١٢٧٤) . فإن هؤلاء الرجال حاولوا أن يعيدوا بناء العقيدة الكاثوليكية على أساس عقلى أسلم ؛ فاتجهوا صوب مذهب الاسميين . ومن بين أبرز نقادهم وخلفائهم دنز سكوتوس (؟ — ١٣٠٨) ، وهو راهب فرنسسكى من اكسفورد ، لن يشك القارئ فى أنه اسكتلندى قح لو اطلع على اجتهاده فى التفكير وخفاء عباراته المتعمد ، ومن بينهم كذلك أكام وهو إنجليزى (؟ — ١٣٤٧) .

وقد أقام كلاهذين الأخيرين — شأن ابن رشد — حداً فاصلا مميزاً بين الحق اللاهوتى والحق الفلسفى ، فوضعا اللاهوت من فوق قبة عالية ، ولكنهما وضعاه حيث لم يستطع أن يعترض بعد ذلك طريق البحث : فأعلن دنز سكوتوس أن من المستحيل أن يثبت المرء بالتفكير العقلى وجود الله أو وجود الثالوث أو إمكان تصديق عملية الخلق ، وكان أكام أشد إصراراً على فصل اللاهوت من الحق العملى — وهو فصل أطلق سراح البحث العلمى إطلاقاً بيناً من تحكم الاعتقاد الحتمى (Dogma) . ولكن خلف من بعدهم جيل تال

---

(١) أنظر ، للمترجم ، كتاب أعلام وأفكار (الهيئة العامة للتأليف والنشر) . (المترجم)

فاته وقد أخذ يستفيد من الحريات التى هدفت إليها جهود هؤلاء الرواد ، إدراك العلم بمصادر حريته — فبلغ من كفرانه بالجميل أن يتخذ من اسم سكوتوس رمزاً للغباء ، ومن ثم نشأت كلمة (Dunce) الإنجليزية التى معناها الغبى مشتقة من اسمه (Duns) . يقول الأستاذ برنجل باتيسون[١] : « إن أكثم الذى كان مع ذلك عالماً مدرسانياً[٢] ليغطينا التبرير المدرسانى للروح الذى استولى بالفعل على روجر باكون ، والذى قدر له أن ينضج ويستكمل نموه فى أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر » .

وروجر باكون هذا يقف وحيداً بارزاً لما له من عبقرية ممتازة (قرابة ١٢١٠ — ١٢٩٣) وكان كذلك إنجليزياً . كان راهباً فرنسسكياً من أكسفورد ، كما أنه فى الواقع رجل إنجليزى نموذجى حقاً ، إذ هو سريع الهياج متسرع شريف حصيف العقل . وكان يسبق عالمه بقرنين من الزمان . يقول عنه ه . ا . تايلور[٣] :

« كانت حياة باكون مأساة ذهنية ، تطابق الأصول القديمة لفن المآسى : القاضية بأن تكون أخلاق البطل كريمة نبيلة ، وإن لم تخل من العيوب ، وذلك نظراً لأن النهاية القاضية المحتومة يجب أن تصدر عن الخلق ، وألا تحدث نتيجة للصدف . ومات شيخاً فى سن عالية . وكان فى شيخوخته شأنه فى صباه محباً مخلصاً للمعرفة الملموسة . وكان طلبه المعرفة التى لا تصل إلى مرتبة العلم بمعناه التام ، يلقى اعتراضاً من تلك الهيئة التى انتمى إلى عضويتها وكان فيها عضواً تعساً ثائراً ؛ كما أضربه من الناحية الأخرى ، أن ما حصله من منجزات قد نخر فيه من الداخل المبادئ التى تقبلها نقلا عن عصره . ولكنه يعد مسئولا عن قبوله للآراء السارية ؛ واستثارت آراؤه شكوك إخوانه الرهبان ، كما جر عليه خلقه العصى الشموس عداءهم . فإن القدرة على الإقناع واللباقة شرطان ضروريان لمن يرغب فى التأثير بمثل هذه الآراء الجديدة على

---

(١) الموسوعة البريطانية ، الطبعة الثانية عشرة ، مادة المدرسانية Scholasticism .

(٢) كلمة المدرسانى تطلق على معلمى القرون الوسطى وعلى كل فيلسوف متحذلق ، بفلسفة العصور الوسطى التى تسمى أيضا بالفلسفة المدرسانية أو الإسكولائية . (المترجم)

(٣) The Med'eval Mind تأليف هنرى أوسبورن تايلور .

أقرانه ، أو لمن شاء القرار فى القرن الثالث عشر من الاضطهاد لإذاعته إياها فقد هاجم باكون ذوى المكانة والفضل من الرجال ، الأحياء منهم والأموات فى غير حنكة ولا عدل وفى حماقة ونزق . ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته البتة ، اللهم إلا من إشاراته إلى نفسه وإلى الآخرين ، وهى إشارات لا تكفى لتكوين صورة طفيفة متصلة الحلقات لحياته . ولد ودرس فى أكسفورد ، وذهب إلى باريس ودرس وأجرى التجارب ، ثم عاد إلى أكسفورد ثانية ، وأصبح راهباً فرنسسكيا ؛ وتابع دراساته ثم تولى التدريس وأصبح عند جماعته بمنزلة الظنة والريبة ، ثم يُبْعَثُ به ثانية إلى باريس ، ويوضع تحت الرقابة ؛ ويتلقى رسالة من البابا ، ويكتب ، ويكتب ، ويكتب — مؤلفاته الثلاثة الأبعد شهرة ، ثم تعود المتاعب فتغشى حياته ، وإذا هو يسجن سنوات كثيرة ويطلق سراحه ويموت ، يموت كلَّ الموت بجسده وبشهرته على السواء حتى يبعث بعثاً جزئياً بعد ذلك بخمسة قرون » .

والمادة الرئيسية فى هذه « المؤلفات الثلاثة الأبعد شهرة » إنما هى هجوم لاذع العبارة يكون فى الأحايين مفعماً بالسباب . ولكنه هجوم عادل تماماً على ما يريم على عصره من جهالة ، يخالطه مجموعة ثرية من المقترحات لزيادة المعرفة . وإن روح أرسطو لتتبدى فيه حية من جديد فى إلحاحه الحار على الحاجة إلى التجربة وإلى جمع المعارف . فلقد كانت الصيحة التى طالما حملها روجر باكون على عاتقه هى « التجربة ، التجربة » .

ومع ذلك فإن روجر باكون اختصم أرسطو نفسه وهاجمه . اختصمه لأن الرجال بدل أن يواجهوا الحقائق فى جرأة ، كانوا يجلسون فى حجرات ويكبون على الترجمات اللاتينية الرديئة التى كانت عند ذاك كل ما يستطاع للوصول إليه عن « المعلم » . كتب يقول بلهجته غير المعتدلة « لو كان الأمر بيدى . . . . لأحرقت كل كتب أرسطو ، لأن دراستها لا يمكن أن تؤدى إلا إلى مضيعة الوقت وإنتاج الخطأ وزيادة الجهالة » ، وهو إحساس ما كان أرسطو فى الراجح إلا ليردده لو أنه عاد إلى عالم لم تكن فيه مؤلفاته تقرأ قدر ما تُعبد — وكان ذلك التقديس كله موجها لهذه الترجمات غير الجديرة تماماً بأية ثقة كما بيّن ذلك روجر باكون .

وروجر باكون في كل مؤلفاته متنكر بعض التنكر بسبب ضرورة ظهوره في كل أموره بمظهر من يطابق بين آرائه وبين العقيدة السلفية الصحيحة خشية السجن أو ما هو شر من السجن ، لذا كان يصيح بالإنسانية من وراء هذا التنكر والتقية « أن كفي عن أن تحكمك الاعتقادية (الدوجما) والسلطات الاستبدادية ، وانظري إلى العالم » .

وقد شهَّر بأربعة أسباب للجهل هي : احترام السلطة ، والعرف والعادة ، وروح الجمهور الجاهل ، وما عليه ميولنا من عدم قابلية للتعلم تتسم بالغرور والكبرياء . فلو تغلب الناس على هذه وحدها لانفتح أمامهم عالم من القوة . « فإن في الإمكان أن توجد آلات للملاحة البحرية تسير السفن من غير مجدفين ؛ بحيث أن سفناً ضخمة تناسب البحر والنهر جميعاً ، ويقودها رجل فرد ، يمكن أن تُسيَّر بسرعة أعظم مما لو كانت غاصة بالرجال . وعلى هذا النحو يمكن أن تُصنع العربات التي تتحرك بلا حيوان يجرها (cum impetu inoestimabili) ، شأن العربات ذات المناجل التي كان يحارب عليها الأقدمون فيما يقال . وفي الإمكان استحداث الآلات الطيارة ، حتى أن الرجل ليستطيع أن يجلس في وسطها يدير آلة ما فتضرب الهواء أجنحة اصطناعية على مثال جناحي الطائر » .

وإن أُكَّام وروجر باكون لهما البشيران الباكران بحركة عظيمة في أوربا تنبذ المذهب الواقعي (Realism) وتتجه إلى الواقع (Reality) . وانقضت فترة من الزمن اشتد فيها الصراع بين المؤثرات القديمة وبين « الطبيعية »[1] عند أصحاب المذهب الاسمي الجديد . وفي (١٣٣٩) حرمت كتب أكَّام وصدر قرار جدي وقور باستنكار المذهب الاسمي وتسفيهه . وبذلت في عام (١٤٧٣) ، محاولة متأخرة فاشلة ، لحمل معلمي باريس على تدريس المذهب الواقعي بقسم يقسمونه . وفي القرن السادس عشر ابتدأ طبع الكتب وزاد الذكاء . وعندئذ أصبحت حركة الانتقال من مذهب التجريد (Absolutism) إلى التجريب حركة ضخمة ، وأخذ الباحثون يتعاونون بعضهم مع بعض .

(١) الطبيعة أو الطبعانية Naturalism هي مذهب مجاراة الطبيعة ومطابقتها . (المترجم)

وكان التجريب على الأشياء المادية آخذاً بأسباب الزيادة طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ فأخذ الرجال يفوزون بكميات متتابعة من المعرفة ، ولكن لم يكن هناك تقدم تعاونى يقوم على العلاقة المتبادلة بين رجال العلم ، بل كان العمل يتم بصورة انعزالية متدابرة وخفية غير كريمة . فقد أخذت أوربا عن العرب تقاليد البحث المتعرل ، وكان هناك قدر كبير من الأبحاث العلمية التى تتم بشكل خاص وسرى والتى يقوم بها الكيماويون القدامى (Alchemists) الذين يجنح العصريون إلى المبالغة فى احتقارهم إلى حد ما . على أن هؤلاء الكيماويين القدامى كانوا على اتصال وثيق بصناع الزجاج والمعدن وبأصحاب صناعة الأعشاب والعقاقير وصناع الأدوية فى زمانهم ، وقد تدسسوا فى أسرار كثيرة للطبيعة ، ولكن كانت نفوسهم مشبعة بفكرة « المنافع العملية » ذلك أنهم لم يكونوا يطلبون المعرفة ، بل القوة . وكانوا يرغبون فى أن يصطنعوا الذهب من المواد الأزهد منه ثمناً ، وأن يجعلوا الناس من أهل الخلود بوساطة إكسير الحياة ، وما إلى ذلك من الأحلام السوقية المبتذلة . وحدث أنهم عرفوا عرضاً أثناء أبحاثهم ، الشىء الكثير عن السموم والأصباغ وعلم المعادن وما إليها ؛ واكتشفوا مواد منوعة تسبب إنكسار الأشعة ؛ وشقوا طريقهم صوب الزجاج الصافى ، ومن ثم إلى العدسات والآلات البصرية . ولكن الواقع كما يخبرنا رجال العلم على الدوام ، وكما لا يزال العمليون ورجال الأعمال يرفضون أن يتعلموه — هو أن المعرفة لا تحبو خدامها بهبات غالية وعطايا غير متوقعة فى أى قدر من الوفرة إلا عندما تُطلب المعرفة من أجل المعرفة نفسها .

وما يزال عالم اليوم أميل كثيراً إلى إنفاق المال على البحث الفنى العملى (التكنيكى) منه على العلم البحت . وما يزال نصف من فى معاملنا ومختبراتنا العلمية من الرجال يحلمون بالمخترعات المسجلة (Patents) والعمليات السرية . ونحن إنما نعيش اليوم فى معظم أمرنا فى عالم الكيمائيين القدامى بالرغم من كل هزئنا بذكراهم . وما يزال « رجل الأعمال » فى عصرنا هذا يفكر فى البحث بوصفه نوعاً من الكيمياء القديمة .

والمنجمون الذين كانوا يرتبطون بالكيماويين القدماء ارتباطاً وثيقاً ، كانوا هم كذلك فئة تطلب « المنافع العملية » فكانوا يدرسون النجوم لينبئوا الناس بطوالعهم ،

وكان يعوزهم ذلك الإخلاص والتفهم الأوسع أفقاً اللذان يحملان الناس على مجرد دراسة النجوم فى حد ذاتها .

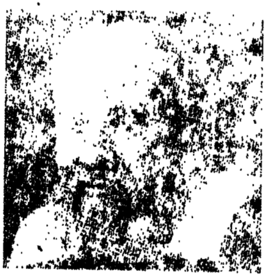
ولم تشرع الفكرات التى ترجم عنها روجر باكون فى أن تؤتى ثمارها الأولى من المعرفة الجديدة والنظرة الشاملة والأفق المتسع إلا فى القرن الخامس عشر . ثم حدث على حين بغتة مع بزوغ فجر السادس عشر ، ومع قيام العالم من كبوته فى عاصفة الفتن الاجتماعية التى أعقبت أوبئة القرن الرابع عشر ، أن تفجرت أوربا الغربية عن مجموعة من الأسماء اللألاءة كسفت بضيائها أصحاب أبعد الناس صيتاً علمياً فى أزهى عصور الإغريق . وأسهمت فى ذلك كل الشعوب تقريباً ، كما سوف يلحظ القارئ ، وذلك لأن العلم لا يعرف القومية .

ومن أبكر أفراد هذه المجموعة اللألاءة من الكواكب ، وأعظمهم جلالا ، ذلك الفاورنسى ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) ، وهو رجل تكاد تكون له « بالحقيقة » بصيرة إعجازية . كان عالما بالطبيعة والتاريخ الطبيعى وبعلم التشريح ، وكان مهندسا ، كما كان فنانا عظيم الشأن جداً ، وهو أول رجل عصرى أدرك الطبيعة الحقة للحفريات ، فأنشأ دفاتر مذكرات ملأها بملاحظات ما تزال تذهل ألبابنا إلى اليوم ، وهو يظهر اقتناعا بإمكان الطيران الميكانيكى إمكانا عمليا . وثمة اسم عظيم آخر هو اسم كوپرنيكوس وهو پولندى (١٤٧٣ — ١٥٤٣) ، قام بأول تحليل واضح لحركات الأجرام السماوية وأبان أن الأرض تدور حول الشمس . وقد رفض تلك الفكرة تيخوبراهى (١٥٤٦ — ١٦٠١) وهو دانمركى كان يشتغل فى جامعة پراج ، ولكن ملحوظاته عن الحركات السماوية كانت على أقصى غاية القيمة لخلفائه ، وبخاصة للألمانى كپلر (١٥٧١ — ١٦٣٠) . وكان جاليليو جاليلى (١٥٦٤ — ١٦٤٢) هو مؤسس علم الديناميكا . فكان الاعتقاد السائد قبل زمانه أن وزنا يكبر عن وزن آخر مئة مرة يسقط أسرع من الثانى بمئة مرة . فأنكر جاليليو ذلك . وبدلا من أن يناقش الأمر بالمجادلة على طريقة المدرسانيين والجنتلمانية فى عصره ، وضعه تحت الاختبار التجريبى الخشن بإسقاط كتلتين غير متعادلتين من طابق علوى من برج پيزا المائل — مثيرا بذلك انزعاجا فى قلوب كل الرجال اللوذعيين من علماء عصره .

وأنشأ جاليليو ما يكاد يكون أول مرصاد (تلسكوب) ، وكذلك طوَّر آراء كوپرنيكوس الفلكية ، ولكن الكنيسة قررت - وهي تكافح النور بشجاعة !! - أن الاعتقاد فى أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى منها مرتبة ، لا يجعل للإنسان والمسيحية وزناً ؛ ولذا حمل جاليليو على التراجع عن هذا الرأى ، وعلى إرجاع الأرض إلى مكانها الأول كمركز ثابت للكون لا يتحرك ! ! ! . . وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان ، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال سنوات ثلاث .

ولد نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) فى السنة التى توفى فيها جاليليو . فأتم باكتشافه قانون الجاذبية ، إزاحة الستار تماماً عن عالم النجوم الذى بين أيدينا اليوم . على أن نيوتن يحملنا إلى صميم القرن الثامن عشر . فهو يحملنا إلى ما يتجاوز مدى الفصل الحالى كثيراً .

ومن بين أقدم الأسماء اسم الدكتور جلبرت (١٥٤٠ - ١٦٠٣) من كولشستر الذى يبرز خالداً أبدياً . كان روجر باكون قد بشر بالتجريب ، وكان جلبرت من أوائل من مارسوه . ولا سبيل إلى الشك فى أن عمله ، الذى كان موجهاً فى جل شأنه إلى المغناطيسية ، ساعد على تكوين فكرات فرنسيس باكون ، لورد ڤريولام (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، وهو قاضى القضاة فى عهد چيمس الأول ملك إنجلترة . ولقد سمى فرنسيس باكون هذا باسم « أبى الفلسفة التجريبية » ، ولكن ما أثير حول نصيبه فى تطور الجهد العلمى كان أعظم من حقه[1]. يقول السير ر . ا . جريجورى



(شكل ١٦٠) جاليليو

---

(١) انظر كتاب « الاكتشاف Discovery » تأليف جريجورى الفصل السادس .

« لم يكن المؤسس للطريقة العلمية بل الرسول المبشر بها » . وكانت أعظم خدمة أداها للعلم ، كتاباً خيالياً عجيباً ، هو كتاب الأطلانطيس الجديد (The new Atlantis) . وفرنسيس باكون فى كتابه الأطلانطيس الجديد يصمم فى لغة كثيرة الزخرفة حافلة بالخيال شيئاً ما ، خطة قصر للاختراع ، ومعبد عظيم للعلوم ، حيث ينظم طلب المعرفة بجميع فروعها على أسس ومبادئ فى الذورة العليا من الكفاية » .

وعن ذلك الحلم اليوتوبى المثالى نشأت الجمعية الملكية فى لندن(١) ، التى تلقت مرسوماً ملكياً من شارل الثانى ملك انجلترة فى (١٦٦٢) . والفائدة — بل الميزة — الجوهرية لهذه الجمعية كانت وما تزال « نشر العلم وإذاعته » . ويسجل إنشاؤها خطوة محددة تنتقل بالعلم من البحث المنعزل إلى العمل التعاونى بين العلماء ، ومن أبحاث الكيماويين القدامى السرية المنفردة إلى التقرير الصريح والبحث الجهرى ، الذى هو عصب الحياة فى الطرائق العلمية العصرية ، ذلك أن المنهج العلمى الحق يقوم على : — « ألا يفترض أى فرض لا ضرورة له ، ألا يقبل أى خبر أو بيان من غير تحقيقه ، أن تختبر كل الأشياء بأشد دقة مستطاعة ، ألا يحتفظ بأى أسرار ، ألا يحاول أحد أى احتكار ، وأن يقدم الإنسان خير ما لديه فى تواضع ووضوح ، وألا يخدم أية غاية أخرى غير المعرفة » .

وأنعش هارفى (١٥٧٨ — ١٦٥٧) علم التشريح الذى طال نعاسه ، كما كشف الدورة الدموية . وما لبث الهولندى ليفنهوك (١٦٣٢ — ١٧٢٣) أن استخدم أول مجهر (ميكروسكوب) ساذج فى الكشف عن الدقائق الخفية للحياة .

وما هؤلاء إلا قليـــل من كثير من أسطع النجوم فى ذلك الجمع المتزايد من الرجال الذين نهضوا منذ القرن الخامس عشر إلى زماننا هذا ، بهمة وثابة ونشاط تعاونى إجماعى لم يبرحا يتزايدان على كر الأيام — نهضوا بإنارة الكون أمام ابصارنا ، وزادوا من سيطرتنا على ظروف الحياة .

(١) هى أقدم جمعية بريطانية للعلوم وأبرزها مكانة وتعد زمالتها شرفا عظيماً . (المترجم)

٧ – النمو الجديد للمدن الأوربية

قد توسعنا فى معالجة تجدد نشاط الدراسات العلمية فى العصور الوسطى ، لما له من أهمية قصوى فى الشئون الإنسانية . ولا شك أن روجر باكون كان فى جملة أمره أعظم أهمية للجنس البشرى من أى ملك فى زمانه . ولكن العالم المعاصر ظل فى معظم أمره لا يعرف شيئاً عن ذلك النشاط المتقد تحت الرماد فى غرفات البحث وقاعات المحاضرات ومعامل الكيماويين القدامى ، ذلك النشاط الذى قدر له أن يغير كل أحوال الحياة . والواقع أن الكنيسة أدركت ما كان يجرى ، ولكن لم يكن مرد ذلك إلا شعورها بعدم احترام قراراتها الحاسمة . فإنها كانت قررت أن الأرض هى مركز خليقة الله ، وأن البابا هو حاكم الأرض الذى ندبته السماء لهذه المهمة . وقد أصرت الكنيسة على أن فكرات الناس عن هذه النقاط الجوهرية ، يجب ألا يعترضها أى تعليم يناقضها . ومع ذلك فإنها ما كادت تجبر جاليليو على القول بأن الأرض لا تتحرك حتى قنعت بذلك ورضيت . والظاهر أنها لم تكن تدرك أن الأرض برغم كل ما تبذل كانت تتحرك فعلا وأن موقفها من تلك المسألة كان نذر ثبور عليها .

ذلك أن أوربا الغربية كانت مسرحا لتطورات اجتماعية عظيمة جداً وأخرى فكرية فى كل هذه الفترة من العصور الوسطى المتأخرة . ولكن العقل البشرى يفهم الحوادث بصورة أوضح كثيراً مما يفهم التغييرات ، كما أن الناس واصلوا آنذاك كفعلهم اليوم — التمسك بتقاليدهم الخاصة بالرغم مما يلم بما حولهم من المناظر من تغيرات وتقلبات .

ومن المحال علينا فى كتابنا هذا أن نكدس أحداث التاريخ المتراصة التى لا تبين بوضوح العملية الرئيسية لتطور الإنسان ، مهما بلغت من بريق وجمال . ولا بد لنا من أن نسجل النمو المتواصل للمدن كبيرها وصغيرها ، وانتعاش قوة التجارة والنقود ، وعودة القانون والعرف إلى نصابهما شيئاً فشيئاً ، وانتشار الأمان ، والقضاء على الحرب الخاصة التى دامت فى أوربا الغربية فى الفترة بين الحرب الصليبية وبين القرن السادس عشر .

وهناك أشياء كثيرة ، تتراءى لنا ضخمة فى تواريخنا القومية ولكننا سنضرب عنها صفحا

وليس لدينا متسع نذكر فيه قصة المحاولات المتكررة التى بذلها الملوك الإنجليز لفتح اسكتلندة وتنصيب أنفسهم ملوكاً لفرنسا ، ولا عن كيف استقر الإنجليز النورمانديون فى إرلندة استقراراً غير وطيد فى القرن الثانى عشر ، وكيف ألحقت ويلز بالتاج الإنجليزى (١٢٨٢) . وقد تواصل كفاح انجلترة مع اسكتلندة وفرنسا طوال العصور الوسطى جميعاً . وجاءت أزمان بدا فيها أن اسكتلندة قد أخضعت إخضاعاً نهائياً ، وحدث إبانها أن ملك انجلترة كان يتملك فى فرنسا من الأرض أكثر من عاهلها الإسمىّ . وغالباً ما تصور كتب التاريخ الإنجليزية هذا الكفاح مع فرنسا فى صورة محاولة حاولت فيها إنجلترة بمفردها أن تقهر فرنسا وكادت أن تبلغ التوفيق . والواقع أنها كانت مشروعاً مشتركاً قامت به مجتمعة مع الفلمنك والباڤاريين أولا ، ثم بعد ذلك مع ولاية برجنديا الفرنسية القوية لغزو تراث هيوكاپيت واقتسامه . . .

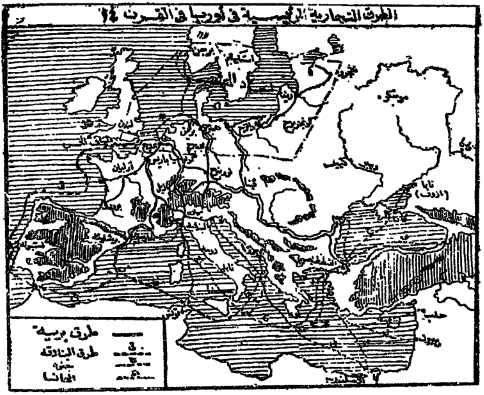
ولسنا على أن نحدثك عن تشتيت شمل الإنجليز على يد الاسكتلنديين فى بانوكبرن (١٣١٤) ولا عن وليم والاس وروبرت بروس البطلين الوطنيين الاسكتلنديين ، ولا عن معارك كريسى (١٣٤٦) وپواتييه (١٣٥٦) وأچينكور (١٤١٥) فى فرنسا ، التى يشرق ضياؤها فى الخيال الإنجليزى ، وهى معارك صغيرة قام فيها رماة نبال أقوياء المراس فى بعض الساعات المشرقة بإنزال هزيمة منكرة بالفرسان الفرنسيين فى دروعهم السابغة ؛ ولا عن الأمير الأسود[1] وهنرى الخامس ملك إنجلترة ، ولا عن كيف دفعت فتاة ريفية هى چان دارك ، عذراء أورليان ، الإنجليز مرة ثانية عن وطنها (١٤٢٩ — ١٤٣٠) — فلن يقص هذا الكتاب عن ذلك كله شيئاً . ذلك أن لكل قطر مثل تلك الأحداث القومية التى يعتز بها . فهى طنافس التاريخ التى تعلق للزينة والزخرفة ، وليست جزءا من البناء بأى حال . فإن راجپوتانا أو بولندة والمجر والروسيا وأسبانيا وفارس والصين تستطيع كلها أن تبارى أو تبز أقصى ما دار على مسرح التاريخ الأوربى الغربى من مغامرات رومانسية يظهر فيها فرسان لا يقلون عن الأوربيين مغامرة ، وأميرات لسن أقل من الأوربيات إقداماً ، وقتالا وصيتاً لا يقل قوة شكيمة فى هذه عن تلك .

ولن نحدثك فى أى تفصيل كيف أن لويس الحادى عشر الفرنسى (١٤٦١ — ١٤٨٣) ،

---

(١) هو إدوارد : الأمير الأسود (١٣٣٠ — ٧٦) ابن إدوارد الثالث ملك انجلترة . (المترجم)

وابن شارل السابع صديق جان دارك ، أذل برجنديا ووضع أساساً لملكية مركزية بفرنسا . إذ أن الذى يهمنا أكثر من ذلك أنه حدث فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن البارود ، تلك الهبة المغولية ، وصل إلى أوربا ، فاستطاع بفضله الملوك (بما فيهم لويس الحادى عشر) والقانون — معتمدين على نصرة المدن النامية ، أن يحطموا قلاع الفرسان والبارونات اللصوص نصف المستقلين فى العصور الوسطى الأولى وأن يجمعوا فى أيديهم أشتات سلطان أشد تمركزاً .



(شكل ١٦١) خريطة الطرق التجارية الرئيسية باوربا فى القرن الرابع عشر

ويختفى نبلاء وفرسان الفترة الهمجية المتقاتلون من التاريخ فى بطء أثناء تلك القرون ، ذلك أن الحروب الصليبية استنفدتهم ، كما أفنتهم أيضاً أمثال حرب الوردتين من الحروب بين الأسر المالكة ، فكانت الأسهم المرسلة من القسى الإنجليزية الطويلة

تنفذ من أجسامهم ناشبة فيما وراءهم ببرودة ، وكان المشاة المسلحون بهذا القوس يجتاحونهم ويقذفون بهم إلى ميادين الهزيمة ، فأخذوا يروضون انفسهم على التجارة وغيروا من طبعهم . واختفوا من الوجود وزال كل أثر لهم إلا وجود اسمى فى غرب وجنوب أوربا . قبل أن اختفوا من ألمانيا . وذلك أن الفارس فى ألمانيا ظل عياريًا محترفاً حتى صميم القرن السادس عشر .

وحدث إبان الفترة المنصرمة بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر فى أوربا الغربية ، وبخاصة فى فرنسا وإنجلترة ، أن نشأت كالزهرات باقة كبيرة من المبانى والكاتدرائيات والأديرة وما إليها طرازها شديد التميز والجمال وهو فن العمارة القوطى. وقد سبق أن أشرنا إلى أهم خصائص ذلك الطراز . ويسجل هذا الازدهار البديع ظهور هيئة من أرباب الحرف ترتبط بدايات نشوئها ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة . وشرع العالم للمرة الثانية فى إيطاليا وأسبانيا كذلك ، يكثر من تشييد المبانى بوفرة وجمال . وفى بداية الأمر كانت أموال الكنيسة وثروتها هى التى تقوم بمعظم هاتيك المبانى ، ثم أقبل الملوك والتجار أيضاً على البناء . ومن ثم فإلى جوار الكنسة والقلعة يظهر القصر الريفى والمنزل .

وقد حدث فى كل أرجاء أوربا مع زيادة التجارة ، انتعاش كبير فى حياة المدن منذ القرن الثانى عشر فما تلاه . ومن أبرز هذه المدن البندقية وتابعتاها راجوزا وكورفو ، ثم جنوة وڤيرونا وبولونيا وپيزا وفلورنسا ونابولى وميلانو ومرسيليا ولشبونة وبرشلونة وناربونه وتور واورليان وبوردو وباريس وغنت وبروج وبولونى ولندن واكسفورد وكمبردج وسوثهمبتون ودوڤر وانتورب وهمبورج وبريمن وكولونيا ومايِنس ونورمبرج وميونخ وليبزيج ومجدبرج وبرسلاو وستتين ودانزج وكونجزبرج وريجا وپسكوف ونوڤجورود وويسبى وبرجن .

« وكانت المدينة بألمانيا الغربية بين عامى (١٤٠٠) ، (١٥٠٠)[١] تضم كل ألوان التقدم التى اكتملت للناس فى ذلك الأوان ، وإن كانت — من وجهة النظر العصرية —

---

(١) نقلا عن الدكتور تيل فى كتاب « تاريخ العالم » لهلموت .

يعوزها الشيء الكثير . . . فكانت معظم الشوارع ضيقة ، غير منتظمة المبانى . وكانت المنازل تبنى فى الغالب من الخشب ، على حين كاد كل ساكن من سكان المدينة يحتفظ بماشيته فى منزله ، كما أن قطيع الخنازير الذى يسوقه فى كل صباح راعى المدينة إلى المرعى كان جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة » . ويذكر شارلز ديكنز فى كتابه « مذكرات أمريكية » أن الخنازير كانت موجودة فى برودواى ونيويورك فى منتصف القرن التاسع عشر . وذلك بينما كان القانون يحرم ، فى فرانكفورت على نهر المين بعد (١٤٨١) ، تربية الخنازير فى المدينة القديمة (Altstadt) . ولكن هذه العادة ظلت قائمة فى المدينة الجديدة (نيوستاد) وفى ساخسنهاوزن — كأمر عادى بحت . ولم تتمكن السلطات من هدم حظائر الخنازير فى المدينة الداخلية فى ليبزج إلا فى (١٦٤٥) بعد محاولة فاشلة قامت بها فى (١٥٥٦) . وكان سكان المدن الأغنياء الذين كثيراً ما كانوا يشتركون فى شركات التجارة العظيمة من أصحاب الأراضى الواسعى الثراء ، وكانت لهم أفنية فسيحة بها أجران كبيرة داخل أسوار المدينة . وكان أوسعهم ثراء يملكون تلك البيوت الضخمة الفاخرة التى ما نزال نعجب بها إلى يومنا هذا .

« ولكن جل بيوت القرن الخامس عشر قد اندثرت حتى فى المدن القديمة نفسها ، ولم يعد باقياً إلا بناء هنا أو هناك يتجلى فيه الخشب والطوابق البارزة بعضها فوق بعض ، كما فى مدينة بخاراخ (Bacharach) أو ملتنبورج ، وهى تذكرنا بطراز العمارة المألوف آنذاك فى بيوت سكان المدن . فأما الأغلبية الغالبة من الطبقة الدنيا من السكان ، الذين كانوا يعيشون عيش التسول ، أو يحصلون على معاشهم بممارسة الصناعات الدنيا ، فكانوا يسكنون أكواخاً قذرة خارج المدن . وكثيراً ما كانت أسوار المدينة هى الدعامة الوحيدة لهذه المبانى التعسة . وتعتبر تنظيمات ومرافق المنزل الداخلية حتى عند السكان الأغنياء ، ناقصة ومعيبة جداً من وجهة النظر العصرية ، كما أن الطراز القوطى كان مكيفاً بشكل رائع لبناء الكنائس وقاعات البلديات بقدر ما كان أقل الطرز صلاحية لإبراز التفاصيل الصغيرة فى وسائل الترف . على أن عصر النهضة أضاف الشيء الكثير من وسائل الراحة إلى البيوت .

« وشهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بناء عدة كنائس للمدن وقاعات للبلديات(١) قوطية الطراز فى كل أرجاء أوربا ، ما تزال فى كثير من الحالات تخدم الغرض الأصلى المنشود منها . ولا أدل على قوة المدينة ورغدها من هذه المبانى والتحصينات ، بما حوت من أبراج قوية وبوابات ضخمة . وما من صور لمدينة فى القرن السادس عشر أو ما يتلوه من قرون إلا وتظهر بشكل بيّن هـذه البنايات الأخيرة المبتناة لحماية المدينة وتشريفها .

« وكانت المدينة تتولى أشياء كثيرة تقوم بها الدولة فى زماننا هذا . فإن إدارة المدينة كانت تتولى المسائل الاجتماعية أو يتولاها ما يقابل ذلك من مجالس بلدية . وكان تنظيم الحرف من اختصـاص النقابات بالاتفاق مع المجلس ، على أن العناية بالفقراء من شأن الكنيسة ، على حين كان من واجب المجلس وقاية أسوار المدينة والعناية بفرق المطافئ العظيمة الضرورة والأهمية . وتنبها من المجلس إلى عنايته بواجباته الاجتماعية ، فإنه يشرف على ملء مخازن الحبوب التابعة للبلدية ، لكى يكون لديه الطعام اللازم فى سنوات القحط . ولم تخل مدينة واحدة من هذه المخازن تقريبا إبان القرن الخامس عشر . ولم ينقطع قط صدور تعريفات لأسعار بيع السلع كلها ، وهي على درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتسب رزقاً طيباً ؛ وتضمن للمشـترى جودة صنف السلعة وكانت المدينة كذلك هى الممول الرأسمالى ؛ وبالتزامها بيع المرتبات السنوية على الحياة وعند الميراث ، أصبحت تقوم بعمل البنوك وتحظى بثقة لا حد لها . وكانت تحصل مقابل تلك الخدمات على المال اللازم لابتناء التحصينات أو الحصول على حقوق السيادة من يدى أمير مفلس » .

وكانت هذه المدن الأوربية فى معظم شأنها جمهوريات أرستقراطية مستقلة أو شبه مستقلة . وكان معظمها يعترف بسيادة عليا مبهمة من جانب الكنيسة ، أو الإمبراطور أو أحد الملوك . على أن بعضها الآخر كان جزءاً من ممالك، أو حتى عواصم

---

(١) قاعة البلدية Town Hall : مبنى عام يستعمل لاجتماع مجلس المدينة ولأعمال أخرى .
(المترجم)

دوقات أو ملوك . وفى مثل هذه الحالات كانت حرياتها الداخلية مكفولة الاستمرار بأمر ملكى أو إمبراطورى . وفى انجلترة قامت على نهر التاميز مدينـــة وستمنستر الملكية ملاصقة تمام الملاصقة ونداً مساويا لمدينة لندن المسورة ، التى كان الملك لا يدخلها إلا بإذن ومراسم خاصة .

وحكمت جمهورية البندقية المستقلة إمبراطورية من الجزر التابعة والثغور التجارية ، على طريقة تقارب طريقة الجمهورية الأثينية . كذلك كانت جنوا منفصلة وحدها .

وكانت المدن الألمانية فى منطقة البلطيق وبحر الشمال من ريجا إلى ميدلبرج فى هولندا ودرتموند وكولونيا متحدة اتحادا كنفدراليا مفككا ، هو اتحاد مدن ألهانسا ، تحت زعامة هامبرج وبريمن وليوبك ، وهو اتحاد كان ارتباطه بالإمبراطورية أضعف واشد تفككا . وقام هذا الاتحاد الذى يحتوى على أكثر من سبعين مدينة فى مجموعه ، والذى كانت له مستودعات فى نوفجورود وبرجن ولندن وبروج ، يبذل الجهد الكثير للاحتفاظ بالبحار الشمالية خالية من القرصنة ، تلك اللعنة التى نكب بها البحر المتوسط والبحار الشرقية .

وكانت الإمبراطورية الشرقية إبان دورها الأخير بأكمله ، منذ الفتح العثمانى لأراضيها الأوربية بالبلقان فى القرنين الرابع عشر وأوائل الخامس عشر حتى سقوطها فى (١٤٥٣) ، تكاد تقتصر على مدينة القسطنطينية التجارية ليس غير ، فكانت من ثم « دولة مدينة » مثل جنوا أو البندقية ، لا يفرقها عنهما إلا وجود بلاط إمبراطورى فاسد يرهقها ويثقل كاهلها .

وقد بلغت حياة المدن تلك فى العصور الوسطى المتأخرة ، أعلى ذرى تطورها وفخامتها فى إيطاليا . فبعد انقراض أسرة هوهنشتاوفن فى القرن الثالث عشر ، ضعفت قبضة الإمبراطورية الرمانية المقدسة على شمال ووسط إيطاليا ، وإن ظل الأباطرة الألمان — كما سنذكر فيما بعد — يتوجون ملوكاً وأباطرة لإيطاليا حتى زمان شارل الخامس (قرابة ١٥٣٠) . ونشأ عدد من دول مدن شبه مستقلة ، إلى الشمال

من روما العاصمة البابوية . ولكن جنوب إيطاليا وصقلية ظلتا مع ذلك تحت السيادة الأجنبية . وكانت جنوة ومنافستها البندقية أكبر الثغور التجارية فى ذلك العصر ؛ وما تزال قصورهما الفخمة ونقوشهما الفاخرة تحظى بإعجابنا . وانتعشت كذلك ميلانو عند سفح ممر سان جوثارد ففازت بالثراء والقوة . ولعل أسطع المدن ضياءً فى كل تلك المجموعة من النجوم الإيطالية ، مدينة فلورنسا ، وهى مركز تجارى مالى ، حظيت بعصر كعصر « بريكليس » تحت حكم عائلة ميديتشى شبه الملكى فى القرن الخامس عشر . على أن فلورنسا أنتجت قبل زمان هؤلاء « الكبراء » الميديتشيين المثقفين ، الكثير من آيات الفن الجميل . فإن برج چوتّو[1] (١٢٦٦ — ١٣٣٧) ومبنى ديومو (الذى عمله برونللسكو ، ١٣٧٧ — ١٤٤٦) كانا موجودين قبل عهدهم . وقد أصبحت فلورنسا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، مركز اكتشاف فنون القدماء واسترجاعها ومحاكاتها . على أن نهضة الفنون التى قامت فيها فلورنسا بدور عظيم كبير ، من الأوفق أن نتكلم عنها فى قسم تالٍ .

٨ ـ النهضة الأدبية

يرتبط بهذا التيقظ العام الجديد الذى ألم بالذكاء الأوربى الغربى انفجار عظيم فى الأدب الابتداعى الخلاق . ولقد سبق أن لحظنا ظهور الأدب فى اللغة الإيطالية بفضل مبادرات الإمبراطور فردريك الثانى . وفى نفس الوقت كان المنشدون التروبادور[2] فى كل من شمال فرنسا وپروڤانس[3] يدفعون الناس إلى نظم الشعر باللهجات الشمالية والجنوبية ، ومنها أغانى الحب والأغانى القصصية وما شاكلها . وقد انفجرت هذه الأمور جميعاً ، إن صح لنا هذا التعبير ، كتيار سفلى يجرى تحت ميل إلى كتابة اللاتينية وقراءتها . وكان صدورها عن العقل الشعبى وعن العقل المتهاون المرسل على سجيته وليس عن العقل المتعلم . وولد بفلورنسا فى (١٢٦٥) ، دانتى أليجيرى ، الذى انتهى أمره إلى

---

(١) برج چوتو (Giottotower) : هو برج الجرس الكبير بكاتدرائية فلورنسا . (المترجم)

(٢) التروبادور : مغنون جوالون فى القرون الوسطى ينشدون أغانى الحب . (المترجم)

(٣) پروڤانس : القسم الجنوبى من فرنسا المطل على البحر المتوسط . (المترجم)

المنفى بعد نشاط سياسى عنيف ، ثم كتب بين ما كتب من أعمال ، قصيدة رصينة جزلة فى شعر إيطالى مُقفّى ، هى « الكوميديا » ، وهى وشى من الإشارات الرمزية والأحداث المتقطعة غير المترابطة والبحث الدينى . وهى تصف زيارة للجحيم والمطهر والفردوس . ومما يلوح بعلاقتها بأدب الأجداد اللاتينى اتخاذ دانتى من ڤرچيل دليلا يهديه فى المناطق السفلى (أعنى الجحيم) . وهى فى ترجماتها الإنجليزية المختلفة تسبب للقارئ مللا وسآمة ، ولكن أهل الفكر الذين أوتوا من العلم ما يسمح لهم بالحديث فى الموضوع لا يكادون لفرط إعجابهم يستطيعون أن يعبروا عما يحسونه إزاء الجمال الرائع ، واللذة والحكمة التى تتجلى فى الأصل . وقد كتب دانتى أيضاً باللاتينية فى المسائل السياسية وفى الدفاع عن حق اللسان الإيطالى بأن يعد لغة أدبية . فوجه إليه نقد لاذع لاستعماله اللغة الإيطالية ، واتهم بعدم المقدرة على كتابة الشعر باللاتينية .

وبعد ذلك بزمن وجيز أخذ پترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) كذلك يكتب الأهازيج (Sonnets)[1] والقصائد الغنائية Odes باللغة الإيطالية مما أثار حمية جميع من بلغ من الثقافة حداً يمكنه من التأثر بهما . مثال ذلك ما كتبه چون أدينجتون سيموندس : « إن القافية فى قصيدة حياة المادونا لورا ووفاتها (Vita e Morte di Madonna Laura) لا يمكن أن يتقادم عليها العهد مهما طال الزمن ، وذلك لأن الصيغة العروضية البالغة حد الكمال قد قرنت فيها إلى الألفاظ المنتخلة الصافية » . على أن القصائد تتركنا فى شك من أمر وجود المادونا لورا . وكان پترارك أحد جماعة من الإيطاليين الذين دأبوا جاهدين فى استرجاع أمجاد الأدب اللاتينى . وإن كتاب معالم تاريخية كهذا قد لا تستطيع فيه هذه الأمجاد أن تبلغ حد السمو الذى لاحت به فى عين جيل من الإيطاليين أخذ يفتح عينيه ثانية على ما للجمال الأدبى من روعة تهز الأنفس . ثم ذوت عملية الكتابة بالإيطالية ردحاً من الزمان انتعش أثناءه التأليف باللاتينية . فكتب پترارك ملحمة باللاتينية هى « أفريقا » . وظهر محصول ضخم من الكتابة الكلاسيكية الكاذبة (Pseudo-classical) ، وهى ملاحم ومآسى (تراچيديات) زائفة ومهازل (كوميديات) زائفة باللاتينية ،لاشك

---

(١) الأهازيج أو السونيتات : ضرب من القصائد الأوربية مكون من ١٤ بيتاً وله بحر خاص . (المترجم)

فى شبهها الكبير بالأشعار والنثر البيانى المنمق الذى يصدر فى الإنجليزية من بعض الموهوبين من شباب الهنود . ولم يحدث أن عاد الشعر الإيطالى من جديد إلى رفعته وتميزه إلا بعد ذلك بزمن ، بظهور بوياردو ثم آريوستو (١٤٧٥ — ١٥٣٣) . ولم تكن قصة آريوستو المسماة (أورلاندو فوريوسو) إلا الآية المتوَّجة لعدد جم من القصائد الرومانسية القصصية التى كانت تدخل البهجة إلى قلوب قراء عصر النهضة القليلى الاطلاع . وكانت هذه القصائد القصصية تعترف على الدوام بالفضل لذويه بإشارتها ومحاكاتها بشكل ما لتقاليد الملحمة الفرچيلية المصطنعة ، التى هى فى حد ذاتها عمل جليل ينطوى على المحاكاة وموفور الاطلاع . وتتكون كتلة هذا الأدب من الكوميديات والقصيدة القصصية ، والقصائد القصيرة فى أشكالها المتنوعة . ولم يبلغ النثر من التكلف والدماثة الدرجة التى تجعله موضع استحسان النقاد .

وكذلك رانت على تيقظ الحياة الأدبية فى المجتمع الناطق بالفرنسية ذكريات للأدب اللاتينى . وكان هناك بالفعل أدب من الأغانى المرحة كتب فى فرنسا بلاتينية القرون الوسطى ، وهى أغانى الحان والطريق (وهى ما يسمى بالشعر الجوليباردى فى القرن الثالث عشر) ، وظلت روح هذه الكتابة الأصيلة تعيش فى الأشعار الصادقة التعبير لشعراء مثل ڤيّون Villon (١٤٣١ — ١٤٦٣) ؛ ولكن انتعاش الدراسات اللاتينية انتقل من إيطاليا وفرض التكلف على الناس عامة اللهم إلا أصحاب أقوى العقول ، وتأسس أسلوب محكم فيه شىء من جلال المبانى الحجرية الأثرية . وأنشئت قصائد فاخرة وروايات تمثيلية كلاسيكية قصد منها إلى استثارة إعجاب الخلف (الأجيال التالية) أكثر من إدخال السرور عليهم . ومع هذا فإن عبقرية الحياة الفرنسية لم تقتصر اقتصاراً تاماً على هذه الممارسات الرفيعة ؛ فإن نثراً يتصف بالامتياز والمرونة قد ظهر . وكتب مونتين (١٥٣٣ — ١٥٩٢) ؛ وهو أول كاتبى المقالات ، كتابات لطيفة عن الحياة وكريهة عن العلماء ، وانفجر رابليه (١٤٩٠ ؟ — ١٥٥٣) كسيل من الحمم المحرق الصاخب الضاحك ، انفجر محطما ما للعلماء المتحذلقين فى عصره من مظاهر الكرامة واللياقة .

فأما فى ألمانيا وهولندة فإن الدوافع الفكرية الجديدة جاءت فى نفس الوقت تقريبا الذى تجلت فيه الآثار السياسية والدينية الضخمة للإصلاح الدينى ، كما أنهما أنتجتا أشكالا روحها الفنية أقل نقاء . يقول چ . أدينجتون سيموندس : إن إيراسموس (إيرازم)

هو الممثل العظيم لعصر النهضة فى هولندة مثلما كان لوثر فى ألمانيا ، ولكنه لم يكتب بالهولندية بل باللاتينية .

وحدث فى انجلترة انفجار فى النشاط الأدبى يرجع إلى القرن الرابع عشر . فأنتج جفرى شوسر (١٣٤٠ ؟ – ١٤٠٠) شعراً قصصياً ممتعاً نهج فيه بشكل ظاهر نهج النماذج الإيطالية ، على أن قدراً كبيراً من الشعر القصصى الرومانسى كان موجوداً من قبل . ولكن الحروب الأهلية وحروب الوردتين والوباء والمنازعات الدينية قضت على هذه البداية الأولى ، ومن ثمة لم يدخل الأدب الإنجليزى مرحلة الحياة القوية إلا مع استهلال القرن السادس عشر بعد عهد هنرى الثامن . فحدث فى مستهل الأمر انتشار سريع للدراسات الكلاسيكية وسيل من الترجمات عن اللاتينية والإغريقية والإيطالية بعث الخصب فى الأذهان . وظهر محصول فجائى من الكتابات الإنجليزية الممتازة . وأخذ الكتاب يداعبون اللغة الإنجليزية ويختبرونها ويصقلونها . وكتب سپنسر قصته (الفيرى كوين) ، وهى عمل رمزى ممل له جمال زخرفى عظيم . ولكن الدراما فى أيام الملكة إلزابث ، كانت المضمار الذى وجدت فيه العبقرية الإنجليزية خير مجال للتعبير عن نفسها . لم تخضع قط للتقاليد الكلاسيكية ، بل كانت الدراما فى عصر إلزابث شكلا أو قالباً أدبياً جديداً أشد اكتمالا وأتم تحرراً وأعظم قوة وأحفل بالسمة الطبيعية التامة . ووجدت فى شكسبير (١٥٦٤ – ١٦١٦) خير من يجليها إلى أقصى حد ؛ وهو رجل كان لديه لحسن الحظ « القليل من اللاتينية والأقل من الإغريقية » ، وكانت أجزل فقراته وأحفلها بالبراعة مستقاة من الحياة المتواضعة بل حتى السوقية ، كان رجلا ذا فكاهة حادة وحلاوة ذهنية عظيمة ، يحول كل جملة يكتبها لحناً شجياً . وولد ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) قبل وفاة شكسبير بثمانية أعوام . وقد أسبغت دراساته الكلاسيكية الأولى فى صباه على كل من شعره ونثره سمة مختالة من الكبرياء والفخامة لم تزل منهما قط زوالا تاماً . رحل إلى إيطاليا وشهد روائع التصوير فى عصر النهضة . وترجم تصاوير رافاييل وميشيل انجلو شعراً إنجليزياً فائقاً دونه فى ملحمتيه العظيمتين « الفردوس المفقود » و « الفردوس المستعاد » . ومن حسن حظ الأدب الإنجليزى أن شكسبير جاء ليوازن ملتون وينقذ قدراً كبيراً من الروح الجوهرى لذلك الأدب من التشبع بالروح الكلاسيكى .

وأنتجت البرتغال بلمسة نالتها من النهضة الأدبية ، ملحمة اللوسيادة التى وضعها كاموينس (١٥٢٤ — ١٥٨٠) ولكن كان من حسن حظ أسبانيا — شأن انجلترة ، أن وجدت رجلا ذا عبقرية فائقة ، لا يثقل فرط العلم كاهله ، يعبر لها عن روحها . فإن سرفانتيز (١٥٤٧ — ١٦١٦) تناول بسخريته الفكاهات والسخافات التى أثارها فى رأس رجل هزيل فقير نصف مجنون ، نزاع نشب بين تقاليد الفروسية فى العصر الوسيط وبين احتياجات الحياة السوقية ودوافعها . وإن بَطَلَيْه دون كيشوت وسانكوپانزا — شأن بطل شكسبير السير چون فالستاف وبطلة شوسر زوجة باث ، وبطل رابيليه جارجنتوا — ليقتحمان كرامه الأدب الشكلى القديم وبطولاته مدخلين عليهما الحرية والضحك . وإنهما ليقتحمان خلالها كما اقتحم روجر باكون والرجال العلميون علم العلماء المدرسانيين المعتمد على الكتب وحدها ، وكما اقتحم المصورون والمثالون الذين سنتكلم عنهم فيما بعد ، القيود والتضييقات الزخرفية والتزام الاحتشام الدينى فى فنون العصور الوسطى . ولم تكن الحقيقة الجوهرية التى اجتذبها عصر النهضة هى الروح الكلاسيكية بل إطلاق السراح وتحطيم القيود ؛ ولم يكن إحياء العلوم اللاتينية والإغريقية إلا إسهاماً فى القيم الإيجابية لعصر النهضة ، لما لتلك القيم من تأثير مدمر للتقاليد الكاثوليكية والقوطية والإمبراطورية .

٩ — النهضة الفنية

لا شك أن مما يتجاوز مجالنا وحدودنا أن نقفو النهضات المتعـــددة فى الفنون المحلية والزخرفية فى هذه الفترة العظيمة من الانتعاش البشرى العام ؛ وأن ننبئك كيف كُيِّفَ الفن القوطى الشمالى لمبانى البلديات والمبانى الخاصة ، ثم كيف أدخلت عليه التعديلات ، واستبدل إلى حد كبير بأشكال مستقاة من الفن (الرومانسكى) الإيطالى ، ومن إحياء التقاليد القديمة فى إيطاليا . ولم يحدث قط أن مالت إيطاليا إلى الفن القوطى الذى اجتاحها من الشمال ، أو إلى الأشكال العربية التى دخلتها من الجنوب . وفى القرن الخامس عشر تم اكتشاف الكتابات اللاتينية التى سطرها فتروفيوس (Vitruvius) فى فن العمارة ، وكانت منبها قويا زاد فى عمليات التغيير التى كانت تجرى فعلا .

فانتشرت المؤثرات الكلاسيكية القديمة التى كانت تنهمر فى الأدب بقوة ، منتقلة إلى عالم الخلق والابتكار الفنى المتفزز بالنشاط آنفاً .

ولكن كما أن الانتعاش الأدبى قد سبق إحياء الدراسات الكلاسيكية (إحياء العلوم القديمة) ، فقد جرى كذلك أن اليقظة الفنية بلغت أقصى مراتب تقدمها قبل اتجاه الأنظار إلى الفن التمثيلى[1] الكلاسيكى . فإن أوربا أخذ يشتد فيها على التدريج منذ أيام شرلمان بروز الميل إلى المحاكاة التمثيلية للطبيعة وإيثارها على الفن الزخرفى . فحدث بألمانيا إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر تطور قوى فى فن التصوير ، وأعنى به تصوير أشياء حقيقية على الخشب . فأما فى إيطاليا — حيث كانت الأشكال المعمارية تتيح لأهل الفن براحاً أرحب مما يتيحه الفن القوطى ، فإن أهمية التصوير على الجدران كانت تتزايد . وقامت أول مدرسة محددة التصوير الألمانى فى مدينة كولونيا (١٣٦٠ فما تلاها) . وبعد زمن غير كبير ظهر فى هولندة الأخوان هوبارت وچان ڤان آيك (قرابة ١٣٨٠ — ١٤٤٠) . ويمتاز عملهما بالإشراق والنضرة والبهجة وهو يشبه ما فى كتاب القداس (الخولاچى) من تصويرات . ولكنها حية تتنفس الهواء على السطوح الأرحب للوحات المصورة (Panels) .

وكان تشيابويه (Cimabue) يصور فى القرن الثالث عشر ، وهو أستاذ جوتو (١٢٦٦ — ١٣٣٧) ، الذى يبرز بوصفه الشخصية الضليعة المبكرة فى تلك المرحلة الأولى من مراحل نهوض الفن إلى سابق عهده . وهى مرحلة بلغت ذروتها فى شخص فرا أنچليكو دا فيسولى (١٣٨٧ — ١٤٥٥) وختمت به .

وعند ذاك ابتدأ فى إيطاليا وبخاصة فى فلورنسا ، بحث علمى بالمعنى الدقيق فى الوسائل الفنية للفن التمثيلى الواقعى . ولا حاجة بنا أن نؤكد بقوة أن جوهر التغيرات التى كانت تحدث فى الفن والنحت فى أوربا فى عصر النهضة هو التخلى عن الاعتبارات الجمالية والاستمساك بالاعتبارات العلمية ، وهى حقيقة تجاهلتها على الدوام

---

(١) الفن التمثيل Representative art : هو مجموعة فنون الرسم والتصوير والتشكيل وسمى بالتمثيلى لأنه يمثل الطبيعة والحياة . (المترجم)

جميع الكتب التى تبحث فى الفنون . فنشأ فى مكان تصميم الحليات وصوغ أشكال الزخارف بما فيها من شكلية وتجريد وجمال ، بحث وراء الواقع كان فى خير أحواله جريئاً بديعاً وغالباً ما كان خشناً صبحاً إلى حد مؤلم . فعلى الجدران والأحجار ظهر من جديد ما للجسم الإنسانى فى هيئته الساذجة من تمايس ولدونة حركة بعــد أن قضى عليهما الفن العربى وجمدها الفن البيزنطى . فقد أخذت الحياة تدب ثانية فى الفن وأخذت من فورها تتنفس وتتحرك وتتصبب عرقاً وتؤدى الإشارات المعبِّرة ؛ ودرست مشاكل المنظور ووجدت لها الحلول ، وشرع المصورون لأول مرة مع التمكن والاطمئنان فى أن يمثلوا « العمق » فى الصورة . وأخذ الفنانون يدرسون التكوين التشريحى للبدن دراسة استقصاء مدققة . وقد ظل الفن فترة من الزمان ثملا تسكره خمرة التمثيل التشكيلى . فأقبل المصورون على التفاصيل يظهرونها إظهاراً دقيقاً صادقاً — الزهور والجواهر ، والثنيات فى القماش والانعكاسات فى الأشياء الشفافة . ووصل الفن إلى دور من الجمال الزخرفى المتطرف وتجاوزه .

وليس فى إمكاننا أن نقفو هنا المضى المتواصل لهــذه الدوافع المبتعثة خلال المدارس المختلفة بمدن إيطاليا وشمال ألمانيا ، ولا أن نتأثر التفاعلات المتبادلة بين جماعات المصورين الفلمنكيين والفلورنسيين والأمبريانيين[1] وغيرهم . وسنقتصر فقط على ذكر أسماء بعض كبار أساتذة القرن الخامس عشر الفلورنسيين ، فيليبوليبى وبوتيشللى وغرلنداچو ، والأمبريانيين : سنيوررللى وپيروچينو ومانتنيا . فأما مانتنيا (١٤٣١ — ١٥٠٦) فإنه يبزهم جميعاً لأن الإنسان يلحظ فى عمله وحده أكثر من أى معاصر له ، روح الفن القديم الكلاسيكى المسترجعة . وإن له فى خير أحواله لصرامة لا تجارى .

وظهر مع القرن السادس عشر ليوناردو دافنتشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) الذى أسلفنا لك القول فى آرائه العلمية . وكان هناك فى نورمبرج شخص ذوروح قريبة من روحه هو ألبرخت دورر (١٤٧١ — ١٥٢٨) . وارتفع فن البندقية إلى ذروة مجده ،

---

(١) الأمبريانيون (Umbrian) : نسبة إلى أمبريا وهى منطقة بوسط إيطاليا .
(المترجم)

بفضل كل من تتيان (١٤٧٦ ؟ - ١٥٧٦) وتنتورتو (١٥١٨ - ١٥٩٤) وپول ڤيرونيزى (١٥٨٢ - ١٥٨٨) . ولكن ليس يعنى القارئ فى كثير ولا قليل أن نقوم بسرد الأسماء له ، ولن تستطيع أجود صور مستنسخة لهم ، نقدمها للقارئ ، أن تقدم إليه إلا إشارات قليلة عن « كنه وكيف » هؤلاء الأساتذة ، وما نستطيع بواسطة المطبعة إلا أن نذكر علاقتهم العامة بالفن والحياة بوصفهم عوامل فى اتجاه جديد نحو الجسم والأشياء الملموسة . ولا بد للقارئ الدارس من الرجوع إلى صورهم الأصلية يطلب فيها بنفسه إدراكاً واقعيا لسماتهم المميزة . وربما أشرنا له إلى صورة تتيان المعروفة بالاسم غير المطابق لها ، وهو « الحب الطاهر والحب الدنس » ، أو إلى مختلف صور العرافات (Sibyls) وإلى « خلق آدم » التى رسمها مايكلا نجلو على سقف كنيسة السستين ، بوصفهن من أبدع أزاهير تلك الروضة فتنة وجمالا . وانتقل فن التصوير إلى انجلترة على يد هانز هولبين الألمانى (١٤٩٧ - ١٥٤٣) ، وذلك لأن انجلترة قد بلغ بها التمزق فى الحرب الأهلية حداً لم تستطع معه أن تظل فى كنفها أية مدرسة للفن . كان مجيئه مجرد زيارة عابرة . بل إن عصر الملكة اليزابث نفســه - وناهيك بتراثه فى الأدب وبخصبه فى الموسيقى - لم ينتج أى تصوير أو نحت يمكن أن يقارنا بمثيلهما فى إيطاليا وفرنسا . ولم تلبث الحروب والشغب السياسى أن عوقت فن ألمانيا عن التقدم ، ولكن الدافع الفنى الفلمنكى استمر إلى روبينز (١٥٧٧ - ١٦٤٠) ، ورامبراندت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) ، وإلى عدد عظيم من مصورى الجنرى[١] البهيج والمناظر الطبيعية البرية اللذين أنتجوا صوراً زيتية فى غرب أوربا الأقصى ، والذين كان إنتاجهم شبيها فى روحه وموضـــوعه شبها عجيبا بطائفة من أقدم الصـــور الصينية دون أن يكون هناك أى احتمال لوجود علاقة أو نقل أو محاكاة . وربما كان هذا التماثل راجعا إلى وجود تماثل ما غامض فى الظروف الاجتماعية .

وأخذت عظمة مصورى إيطاليا تنحدر وتخبو منذ نهاية القرن السادس عشر . فذوت حماسة الناس وإحساسهم بطرافة تصوير الجسم الإنسانى المغمور بالضياء بكل ما يحتمل أن يحتويه من ثنيات ، ومن امتداد ومن التقصير الأمامى (Exiension & Foreshortening)

---

(١) الجنرى (Genre) : نوع وطراز من تصوير مناظر الحياة العادية . (المترجم)

بين أحضان خلفيات (Backgrounds) لها نصاعة وإشراق يفوق ما للطبيعة من إشراق . كما أن مبررات اتخاذ النحت والأساطير (الميثولوجيا) الكلاسيكية موضوعات للتماثيل التى تمثل التمرينات الجثمانية قد استنفدت أغراضها إلى حد كبير . ولم تعد تستثير العقول الأصيلة الصور التى تقوم بتمثيل الفضائل والرذائل والفنون والعلوم والمدن والأمم وما إليها بأشكال نسائية مكشوفة كشفاً حراً ومقدمة فى هيئة تسر الأعين ؛ وظهر طراز من المحترفين أقل ميلا للاجتهاد وأخذ فى ممارسة الفن قانعاً بتصوير صور كانت فى خير أحوالها مجرد مطاولة لصور موجودة من قبل . فأما فن النحت الأوربى الذى تطور بهيئة بطيئة طبيعية فى ألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادى عشر فما أعقبه من قرون ، والذى كان أنتج أعمالا ممتازة من أمثال ملائكة الكنيسة المقدسة بباريس ، تمثال الفارس لكانْ جراندى فى ڤيرونا ، وتمثال كُليونى فى البندقية (الذى صنعه ڤيروتشيو وليوپاردى) — فلم يلبث أن جرفته أمامها المحاولات التى أنفقت لإحياء الصفات الخاصة التى تمتاز بها صناعة التماثيل الكلاسيكية التى كان الناس عند ذلك قد استخرجوها من الأرض وأخذوا ينظرون إليها معجبين . فأنتج مايكلا نجلو وهو سكران بنشوة هذا الإلهام أعمالا بالغة الذروة فى القوة والكرامة مع تمكن فى تكوينها التشريحى لا يشق له غبار وهى أعمال أذهلت خلفاءه ودفعتهم إلى التقليد ، فأوردهم ذلك موارد التدهور . ومع تقدم الزمن بالقرن السابع عشر أخذ فنّا التصوير الأوربى والنحت يتخذان لنفسيهما سمة الرياضى الذى أفرط تمريناً حتى بلغ حد الإعياء ، أو الوردة التى أفرطت فى التفتح .

على أن حاجات الناس المادية تدعم فن العمارة عندما تضمحل الفنون الأقل منه ضرورة ، ولذلك تواصل إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر إنتاج مستمر منوع لمبانٍ رقيقـــة جميلة فى كل أرجاء أوربا . ولن نذكر لك إلا اسم پالاديو (١٥١٨ — ١٥٨٠) ، الذى تملأ أعماله مدينة ڤيشنزا مسقط رأسه ، والذى نشرت كتبه وتعاليمه فى كل أقطار أوربا تقريباً أسلوبه الكلاسيكى المبتعث حياً . وإنه ليحاكى ينبوعاً عظيما يفيض بالأفكار المعمارية . ولسنا بمستطيعين هاهنا أن نقص أثر التفريعات والتغييرات المعقدة التى ألمت بعمارة عصر النهضة والتى استمر تطورها استمراراً طبيعياً ومتواصلا حتى زماننا هذا .

ولم يكن فن التصوير فى أسبانيا نباتاً أصيلا فى أراضيها كما كان حاله فى شمال ألمانيا وإيطاليا . فإن المصورين الإسبان كانوا يهبطون إيطاليا للدراسة ثم يعودون منها بفنهم . ولكن حدث فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، فى البلاط الإسبانى المتقلص الذى كان ما يزال محتفظاً بثرائه ، أن ازدهر التصوير الإسبانى شخص ڤيلاسكويز (١٥٩٩ — ١٦٦٠) العظيم الأصيل . فكانت له إلى الأشياء نظرة تمتاز بالطرافة والقصد المباشر إلى الغاية ، وكانت فى مرقاشه قوة جديدة ؛ فهو — ويشاركه فى ذلك رامبراندت الهولندى — يبرز متفوقاً على بقية مصورى عصر النهضة فى الروح والكيف كما أنه يسير فى طريق أقوى ما أنتجت أخريات القرن التاسع عشر وما أخرج زماننا هذا من أعمال .

١٠ — أمريكا تدخل التاريخ

سقطت القسطنطينية فى (١٤٥٣) كما أسلفنا إليك القول . وظل الضغط التركى على أوربا طوال القرن التالى قوياً لا ينقطع . فإن الحد الفاصل بين المغولى والآرى ، الذى كان يمتد فى مكان ما شرقى هضبة الپامير فى أيام پريكليس ، تراجع عند ذلك إلى هنغاريا . وتحولت القسطنطينية ردحاً طويلا من الزمان إلى مجرد جزيرة من المسيحيين تحيط بها شبه جزيرة البلقان الذى يحكمه الترك ؛ وأفضى سقوطها إلى عرقلة التجارة مع الشرق إلى حد كبير .

فأما مدينتا البحر المتوسط المتنافستان جنوة والبندقية ، فكانت الأخيرة منهما على وجه الإجمال أحسن علاقة بالترك من الأولى . لذا كان كل ملاّح جنوى ذكى مستاء من احتكار البندقية لتجارة فى البحر المتوسط ، ويحاول أن يستنبط طريقة لاختراق نطاق ذلك الاحتكار أو الدوران من حوله . وظهرت عند ذلك شعوب جديدة كثيرة هويت التجارة البحرية ، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تؤدى إلى الأسواق القديمة ، وذلك لأن الطرق العتيقة كانت مغلقة وجوههم .

فكان البرتغاليون مثلا يطورون تجارتهم بإزاء شواطئ المحيط الأطلسى . وبذا أخذ ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إهمال مترامية ترجع إلى أوان « مقتل »

قرطاجة على يد الرومان . ومن العسير علينا الفصل فيما إذا كان الأوربى الغربى يندفع إلى المحيط من تلقائه أم كان يدفعه الأتراك إليه دفعاً ، وهم الذين كانت لهم السيادة فى البحر المتوسط حتى يوم معركة ليبانتو (١٥٧١) . فإن السفائن البندقية والجنوية كانت تتسلل بمحاذاة الشواطئ حتى تبلغ انتورب[١] ، وكان ملاحو مدن الهانسا أخذوا ينحدرون جنوبا ويوسعون مجالهم . وحدثت أثناء ذلك تطورات ضخمة فى فنون الملاحة وبناء السفن . ولا يخفى أن البحر المتوسط بحر قوادس[٢] وملاحة ساحلية . ولكن المحيط الأطلسى وبحر الشمال ، أكثر رياحاً وأشد موجا والشواطئ فيهما فى كثير من الأحيان مصدر خطر أكثر منها كنفا يحتمى به . فاستدعت البحار العالية وجود السفينة الشراعية الضخمة ، ومن ثم يتم ظهورها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وتمخر البحر مسترشدة فى طريقها بالبوصلة والنجوم .

وكان تجار الهانسا عندما وافى القرن الثالث عشر يقلعون بانتظام عبر البحار الباردة الشهباء ، من برجن إلى أهل الشمال سكان أيسلندة . وعرف الناس من أيسلندة خبر جرينلندة ، وكان الرحالة المغامرون قد وجدوا من زمان مديد أرضاً أخرى خلفها ، هى ڤينلندة ، حيث المناخ لطيف معتدل وحيث يستطيع الناس أن ينزلوا ويستقروا إن آثروا أن يقطعوا الصلة بينهم وبين بقية الجنس البشرى . وڤينلندة هذه إما أن تكون نوڤاسكوتشيا أو ، نيوانجلند[٣] وهو الأرجح .

وكان التجار والبحارة فى كل بقاع أوربا فى القرن الخامس عشر يقلبون الفكر فى شأن طرق جديدة تفضى إلى الشرق . وكان البرتغاليون يتساءلون غير عالمين بأن الفرعون نخاو قد حل المشكل قبل زمانهم بعصور مديدة : أليس فى الإمكان أن يصل الناس إلى الهند بالدوران حول ساحل أفريقيا ؟ . واتبعت سفنهم (١٤٤٥) نفس الطريق الذى سلكه هانو إلى رأس ڤردى ، فانطلقوا فى البحر غرباً ووجدوا جزائر الكنارى وماديرا والأزورس . وكانت تلك خطوة طويلة نوعاً ما عبر الأطلسى . يقول السير هارى چونستون متحدثاً عن هذه المغامرات البحرية فى المحيط الأطلسى الشرقى وبمحاذاة الشاطئ الإفريقى الغربى : « إن البرتغاليين قد سبقهم فى القرنين

---

(١) وهى بالفرنسية أنفرس ، وتقع الآن فى بلجيكا . وكانت لها أهمية تجارية عظيمة . (المترجم)

(٢) القادس أو الغليون Galley : طراز قديم من السفينة الشراعية الكبيرة ذات المجاديف . (المترجم)

(٣) هو الإسم الذى يطلق على المنطقة الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة ويضم ولايات : ماين ونيوهمشير وفرمونت وماساشوستس ، وروود - آيلند ، وكونيكتيكت . (المترجم)

الثالث عشر والرابع عشر وأوائل الخامس عشر كل من النورمان والقطالونيين والجنويين. ولكن مناشط البرتغاليين سمت إلى الذروة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومهما يكن الأمر فهم وحدهم الذين ثبتوا المكتشفات، وركزوها بعد أن كانت حتى ذلك الحين مجرد زيارات مبهمة عارضة. فكانوا رواد علم الفلك البحرى». وفى (١٤٨٦) أعلن برتغالى اسمه برثولوميو دياز أنه دار حول جنوب أفريقيا. وبذلك انفتح السبيل أمام مغامرة ڤاسكودا جاما الكبرى بعد ذلك بإحدى عشرة سنة. وقبل أن يتجه الأسبان إلى الغرب كان البرتغاليون ينشئون طريقهم إلى الشرق فعلا.

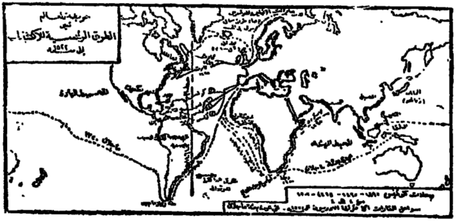
وشرع چنوى اسمه خرستوف كولمبس يمعن فى التفكير فيما نعتبره الآن مشروعاً واضحاً وطبيعياً جداً، ولكنه مشروع أجهد خيال القرن الخامس عشر إلى أقصى حد، وهو الإبحار نحو الغرب مباشرة عبر الأطلسى. ولم يكن أحد يعرف فى ذلك الزمان بوجود أمريكا بوصفها قارة منفصلة. كان كولمبس يعرف أن العالم كروى الشكل، ولكنه أخطأ فى تقدير حجمه، فزعمه أقل من حقيقته، وذلك لأن رحلات ماركوپولو أدلت إليه بفكرة مبالغ فيها عن مدى اتساع آسيا، فظن تبعاً لذلك أن اليابان بما لها من صيت بعيد فى ثروة عظيمة من الذهب كانت تقع عبر الأطلسى فى ما يقارب موقع المكسيك. وقد قام برحلات متنوعة بالمحيط الأطلسى، ووصل إلى أيسلندة ولعله سمع هناك شيئاً عن ڤينلندة، وهو أمر لا بد أنه شجع فى نفسه فكراته تلك، وأصبح ذلك المشروع، مشروع السفر إلى مغرب الشمس الهدف الأسمى المتسلط على حياته.

كان رجلا مملقاً، تقول بعض الروايات عنه إنه كان مفلساً، ولم تكن أمامه من وسيلة للحصول على سفينة إلا أن يحمل أحد الناس على أن يسند إليه قيادة سفينته. فذهب بادئ ذى بدء إلى الملك چون الثانى البرتغالى، فأصغى إليه وأقام فى سبيله الصعاب، ثم دبر أمر رحلة تقوم بغير علم منه؛ وتكون رحلة برتغالية صرفة. وأخفقت هذه المحاولة المغرقة فى «الدبلوماسية» الملتوية والتى قصد بها استراق السبق إلى السفر خفية عن رجل عبقرى أصيل، وبحق ما أخفقت، فإن الملاحين تمردوا،

وفقـد الربان شجاعته وعاد أدراجه (١٤٨٣) . عند ذلك اتجه كولمبس إلى البلاط الأسبانى .

ولكنه لم يتمكن فى بادىء الأمر أن يحصل لا على سفن ولا على تفويض . وذلك لأن أسبانيا كانت تهاجم غرناطة ؛ آخر معقل للمسلمين فى أوربا الغربية . وكان المسيحيون قد استردوا معظم أسبانيا إبان الفترة بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر ، ثم تلا ذلك فترة توقف. فلما أن أصبحت كل أسبانيا المسيحية كتلة واحدة بزواج فرديناند الأرجونى من إيزابلا القشتالية ، نهضت لاستكمال الفتح المسيحى . حتى إذا غلب اليأس على نفس كولمبس من مساعدة أسبانيا له ، بعث بأخيه بارثولوميو إلى هنرى السابع ملك انجلترة ، ولكن المغامرة لم ترق فى عين ذلك الملك الحذر . وأخيراً سقطت غرناطة (١٤٩٢) . وهى شىء طفيف من التعويض عن فقدان المسيحية لمدينة القسطنطينية قبل ذلك بخمسين سنة . وما عتم كولمبس أن حصل على سفائنه بمساعدة بعض تجار مدينة پالوس ، وهى ثلاث سفن لم يكن منها إلا واحدة ذات سطح هى « السانتاماريا » وحمولتها مئة طن . وكانت السفينتان الأخريان زورقين مكشوفين لهما نصف الحمولة .

وانحدرت الحملة الصغيرة — وكان مجموع عدد أفرادها ثمانية وثمانين رجلا ! — جنوباً إلى جزائر الكنارى ، ثم انطلقت تعبر البحار المجهولة ، فى جو جميل وتحت ريح مواتية .



(شكل ١٦٢) خريطة للعالم تبين رحلات الاستكشاف الرئيسية إلى سنة ١٥٢٢

ولا بد للقارئ من أن يقرأ بالتفصيل قصة تلك الرحلة الجليلة الشأن التي دامت شهرين وتسعة أيام حتى يقدرها قدرها . كانت نفوس البحارة تفيض بالمخاوف والشكوك ؛ فكانوا يخشون أن يظلوا يسيرون في البحر إلى الأبد » ولكن رؤيتهم بعض الطيور وعثورهم على قضيب من الخشب فيه آثار بعض الآلات ، وعلى غصن يحمل بعض ثمار غريبة أدخلت الطمأنينة على أفئدتهم . وفي الساعة العاشرة من ليلة ١١ أكتوبر ١٤٩٢ آنس كولمبس أمامه نوراً ؛ وفي الصباح التالي شوهدت الأرض ، ونزل كولمبس والصبح ما يزال يتنفس ، إلى أرض العالم الجديد في ثياب فاخرة وهو يحمل راية أسبانيا الملكية .

وعاد كولمبس إلى أوربا في مستهل (١٤٩٣) ، مجتلباً معه ذهباً وقطناً وحيوانات وطيوراً غريبة وهنديين هائجين منقوشي الجسم ما لبث أن عمدهما في الكنيسة ، وزعم أنه لم يجد اليابان ، بل وجد الهند . ولذلك سميت الجزر التي اكتشفها باسم جزر الهند الغربية . وفي نفس السنة رحل مرة أخرى تصحبه حملة عظيمة من سبع عشرة سفينة وألف وخمسمئة رجل ، بإذن خاص من البابا بأن يتملك تلك الأراضي الجديدة للتاج الأسباني .

ويضيق بنا المقام عن الحديث عما مر به من الحوادث وهو حاكم لهذه المستعمرة الأسبانية ، ولا عن كيف عُزل وكبل بالأصفاد . ولم يمض زمن طويل حتى كان حشد من المغامرين الأسبان يرتادون الأراضي الجديدة . ولعل من الشائق أن نسجل أن كولمبس مات وهو يجهل أنه اكتشف قارة جديدة . فإنه ظل يعتقد حتى يومه الأخير أنه دار حول العالم إلى آسيا .

وأحدثت أخبار اكتشافاته هزة عظيمة كل أرجاء غرب أوربا . وحفزت البرتغاليين أن يجددوا محاولاتهم الوصول إلى الهند بطريق جنوب إفريقيا . وفي (١٤٩٧) أقلع ڤاسكودا جاما من لشبونة إلى زنجبار ، ثم سار من هناك بهداية دليل عربي فاخترق المحيط الهندي إلى قاليقوط في الهند .

وأصبحت للبرتغال (١٥١٥) سفائن في جاوه وجزر مولوقا(١) (مُلَكّا) . وفي

---

(١) جزر مولوقا أو جزر البهارات : مجاميع من الجزر البركانية تقع في اندونسيا الشرقية . وتشتهر بالتوابل . (المترجم)

(١٥١٩) سار ملاح برتغالى اسمه ماجلاّن ، يعمل فى خدمة ملك أسبانيا جنوباً محاذياً لشاطئ أمريكا الجنوبية ، فاجتاز « مضيق ماجلاّن » المظلم المخيف ، وبذا وصل إلى المحيط الهادى الذى سبقه إلى مشاهدته المكتشفون الأسبان الذين عبروا برزخ بنما .

وواصلت بعثة ماجلان سيرها قُدُماً إلى الغرب عبر المحيط الهادى. وكانت تلك رحلة يتجلى فيها من آيات البطولة قدر أوفى كثيراً مما فى رحلة كولمبس ، إذ ظل ماجلاّن « تسعين وثمانية من الأيام » يسير بسفائنه غير هياب ولا متردد على أمواه ذلك المحيط الهائل الخالى المترامى الأطراف ، دون أن يرى فيه شيئاً إلا جزيرتين صحراويتين صغيرتين . وتفشى مرض الإسخربوط وعمل عمله فى البحارة ، ولم يبق إلا القليل الفاسد من الماء والتالف من البسكوت . وكان البحارة يصيدون الفئران بلهفة شديدة ويقرضون جلود البقر ويلتهمون نشارة الخشب لكى يَقيفُوا عضات الجوع فى أحشائهم . وصلت البعثة إلى جزائر اللادرون وهى على هذه الحال السيئة ، فاكتشفوا جزر الفلبين ، وهناك قتل ماجلاّن أثناء عراك مع الأهالى . وقتل كذلك كثير من الربابنة . وقد خرج ماجلاّن فى أغسطس (١٥١٩) بخمس سفن عليها مئتان وثمانون رجلا ، ولكن لم تعد منها إلا « الڤيتوريا Vitoria » فى يولية (١٥٢٢) وعليها البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلا . عادت مصعّدة فى المحيط الأطلسى إلى مرساها قرب رصيف أشبيلية فى نهر الوادى الكبير — وهى أول سفينة دارت حول هذا الكوكب .

فأما الإنجليز والفرنسيون والهولنديون ونوتية مدن الهانسا ، فإنهم هبطوا إلى ميدان مغامرة الارتياد هذه متأخرين نوعاً ما . إذ لم يكن يخالجهم نفس الاهتمام الشديد بالتجارة مع الشرق . فلما أن انحدروا إلى الميدان فعلا ، اتجهت أوائل جهودهم إلى المسير بسفنهم حول شمالى أمريكا ، مثلما سار ماجلاّن حول جنوبيها ، وإلى الاتجار من حول شمال آسيا ، كما أبحر ڤاسكودا جاما حول جنوب أفريقية . ولكن طبيعة الأشياء قضت على هذين المشروعين بالإخفاق التام . فسبقت كل من البرتغال وأسبانيا فى أمريكا والشرق ، إنجلترة وفرنسا وهولندة بنصف قرن .

ولم تبدأ ألمانيا قط ، ذلك أن ملك أسبانيا كان إمبراطوراً على ألمانيا فى تلك السنين الحاسمة ، وكان البابا أعطى احتكار أمريكا لأسبانيا إلا أنه لم يمنحها لأسبانيا نفسها بل لمملكة قشتالة ، وبديهى أن يكون لهذا الأمر أثره فى اعتياق كل من ألمانيا وهولندة بادئ بدء عن النزول إلى ساحة المغامرات الأمريكية . وكانت مدن الهانسا شبه مستقلة ، فلم يكن من خلفهم ملك يعتمدون على مساندته ، ولم تربطهم وحدة تستطيع النهوض بالمشروعات الكبار كعملية ارتياد المحيطات مثلا . ومن سوء حظ ألمانيا ، بل لعله من سوء حظ العالم أجمع ، أن استنفدت قواها عاصفة هوجاء من الحروب ؛ كما سنبين ذلك من فورنا ، على حين كانت الدول الغربية بأجمعها تنطلق إلى المدرسة المفتوحة حديثاً وراء البحار العالية(١) ، تتعلم فيها التجارة والإدارة .

وأخذ طالع قشتالة الهائل الميمون يتكشف فى بطء إبان القرن السادس عشر أمام عيون أوربا المنبهرة . ذلك أنها اكتشفت عالماً جديداً ثرياً بموفور ذهبه وفضته حافلا بعجيب احتمالات استيطانه والمقام فيه . كان كله ملك يمينها ، لأن البابا قال بذلك . وكان بلاط روما وهو فى إحدى نوبات أريحيته قد قام تحف به الفخامة والجلال ، بتقسيم عالم الأراضى العجيبة الجديد ، الذى كان يتبدى آنذاك أمام الخيال الأوربى ، بين الأسبان الذين جعل لهم كل الأراضى الواقعة غربى خط يقع على ٣٧٠ فرسخاً غربى جزائر رأس فردى ، وبين البرتغاليين الذين منحوا كل شىء يقع إلى الشرق من ذلك الخط .

وفى بادئ الأمر كان الناس الوحيدون الذين لقيهم الأسبان فى أمريكا متوحشين من الطراز شبه المغولى(٢) . وكان الكثير من هؤلاء المتوحشين من أكلة البشر . ومن سوء حظ العلم أن كان أول من بلغ أمريكا من الأوربيين ، هم هؤلاء الأسبان القليلو الاستطلاع ، المجردون من أية رغبة علمية والظامئون إلى الذهب ، والمشبعون بروح التعصب العمياء الراجعة إلى حرب دينية قريبة العهد . لم يصدر عنهم غير ملاحظات

---

(١) البحار العالية : ما تجاوز من البحار الشقة الإقليمية الساحلية للدول . (المترجم)

(٢) شبه المغولى (Mongoloid) : انظر جـ ١ ص ١٧٥ من المعالم ط ٣ . (المترجم)

قليلة ذكية عن طرائق هذا الشعب البدائى وفكراته . وقد أعملوا فيهم السيف، وسرقوهم ثرواتهم ، واستعبدوهم وعمدوهم مسيحيين ، ولكنهم لم يدركوا إلا قليلا العرف والعادات والأفكار الأصلية التى تغيرت واختفت أمام هجمتهم . كانوا فى تدميرهم وعدم مبالاتهم وقلة تقديرهم أشبه شىء بالنازلين البريطانيين الأول فى تسمانيا ، الذين كانوا يطلقون الرصاص عند رؤيتهم رجال العصر الحجرى القديم الذين كانوا ما يزالون باقين هناك ، ويضعون لهم اللحم مسمما ليأكلوه .

وكانت مساحات عظيمة من الأراضى الداخلية فى أمريكا أرض برارى ، كانت قبائلها الرحل الضاربة فيها تعتمد فى معاشها على قطعان ضخمة من (البيزون) الجاموس البرى الذى انقرض الآن أو كاد . وكان هنود البرارى هؤلاء على تشابه عظيم فى طريقة حياتهم ، وفى ثيابهم المنقوشة وفى إسرافهم فى استعمال الصباغ وفى عوام خصائصهم الجثمانية برجال العصر الحجرى القديم فى عهده الثانى الأخير الذين عاشوا فى العصر السوليوترى بأوربا . ولكن لم تكن لديهم خيل . ويلوح أنهم لم يتقدموا تقدماً يذكر عن تلك الحالة البدائية ، التى يرجح أن تكون هى الحالة التى وصل عليها أجدادهم إلى أمريكا . ومهما يكن من شىء فقد كانوا على علم بالمعادن . وبصفة خاصة على استخدام كبير للنحاس المحلى ، ولكنهم لم يعرفوا الحديد .

وبينما كان الأسبان يتوغلون فى القارة ، وجدوا بأمريكا حضارتين منفصلتين ومتطورتين فهاجموهما وانتهبوهما وقضوا عليهما ، ولعلهما تطورتا بمعزل تام عن المدنيات القائمة فى العالم القديم . وكانت إحداهما مدنية المكسيك الأزتيكية ، والأخرى حضارة بيرو . ولعلهما نشأتا عن مرحلة « شبه المدنية » للعصر الحجرى الحديث ، التى انتشرت عبر المحيط الهادى من جزيرة إلى جزيرة ، خطوة فخطوة ، وعصراً بعد عصر ، مبتدئة من أرض أرومتها الأصلية حول البحر المتوسط وبالقرب منه . ولقد سبق أن ذكرنا بضع نقاط مشوقة فى هذين التطورين الفريدين فى نوعهما . وهما متأخران عن بلاد المشرق والبحر المتوسط بآلاف السنين . وقد بلغ هذان الشعبان الأمريكيان المتحضران دارجين فى طريقهما الخاص مرتبة توازى موازاة خشنة ، ثقافة

مصر قبل الأسرات وثقافة المدن السومرية الباكرة . وكانت هناك قبل الأزتيك والپيروزين (أى أهل پيرو) بدايات حضارات أقدم منهما ، إما أن خلفاءهم دمروها ، وإما أن تكون أخفقت وذهبت من تلقاء نفسها .

ويبدو أن الأزتيك كانوا شعباً فاتحاً أقل تمدناً ، يتسلطون على مجتمع أكثر منهم مدنية ، شأن الآريين فى تسلطهم على بلاد الإغريق وشمال الهند ، وكانت ديانتهم نظاماً بدائيا معقداً وقاسياً ، كانت القرابين الإنسانية وأكل لحوم البشر أثناء الطقوس تلعب فيها دوراً كبيراً . وكانت تملأ عقولهم فكرة الخطيئة والحاجة إلى استرضاء الآلهة بسفك الدماء . فكانت ديانتهم أشبه شيء بصورة كاريكاتورية فظيعة كاملة لديانات العالم القديم البدائية ذات القربان .

وقد دمرت الحضارة الأزتيكية حملة عسكرية بقيادة كورتيز . كانت لديه إحدى عشرة سفينة وقوة مكونة من أربعمئة أوربى ومئتى هندى وستة عشر حصاناً وأربعة عشر مدفعا . ولكنه التقط من يوقطان رجلا أسبانيا شارداً . ظل أسيراً لدى الهنود بضع سنين ، فتعلم إلى حد ما عدة لغات هندية . وعرف أن الحكم الأزتيكى كان مثار استياء عميق لدى الكثيرين من رعاياه . وبتحالفه مع هؤلاء الحانقين تقدم كورتيز فوق الجبال حتى دخل وديان المكسيك (١٥١٩) .

فأما كيف دخل إلى المكسيك ، وكيف قُتل مونتزوما رئيسها وقائدها فى الحرب على يد مواطنيه لمالأته الأسبان ، وكيف حوصر كورتيز فى المكسيك ، ثم هرب مخلفاً وراءه مدافعه وخيله ، وكيف استطاع بعد تقهقر رهيب إلى الساحل أن يعود ويخضع البلاد بأكملها ، — فقصة رومانسية جميلة لا نستطيع حتى أن نحاول أن نقصها عليك هاهنا . وما يزال الدم الهندى يغلب على سكان المكسيك إلى يومنا هذا ، ولكن اللغة الأسبانية حلت هناك محل اللغات القومية القديمة ، غير أن الثقافة الموجودة الآن ثقافة كاثوليكية وأسبانية .

فأما دولة پيرو الأعجب شأناً فقد وقعت فريسة بين براثن مغامر آخر هو پيزارو . فإنه أقلع من برزخ بنما فى ١٥٣٠ ، ومعه حملة مكونة من ١٦٨ أسبانيا .

فحذا حذو كورتيز بأن أفاد من الاختلافات الداخلية بين الأهالى وضمن بذلك الاستيلاء على تلك الدولة المنكودة الحظ . وعلى غرار ما فعله كورتيز أيضاً حين اتخذ مونتزوما أسيراً وألعوبة فى يده ، فإنه قبض على « إنكا »[1] بيرو بالخديعة وحاول أن يحكم البلاد باسمه .

وهنا أيضاً لا نستطيع أن نوفى الأحداث المعقدة التى تلت ذلك ، حقها من الإيضاح ، أو نسهب القول فى الفتن الفاشلة السيئة التدبير التى قام بها الوطنيون ، و وصول مدد أسبانى جديد من المكسيك ، ثم تحويل الدولة إلى مقاطعة أسبانية . كذلك لسنا بمستطيعين أن نزيدك بياناً عن انتشار المغامرين الأسبانيين انتشاراً سريعاً فوق بقية أمريكا خارج منطقة البرازيل التى كان البرتغاليون يحتفظون بها لأنفسهم . وكانت قصــة كل منها تكاد تكون فى كل الحالات قصة مغامرين وقساوة ونهب واستلاب . وكان الأسبان يسيئون معاملة الأهالى ، ويتشاجرون فيما بينهم ، وذلك لأن قانون أسبانيا ونظامها ، كانا منهم بمنأى تمتد شهوراً بل سنوات ، فلم ينتقل دور العنف والفتح إلى دور حكم واستقرار إلا بغاية البطء . ولكن قبل أن يستتب النظام بزمن مديد فى أمريكا ، أخذ فيض متواصل من الذهب والفضة ينهمر عبر المحيط الأطلسى إلى الأسبان حكومة وشعباً .

وبعد ما انتهى طور اصطياد الكنوز العنيف الأول ، جاء طور الزراعة وفتح المناجم وبذلك نشأت أول المشكلات العمالية فى العالم الجديد . فاستعُبد الهنود بادئ الأمر فى شىء كثير من الوحشية والظلم ؛ ولكن مما يشرف الأسبان أنهم لم يدعوا الموضوع يمر بلا انتقاد . فوجد الوطنيون أنصاراً يعطفون عليهم ، أنصاراً عامرة أفئدتهم بالشهامة ، فى هيئة الرهبان الدومينيكيين وفى شخص قسيس علمانى هو « لاس كاساس Las Casas » الذى قضى ردحاً من الزمان يشتغل مزارعاً ومالكاً للرقيق فى كوبا حتى وخزه ضميره . وابتدأ أيضاً استيراد العبيد الزنوج من أفريقية الغربية فى وقت مبكر جداً من القرن السادس عشر . وبعد فترة غير طويلة أخذت المكسيك

---

(١) إنكا : لقب ملك بيرو قبل أن فتحها الأسبان . (المترجم)

والبرازيل وأمريكا الجنوبية الأسبانية تتحول إلى بلاد مالكة للعبيد منتجة للثروات ؛

ولسنا بمستطيعين أن نحدثك هنا كما نشتهى : عن الجهود الحضارية الممتازة التى قام بها فى أمريكا الجنوبية ، وبوجه أخص بين الوطنيين ، الرهبان الفرنسسكيون ثم اليسوعيون (الجزويت) الذين هبطوا أمريكا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر (بعد ١٥٤٩) .

وهكذا سمت أسبانيا من الشئون العالمية إلى مرتبة موقوتة من القوة والتبريز فى



(شكل ١٦٣) المكسيك وبيرو

شئون العالم . كان ارتفاعها فجائياً جداً بارزاً ومرموقاً . وكانت تلك الشبه الجزيرة القحلة الوعرة التضاريس ، منقسمة على نفسها منذ القرن الحادى عشر ،

كما أن سكانها المسيحيين ظلوا فى كفاح مستمر مع العرب ؛ ثم حدث بطريقة تكاد تشبه الصدفة المحضة أنها أحرزت الوحدة فى أنسب الأوقات لجنى أول ثمار اكتشاف أمريكا . وقبل ذلك الزمان ، كانت أسبانيا على الدوام قطراً فقيراً ، وهى ما تزال حتى اليوم قطراً فقيراً ، وتكاد تكون ثروتها الوحيدة منحصرة فى مناجمها . ومهما يكن من شىء فإنها ظلت قرناً من الزمان سيدة العالم بسبب احتكارها لذهب أمريكا وفضتها .

وكانت ظلال رايات الأتراك والمغول ما تزال ترفرف على شرق أوربا وجنوبها وتهددهما ؛ وكان اكتشاف أمريكا فى حد ذاته نتيجة للفتوح التركية . وإلى الاختراعين المغوليين ، البوصلة والورق ، وإلى الأثر المنبه الراجع إلى الرحلات فى آسيا ، وإلى العلم المتزايد بثروة آسيا الشرقية وحضارتها — يرجع الفضل الأكبر فى حدوث ذلك التضرم (التأجج) المدهش فى الطاقات العقلية والجثمانية والاجتماعية التى تأججت على « حافة المحيط الأطلسى » . ذلك أن فرنسا وانجلترة دخلتا الميدان عُقَيب دخول البرتغال وأسبانيا مباشرة ، ثم تلتهما للفور هولندة ، فقامت كل واحدة من الثلاثة فى حينها بدور التوسع وتكوين إمبراطورية وراء البحار .

وعندئذ ينتقل مركز الاهتمام فى التاريخ الأوربى الذى كان محصوراً فى بلاد المشرق Levant ، متحولا عن جبال الألب والبحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى . وانقضت بضعة قرون انحدرت فيها الإمبراطورية التركية ، والروسيا وآسيا الوسطى والصين إلى منزلة ثانوية نسبياً على المسرح حتى أهملها المؤرخ الأوربى ولم يعد يسلط عليها أنواره الوهاجة . ورغم هذا فإن مناطق العالم المركزية هذه تظل مركزية على الدوام ، وتظل رفاهيتها ومشاركتها ضروريتين لسلام البشرية الدائم .

١١ — رأى ماكيافللى فى العالم

الآن سنلقى نظرة إلى النتائج السياسية المترتبة على هذا التحرر الهائل ، وهذا التوسع الضخم اللذين ألما بالفكرات الأوربية إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، نتيجة للتطور الجديد للعلم ، وارتياد العالم والاتساع العظيم للمعرفة بوساطة الورق

والطباعة ؛ ولانتشار تهافت جديد على الحرية والمساواة . فكيف كان تأثير تلك الحال فى عقلية البلاطات والملوك التى كانت تدير الشئون الرسمية للبشرية ؟ لقد سبق أن أريناك كيف أخذ الضعف يدب إلى قبضة الكنيسة الكاثوليكية على ضمائر الناس فى ذلك الأوان ولم يبق أحد على أى حظ كبير من الحماسة للكنيسة إلا الأسبان ، وذلك لقرب العهد بخروجهم من حرب دينية طويلة انتهت آخر الأمر بالنصر على الإسلام . وكان من آثار الفتوح التركية مع زيادة واتساع القدر المعروف من العالم أن حرمت الإمبراطورية الرومانية من كرامتها التليدة التى أضفت عليها صفة الشمول العالمية ، ذلك بأن نظام أوربا العقلى والخلقى القديم كان قد شرع يتحطم . فماذا كان يحدث لدوقات وأمراء وملوك النظام القديم إبان عصر التغير هذا ؟

فنى إنجلترة كما سنخبرك فيما بعد ، كانت هناك نزعات خفية وشائقة جداً تدفع بالناس صوب طريقة جديدة فى الحكم ، هى طريقة الحكم البرلمانى ، التى قدر لها أن تنتشر فيما بعد فى كل بقاع العالم تقريباً . ولكن العالم فى جملته لم يكد يحس بوجود هذه النزعات فى القرن السادس عشر .

وقل من الملوك من تركوا لنا يرميات تتجلى فيها الصراحة والإخلاص ؛ فإن الملكية والصراحة أمران لا يجتمعان ؛ والملكية فى ذاتها « وضعة »(١) تتخذ . ومن ثم فالمؤرخ مضطر إلى أن يعمل فكره حدساً وتخميناً فيما تحويه الرأس التى تلبس التاج بقدر ما يستطيع . ولا مراء فى أن سيكولوجيا الملوك تغيرت تغيراً كبيراً مع تقدم العصور . ومهما يكن الأمر ، فإن لدينا كتابات رجل من رجال ذلك الأوان بالغ غاية الاقتدار نصب نفسه لدراسة وبسط « أساليب الحكم الملكى » على ما كانوا يفهمونه فى أواخر القرن الخامس عشر .

ذلكم الرجل هو الفلورنسى البعيد الذكر نيقولو ماكيافللى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) ، نشأ فى أسرة طيبة وربى فى بحبوحة معقولة من العيش ، ودخل الخدمة العامة للجمهورية وهو فى الخامسة والعشرين . وظل يعمل فى الوظائف الدبلوماسية الفلورنسية ثمانية عشر عاماً ؛ فأسند إليه عدد من السفارات . وفى (١٥٠٠) أرسل إلى فرنسا ليتفاهم مع الملك

(١) الوضعة : Pose كما فى التصوير ، وضع خاص يتخذه الناس لأنفسهم ، وكثيرا ما يكون متكلفا . (المترجم)

الفرنسى . وظل من ١٥٠٢ إلى ١٥١٢ اليد اليمنى (لرئيس فلورنسا مدى الحياة) سودرينى (Soderini) . وأعاد ماكياڤللى تنظيم الجيش الفلورنسى ، وكتب الخطب للرئيس مدى الحياة (gonfalonier) ، وكان فى الواقع هو الذكاء المسيطر على الشئون الفلورنسية . وعند ما تغلبت أسرة ميديشى التى كان الأسپان يناصرونها على سودرينى الذى كان يعتمد على معاضدة الفرنسيين ، حاول ماكياڤللى أن يحول خدماته إلى الظافرين ولكنه عُذِّب على المطاطة[1] ، ثم طرد من الخدمة . فاتخذ لنفسه مقاماً فى ڤيلا على مقربة من سان كاسنشانو ، تبعد عن فلورنسا اثنى عشر ميلا تقريباً ، وهناك أخذ يروح عن نفسه من ناحية بجمع وتأليف الأقاصيص الشهوانية الداعرة لإرسالها إلى أحد أصدقائه فى روما ، ومن ناحية أخرى بكتابة كتب فى السياسة الإيطالية ، التى لم يعد يستطيع أن يقوم فيها بدور . وكما أننا مدينون بكتاب رحلات ماركوپولو إلى سجنه ، فإنا ندين لكتب ماكياڤللى « الأمير — والتاريخ الفلورنسى — وفن الحرب » إلى عزله وإلى شعوره بالسآمة والملل فى سان كاسنشانو .

وتنحصر القيمة الدائمة لهذه الكتب فى الفكرة الواضحة التى تعرضها علينا عن نوع العقول التى كانت تحكم ذلك العصر ، والتحديدات التى كانت تغلها . فإن جوها كان جوه الذى فيه يعيش . فإذا كان أدخل ذكاء حاداً مفرطاً إلى محيط أعمالهم ، فإنه لم يزد عن مجرد وضعها تحت ضياء أسطع .

وقد تأثر ذهنه الحساس تأثراً عظيما بمكر سيزار بورچيا وقساوته وجرأته وأطماعه ، وهو دوق ڤالنتينو الذى قضى ماكياڤللى فى معسكره بضعة شهور مبعوثاً من قبل مولاه فصور ذلك الشخص الباهر فى صورة مثالية فى كتابه « الأمير » . وينبغى للقارئ أن يفهم أن سيزار بورچيا (١٤٧٦ — ١٥٠٧) كان ابن البابا اسكندر السادس : رودريجو بورچيا (١٤٩٢ — ١٥٠٣) . وربما دهش القارئ من وجود بابا له ولد ، ولكن لا بد لنا من تذكر أن هـــذا البابا كان من البابوات السابقين على الإصلاح الدينى . وكانت البابوية فى ذلك الأوان فى حال تراخ خلقى ، ومع أن اسكندر ، كان بوصفه قسيساً قد نذر أن يعيش أعزب ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعيش صراحاً

---

(١) المطالة أو المداراء . آلة للتعذيب بمط الجسم والأطراف . (المترجم)

مع نوع من الزوجة بلا زوجية ، ومن توجيه موارد العالم المسيحي لرفع شأن عائلته . وكان سيزار شاباً قوى الطموح والجرأة ، بدرجة تكاد تتجاوز طاقة الزمان الذى عاش فيه ؛ وقد دبر منذ وقت مبكر مقتل أخيــه الأكبر ، وكذا زوج أخته لوكريشيا . والواقع أنه غدر بعدد من الناس وقتلهم . وأصبح بمساعدة والده دوقاً على شقة كبيرة من وسط إيطاليا حيث زاره ماكيافللى . ولم يظهر إلا الشيء القليل من المقدرة العسكرية ، وإن أبدى مهارة فائقة وقدرة إدارية جسيمتين . وكانت عظمته من ذلك النوع العارض غير المستديم إلى أقصى حد . فما أن مات والده حتى انهاوت كما تنهار كرة منفوخة وخزها دبوس . ولكن ماكيافللى لم يتبين ما كان يصم تلك العظمة من ضعف وعدم سلامة . والحق أن أعظم دواعى اهتمامنا بسيزار بورچية ينحصر فى أنه حقق أعظم مثل أعلى ارتآه ماكيافللى عن أمير فائق ناجح .

وقد كثرت المؤلفات التى حاول كتابها أن يبينوا أن ماكيافللى كان يرمى من وراء كتاباته السياسية إلى مقاصد عريضة الآفاق شريفة الأهداف ؛ بيد أن كل أمثال هذه المحاولات التى يقصد بها رفعه إلى موضع النبل ، تحرمه من تحمس واهتمام القارئ المتشكك المصر على قراءة السطور ذاتها فى سفر ماكيافللى بدل قراءة أشياء خيالية بين السطور ، ومن الجلى أن الرجل لم يكن يؤمن البتة بأى تقوى ولا صلاح ، ولا يخامره أى اعتقاد فى إله يحكم العالم ولا وجود رب فى قلوب الناس ، ولا أى فهم لقوة الضمير وسلطانه على الرجال . ولم يكن ممن يؤمنون برؤى النظام الإنسانى اليوتوبى العالمى العام ، ولا بأية محاولات لتحقيق « مدينة الرب » . فإنه لم يكن يريد مثل هاته الأشياء . وكان يلوح له أن الحصول على القوة ، وإشباع رغبات المرء وحاجاته الجسمية وأحقاده ، والترنح بنشوة الظفر فى العالم ، يجب أن تكون التاج الذى يكلل الرغبات الإنسانية جميعها . ولا يستطيع أن يحقق مثل هذه الحياة تحقيقها الكامل إلا أمير . وواضح أن مسحة من الجبن ، أو إحساساً بحقارة مدعياته الشخصية ، جعلته يتخلى عن مثل تلك الأحلام بالنسبة لنفسه ؛ ولكن لعله يأمل على الأقل أن يخدم أحد الأمراء ، وأن يعيش على مقربة من المجد ، وأن يشارك فى المغانم والسلب واللذات الحسية والنزعات الشريرة المشبعة . ولعله يستطيع أن يجعل

من نفسه شخصاً لا يستغنى عنه ! ومن ثم نصّب نفسه لطلب التعمق والخبرة فى فن الإمارة ، فساعد سودرينى حتى أورده موارد الفشل . فلما مطه المديتشيون فى المطاطلة ونبذوه ، وانقطع به ما بقى لديه من أمل حتى فى أن يكون فى البلاط طفيلياً ناجحاً ، كتب هذه الكتب الصغيرة الدائرة حول الدهاء ليظهر أى خادم ماهر فقده بعض الأمراء ! ! . والفكرة المتسلطة على عقله ، التى هى مدار مساهمته العظيمة فى الأدب السياسى ، تتلخص فى أن الالتزامات الخلقية على الرجال العاديين ، لا يمكن أن تقيد الأمراء .

ومن الناس من يميلون إلى نسبة فضيلة الوطنية إلى ماكيافللى ؛ لأنه فكر فى أن إيطاليا يجوز أن تتحد وتتقوى ، ــ وهى التى كانت ضعيفة منقسمة على نفسها إذ غزاها الأتراك ولم ينقـــذها من فتحهم إياها إلا موت السلطان محمد الثانى ؛ كذلك اقتتلت على امتلاك أرضها الجيوش الفرنسية والأسبانية كأنما كانت شيئاً فاقد الحياة ؛ ولكنه لم ير فى هذا الاحتمال إلا فرصة عظيمة تتاح لأمير . ولم يطالب بوجود جيش قومى إلا لأنه رأى طريقة الإيطاليين فى القيام بالحرب بوساطة استئجار رجال من المرتزقة الأجانب ، طريقة لا يرجى من ورائها خير . فإن الجند فى مثل هذه الحالة قد تنتقل إلى سيد يزيد لها فى أعطياتها ، أو هى قد تقرر انتهاب الدولة التى فى حماها . وقد أثرت انتصارات السويسريين على أهل ميلان فى نفسه تأثيراً عميقاً ، ولكنه لم يسبر قط سر الروح الحرة التى مهدت السبيل لتلك الانتصارات . وأخفقت الميليشيا الفلورنسية التى أنشأها إخفاقاً تاماً . وكأنى به رجلا ولد ضريراً وعميت عيناه عن الصفات التى تجعل الشعوب حرة والأمم عظيمة .

ومع هذا فإن هذا الرجل الضرير من الناحية الأخلاقية ؛ كان يعيش بين ظهرانى عالم صغير كل رجاله صم وعميان من الناحية الخلقية . وواضح أن أسلوب تفكيره ، إنما هو أسلوب تفكير كل بلاط فى أيامه ؛ فقد كان هناك فى كل مكان من خلف أمراء الدول الصغيرة التى نبتت عن تحطم الإمبراطورية وفشل الكنيسة ، مستشارون وسكرتيرون ووزراء مؤتمنون من الطراز الماكيافللى . فإن توماس كرومويل مثلا ، وزير هنرى الثامن الإنجليزى بعد انفصاله عن كنيسة روما ، كان يعد كتاب ماكيافللى « الأمير » زبدة الحكمة السياسية . فإذا كان الأمراء أنفسهم على درجة كافية من الذكاء

والمهارة ، أصبحوا هم كذلك ماكيافللى النزعة . وإذا هم يدبرون الخطط ليتفوق أحدهم على الآخر ، وليسلبوا معاصريهم الأضعفين ، وليدمروا أندادهم ومنافسيهم ، لكى يصعروا خدهم تيها فترة قصيرة من الزمان . ولم يدر بخلدهم فى قليل ولا كثير أية خطة لتنظيم مصائر الإنسانية ، تعظم تلك اللعبة التى كانوا يلعبونها فيما بينهم :

١٢ – جمهورية سويسرا

من الشائق الممتع أن يلحظ المرء أن هذه « المشاة » السويسرية التى أثرت فى ماكيافللى إلى هذا الحد ، لم تكن تنتسب إلى نظام الأسراء فى أوربا . إذ نشأ فى المنطقة



(شكل ١٦٤) خريطة لسويسرة توضح أهم الطرق والممرات

المركزية نفسها من النظام الأوربى ، اتحاد كونفدرالى صغير من الدول الحرة ، هو الاتحاد الكونفدرالى السويسرى ، الذى ما لبث أن تحول صراحاً فى (١٤٩٩) إلى النظام الجمهورى بعد بضعة قرون من الاستمساك بالدولة الرومانية المقدسة اسمياً . فى زمن

مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر ، اعتزم الفلاحون الساكنون فى الوديان الثلاثة المجاورة لبحيرة لوسرن ، أن يستغنوا عن كل سيد يسودهم ، وأن يدبروا شئونهم الخاصة ، على طريقتهم الخاصة . وكان أكبر مصدر لمتاعبهم مدعيات عائلة نبيلة فى وادى الآر ، هى أسرة هابسبرج . وفى (١٢٤٥) أحرق رجال شويتز (Schwyz) قلعة « هابسبرج الجديدة » ، التى كانت أقيمت قرب لوسرن لإرهابهم ، وما تزال أطلالها باقية هناك إلى اليوم .

كانت عائلة هابسبرج هذه عائلة نامية ميالة إلى زيادة ممتلكاتها ، فكانت لها الأراضى والممتلكات فى كل أرجاء ألمانيا ، وفى (١٢٧٣) بعد انقراض بيت هوهنشتاوفن ، انتخب رودلف آل هابسبرج إمبراطوراً على ألمانيا ، وهو امتياز أصبح آخر الأمر وراثياً فى عائلته . ومع ذلك فإن رجال أورى (Uri) وشـــويتز وأنترڤالدن (Unter Walden) صمموا على ألا يحكمهم أى هابسبرجى ، فكوّنوا فيما بينهم حلفا دائماً فى (١٢٩١) ، ثم صمدوا بين الجبال منذ ذلك الزمان إلى يومنا هذا ، فكانوا فى بادىء الأمر أعضاء أحراراً فى الإمبراطورية ، ثم أصبحوا اتحاداً كونفدرالياً مستقلا استقلالا مطلقاً . ويضيق بنا المقام هنا عن ذكر أسطورة بطولة وليم تل ، كذلك ليس لدينا متسع نتعقب فيه اتساع الاتحاد الكونفدرالى تدريجياً إلى حدوده الراهنة . ولم تلبث أن أضيفت للفور وديان تتكلم بالرومانشية[1] والإيطالية والفرنسية إلى هذه المجموعة الجمهورية الصغيرة الباسلة . وقد أصبح علم الصليب الأحمر وهو علم جنيف رمز الإنسانية الدولية فى معمعان الحروب . وصارت مدن سويسرا المشرقة الناجحة تعد على الدوام ملتجأ للرجال وملاذ الأحرار الفارين من جميع أنواع المظالم والاستبداد .

١٣ ــ (١) حياة الإمبراطور شارل الخامس

إن معظم الشخصيات التى تبرز فى التاريخ ، إنما يتم لها ذلك بسبب إتصافها ببعض الصفات الشخصية الاستثنائية ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ، وهى التى تجعل لهم وزناً يرجح وزن قرنائهم . ولكن ولد فى غنت من أعمال بلجيكا فى (١٥٠٠) رجل عادى المقدرة سوداوى المزاج ، أمه امرأة ناقصة العقلية ، تزوجت لأغراض سياسية ،

(١) الرومانسية هى اللهجات الموجودة فى أعالى نهر الراين . (المترجم)

وقدر له – ولم يكن ذلك نتيجة خطأ منه ولا فضل له – أن يصبح محط أبصار أوربا وأن توضع على كاهله متاعبها المتكدسة . والمؤرخ ملزم أن يعيره عظمة عارضة لا يستحقها بأية حال ، وأن يضعه إلى جوار أفراد نابهين مرموقين من أمثال الإسكندر وشرلمان وفردريك الثانى . ذلك هو الإمبراطور شارل الخامس . وقد ظل زماناً والجو الذى يحيط به يوحى بأنه أعظم من تولى الملك فى أوربا منذ أيام شرلمان . على أن الواضح أنه هو وعظمته الوهمية ثمرة سياسة الزواج التى انتهجها جده الإمبراطور مكسمليان الأول (١٤٥٩ – ١٥١٩) .

وذلك بأن بعض العائلات بلغت المجد قتالا ، كما دبرت بعضها الأخرى المؤامرات للوصول إلى السيطرة الدنيوية ، أما أسرة هابسبرج فإنها شقت طريقها إليها زواجاً . ابتدأ مكسميليان حياته بميراث هابسبرج المكون من النمسا واستيريا وجزء من الألزاس ونواح أخرى ، فتزوج الأراضى المنخفضة وبورجنديا – إذ أن اسم السيدة لا يكاد يعنينا . ولكن أفلت منه معظم برجنديا بعد وفاة زوجته الأولى ، على أنه احتفظ بالأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج (! !) بريتانى ولكنه لم يوفق . وتولى الإمبراطورية بعد أبيه فردريك الثالث (١٤٩٣) ثم تزوج دوقية ميلانو . وأخيراً زوج ابنه من الضعيفة العقل ابنة فرديناند وايزابلا ، وهما فرديناند وايزابلا اللذان عرفناهما مع كولمبس ، واللذان لم يحكما فقط أسبانيا الجديدة الموحدة ، وسردينيا ، ومملكة الصقليتين بل أصبحا – بحكم المنح البابوية لأسبانيا – حاكمين على كل أمريكا غربى البرازيل . وهكذا اتفق أن حفيده شارل ورث معظم القارة الأمريكية ، وبين ثلث ونصف ما لم يستول عليه الأتراك من أوربا . ومات والد شارل فى (١٥٠٦) وبذل مكسميليان قصاراه ليضمن انتخاب حفيده للعرش الإمبراطورى .

وتولى شارل حكم الأراضى المنخفضة فى (١٤٠٦) ، وأصبح بالفعل ملكاً على الممتلكات الإسبانية المترامية (لأن أمه كانت بلهاء) عندما توفى جده فرديناند فى (١٥١٦) . فلما أن مات جده مكسميليان (١٥١٩) ، انتخب فى (١٥٢٠) إمبراطوراً وهو ما يزال فى العشرين تلك السن الغضة نسبياً .

واعترض على انتخابه إمبراطوراً الملك الفرنسى الشاب الذكى فرنسيس الأول ،

الذى تولى العرش الفرنسى فى (١٥١٥) وهو فى الحادية والعشرين . وكان يعضد فرنسيس فى ترشيحه البابا ليو العاشر (١٥١٣) ، الذى يقتضى منا أن نلقبه بلقب الذكى هو أيضاً . كان ذلك العصر فى الحق عصر ملوك أذكياء . فهو عصر بابر (Baber) فى الهند (١٥٢٦ – ١٥٣٠) وسليمان القانونى فى تركيا (١٥٢٠) ، وكان كل من ليو وفرنسيس يخشى تركز مثل هذا القدر الضخم من القوة فى يد رجل واحد ، الأمر الذى ينذر به انتخاب شارل . وكان الملك الآخر الوحيد الذى يبدو ذا بال فى أوربا هو هنرى الثامن ملك إنجلترة ، الذى آل إليه الملك فى (١٥٠٩) وهو فى الثامنة عشرة . وقد رشح نفسه هو أيضاً للمنصب الإمبراطورى . ويستطيع القارئ الإنجليزى الناشط الخيال أن يسلى نفسه باستنتاج العواقب التى كان يحتمل ترتبها على ذلك الانتخاب .

واتسع مجال النشاط الدبلوماسى بين هذا التالوث الملكى . وقد عرّج شارل وهو فى طريق عودته من أسبانيا إلى ألمانيا على إنجلترة واستطاع أن ينال مساعدة هنرى ضد فرنسيس بتقديمه الرشوة لوزيره الكردينال ولزى . وكذلك قام هنرى بمظاهرة عظيمة للصداقة بينه وبين فرنسيس ، فأدبت بفرنسا المآدب ، وأقيمت ألعاب الفروسية وما إلى ذلك من ضروب الشهامات التى أكل عليها الدهر وشرب ، فى نزهة ملكية يعرفها المؤرخون باسم « ميدان القماش الذهبى » (١٥٢٠) . وكانت الفروسية قد أخذت تصبح تصنعاً جيلاً فى القرن السادس عشر . وما يزال مؤرخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسميليان الأول باسم « آخر الفرسان » .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن انتخاب شارل إنما تم بعد بذل قدر عظيم من الرّشَى . وكان أكبر مناصريه ودائنيه ، دار الأعمال الألمانية العظيمة التابعة لأسرة فاجار . ذلك أن المعالجة للواسعة النطاق لشئون المال والائتمان ، وهى التى نسميها باسم « المالية » ، والتى ولت من الحياة الأوربية السياسية مع انهيار الإمبراطورية الرومانية ، قد أخذ يدب فى عروقها آنذاك دبيب القوة . ولا شك أن ظهور آل فاجار ، الذين كانت ديارهم وقصورهم تبز ما للأباطرة من ديار وقصور ،–



(شكل ١٦٥) أوربا فى عهد شارل الخامس

يسجل حركة إلى أعلى لقوى جديدة ابتدأت قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة بكاهور فى فرنسا وفلورنسا ومدن إيطالية أخرى. وتعود النقود والديون العامة ، والتقلقل الاجتماعى والتذمر ، إلى الظهور على مسرحنا الصغير « فى هذه المعالم » . ولم يكن شارل الخامس إمبراطوراً هابسبرجياً قدر ما كان فاجارياً

وظل هذا الشاب الأشقر الذى لا يبدو عليه سيماء الذكاء الكثير ، والذى له شفة عليا غليظة وذقن طويل قبيح ، ردحاً من الزمان ألعوبة فى أيدى وزرائه إلى حد كبير . فإن رجالاً مقتدرين طبعوا على غرار ماكيافللى كانوا فى البداية يرشدونه ويوجهونه فى فنون الملكية ، وأساليبها ثم أنشأ يظهر ذاتيته بطريقة بطيئة ولكنها فعالة وكان أول ما واجهه بألمانيا منذ بداية حكمه الخلافات المربكة الناشئة فى المسيحية . فإن الثورة على الحكم البابوى التى لم تنقطع منذ أيام هس وويكليف ، قد أجج لهيبها من عهد قريب العودة من جديد إلى بيع صكوك الغفران بيعاً تتجلى فيه

الاستهانة والجرأة المفرطة ، وذلك لجمع المال لإتمام كنيسة القديس بطرس فى روما . فإن راهباً اسمه لوثر ، تكرس قسيساً ، وعكف على الكتاب المقدس يقرؤه ، قد انزعج أيما انزعاج عند زيارته روما لبعض شئون طائفته لما رآه من خفة البابوية وبذخها الدنيوى ، فانبرى فى ويتنبرج (١٥١٧) ، ينحى باللائمة على هذه الوسائل التى ياجأ إليها البابا رافعاً ضدها علم الخصومة شارحاً بعض المباحث الدينية ؛ ونشبت نتيجة لذلك معركة جدلية ذات شأن .

وقد خاض لوثر فى بادئ الأمر تلك الخصومة باللغة اللاتينية ، ثم انقلب لوقته إلى الألمانية ، وسرعان ما دخل الشعب كله فى وطيس الحومة . وألفى شارل هذا النزاع متأججاً عندما عاد من أسبانيا إلى ألمانيا . فدعا إلى عقد (دايت Diet) أى جمعة إمبراطورية بمدينة ورمس على نهر الراين . واستدعى لوثر إلى مجلس الدايت هذا ، وكان البابا ليو العاشر طلب إليه أن يسحب آراءه فأبى أن يفعل ذلك . فحضر إلى المجلس ، ولكنه « فى نفس روح هس تماماً » أبى أن يسحب أقواله ، إلا أن يقنع بخطئه بالمناقشة المنطقية أو بسلطان من الكتب المقدسة . ولكن حماته من الأمراء كانوا أقوى من أن يصيبه ما أصاب چون هس .

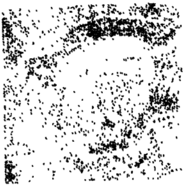


(شكل ١٦٦) الامبراطور شارل الخامس
(تصوير تيتيان)



(شكل ١٦٧) فرانسيس الاول
(بريشة تيتيان)

وكان فى ذلك موقف محير للإمبراطور الشاب ، وهناك أسباب تحملنا على الظن



(شكل ١٦٨) هنرى الثامن
(تصوير هولبين)

أنه كان فى بادئ الأمر ميالا إلى نصرة لوثر على البابا . ذلك أن ليو العاشر كان من المعترضين على انتخاب شارل ، وكان على صداقة وود مع منافسه فرنسيس الأول . ولكن شارل الخامس لم يكن ماكيافلليا ماهراً ، كما أنه اكتسب فى أسبانيا قدراً جسيما من الإخلاص للدين . لذلك وقف ضد لوثر . فانضم إلى المصلح الدينى كثير من الأمراء الألمان وبخاصة منتخب سكسونيا . واختفى لوثر عن الأنظار تحت حماية المنتخب السكسونى ، وألفى شارل نفسه أمام بدايات الصدع الذى قدّر له أن يشق المسيحيه إلى معسكرين متناحرين .

وجاء على أثر هذه الاضطرابات ، والراجح أنه كان ذا صلة بها عصيان واسع الانتشار بين الفلاحين فى كل أرجاء ألمانيا . على أن هذه الاضطرابات ملأت فؤاد لوثر بالخوف الشديد . إذ هاله ما رأى فيها من إسراف القتل والعنف . ومنذ ذلك الحين كف الإصلاح الدينى الذى كان يدعو إليه عن آن يكون إصلاحاً بوساطة الشعب وأصبح إصلاحاً بواسطة الأمراء . وذلك أنه فقد ثقته فى ذلك « الحكم الحر » الذى قام يناضل عنه برجولية تامة .

وفى الوقت ذاته أدرك شارل أن إمبراطوريته الضخمة كان يحدق بها خطر عظيم جداً من ناحيتيها الغربية والشرقية . فكان إلى الغرب منه منافسه الناشط القوى فرنسيس الأول ، وكان الترك إلى الشرق يحتلون هنغاريا وقد تحالفوا مع فرنسيس ، وأخذوا يطالبون صاخبين بمؤخرات من الجزية على الممتلكات النمسوية . وكان جيش أسبانيا وأموالها رهين إشارة شارل ، ولكن كان من أعسر الأمور عليه أن يحصل على أى عون مالى فعال من ألمانيا . وقد أنشأ جـــده جيشاً من المشاة الألمان على الطراز السويسرى ، يغلب عليه الأصول التى يبسطها كتاب ماكيافللى « فن الحرب » ولكن كان لا بد لهذه الجنود من الأعطيات ، وكان لا بد لمواورده الإمبراطورية من أن

تستكمل بقروض بغير ضمانات ، وترتب عليها آخر الأمر أن جرّت نصراءه آل فاجار إلى وهدة الإفلاس .

وجملة القول أن شارل قد وفق بتحالفه مع هنرى الثامن ، إلى التغلب على فرنسيس الأول والأتراك . وكان معتركهما الرئيسى هو شمال إيطاليا ، واتسمت القيادة فى كل من الجانبين بالغباء ، فكان ما يقوم به الطرفان من التقدم والتقهقر متوقفاً فى أعظم شأنه على وصول الأمداد ، واجتاح الجيش الألمانى فرنسا ، وأخفق ، دون الإستيلاء على مرسيليا ، ثم ارتد إلى إيطاليا ، وخسر ميلان ، وحوصر فى پاڤيا . وضرب فرنسيس الأول على پاڤيا حصاراً طويل الأمد لم يكلل بالنجاح ، ثم قطعت السبيل عليه قوات ألمانية جديدة وهزمته وجرحته وأخذته أسيراً ، فأرسل إلى زوجته الملكة يبلغها « أنه فقد كل شىء إلا الشرف » ، وعقد صلحاً مهيناً ثم نقضه بمجرد أن أخلى سراحه — فكأن خلاص الشرف نفسه لم يكن إلا شيئاً وقتياً . ! ! . . .

وعند ذلك انضم هنرى الثامن والبابا — عملا منهما بقواعد الاستراتيجيا الماكياڤللية إلى جانب فرنسا ، لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة . أما الجيوش الألمانية فى ميلان تحت إمرة كونستابل بوربون ، فإنها لما لم تتسلم أعطياتها ، قامت على روما بغارة كانت فيها أدنى إلى دفع قائدها أمامها منها إلى السير تحت إمرته . ففتحوا المدينة قسراً وأعملوا فيها انتهاباً (١٥٢٧) . واعتصم البابا بقلعة سان أنجلو بينما كان النهب والقتل يعملان عملهما فى الناس . واشترى رحيل القوات الألمانية آخر الأمر بدفع أربعمئة ألف دوقية . ودامت تلك الحروب الحمقاء المربكة عشر سنوات ، فعادت على أوربا كلها بالفقر والخسران وخلفت الإمبراطور وفى يده ميلانو. وفى (١٥٣٠) توّجه البابا فى بولونيا ، وكان آخر إمبراطور ألمانى توّجه البابا . ولا يسع المرء إلا أن يفكر فى ذلك الوجه الأشقر الذى تبدو عليه مسحة من الغباء ، بما ركب فيه من الشفة الغليظة والذقن الطويل ، والذى يحمل التعبير الوقور تعبير من يتجلد إزاء مراسم مريبة وإن جاز أن تكون شريفة .

وفى الوقت ذاته كان الأتراك يشقون طريقهم فى بلاد المجر بقوة عظيمة ،

فإنهم كانوا هزموا ملك المجر فى (١٥٢٦) وقتلوه ، واستولوا على مدينتى بوداپست فى (١٥٢٩) ، وكما ذكرنا آنفاً أوشك سليمان القانونى أن يستولى على ڤيينا . وقلق الإمبراطور قلقاً عظيما لهذا التقدم ، وبذل قصارى جهده لصد غائلة الأتراك ، ولكنه لقى أعظم الصعوبة فى حمل الأمراء الألمان على الاتحاد ، حتى وهذا العدو المرعب على أبوابهم .

وظل فرنسيس الأول ردحاً من الزمان حاقداً حانقاً ، ثم شبت حرب فرنسية أخرى ، ولكن شارل استطاع فى (١٥٣٨) أن يفوز بحمل منافسه على أن يتخذ موقفاً أقرب إلى المودة بإعماله النهب والتخريب فى جنوب فرنسا . وعندئذ عقد فرنسيس وشارل بينهما محالفة ضد الأتراك ، ولكن الأمراء البروتستانت ،وهم الأمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما ، كوّنوا فيما بينهم عصبة على الإمبراطور ، هى العصبة الشمالكلدية (نسبة إلى مدينة شمالكالدن الصغيرة من أعمال هيس ، التى وضع فيها دستور العصبة) ، وبدلا من أن يقوم شارل بحملة لاسترداد المجر إلى أحضان المسيحية ، اضطر أن يوجه فكره إلى الكفاح الداخلى الذى أخذت بوادره تتجمع فى ألمانيا . بيد أنه لم يشهد من ذلك الكفاح إلا حرب الافتتاح . كان كفاحاً قوامه مناوشات دموية حمقاء بين الأمراء ، الذين كانوا يطلبون لأنفسهم الرفعة والمجد ، وكان يندلع آناً حرباً وتدميراً ، ويتدلى آونة إلى المؤامرات والديبلوماسيات الدنيئة ، وكأنى بها جراباً مليئاً بأفاعى السياسات الماكياڤللية التى قدرلها أن تواصل تلويها حتى صميم القرن التاسع عشر ، وأن تجر الدمار والخراب على أوربا الوسطى مرة بعد أخرى .

والظاهر أن الإمبراطور لم يدرك قط القوى الحقيقية التى كانت تعمل فى هذه المتاعب المتجمعة . كان بالنسبة لزمانه ومرتبته رجلا طيباً طيبة استثنائية ، ويبدو أنه كان يعتقد أن الخلافات الدينية التى كانت تمزق أوربا بدد إلى معسكرات متقاتلة — إنما هى خلافات دينية حقا . فطفق يجمع الدايت بعد الدايت والمجلس إثر المجلس فى محاولاته غير المجدية لإصـــلاح ذات البين . ونظرت من جديد قوانين الإيمان والاعترافات . ولا بد لدارس التاريخ الألمانى من أن يكب على دراسة تفاصيل

الصلح الديني الذى عقد فى نورمبرج ، والتسوية التى تمت فى دايت راتسبون وصلح أوجز برج وما إليها . ولن نتجاوز هنا حد ذكرها بوصفها تفاصيل فى حياة الهموم والقلق التى كان يحياها ذلك الإمبراطور الفاخر الجليل .

والواقع أن أحداً من هذه الكثرة الكبيرة من الأمراء والحكام فى أوربا لا يبدو أنه كان يعمل بنية صحيحة وإخلاص . فقد كانت الاضطرابات الدينية الفسيحة الانتشار فى العالم ، ورغبة عامة الناس فى الصدق والصلاح الاجتماعى ، والعلم الآخذ فى الانتشار فى ذلك الزمان ، كانت كل هذه الأشياء تعد فى مخيلة الأمراء ودبلوماسياتهم مجرد أضداد تناصبهم العداء . وانضم هنرى الثامن ملك إنجلترة الذى ابتدأ حياته العملية بكتاب كتبه مناهضاً الهرطقة ، والذى كافأه البابا بأن أنعم عليه بلقب « حامى الدين » ، إلى جماعة الأمراء البروتستانت فى (١٥٣٠) ، لاهتمامه بطلاق زوجته الأولى لعقمها ، وشغفاً منه بشابة مرحة اسمها آن بولين ، ولرغبته كذلك فى الانقلاب على الإمبراطور والانحياز إلى فرنسيس الأول ؛ وأن ينتهب ثروة الكنيسة الهائلة فى إنجلترة . وكانت السويد والدانمارك والنرويج ، انضمت من قبل إلى الجانب البروتستانتى .

ونشبت الحرب الدينية الألمانية فى (١٥٤٦) بعد موت مارتن لوثر ببضعة شهور . وما نحن بحاجة إلى الاهتمام بأحداث الحملة وتفاصيلها . لقد هزم الجيش البروتستانتى السكسونى هزيمة منكرة فى لوشاو . وقبض على فيليب أمير هس (Hesse) الخصم الأكبر الباقى للإمبراطور بطريقة تقارب نكث العهد ثم سجن ، واستبعد شبح الأتراك بدفع جزية سنوية . وفى (١٥٤٧) مات فرنسيس الأول فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . ولذا فإن شارل وصل فى (١٥٤٧) إلى نوع من التسوية ، وقام ببذل آخر جهد لديه لإنشاء سلم حيث لا سلم ولا سلام .

وفى (١٥٥٢) عمت الحرب كل أرجاء ألمانيا مرة أخرى ، ولم ينقذ شارل من الأسر إلا هربه سريعاً من إنسبروك ، وجاءت معاهدة پاساو (Passau) فأوجدت البلاد توازناً غير مستقر . وكان التبرم بمتاعب وفخامة الإمبراطورية ، قد بلغ بنفس شارل نهايته القصوى ، فإنه لم تتوفر له فى أى يوم من الأيام بنية كاملة السلامة ، وكان بطبعه

كسولا متراخياً ، وكان يقاسى عظيم الآلام من النقرس . فتنحى عن العرش . ونقل كل حقوقه الملكية فى ألمانيا إلى شقيقه فرديناند ، وتنازل عن أسبانيا والأراضى المنخفضة لولده فيليب . ثم تقاعد فى أحد الأديرة فى يوست وفى قلبه نوع من الحقد الدفين الفاخر ، بين غابات البلوط والقسطل فى التلال الواقعة إلى الشمال من وادى التاجه ، وهناك توفى (١٥٥٨) .

ولقد أكثر الكتاب من الكتابة فى نغمة عاطفية عن هذا التقاعد ، ذلك الاعتزال للعالم الذى اتجه إليه ذلك الجبار المتعصب الفاخر ، الذى سئم العالم ، وأخذ يطلب سلامه مع الله فى وحدة تقشف صارم . ولكن تقاعده لم يكن بالمنعزل ولا المتقشف ؛ إذ كان معه ما يقارب المئة والخمسين من الأتباع ؛ وكان مُقامه يحوى كل ملذات البلاط دون متاعبه ، وفضلا عن ذلك فإن فيليب الثانى كان ابناً باراً ، نصائح أبيه لديه أوامر واجبة الطاعة . فأما تقشفه وزهده فخير شاهد عليهما هو بريسكوت حيث يقول : « لا يكاد يوجد فى المراسلات اليومية تقريباً المتبادلة بين تابعيه كويكسادا أوجاز تلو وبين الوزير المقيم فى بلد الوليد ، رسالة لا تدور قليلا أو كثيراً حول طعام الإمبراطور أو مرضه » . ويلوح طبيعياً ، أن يجىء أحد الأمرين كأنما هو تعليق مستمر على الآخر . ويندر فى التاريخ أن تكون مثل هاته الموضوعات قوام مراسلات تتبادل مع إدارة الدولة . ولا بد أنه لم يكن من الهين على الوزير أن يحافظ على وقاره أثناء تلاوته الرسائل التى كانت فيها السياسة وفن الطهى والمائدة مختلطين معاً بمثل تلك الدرجة . وأمر الساعى القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أن يعدل طريقه بحيث يمر على بلدة جاراندلا ، ليحضر المؤن للمائدة الملكية . وكان عليه فى أيام الخميس أن يحضر السمك لتقديمه فى « يوم الصيام **jourmaigre** » الذى يتلوه وكان شارل يرى أن سمك النُّقط فى المنطقة المجاورة صغير جداً ؛ ولذا كان من اللازم أن ترسل أسماك أخرى ذات حجم أكبر ، من بلد الوليد . وكانت الأسماك على اختلاف أنواعها تروقة وتلذه ، وكذا كل شىء يقارب السمك فى طبيعته وعاداته . ومن ثمة احتلت ثعابين البحر والضفادع وأم الحلول مكاناً علياً فى قوائم طعام الإمبراطور وكانت الأسماك

المحفوظة وبخاصة الأنشوجة تلقى منه قبولا كبيراً ؛ وأبدى أسفه لأنه لم يحضر معه من الأراضى المنخفضة صنفاً أجود ، وكان مشغوفاً بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء[١] .

وحصل شارل فى (١٥٥٤) على مرسوم من البابا يوليوس الثالث ، يمنحه إعفاء من الصيام ، ويسمح له بأن يفطر فى بكرة الصباح حتى ولو كان ينوى أن يتناول القربان .

« فأما أن شارل لم ينس مطلقاً وهو فى يوست بزة ثيابه ، فأمر يمكن استنتاجه من الحقيقة الواقعة ، وهى أن دولاب ثيابه لم يكن يحتوى أقل من ستة عشر ثوباً من الحرير والقطيفة المبطنة بفرو القاقم أو زغب البط ، أو الشعر الناعم للعنز للبربرى[٢] . فأما أثاث جناحه الخاص وتنجيده — وكم يجب ألا نعتمد على الشائعات المتداولة عنها فى غير تحفظ — فأمر يمكن إدراكه بنظرة واحدة إلى قائمة منقولاته التى أنشأها كويكسادا وجازتلو ، بعيد وفاة سيدهما . فنجد من بينها أبسطة وسجاجيد من بلاد الترك وألكاريز (Alcares)[٣] ومظلات من القطيفة وما ماثلها من أقمشة ، وأستاراً من القماش الأسود البديع ، الذى اختاره منذ وفاة أمه لحجرة نومه الخاصة ، بينما كانت الشقق الأخرى مفروشة بما لا يقل عن خمسة وعشرين طاقا من الطنافس المعلقة من نسج مناويل فلاندر ، وهى موشاة توشية ثمينة بأشكال الحيوانات وصور المناظر الطبيعية .

« وإننا لنجد فيما نجد من الأطباق مجموعة صنعت من الذهب الخالص ، وأخرى ملحوظة بصفة خاصة لغرابة صناعتها . ولما كان عهده عصراً ارتفع فيه فن صناعة المعادن النفيسة إلى أسمى درج الكمال ، فليس لدينا خلجة شك فى أن كثيراً من أبدع الأنواع صنعاً كانت ملك يمين الإمبراطور . ويتراوح وزن جميع الأطباق بين اثنتى عشرة ألف وثلاث عشرة ألف أوقية[٤] .

---

(١) نقلا عن تذييل بريسكوت على كتاب روبرتسون « تاريخ شارل الخامس » .

(٢) العنز البربرى . أى المتربى بمراعى بلاد البربر . (المترجم)

(٣) الكاريز . مدينة بأسبانيا . (المترجم)

(٤) نقلا عن تذييل بريسكوت على كتاب روبرتسون « تاريخ شارل الخامس » .

ولم يكتسب شارل قط عادة القراءة ، ولكنه كان يستمع إلى قارئ يقرأ عليه أثناء تناوله طعامه على طريقة شرلمان ، وكان يدلى بما يصفه أحد الرواة بأنه « تعليقات حلوة سماوية » . كذلك كان يسلى نفسه باللعب الفنية وبالاستماع إلى الموسيقى أو المواعظ ، وبالالتفات إلى الشئون الإمبراطورية التي كانت ما تزال تتوارد عليه ؛ وجاءت وفاة الإمبراطورة ، التي كان متعلقاً بها عظيم التعلق ، فحولت ذهنه إلى الدين تحويلا تجلى فيه التدقيق الشديد والتزام الطقوس والمراسم ، فكان يتجلد نفسه فى أيام الجمعة من الصوم الكبير ومعه بقية الرهبان بعزم قوى يبلغ حد استنزال الدماء .

وكان من أثر هذه الممارسات ومعها النقرس أن انطلق فى نفس شارل عوامل تعصب دينى ، كانت تصده عنها حتى ذلك الحين الاعتبارات السياسية : فاستثار حنقه إلى أقصى حد ظهور التعاليم البروتستانتية فى المنطقة المجاورة لبلد الوليد . « مُرْ رئيس محاكم التفتيش ومجلسه نقلا عنى بأن يتولوا أعمالهم وأن يعملوا الفأس فى جذور الشر قبل أن يستفحل » . . . وعبر عن شكه فى أن لا يكون من المستحسن فى مثل هذه المسألة القائمة ، أن يستغنى عن محاكم العدالة العادية ، وأن يبطل استعمال الشفقة « لكيلا تكون أمام المجرم إذا عفى عنه فرصة لتكرار جرمه » . وضرب المثل مشيداً بطريقة تصرفه فى الأراضى المنخفضة ، « حيث أحرق حياً كل من تمسك بخطئه عناداً ، وقطعت رأس كل من قبلت توبتهم » .

واهتمام شارل بالجنازات يكاد يكون رمزاً إلى مكانه ودوره فى التاريخ . وكأنى به كان يشعر بالحاجة إلى كتابة كلمة « انتهى » إلى ما لا نهاية . فإنه لم يكتف فقط بحضور كل جنازة فعلية تقام فى يوست ، بل كان يأمر بإقامة الصلاة على الموتى الغائبين وكان يقيم صلاة جنازة كاملة فى يوم الذكرى السنوية لزوجته ، وانتهى بالأمر أن أقام حفلة جنازته .

« فجللت حوائط الكنيسة بالأستار السوداء ، ولم يكد وهج مئات الشموع يكفى لإزالة دياجير الظلمات التى أطبقت على المكان ، واجتمع الرهبان فى ثيابهم

الديرية ، وكل أتباع الإمبراطور ، يرتدون ثياب الحداد القاتمة ، حول نعش ضخم ، وقد كسى هو أيضاً بالسواد ، ورفع فى وسط الكنيسة . ثم أقيمت صلاة دفن الموتى ، وارتفعت بين ولولة الرهبان الحزينة أصوات الصلوات لأجل الروح الراحلة ، ابتهالا إلى الذات الإلهية أن تنزلها منازل الأبرار . وذابت نفوس الحضور الحزانى أسى ودموعاً ، إذ طاف بهم خيال ممات سيدهم ، أو قل إن أفئدتهم ربما مستها رحمة لهذا المظهر المؤسف للضعف والوهن . وكان شارل وهو ملتف بجلباب أسود ، حاملا فى يده شمعة مضاءة ، يشارك أفراد حاشيته ، ويشهد جنازته ومأتمه ، وانتهى الاحتفال الحزين بوضعه الشمعة فى يد القسيس ، رمزاً إلى تسليمه روحه إلى القوى القادر » .

وتجعل بعض الروايات شارل يرتدى كفناً ويرقد فى التابوت ، ثم يبقى فيه وحيداً حتى يغادر الكنيسة آخر المشيعين .

ومات شارل فى مدى شهرين من مهزلته هذه . وماتت بموته عظمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة . حقاً إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة واصلت بعده حياتها بعسر كبير حتى أيام نابليون ، ولكن بوصفها شيئاً عليلا على فراش الموت . وما تزال تقاليدها غير المدفونة تسمم إلى يومنا هذا جونا السياسى .

١٣ ـ (ب) بروتستانت إذا رغب الأمير فى ذلك

حمل فرديناند شقيق شارل الخامس لواء الوحدة الذى تخلى عنه أخوه والتقى بالأمراء الألمان فى أوجزبرج (١٥٥٥) . وهنالك حدثت محاولة أخرى لإقامة سلام دينى . ولا أدل على روح تلك التسوية ، وعماية الأمراء ورجال السياسة القائمين بها عن أحداث ذلك الزمان الأكثر عمقاً واتساعاً [illegible] التسوية . [illegible] تقرر أن يرجع الاعتراف [illegible] إلى [illegible] ل وليس إلى أفراد المواطنين . « الرعية تدين بدين الملك cujus regio ejus relirio » .

١٣ ـ (حـ) التيار الفكرى السفلى المضاد

لقد وجهنا ما وجهنا من الالتفات الكبير إلى كتابات ماكيافللى وإلى شخصية شارل الخامس ، لما يلقيانه من فيض الضياء على خصومات الفترة التالية من تاريخنا ؛ وقد تحدث هذا الفصل بقصة الاتساع الضخم فى الآفاق الإنسانية ، والزيادة العظيمة والانتشار الكبير للمعرفة ؛ فرأينا ضمير عامة الناس يستيقظ وشهدنا بوادر تشير إلى ظهور عدالة اجتماعية جديدة أشد عمقاً تنتشر بصورة عامة فى كل أرجاء الحضارة الغربية . ولكن إشاعة النور والفكر هاته كانت تغادر البلاط وحياة العالم السياسية دون أن تمسهما بأى تغيير . وقل إن يوجد بين كتابات ماكيافللى شىء لم يكن ليستطيع أن يكتبه أحد مهرة الوزراء فى بلاط كسرى الأول أو شى هوانج تى أو حتى سرجون الأول أو پيپى فرعون مصر . فعلى حين كان العالم يتقدم إلى الأمام كل شىء آخر ، فإنه كان يقف جامداً لا يتحرك من حيث الفكرات السياسية ، والفكرات المتعلقة بعلاقة الدولة بالدولة وعلاقة الملك بالمواطن ، بل الواقع أنه كان يرجع القهقرى ، ذلك أن الفكرة العظيمة القائلة بجعل الكنيسة الكاثوليكية مدينة الرب العلمانية ، قد دمرتها الكنيسة نفسها فى أذهان الناس ، واتخذ الحلم بالسيادة الإمبراطورية العالمية ممثلا فى شخص شارل الخامس ، شكل دمية ، ومر من خلال أوربا كلها ثم هوى إلى مثواه الأخير . وبدا على العالم من الناحية السياسية دلائل الرجوع إلى الملكية الشخصية المستبدة ذات الطراز الأشورى أو المقدونى

وليس معنى هذا أن الطاقات الفكرية الحديثة التيقظ فى شعوب أوربا الغربية ، كانت من الانهماك فى إعادة الشئون اللاهوتية إلى نصابها ، وفى إجراء البحوث العلمية ، وفى الارتياد الاستكشافى والتطور التجارى ، بحيث جعلت القوم لا يستطيعون أن يلقوا بالا إلى مدعيات الحكام ومسئولياتهم . إذ لم يقتصر عامة الرجال فقط على أن ينهلوا من الكتاب المقدس ، الذى أصبح فى متناول الأيدى ، أفكاراً عن نظم الحكم قد تكون كهنوتية (ثيوقراطية) أو جمهورية أو شيوعية الطابع بل ترتب على العودة إلى دراسة الآداب الإغريقية الكلاسيكية ، أن عادت روح أفلاطون الخلاقة الخصبة إلى التأثير فى العقل الغربى .

فأنتج السير توماس مور محاكاة غريبة « لجمهورية » أفلاطون هي كتابه « اليوتوپيا » ، الذي جعل الأساس فيه نوعاً من الشيوعية الاستبدادية . وبعد ذلك بقرن من الزمان أظهر راهب اسمه كامپانللا في ناپولى ، مثل ما أظهر مور من الجرأة بكتابه « مدينة الشمس » . ولكن لم يكن لمثل هاته الأبحاث أي تأثير مباشر في النظم السياسية الجارية : ولو قورن هذان الكتابان بضخامة العمل المرجو منهما ، لبدت فيهما غلبة النزعات الشاعرية والنظرية والهزال . (ومع هذا فقد قُدِّر « لليوتوپيا » أن تؤتى ثمارها فيما بعد في « قوانين الفقراء[1] » الإنجليزية) .

وظل التطور الفكرى والخلقى للعقل الغربى وهذا الاتجاه صوب الملكية الماكيافللية في أوربا ، يسيران ردحاً من الزمان جنباً إلى جنب في نفس العالم ، ولكنهما كانا يتسايران مستقلين تقريباً . وظل رجال السياسة يدبرون الخطط ويقومون بالمداورات (المناورات) ، كأنما ليس هناك شيء ينمو إلا قوة الملوك الحذرين المحظوظين .

ولم يحدث إلا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن هذين التيارين من النزعات — تيارا الفكرات العامة وحركة الدپلوماسية الملكية التقليدية الأنانية — تداخلا بعضهما في بعض واشتجر بينهما النزاع .

---

(١) قوانين الفقراء . القوانين الخاصة بإعالة المتشردين . (المترجم)

تم الكتاب السابع

ويليه الثامن

فى

التاريخ الحديث

« عصر الدول العظمى »

فهرس أبجدى للكتاب

(ا)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ق)

(ك)

(ل)

التعريف بالمترجم

هو عبد العزيز محمد توفيق عزيز جاويد .

ولد بالقاهرة سنة ١٩٠٧ : وحصل على ليسانس فى التربية والآداب من المعلمين العليا (١٩٢٩) ، واشتغل بالتدريس ، حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١) ، فمديراً للمركز الرئيسى للتدريب بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣) . وشغف منذ حداثته بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية . واهتم بنوع خاص بالترجمة ، فنقل الكتب التالية إلى العربية :

(أولا) فى التاريخ وفلسفة التاريخ :

١ — « معالم تاريخ الإنسانية » . . . . . هـ . ج . ولز — (لجنة التأليف)

٢ — « موجز تاريخ العالم » [الألف كتاب] هـ . ج . ولز — (مكتبة النهضة)

٣ — « أعلام وأفكار » للمؤرخ الهولندى هويزنجا (الهيئة المصرية العامة)

٤ — « التاريخ وكيف يفسرونه » ألبان ويدجرى (الهيئة المصرية العامة)

(ثانياً) فى تاريخ الحضارات :

٥ — « حضارة الإسلام » [الألف كتاب] لجوستاف فون جرونيباوم . (مكتبة مصر)

٦ — « الحضارة البيزنطية » [الألف كتاب] رنسيمان . (مكتبة النهضة)

٧ — « الحضارة الهلينستية » [الألف كتاب] تارن . . . (مكتبة الأنجلو)

٨ — « ميلاد العصور الوسطى » [الألف كتاب] موص . . (عالم الكتب)

٩ — « اضمحلال العصور الوسطى » . . . . هويزنجا (المجلس الأعلى)

(ثالثاً) فى علم النفس والتربية :

١٠ — « مدخل إلى علم النفس الحديث » [الألف كتاب] زانجويل (مكتبة الآداب)

١١ — « الحضين والطفل فى ثقافة اليوم » : [الألف كتاب] جزل (الكرنك)

١٢ — « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » : « « جزل (لجنة التأليف)

١٣ ـ « الشـباب » . . . . : [الألف كتاب] جزل (الأنجلو)

وهى [ثلاثية أرنولد جزل فى تربية الأطفال وسيكولوجيتهم

١٤ ـ « الطفولة وما بعدها » : تحت الطبع سوزان إيزاكس

١٥ ـ « سلوك الأطفال » : تحت الطبع الدكتورة فرنسيس إيلج .

(رابعاً) كتب فى السياسة والثقافة العامة والفنون :

١٦ ـ « آسيا والسيطرة الغربية » : السردار بانيكار الهندى (الهيئة المصرية العامة)

١٧ ـ « حول منع الحرب » . . . جون استراتشى (الهيئة المصرية العامة)

١٨ ـ « التطور فى الفنون » . . . . توماس مونرو (الهيئة المصرية العامة)

١٩ ـ « التربية عن طريق الفن » : [الألف كتاب] هربرت ريد (لجنة الأجهزة العلمية)

٢٠ ـ « أليس فى أرض العجائب » . . . . لويس كارول (لجنة الروّاد)

٢١ ـ « أحلى كنوز الأقدمين » . (قصص للأطفال تحت الطبع)

٢٢ ـ « مدينة الملاهى » (قصص عالمية) أرنولد بينيت

وذلك عدا ترجمة مقالات فى كتاب « تاريخ العالم لهمرتون » « مكتبة النهضة » ونشر أبحاث فى بعض المجلات الأدبية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٥٠٦

I.S.B.N 977-01-3993-9

هذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروى قصتها الأديب الإنجليزى الشهير ج.هـ ويلز. والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصدر فى أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التى تفسر تطوره ثم ظهور الإنسان والأجناس القديمة المندثرة. ويعرض لفكر الإنسان البدائى ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات فى مصر والعراق والهند. أما الجزء الثانى فيعرض للحضارة الإغريقية والهلينستية والرومانية. ولمحة عن تاريخ العبرانيين. أما الجزء الثالث فيعنى بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.

مطابع الهيئة المصرية العامة

٦٥٠ قرشا